الإسلام
في مواجهة التحديات

د. محمد عمارة

الإسلام

في مواجهة التحديات

د. محمد عمارة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: الإسلام في مواجهة التحديات.
المؤلف: د. محمد عمارة.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الأولى - يناير 2007م.
رقم الإيداع: 2006 / 22721
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-3785-2

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

عندما صدر كتابنا عن «الإسلام والتحديات المعاصرة»: رأى فيه الكثيرون «ديوانًا لخلاصات الأفكار» الجامعة للرؤية الإسلامية إزاء العديد من التحديات الشرسة التى تواجه الإسلام وأمته وعالمه فى هذه السنوات.. سواء أكانت هذه التحديات:

١- خارجية.. غربية.. وذلك من مثل:

- الغزو الفكرى والقيمى الذى يجتاح مقومات الهوية الإسلامية عاملاً على نسخها ومسخها وتشويهها.
- والغزو العسكرى الذى يتجلى فى عشرات القواعد العسكرية - لأمريكا وحلف الأطلنطى - ومئات الألوف من جنود الجيوش الغربية الجرارة التى غزت وتغزو العديد من ديار الإسلام والأساطيل الحربية التى تنتشر فى بحارنا ومحيطاتنا؛ لتنزع السيادة والاستقلال عن أوطان عالم الإسلام..
- والنهب الاقتصادى لمئات من الشركات متعددة الجنسيات ومتعدية القارات التى تستنزف ثروات المسلمين، وتكرس الفقر والبؤس والتبعية فى ديار الإسلام.. إلى آخر هذه التحديات الخارجية، إن كان لها آخر!

٢- أم داخلية التى تندرج تحت آفة «**التخلف الموروث**» عن عصور التراجع الحضارى فى تاريخنا الإسلامى، وذلك من مثل:

- القمع والاستبداد.
- وغيبة الشورى والحرية.
- والضيق بالآخر، النابع من ضيق الأفق، وآفة التعميم والإطلاق.
- و«الحرفية - الظاهرية» فى التعامل مع النصوص..

■ والهجرة من «الحاضر» إلى «التاريخ»، دون وعى بسنن هذا التاريخ.

■ والانقسام الفكرى الحاد بين علمانيين، يمثلون «خبراء لا قلوب لهم» وبين إسلاميين يمثلون «فقهاء لا عقول لهم!!» يحاصرون جميعًا تيار الإحياء والاجتهاد والتجديد.

■ والأمية الثقافية والأبجدية التى تشل أغلب طاقات الأمة.

■ والتشرذم القطرى، الذى يقطع أوصال الإسلام.. فى عصر تتجه فيه القارات والحضارات إلى التضامن والتكامل والاتحاد.

■ وتحويل الكثير من النظم والحكومات بأسها إلى المنازعات الداخلية - مع شعوبها.. ومع جيرانها - بدلاً من توجيهه إلى الأعداء الحقيقيين للإسلام والمسلمين.. حتى لكأن هذه النظم والحكومات لم تسمع ولم تقرأ الوصف الإلهى لأمة محمد ﷺ: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩].

★ ★ ★

وإذا كان واقعنا الحديث والمعاصر يشهد على ترابط التحديات الخارجية بالتحديات الداخلية، بل وحرص الغرب الاستعمارى - السياسى والدينى - والذى هو مصدر التحديات الخارجية - على «حراسة أمراضنا الداخلية»، كى لا يصح جسد الأمة وعقلها، فتنتفض محطمة أغلالها، ومنتصرة على سائر هذه التحديات، حتى لكأن هذا الغرب الاستعمارى يكرر مع حاضرنا صنيعه التاريخى مع الدولة العثمانية [٦٦٩ - ١٣٤٢ هـ = ١٢٩٩ - ١٩٢٢م]، يوم حرس أمراضها حتى جاءت ساعة الإسقاط واقتسام التركة والأسلاب!

★ ★ ★

وإذا كانت الصحوة الإسلامية التى تعاظم مدها فى طول عالم الإسلام وعرضه - وخاصة فى العقود الأربعة الأخيرة - قد مثلت تحديًا أعظم فى مواجهة هذه التحديات الغربية.. فلقد أصبحت المواجهة بينها وبين الهيمنة الغربية تحديًا جديدًا أضيف إلى ما سبقت الإشارة إليه من تحديات.. الأمر الذى جعل عالمنا الإسلامى أشبه ما يكون بساحة حرب عالمية ضروس بين الغرب وأمة الإسلام..

ولهذه الحقائق جميعًا، تصبح «الكتابة الواعية» عن هذه التحديات.. وتقديم الرؤية الإسلامية لجذورها.. وتسليط الأضواء الإسلامية على معالم المواجهة لها.. ومناهج النظر فى فقه واقعنا واستشراف مستقبلنا – يصبح ذلك أحد أهم «الفرائض الفكرية» التى يتوجب على العقل المسلم أن يؤديها للإنسان المسلم فى هذه اللحظات.. ولذلك – وأداءً لبعض هذه الفريضة – يصدر هذا الكتاب [الإسلام فى مواجهة التحديات] لمواصلة السير على درب إيقاظ العقل المسلم على ما يواجهه من التحديات.. والله نرجو أن يتقبله، وينفع به..

إنه – سبحانه – خير مسئول.. وأكرم مجيب.

القاهرة في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٤٢٧ هـ

١٩ يولية سنة ٢٠٠٦م

د. محمد عمارة

١ الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين ودور الكنائس المحلية فى التنصير

▪ لقد عاشت الكنائس النصرانية فى الشرق الإسلامى قرونًا طويلة وهى تدرك أن الإسلام هو الذى أنقذها وأنقذ نصرانيتها من الإبادة الرومانية التى امتدت منذ ظهور المسيحية وحتى الفتوحات الإسلامية؛ ففى تلك القرون الستة عاشت النصرانية الشرقية - تحت نير الاستعمار الرومانى - ديانة سرية مضطهدة ومطاردة ومتهمة بالهرطقة، حتى لقد اغتصب الرومان كنائسها وأديرتها بعد تدينهم بالنصرانية، منذ الانشقاق الذى حدث فى «مجمع خلقدونية» سنة ٤٥١م، وتكون «المذهب الملكانى» الرومانى، المعادى للنصرانية الشرقية.. فتواصل الاضطهاد الرومانى للنصرانية الشرقية بعد اعتناق روما للنصرانية، كما كان الحال فى عصر وثنية الرومان!

ولقد استمر هذا الاضطهاد الذى هربت منه قيادات النصرانية الشرقية إلى الصحارى والجبال والمغارات، والذى تؤرخ الكنائس الشرقية حتى الآن بمجازره ضد أنصارها، فتسميه «عصر الشهداء!»

عاشت النصرانية الشرقية هذا التاريخ حتى جاء الفتح الإسلامى فحرر أوطانها من القهر السياسى والحضارى والثقافى والاقتصادى.. وحرر ضمير رعاياها من القهر الدينى.

وظلت هذه النصرانية الشرقية وكنائسها واعية بذكريات هذا التاريخ الدموى.. وعارفة ومعلنة عن فضل الإسلام وفتوحاته التحريرية فى إنقاذها من الهلاك والانقراض.

▪ فشاهد العيان على الفتح الإسلامى لمصر، الأسقف «يوحنا النقيوسى» هو القائل: «إن الله الذى يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين - «العرب المسلمين» - ثم نهض

المسلمون وحازوا كل مصر.. وكان هرقل (٦١٠ – ٦٤١م) حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مصر – وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم – مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص [٥٠ ق.هـ – ٤٣هـ = ٥٧٤ – ٦٦٤م] يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام»[١].

■ كما تحدث هذا الأسقف عن الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص للبطريرك «بنيامين» (٣٩ هـ – ٦٥٩م) – لبطريرك المصريين – الذى كان هاربًا من مطاردة الرومان ثلاثة عشر عامًا ، وعن عودته إلى رعيته واستقبال عمرو بن العاص له، وزيارة البطريرك للكنائس التى حررها له الإسلام، والسعادة التى عبر عنها وأعلنها بما صنع الفتح الإسلامى للنصرانية المصرية.. فقال الأسقف يوحنا النقيوسى:

«ودخل الأنبا «بنيامين» بطريرك المصريين، مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم ثلاثة عشر عامًا.. وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفى، وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين.. وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر.. وخطب الأنبا «بنيامين» – فى دير «مقاريوس» – فقال: لقد وجدتُ فى الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التى قام بتمثيلها الظلمة المارقون..»[٢].

■ وبعد الأسقف «يوحنا النقيوسى» بعدة قرون يشهد الأسقف «ميخائيل السريانى» على ذات الحقيقة فيقول عن تحرير الإسلام للنصرانية المصرية والشرقية، وعن سماحة الإسلام مع نصارى مصر:

«لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا المونوفيزتية – «القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح» – بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه.

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل من الجنوب لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»[٣].

(١) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى: رؤية قبطية للفتح الإسلامى] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ودراسة: د.عمر صابر عبدالجليل. طبعة القاهرة – دار عين سنة ٢٠٠٠م.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٣) د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢ . طبعة القاهرة. دار عين سنة ٢٠٠١م.

■ ولما حرر عمرو بن العاص كنائس مصر وأديرتها من الاغتصاب الرومانى، وردها إلى أهلها «خرج للقائه من أديرة وادى النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه، وكتب لهم كتابًا «بالأمان» هو عندهم»[1] - فى أديرتهم.

■ وحتى القرن العشرين، ظل المؤرخون النصارى الوطنيون يشهدون على هذه الحقيقة - حقيقة إنقاذ الإسلام للنصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية - فكتب صاحب كتاب «تاريخ الأمة القبطية» - يعقوب نخلة روفيله - (١٨٤٧ - ١٩٠٥م) يقول:

«ولما ثبت تقدم العرب فى مصر شرع عمرو بن العاص فى تطمين خواطر الأهلين واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم.

وأول شىء فعله من هذا القبيل: استدعاء «بنيامين» البطريرك، الذى اختفى من أيام هرقل ملك الروم، فكتب أمانا أرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور، ولا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته، وعزل البطريرك الذى كان أقامه هرقل، ورد «بنيامين» إلى مركزه الأصلى معززًا مكرمًا.. وكان «بنيامين» موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة، حتى سماه بعضهم (بالحكيم).. وقيل إن عمرًا لما تحقق ذلك منه، قربه إليه، وصار يدعوه فى بعض الأوقات ويستشيره فى الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منّة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو.

واستعان عمرو فى تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالى، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلاً منها حاكم قبطى ينظر فى قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوى نزاهة واستقامة، وعين نوابا من القبط ومنحهم حق التدخل فى القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية،

(١) المرجع السابق: ص ١٩٤.

وكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى، وهى ميزة كانوا قد جردوا منها فى أيام الدولة الرومانية.

وضرب عمرو بن العاص الخراج على البلاد بطريقة عادلة، وجعله على أقساط، فى آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد.

وبالجملة، فإن القبط نالوا فى أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان[(١)].

■ نعم.. ظلت الكنائس المحلية فى الشرق الإسلامى طوال قرون عيشها المشترك مع الإسلام واعية بهذه الحقائق، وذاكرة لها، ومتذكرة لآثارها؛ ولذلك، انخرطت مع رعيتها - طوال هذه القرون - فاندمجت فى الأمة الواحدة، وأسهمت فى بناء الحضارة الإسلامية الواحدة.. وانتمت إلى مكونات الهوية الواحدة التى جمعت بين الجميع - هوية: اللغة .. والتاريخ .. ومنظومة القيم والأخلاق - مع التنوع والتمايز فى عقائد الدين.

■ وفى ضوء هذه الحقائق التاريخية التى شهد عليها وبها الأساقفة والمؤرخون، والتى أثمرت قدرًا من الاندماج القومى والحضارى والثقافى، ونماذج من العيش والتعايش المشترك، صار مضربًا للأمثال ونموذجًا للاحتذاء - فى ضوء ذلك يأتى السؤال - الذى يحيِّر البعض - عن السر الذى جعل قطاعات عديدة.. ومتنفذة.. وأحيانًا قائدة - فى هذه الكنائس - تتحول عن حذرها التاريخى من العمل على تنصير المسلمين لتنخرط فى عملية التنصير.. وبالاشتراك مع من؟! مع الغربيين؛ أحفاد الذين اضطهدوا الأسلاف! وضد من؟! ضد المسلمين، أحفاد الأسلاف الذين حرروا أولئك الأسلاف؟!

★ ★ ★

لقد بدأ التنصير - الذى يسمونه تبشيرًا - كجزء من الغزوة الاستعمارية الغربية للشرق، مارسته مذاهب النصرانية الغربية - البروتستانت والكاثوليك - .. وكانت سهام هذا التنصير - فى مراحله الأولى - موجهة ضد أبناء الكنائس الشرقية؛ لأنهم الأقرب فى الاستجابة لمذاهب نصرانية بينها وبينهم وجوه شبه كثيرة.. ولما كانت عليه كنائسهم الشرقية من جمود وتخلف وجهل وتقليد.. ولما كان فى موالاة مذاهب المستعمرين من امتيازات.

(١) يعقوب نخلة روفيلة: «تاريخ الأمة القبطية» ص٥٤ - ٥٧ - تقديم: د.جودت جبرة. الطبعة الثانية - القاهرة. مؤسسة مار مرقس لدراسة التاريخ - سنة ٢٠٠٠م.

وبعد أن اكتسب هذا التنصير الغربي لمذاهبه الغربية مواطئ أقدام بين النصرانية الشرقية، بدأ يتوجه نحو تنصير المسلمين، لكنه - رغم طول الزمن.. وكثرة الإنفاق.. ومشقة الجهود - لم يحصد إلا خيبة الأمل في ميادين التنصير للمسلمين!!

- ولهذه الحقيقة، تداعت الكنائس الغربية - والأمريكية المشيخية منها على وجه الخصوص - لدراسة تاريخ التنصير.. وتجاربه.. وأساليبه.. والدروس المستفادة من هذا الإخفاق، ولدراسة الأساليب الجديدة لتنصير المسلمين، فكان المؤتمر التاريخي الذي عقد في منتصف مايو سنة ١٩٧٨م في «كولورادو» - بولاية «كاليفورنيا» - بالولايات المتحدة الأمريكية - والذي ناقش المؤتمرون فيه أربعين بحثًا، ثم نشرت وثائقه - إلا ما له حساسية شديدة - باللغة الإنجليزية سنة ١٩٧٨م، ثم ترجمت إلى العربية، تحت عنوان: «التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي» فيما يقرب من ألف صفحة.

ففي وثائق هذا المؤتمر ومداولاته التي تمثل «بروتوكولات قساوسة التنصير» - نجد الإجابة عن هذا السؤال:

- لماذا خرجت الكنائس الشرقية - أو بعضها على الأقل - عن هذا «الحذر التاريخي» فانخرطت في ميدان تنصير المسلمين بعد أن كانت تبتعد عن ذلك طوال تاريخ تعايشها وعيشها المشترك مع الإسلام والمسلمين؟!

★ ★ ★

إن هذا التحول التاريخي في الموقف الكنسي الشرقي من هذه القضية، هو - بإيجاز شديد - جزء من النجاح الغربي في توظيف الكنائس الشرقية بعملية تنصير المسلمين التي هي جزء من الحملة الغربية ضد الصحوة الإسلامية المعاصرة والبعث الإسلامي الحديث.

لقد جاء حين من الدهر - في ظل الاستعمار الغربي الحديث للشرق الإسلامي - ظن فيه الغرب الاستعماري، وظنت فيه الكنائس الشرقية أن «العلمانية» التي جاءت إلى بلادنا في ركاب المستعمرين الغربيين، قد أزاحت الإسلام عن مكانته في السياسة والدولة والاجتماع والقانون.. وأنه لم يبق من هذا الإسلام إلا العقائد والشعائر والعبادات.. وأن التصنيع الحديث والعلوم الطبيعية وتقنياتها ونظرياتها قد صنعت بالإسلام ما صنعته بالنصرانية الغربية، عندما همشتها، وعزلتها عن التأثير في مختلف ميادين الحياة.

لكن.. وفجأة.. فوجئ الغرب – السياسي والديني – بأن الإسلام لم يتزحزح عن أي من قواعده الراسخة في ميادين الدولة والسياسة والاجتماع والقانون.. وأنه لم تتم أي علمنة حقيقية في عالم الإسلام.. ولقد نشرت مجلة «شئون دولية» – الصادرة في «كمبردج» بإنجلترا – عدد يناير سنة ١٩٩١م – دراسة عن موقف الإسلام هذا: فقالت:

«إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوِّض الإيمان الديني – مقولة العلمنة – صالحة على العموم. فالتأثير السياسي والسيكولوجي للدين قد تناقص عمليًا في كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة.. لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدًا من هذا! فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية، وهي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت عليه من ١٠٠ سنة مضت، إن الإسلام مقاوم للعلمنة في ظل كل النظم السياسية – الراديكالية، والتقليدية – والتي تقف بين بين – وإن وجود تقاليد محلية للإسلام قد جعل عملية الإصلاح الذاتي، استجابة لدواعي الحداثة، تتم باسم الإيمان المحلي.. الأمر الذي مكن العالم الإسلامي من الإفلات من المعضلة التي أرقت المجتمعات الأخرى.. معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب، ومحاكاته – الباعثة على الإذلال! – وهذا هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة».

- ولهذا الاستعصاء الإسلامي على العلمنة والتهميش والتواري.. قرر الغرب السياسي اتخاذ الإسلام عدوًّا، وإعلان ذلك صراحة في ذات اللحظات التي تهاوى فيها الخطر الشيوعي داخل الحضارة الغربية.

وعن هذه الحقيقة تتحدث مجلة: «شئون دولية» فتقول:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي.. وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول.. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللا أدرية وفتور الهمة واللامبالاة، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًا، فضلاً عن هلاكها المعنوي...».

إذن ها هو الغرب السياسي قد أعلن الحرب على الإسلام.. واتخذه عدوًا أحلّه محل الخطر الشيوعي – الذي انهار – وذلك لاستعصاء الإسلام على العلمنة والتهميش، وبقائه منهاجا شاملاً للدين والدولة، والدنيا والآخرة، والسياسة والقانون والعمران، وفشل المحاولات الغربية لحصره في المحاريب والشعائر والطقوس والعبادات، وترك دنيا المسلمين وثروات أوطانهم للقيصر الغربي!

لقد اتخذوه عدوا، وأعلنوا عليه الحرب لصموده ممثلا ومزكيا لثقافة المقاومة وروح الجهاد لتحرير أمة الإسلام وعالمه وحضارته من الهيمنة الغربية، وفق نموذج ذاتي للتجدد والتجديد، متميز عن النموذج الغربي في الحداثة والتقدم والنهوض.

★ ★ ★

■ وعلى جبهة «الغرب الديني» كان التوازي مع «الغرب السياسي» في الموقف من الإسلام.. وكان السعي من قبل النصرانية الغربية لمحاصرة الصحوة الإسلامية ومعاجلتها.. ولتنصير المسلمين، بالاعتماد المتبادل – هذه المرة – مع الكنائس المحلية الشرقية!

لقد تحدثت «بروتوكولات قساوسة التنصير» – في مؤتمر «كولورادو» – عن «أن الصحوة الإسلامية قد بلغت شأوا لم تبلغه لعدة قرون مضت» وعن «تحرك جماهير هذه الصحوة لفرض تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر.. وتطبيق الدستور الإسلامي في باكستان»[1].

كما تحدثت هذه «البرتوكولات» عن «أن الإسلام – منذ ظهوره في القرن السابع – قد مثل تحديًا لكنيسة يسوع المسيح»[2]. وعن أن هذا «الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية. وأن النظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا وسياسيا. إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطا يفوق قدرة البشر! ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، تؤسس حول العالم بواسطة النصارى للتركيز على الإسلام، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام، وللتعامل النصراني مع الإسلام، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام في صدق ودهاء»[3]!!

(١) «التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي» ص ٨. طبعة مالطا سنة ١٩٩١م
(٢) المصدر السابق: ص ٣٢٩.
(٣) المصدر السابق. ص ١٢٣

■ كما تحدثت هذه «البرتوكولات» عن معالم هذا الدهاء فى اختراق الإسلام.. والتى تتمثل – ضمن ما تتمثل – فى التنصير من خلال الثقافة الإسلامية.. والمصطلحات الإسلامية.. واستغلال الموروث الإسلامي – عن طريق التحريف والتأويل – فقالت هذه «البرتوكولات»:

«إنه من الممكن فى بعض الأحوال الذهاب أبعد فيما يتعلق باستعمال المصطلحات القرآنية، مع إعطاء اهتمام خاص للثقافة الإسلامية، وتكييف اللغة لحروف خاصة، واستعمال قواعد الإملاء القرآنية للأسماء الإنجيلية المعروفة، واستعمال الألقاب التبجيلية والتعبيرات القرآنية» فى ترجمة الإنجيل!![1] وذلك وصولاً «إلى المسلمين من أجل المسيح على أساس تأويلات قرآنية!!»[2]. «وبهذه الطريقة تصبح عملية التنصير مثل الخميرة التي تعمل داخل الكيان كله لتمكن الروح النصرانية وتعاليمها من إحداث التغيير الطبيعي»![3]

■ ولم يقف هذا الانزعاج من صمود الإسلام أمام العلمنة والعلمانية. والفزع من صحوته.. وتمدده.. لم يقف ذلك عند البروتستانتية الغربية – وخاصة الأمريكية – بل شاركتها فى ذلك الانزعاج والفزع الكاثوليكية أيضا، فتحدث كبار كرادلة الفاتيكان عن الصحوة الإسلامية «التى تفتح أوروبا فتحًا إسلاميًا جديدًا»!! وعن «التحدى الإسلامى» وعن تكاثر المسلمين أمام انقراض الأوربيين! فقال الكاردينال «بول بوبار» – مساعد بابا الفاتيكان. ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة:

«إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوربا وللغرب عمومًا. وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيرًا ضليعًا كي يلاحظ تفاوتا بين معدلات النمو السكانى فى أنحاء معينة من العالم، ففى البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكانى بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس فى البلدان الإسلامية النامية، وفى مهد المسيح، يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجًا بشكل ما؟!

إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوربا يميلون إلى تهميش

(١) المصدر السابق. ص ٥٥١
(٢) المصدر السابق. ص ٨١٥
(٣) المصدر السابق: ص ٥٩٥، ٥٩٦

الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذي يفرضه عليهم دينهم، وفي الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين في شهر رمضان»[1]!!

كما يتحدث المونسنيور «جوزيبي برناردينى» - بحضرة بابا الفاتيكان - سنة ١٩٩٩م - عن هذا «الفتح الإسلامي الجديد» لأوربا!! فيقول:

«إن العالم الإسلامي سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية، بما في ذلك روما عاصمة المسيحية. فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديدًا»؟![2]

إنه الانزعاج والفزع من الإسلام.. وصموده أمام العلمنة.. واستعصاؤه عليها.. وصحوته.. وتمدده - الذى سموه «فتحًا جديدًا لأوربا والغرب»!.

وإنها المعاجلة الغربية لهذه الصحوة الإسلامية، بإعلان الحرب الشاملة على الإسلام - دينيًا وسياسيًا، وإعلاميًا - لمعاجلة هذا الخطر الذى سموه فى البداية «الخطر الأخضر» ثم ما لبثوا أن أطلقوا عليه أسماء أخرى، منها «الأصولية»، ومنها «الإرهاب»، ومنها «الفاشية»!!

★ ★ ★

■ وفى إطار هذا المخطط الغربى - على الجبهة الدينية - لتنصير المسلمين - كل المسلمين! - جاء الحديث عن المتغير الجوهرى - والجديد - الذى رسمته النصرانية الغربية للكنائس المحلية الشرقية، فى عملية تنصير المسلمين: مخطط التنصير للمسلمين بالاعتماد المتبادل بين الكنائس الغربية والكنائس الشرقية؛ أى إخراج الكنائس الشرقية من «وطنيتها» ومن «انتمائها الشرقى».. وتوظيفها - من قبل النصرانية الغربية - فى عملية تنصير المسلمين!

وعن هذا «المتغير - الجوهرى - والجديد» قالت: «بروتوكولات قساوسة التنصير» الأمريكان فى مؤتمر «كولورادو»:

«إنه على مديرى إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المتنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث

(١) من حديث إلى صحيفة «الفيجارو» - الفرنسية - بالنقل عن صحيفة «الشرق الأوسط» لندن، فى ١٩٩٩/١٠/١م.

(٢) صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن فى ١٩٩٩/١٠/١٣م.

وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين، لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة فى العالم الإسلامى.. إن نصارى البروتستانت - فى الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا - منهمكون بصورة عميقة فى تنصير المسلمين، ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.. وعلى المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معها بروح تامة من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين؛ إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين داخل مجتمعاتهم.. ويُفضل النصارى العرب فى عملية التنصير.. إن تنصير هذه البلاد سوف يتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية..»[1]!

■ هكذا تم التخطيط النصرانى الغربى لغواية الكنائس الشرقية، وتوظيفها فى المخطط الغربى لتنصير المسلمين.. كما سبق وخطط الغرب السياسى لغواية العلمانيين الشرقيين وتوظيفهم فى عملية تغريب الأمة الإسلامية بهدف كسر شوكة الإسلام، وتحقيق التبعية الحضارية - فى عالم الإسلام - للمركز الحضارى الغربى!

وفى إطار هذا المخطط.. المكتوب والمعلن.. يجب أن نرى «ظاهرة القُمُّص زكريا بطرس».. قُمُّص الكنيسة الأرثوذكسية المصرية، وجهوده الساعية إلى تنصير المسلمين، من خلال حلقاته التلفازية، وجهود غيره من المنصرين..

وأن نسأل أنفسنا:

- ماذا نحن فاعلون ؟!

(1) «التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى» ص ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥.

٢ لماذا دستور الأسرة المسلمة؟

قبل الغزو الفكرى الذى جاء إلى الشرق الإسلامى فى ركاب الغزوة الغربية الحديثة التى قادها «بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) على مصر والشرق (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) - لم تكن هناك حاجة إلى وضع المواثيق التى تحدد المفاهيم والفلسفات لسلوك المسلمين فى مختلف ميادين الحياة - الفردية، والأسرية، والاجتماعية والسياسية - ذلك أن المرجعية الإسلامية كانت هى الوحيدة الحاكمة، التى تحدد كل المفاهيم والفلسفات فى سائر هذه الميادين.

ولقد كانت المشكلات التى تعانى منها الحياة الإسلامية مقصورة على «التطبيق» لهذه المفاهيم الإسلامية الواحدة، والتى تحكم حتى الاختلافات الفرعية التى يثمرها الاجتهاد فى إطار وحدة هذه المرجعية ومفاهيمها وفلسفاتها، ومدى اقتراب «الواقع والتطبيق» من «المثل» التى حددها الإسلام.

لكن الغزو الفكرى الغربى قد أحدث متغيرًا أساسيًا، وذلك عندما زرع فى المجتمعات الشرقية الإسلامية «مرجعية حضارية» أخرى - وضعية.. علمانية.. لا دينية - غدت منافسا شرسا لـ«مرجعية الإسلام» الأمر الذى استدعى واستوجب تمييز المفاهيم الإسلامية عن نظيرتها الوضعية العلمانية اللادينية فى مختلف ميادين الحياة.

- فبدأ الحديث عن ضرورة وأهمية تقنين الفقه الإسلامى كبديل متميز عن القانون الوضعى العلمانى.
- وبدأت البلورة للرؤية الإيمانية الإسلامية للكون والحياة - لبداية الخلق، والمسيرة، والمصير، ومكانة الإنسان فى الكون - كبديل متميز عن الرؤية الوضعية والمادية للكون والحياة.

■ وبدأت البلورة لمذهب الإسلام في الثروات والأموال والعدل الاجتماعي - مذهب الاستخلاف - كبديل «لليبرالية الرأسمالية»، و«الشمولية الشيوعية» في الاقتصاد والاجتماع.

★ ★ ★

ولأن الغزو الفكري الغربي قد تسلل إلى ميادين الحياة الإسلامية تدريجياً، وفي نعومة، وأحياناً على استحياء، بل وبواسطة الغش والتدليس في خلط المفاهيم ومضامين المصطلحات.. وذلك كي لا يستفز الحس الإسلامي، فتنتفض الأمة لمقاومته.. ولأن الدوائر التي تخطط لهذا الغزو كانت على علم بمكانة الأسرة في منظومة القيم الإسلامية - مكانة «الحرم»، و«العرض»، و«الشرف» - فلقد جاء الغزو لميدان الأسرة متأخراً، وفي مرحلة عموم البلوى لكل ميادين الحياة. جاء في الوقت الذي أصبحت فيه الأسرة المسلمة «محاصرة» بهذا الغزو الفكري من جميع الجهات والاتجاهات!

لقد بدأ تسلل القانون الوضعي أولاً إلى ميادين المنازعات التجارية - في الموانئ - عندما يكون أحد طرفي هذه المنازعات أجنبياً، في سنة ١٨٥٥م، في عهد الخديوي سعيد [١٢٣٧ - ١٢٧٩هـ = ١٨٢٢ - ١٨٦٣م]، ثم زاد هذا التسلل بإنشاء محكمة «قومسيون مصر» سنة ١٨٦١م التي تقضي - بالقانون الوضعي - بين الأجانب والمصريين حتى خارج الموانئ التجارية.

ثم حدث تعميم هذا التسلل إلى مطلق ميادين المنازعات - تجارية وغير تجارية - التي يكون أحد طرفيها أجنبياً، وذلك عندما أنشئت «المحاكم المختلطة» - في عهد الخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ = ١٨٣٠- ١٨٩٥م]، ورئيس وزرائه الأرمني نوبار باشا «١٨٢٥ - ١٨٩٩م» وذلك في سنة ١٨٧٥م - وهي المحاكم التي يقضي فيها القضاة الأجانب بالقانون الفرنسي، واللغة الفرنسية.

فلما وقع الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢م، عممت سلطات الاحتلال هذا القانون الأجنبي في المحاكم الأهلية المصرية - مع بعض التعديلات - فلم يبق خارج ولاية القانون الوضعي وحاكميته سوى الأسرة وأحوالها الشخصية

ومع تصاعد موجات التغريب، وزيادة هيمنة الغرب على المؤسسات الدولية، واجتياح العولمة الغربية للخصوصيات الثقافية والقيمية غير الغربية - في

العقدين الأخيرين من القرن العشرين - بدأ الاقتحام الغربى لحرمات الأسرة المسلمة، والانتهاك لمقدسات منظومة قيمها التى حددها الإسلام وصاغتها المرجعية الإسلامية. الأمر الذى فرض ويفرض على مؤسسات العلم والفكر والعمل الإسلامى صياغة البديل الإسلامى فى هذا الميدان.

★ ★ ★

لقد شرع الغزو الفكرى الغربى، منذ العقدين الأخيرين للقرن العشرين، فى صياغة منظومة قيمه فى «الحداثة وما بعد الحداثة».. صياغتها فى مواثيق ومعاهدات، أخذ فى عولمتها تحت ستار الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها. وذلك لإحلال هذه المنظومة القيمية، المصادمة لكل القيم الدينية، محل منظومة القيم الإسلامية، وفى ميدان الأسرة على وجه التحديد.

وإذا كانت قوى الهيمنة الغربية المعاصرة، ترفع - فى ميدان السياسة - شعار «الفوضى الخلاقة»، التى تتغيا من ورائها تفكيك المجتمعات الإسلامية وبعثرة مكونات وحدتها، وفق معايير عرقية ولغوية ومذهبية وطائفية، ليتأبد نهب ثروات هذه المجتمعات، بمنع التماسك والتضامن والوحدة الإسلامية من الجهاد لتحرير الأوطان والثروات. فلقد غدت الهجمة الغربية على حصون الأسرة المسلمة بمثابة «المعركة الفاصلة» فى هذه الغزوة وهذا الاحتواء الذى يتغيا إحداث الفوضى فى عالم الأسرة، لتفكيكها والقضاء على مقوماتها، ومن ثم تفكيك الأمة المكونة من الأسر والعائلات.

★ ★ ★

وإذا نحن أخذنا نموذجًا واحدًا من «الوثائق» التى يصوغها الغرب، ويضمنها منظومة قيمه فى الحداثة وما بعد الحداثة، ثم يسعى لعولمتها، وفرضها على الحضارات غير الغربية تحت ستار الأمم المتحدة وأعلامها لنرصد من بين فصولها وموادها عددًا من معالم الهدم والتدمير لمنظومة الأسرة المسلمة فى القيم والأخلاق، فإننا واجدون فى وثيقة «مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية» - الذى عقد بالقاهرة من ٥ حتى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٩٤م - نموذجًا «لإعلان الحرب» على الأسرة المسلمة ومنظومة القيم والأخلاق التى حددها لها الإسلام.

■ فإذا كان الإسلام – انطلاقًا من الفطرة الإنسانية السوية – قد بنى الأسرة على العلاقات الشرعية والمشروعة بين ذكر وأنثى، لتتحقق – بهذا التمايز والتكامل – سعادة الإنسان، وليتحقق – بالتوالد والتناسل – بقاء النوع الإنساني، ولتكون هذه الأسرة هى اللبنة الأولى فى تأسيس بناء الأمة.. فإن وثيقة مؤتمر السكان – وبصريح العبارة – تعلن الحرب على هذا المعنى الإنسانى للأسرة، وتدعو إلى «تغيير الهياكل الأسرية»، معتبرة ذلك التغيير هو «المجال الحيوى لعمل الحكومات والمنظمات الحكومية الدولية، والمنظمات غير الحكومية المعنية، ووكالات التمويل، والمؤسسات البحثية، فكل هذه المؤسسات مدعوة بإلحاح «لإعطاء الأولوية للبحوث الحيوية المتعلقة بتغيير هياكل الأسرة»[١].. وذلك حتى لا تكون – فقط – أسرة شرعية مؤسسة على علاقة مشروعة بين ذكر وأنثى.. وإنما لتضم كل ألوان العلاقات – بين رجل ورجل.. أو بين امرأة وامرأة – مدخلة – بذلك الانقلاب – كل ألوان العلاقات الشاذة والمحرمة شرعًا فى «إطار الأسرة» التى يعترف بها القانون ويحميها ويرتب لها الحقوق!

■ وإذا كان الإسلام قد ضبط المتعة الجنسية، لتكون سبيلاً شرعيا للعفة والإحصان والإنجاب، فجعل «الجنس مشروعًا» فإن وثيقة مؤتمر السكان تطلب – فقط – أن يكون «الجنس مأمونا»: أى لا يؤدى إلى الأمراض، وتطلقه وتحرره من ضوابط الشرع، ليكون حقا من حقوق الجسد – كالطعام والشراب – مباحًا «لجميع الأفراد» – وليس فقط «الأزواج».. ومن كل الأعمار، بما فى ذلك المراهقون والمراهقات!!

«فالصحة التناسلية والصحة الجنسية» – التى جاءت مصطلحاتها الأكثر شيوعًا وتكرارًا فى هذه الوثيقة – هى «حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة التى تجعل الأفراد – وليس فقط الأزواج – قادرين على التمتع بحياة جنسية مُرضية ومأمونة[٢]. والمتعة الجنسية والصحة التناسلية والجنسية هى، كالاحتياجات التغذوية، حق من حقوق البنات والفتيات المراهقات»!![٣]

(١) «مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية» – الفصل الثانى عشر – الفقرة ٢٤٠ – الترجمة العربية الرسمية – طبعة ١٩٩٤م.

(٢) المصدر السابق، الفصل السابع – الفقرات ١ – ٥

(٣) المصدر السابق، الفصل الرابع – الفقرة ٢.

■ وإذا كان الإسلام قد أطلق على عقد الزواج - الذى تتأسس به الأسرة - وصف «الميثاق الغليظ» المؤسس على قيم «المودة.. والرحمة.. والسكن.. والسكينة» فجاء في القرآن الكريم ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. فإن وثيقة مؤتمر السكان تؤسس «العلاقة» - التى تسميها «أسرة» - على مجرد الالتقاء الاختيارى المؤسس على «الإباحة والإباحية».. ولذلك فهى تنزع عن هذه العلاقة الصفة الشرعية حتى لقد خلت كل فصول هذه الوثيقة وبنودها خلوًا تامًا من كلمتى «الله».. و«الدين»!

■ وإذا كان الإسلام يحض على الزواج المبكر لإحصان البالغين من الشبان والشابات وإعفافهم.. فإن وثيقة مؤتمر السكان تحرّم وتجرّم الزواج المبكر، وتستعيض عنه ببدائل: منها الزنا المبكر! فتدعو «الحكومات إلى أن تزيد السن الأدنى عند الزواج حيثما اقتضى الأمر، ولا سيما بإتاحة بدائل تغنى عن الزواج المبكر»[1].

أى أنها تدعو إلى «تقييد الحلال».. وإلى «إطلاق الحرام» الذى جعلته حقًا من حقوق الجسد، بالنسبة لجميع الناشطين جنسيًا، من كل الأعمار.. وبين جميع الأفراد.. وعلى اختلاف ألوان هذه العلاقات!

■ وفى الوقت الذى يقيم فيه الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة - وخاصة فى إطار الأسرة - على قواعد المودة والرحمة والسكن والسكينة.. ويجعل «النساء شقائق الرجال» - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف - ويقرر للنساء من الحقوق مثل الذى عليهن من الواجبات بالمعروف المتعارف عليه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]. تذهب وثيقة مؤتمر السكان - انطلاقًا من الطابع المادى للحضارة الغربية - إلى تحويل هذه العلاقة إلى علاقة تجارية مادية «تتشيأ» فيها القيم والمثل والأخلاقيات.. فتتحدث عن «تمكين المرأة» بدلاً من الحديث عن «إنصافها ومساواتها» بالرجال.. وتدعو

(١) المصدر السابق، الفصل الرابع - الفقرة ٢١

إلى «دمجها بشكل تام فى الحياة المجتمعية»، وإلى المشاركة الكاملة للرجل فى تربية الأطفال والعمل المنزلى[1]».. فتصادم بذلك تقسيم العمل الفطرى الذى ساد الحياة الإنسانية على مر التاريخ.

- والأكثر إمعانًا فى الغرابة والشذوذ أن الغرب الذى يتفاخر بالحديث عن الحرية والليبرالية وحقوق الإنسان ينكر على الأمم والحضارات الأخرى حقوقها فى أن تختار منظومة القيم التى تريد!! ويسعى – بالترهيب والترغيب – إلى فرض مفاهيمه وفلسفاته على العالمين حتى ليعلن – فى وثيقة مؤتمر السكان – توجيه المعونات التى يقدمها لتنفيذ ما صاغه فى هذه الوثيقة من قيم وفلسفات، فتتكرر – فى هذه الوثيقة – عبارات «الالتزام»، و«الإلزام» التى تقول: «ينبغى للحكومات أن تلتزم على أعلى مستوى سياسى بتحقيق الغايات والأهداف الواردة فى برنامج العمل هذا[2] وإعمال الضمانات وآليات التعاون الدولية لكفالة تنفيذ هذه التدابير[3]. وينبغى على الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تنظم استعراضًا منتظمًا لتنفيذ برنامج العمل هذا[4]».

وعندما طلبت بعض الدول النص – فى الوثيقة – على أن يكون «تنفيذ السياسات السكانية حقًا سياديًا يتمشى مع القوانين الوطنية» رأينا الوثيقة تجهض هذا الحق – بعد النص عليه – وذلك بالنص على أن يكون هذا الحق فى إطار «الامتثال للمعايير الدولية لحقوق الإنسان»[5] – وهى المعايير التى صاغها الغرب لتعبر عن فلسفته فى هذا الميدان!

- أما الإغراء والترغيب الذى قدمه الغرب – فى هذه الوثيقة – فهو المساعدات فى مجالات «التنمية» التى تساعد على انتشار هذا الانحلال، فنصت هذه الوثيقة على أنه «ينبغى للمجتمع الدولى أن ينظر فى اتخاذ تدابير مثل نقل التكنولوجيا إلى البلدان النامية لتمكينها من إنتاج وتوزيع وسائل منع الحمل ذات النوعية العالية وغيرها من السلع الضرورية اللازمة لخدمات الصحة التناسلية، وذلك للاعتماد على الذات فى هذا الميدان»[6].

(١) المصدر السابق، الفصل الرابع – الفقرة ٢٦.   (٢) المصدر السابق، الفصل السادس عشر – الفقرة ٧.

(٣) المصدر السابق، الفصل الرابع – الفقرة ٩

(٤) المصدر السابق، الفصل السادس عشر – الفقرة ٢١

(٥) المصدر السابق، الفصل الثانى – المبدأ ٤

(٦) المصدر السابق، الفصل السابع – الفقرة ٢٣

نعم.. هذا هو الميدان الذى يساعد فيه الغرب الدول النامية كى تعتمد على الذات: ميدان «إنتاج وتوزيع وسائل منع الحمل ذات النوعية العالية، وغيرها من السلع الضرورية لتحقيق المتعة الجنسية المأمونة للأفراد.. من مختلف الأعمار»!!

★ ★ ★

وهكذا.. ومن خلال هذه الأمثلة - وهى مجرد أمثلة، من وثيقة مؤتمر السكان، وهى مجرد وثيقة من وثائق عديدة - يتم الغزو والاجتياح لآخر حصون الأمة الإسلامية، ولمنظومة القيم الحاكمة لهذا الحصن - حصن الأسرة المسلمة..

الأمر الذى استوجب وفرض الوضع والصياغة لهذا الميثاق - ميثاق الأسرة فى الإسلام - ليكون - مع مذكرته التفسيرية - دليلاً ينير الطريق للإنسان المسلم - رجلا كان أو امرأة - ومرجعًا للمجتمعات الإسلامية، ومنظماتها الأهلية، ولحكوماتنا الوطنية، ومنظماتنا الإقليمية، بل وردًا على مواثيق الغزو وأيديولوجياته، التى تحاول - مع امتداداتها السرطانية فى مجتمعاتنا - اجتياح آخر حصون الإسلام وأمته: حصن الأسرة فى عالم الإسلام.

- إننا والغرب أمام مفهومين مختلفين للحرية، ينبع كل واحد منهما من فلسفة النظر إلى مكانة الإنسان فى الكون، وعلاقته بالذات الإلهية..

ففى الإسلام: الإنسان خليفة لله - سبحانه وتعالى - له حرية الخليفة والنائب والوكيل، المحكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف، المتمثلة فى الشريعة الإلهية

بينما هذا الإنسان - فى الرؤية الوضعية الغربية - هو سيد الكون، الذى لا سلطان على عقله إلا لعقله وحده، ولا حدود لحريته إلا إرادته واختياره.

ولقد أدرك علماء الإسلام - منذ بدايات الغزو الفكرى الغربى للشرق الإسلامى - هذا الفارق الجوهرى فى مفهوم الحرية.. فانتقد العالم المجاهد عبدالله النديم [١٢٦١ - ١٣١٣ هـ = ١٨٤٥م - ١٨٩٦م] المفهوم الغربى للحرية فقال:

«ولئن قيل: إن الحرية تقضى بعدم تعرض أحد لأحد فى أموره الخاصة، قلنا: إن هذا رجوع إلى البهيمية، وخروج عن حد الإنسانية.. أما الحرية الحقيقية فهى عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود.

ولئن كان ذلك سائغًا فى أوربا، فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيتية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم..»[1].

★ ★ ★

إننا أبناء دين أضفى القداسة الدينية على منظومة القيم الحاكمة لمؤسسة الأسرة، عندما أقامها على «الميثاق الغليظ» الجامع لقيم المودة والرحمة والسكن والسكينة.

كما رسم هذا الدين المعالم والطرق والوسائل لحل مشكلات هذه الأسرة – من الإعراض .. إلى النشوز.. إلى الشقاق –.. وجعل «التحكيم.. والشورى» السبيل لإصلاح هذه المشكلات.

ونحن أبناء الحضارة التى وضعت هذه القيم الدينية وجسدتها فى الممارسات والتطبيقات على امتداد تاريخ الإسلام.. حتى لقد رأينا «مؤسسة الأوقاف» – وهى المؤسسة الأهلية الأم – التى مولت صناعة الحضارة الإسلامية وتجديدها – ترصد الأوقاف الواسعة على مؤسسة الأسرة، فتيسر الزواج، وتحل مشكلاته.. الأوقاف التى تيسر:

١ – تزويج المحتاجين والمحتاجات.

٢ – وتقديم الحلى وأدوات الزينة ومستلزمات العرس للعرائس الفقيرات

٣ – وتقديم حليب الرضاعة – المحلى بالسكر – لإعانة الأمهات المرضعات.

٤ – وتأسيس الدور لرعاية النساء الغاضبات اللواتى لا أسر لهن، أو من تسكن أسرهن فى بلاد بعيدة.. فتؤسس هذه الأوقاف لهن الدور التى تقوم على رعايتها نساء مدربات، على رأسهن مشرفة تهيئ الصلح للزوجات الغاضبات من أزواجهن.

٥ – وحتى الأوقاف المرصودة على رعاية الأيتام واللقطاء.

★ ★ ★

هكذا صاغ الإسلام للأسرة ميثاقا من القيم والأخلاق، ووضعت الحضارة الإسلامية هذه القيم فى التطبيق – قدر الإمكان، ومع تفاوت فى التطبيق الذى يقترب فيه «الواقع» من «المثال» – على امتداد تاريخ الإسلام

(١) عبدالله النديم: مجلة «الأستاذ» العدد ١٩ ص ٤٣٩ فى ٨ جمادى الثانية سنة ١٣١٠هـ – ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٩٢م

ومن هنا – وفى مواجهة الغزو الغربى لحصن الأسرة المسلمة – تأتى الأهمية البالغة لهذا الميثاق – ميثاق الأسرة الإسلامية – تلك الأهمية التى لا تقف عند كونه السياج الذى يحمى الأسرة المسلمة فى المجتمعات الإسلامية.. وإنما تمتد – هذه الأهمية – إلى حيث تجعله «إعلاناً عالمياً إسلامياً»، ينطلق من عالمية الإسلام، وهدايته للعالمين، ليكون طوق نجاة للأسرة – كل أسرة – على امتداد القارات والحضارات.. وذلك عندما يدعو – باسم الإسلام – أهل الحكمة والفطرة الإنسانية السوية – من مختلف الديانات – إلى كلمة سواء.

إنه بديل إسلامى لكل ما يرفضه الإسلام – فيما يتعلق بالأسرة – تتقدم به الأسرة المسلمة – عبر منظماتنا النسائية الوفية لدينها – إلى المؤتمرات العالمية «إعلاناً إسلامياً عالمياً» لإنقاذ الأسرة من الانحلال الذى تفرضه عليها العولمة الغربية.

تلك هى رسالة هذا الميثاق.. وهذه هى مكانته.. ومقاصده.. التى ندعو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لها أسباب التحقيق والتمكين.. إنه – سبحانه – أفضل مسئول وأكرم مجيب[1].

(١) مقدمة كتبتها لميثاق الأسرة المسلمة، الذى وضعته اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل.. لتصدره منظمة المؤتمر الإسلامى.

٣ الأيديولوجيات فى خدمة المصالح

كل الحروب والصراعات تدور حول «المصالح».. لكن «المصالح» لا تسير وحدها عارية من الأفكار، والعقائد، والفلسفات، والأيديولوجيات».. فالجيوش التى تحارب – فى سبيل المصالح – لابد لها من «عقائد قتالية» تدفعها للتضحية فى سبيل تحقيق «المصالح».. والجماهير التى تجيش الجيوش وتنفق على التسلح وتضحى فى الحروب لابد لها من «أفكار وأيديولوجيات وعقائد» تشحنها وتحرضها على تقديم التضحيات فى سبيل «المقاصد المصلحية»..

ولهذه الحقيقة ارتبطت حروب المصالح وصراعاتها بحروب الأفكار والعقائد والأيديولوجيات..

- فالاستعمار الرومانى الذى قهر الشرق عشرة قرون، قبل ظهور الإسلام، قد توسل لتحقيق استغلاله لثروات الشرق بالاضطهاد الدينى والثقافى لشعوب الشرق.. حدث ذلك فى ظل وثنية الرومان التى اضطهدت نصرانية الشرق.. وحدث ذلك – أيضا – بعد أن تدين الرومان بالنصرانية.. فلقد اتخذوا لهم مذهبا – هو المذهب الملكانى – يضطهد المذاهب النصرانية الشرقية.. فكان الفكر اللاهوتى سلاحًا فى حروب المصالح بين الاستعمار الرومانى وبين الشرقيين الساعين إلى التحرر من الاستعمار.
- وفى حقبة الحروب الصليبية القديمة [٤٨٩ – ٦٩٠ هـ = ١٠٩٦ – ١٢٩١م] كانت عين الصليبيين الكاثوليكية على ثروات الشرق وكنوزه وخيراته.. وعلى أرضه الخصبة.. وعلى خزائنه التى تعز على الإحصاء!

لكنها غلفت هذه المصالح الدنيوية السافرة بغلاف العقيدة المسيحية.. قبر المسيح.. ومفاتيح الجنة.. والغفران لأمراء الإقطاع من جرائم صراعاتهم الداخلية والدماء التى سفكوها فيها.. حتى لقد اعتبرت البابوية أن هذه الحرب المصلحية «هى فى سبيل الله – وبعبارة البابا: هى حرب «فى حق الله عينه»»!

ويؤكد هذه الحقيقة نص الخطبة التي خطبها البابا الذي أعلن هذه الحروب الصليبية - «أوربان الثاني» (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) في فرسان الإقطاع - بكليرمونت.. بجنوبي فرنسا سنة ١٠٩٥م، والتي خاطبهم بها فقال:

«يا من كنتم لصوصًا كونوا الآن جنودا.. لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن هي في حق الله عينه.. وليست هي لاكتساب مدينة واحدة، بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها عديمة الإحصاء. فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنا وعسلا. ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسًا سماويًا.. امضوا، متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية، واكسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالملك الشرقي يكون لكم قسما وميراثا»!!

هكذا اختلطت أحاديث الخزائن الأرضية التي لا تحصى بخزائن المكافآت السماوية الأبدية.. ومن هذه الحقائق التاريخية نتعلم أن تجريد الصراعات من أبعادها الفكرية وعواملها الأيديولوجية هو وهم، إن أدى إلى نزع سلاحنا نحن، فإنه لن ينزع الأسلحة الدينية والأيديولوجية للأعداء؟!

٤ علاقة المسلم بالآخر الدينى

فى دولة النبوة – بالمدينة المنورة – سنّ رسول الله ﷺ، ثلاث سنن جسدت فلسفة الإسلام فى العلاقة بالآخر الدينى – الكتابى منه والوضعى: اليهود والنصارى والمجوس ومن ماثلهم – ولقد صيغت هذه السنن النبوية المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية فى وثائق دستورية، طبقتها دولة النبوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام.

- وأولى هذه الوثائق الدستورية هى «الصحيفة.. الكتاب» – دستور دولة المدينة المنورة، الذى وضعه رسول الله ﷺ عقب الهجرة وفور إقامة «الدولة» ليحدد حدود الدولة، مكونات رعيتها – الأمة – والحقوق والواجبات لوحدات الرعية، بمن فيهم الآخر الدينى – اليهود العرب وحلفاؤهم العبرانيون – وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيتها.

وفى هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها – التى زادت على الخمسين مادة – عن التنوع الدينى فى إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المساواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود: أى عن التنوع الدينى فى إطار وحدة الأمة: «ويهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. مواليهم وأنفسهم.. وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يُهلك) إلا نفسه وأهل بيته.. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.. ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم» [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١٥ – ٢١ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م].

فكانت هذه الوثيقة الدستورية، أول «عقد اجتماعى وسياسى ودينى» – حقيقى وليس مفترضًا ولا متوهمًا! – لا يكتفى بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءًا من الرعية والأمة والدولة – أى جزءًا من الذات – له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك فى زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق!

- أما الوثيقة الدستورية الثانية، فهى خاصة بالعلاقة مع الآخر النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران – عهدًا لهم ولكل المتدينين بالنصرانية عبر المكان والزمان – وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية.. وفى هذا العهد الدستورى كتب رسول الله ﷺ «لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض: جوار الله، وذمة محمد رسول الله على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أن أحمي جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم، وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي.. لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»! [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١٢٣ – ١٢٨، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م].

فبلغت هذه الوثيقة – التى أشرنا إلى سطور من صفحاتها – فى الاعتراف بالآخر الديني، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، ما لم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية – القديم منه.. والوسيط.. والحديث.. والمعاصر أيضًا – مع ميزة كبرى، وهى جعلها لهذا التنوع والاختلاف فى إطار وحدة الأمة، تجسيدًا لفلسفة الدين الإسلامي فى العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين – كل دين – كما هو الحال مع الوثائق الوضعية العلمانية التى تؤسس للعلاقات بين المختلفين!

- أما السنة النبوية الثالثة، التى قننت للعلاقة بالآخر الدينى، فلقد مدت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية، فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية.. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السنة عندما دخل المتدينون

بالمجوسية فى إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشدة - على عهد الراشد الثانى عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ = ٥٨٤ - ٦٤٤م] فلقد عرض عمر هذا الواقع الجديد - الموقف من المجوس - على مجلس الشورى.. مجلس السبعين، الذى كان يجتمع بمسجد النبوة، بمكان محدد، وأوقات منتظمة. وسأل عمر:

- كيف أصنع بالمجوس؟

فوثب عبدالرحمن بن عوف [٤٤ ق هـ - ٣٢ هـ = ٥٨٠ - ٦٥٢م] فقال

- أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: سُنُّوا فيهم سنة أهل الكتاب» - (البلاذرى. «فتوح البلدان» ص ٣٢٧، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م).

فعومل أهل الديانات الوضعية - كل الديانات الوضعية - معاملة الكتابيين، عبر تاريخ حضارة الإسلام.. تأسيسًا على السنن النبوية الثلاث، التى قننت لذلك التنوع والاختلاف، منذ دولة المدينة المنورة، على عهد رسول الله ﷺ، وحتى أحدث الاجتهادات فى الفقه الإسلامى المعاصر.

٥
المباهلة

المباهلة: مفاعلة بين فريقين متناظرين ومتحاجين فى أمر يختلفان فيه، يبتهل - أى يتضرع - كل منهما إلى الله سبحانه وتعالى أن يجعل لعنته على الكاذب منهما.

وفى المباهلة نزلت آيات سورة آل عمران (٥٩ - ٦١): ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

وسبب ومناسبة نزول آيات المباهلة هذه ما حدث من وفد نصارى نجران الذين جاءوا إلى النبى ﷺ بالمدينة سنة ٩ هـ سنة ٦٣٠م - مع رؤسائهم «السيد الأيهم»، و«العاقب عبدالمسيح»، و«ابن الحارث». ففى الحوار الذى دار بينهم وبين رسول الله ﷺ، قال لهم الرسول:

- إن عيسى عبدالله وكلمته.
- فقالوا: أرنا عبدا خُلق من غير أب.
- قال لهم الرسول: آدم، من كان أبوه؟ أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم.

فنزلت الآيات تدعوهم - إن لم يصدقوا - إلى المناظرة - بحضور أبناء ونساء الفريقين - متضرعين إلى الله أن ينزل اللعنة على الفريق الكاذب.

لكنهم خافوا على أنفسهم من تنفيذ المباهلة، لما علموا من صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ، حتى قال بعضهم لبعض: «إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا».

فعادوا إلى النبى ﷺ، يسألونه بديلا عن المباهلة وعن الإسلام، وقالوا:

– أما تعرض علينا سوى هذا؟
– فقال: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

فعاهدوه – مقابل حرية عقيدتهم وحمايتهم كجزء من رعية الدولة الإسلامية – على جزية مقدارها ألف حُلَّة – ثياب – تؤدى في شهر صفر، وألف حُلَّة أخرى تؤدى في شهر رجب.

وبذلك تكون المباهلة قد وقفت عند حد التحدى بها، ولم تتم: لأنهم خافوا عاقبتها، واختاروا الصلح والمعاهدة التى دخلوا بها فى رعية الدول الإسلامية وحمايتها مع الاحتفاظ بحريتهم الدينية وعقيدتهم النصرانية.

وظاهر الآيات القرآنية ينفى المرويات الرائجة التى تقول إن الرسول ﷺ قد اختار فريقه للمباهلة: على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين – رضى الله عنهم – «لأن كلمة (نساءنا) – كما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ – ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ – ١٩٠٥م] – لا يقولها العربى يريد بها ابنته، لا سيما إذا كان له أزواج، ولا يفهم هذا من لغة العرب، وأبعد من ذلك أن يراد بـ«أنفسنا» – عندما ينطقها النبى – على بن أبى طالب».

فما تطلبه الآيات هو اجتماع الفريقين للمناظرة والمحاجَّة والمجادلة، بحضور جماهير الفريقين رجالاً ونساءً وأطفالا، ويبتهلون إلى الله بأن يلعن الكاذب منهما.

ويؤكد أن هذه المباهلة لم تتم أن وفد نجران – يومئذ – لم يكن معهم أحد من النساء والأبناء

★ ★ ★

ولأن هذه المباهلة هى سبيل من سبل المناظرة والمحاجَّة بين أهل الحق وأهل الباطل، ولخلو الآيات مما يفيد قصرها على النبى ﷺ أو على زمنه، فإنها تشريع إسلامى خالد، تستدعيه المقاصد المرجوة من ورائها، والمصالح المعلقة عليها، ولذلك، قال الإمام ابن عابدين [١١٩٨ – ١٢٥٢هـ = ١٧٨٤ – ١٨٣٦م]: «إن المباهلة، بمعنى الملاعنة، مشروعة فى زماننا».. ولذلك، فمن المشروع والوارد أن تكون المباهلة من أساليب وآليات المناظرة والمحاجَّة مع المخالفين والمعاندين: أى أن تتم المناظرة، ويقدم الفرقاء المختلفون ما لدى كل منهم من

الحجج والبراهين والبينات، ثم يبتهلون إلى الله – سبحانه وتعالى – أن يجعل اللعنة على الكاذبين.

وإذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد العديد والعديد من المناظرات بين علماء الإسلام وبين نفر من أهل الكتاب، فلا تحضرني وقائع تاريخية – قديمة أو حديثة – اتخذت فيها هذه المناظرات صورة المباهلة التي نزلت بها هذه الآيات من القرآن الكريم. والله أعلم.

٦ فى العدل مع الآخر الدينى

لقد فضح الإسلام – منذ لقائه الأول باليهودية واليهود – الانحرافات العقدية والتحريفات التي أوقعها أحبار اليهود بتوراة موسى – عليه السلام – ولم يمنع هذا الموقف الواضح والصريح والحاسم رسول الإسلام ﷺ ودولته وأمته من فتح الأبواب الواسعة أمام اليهود للتعايش مع المسلمين في دولة الإسلام ومجتمعه – أمة واحدة ورعية متحدة – فنص دستور دولة المدينة – الذى وضعه رسول الله ﷺ عام تأسيس الدولة (سنة ١ هـ – سنة ٦٢٢م) على أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة «الدستور» غير مظلومين ولا متناصر عليهم. ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..»

فكامل العدل والإنصاف فى الحقوق والواجبات لمن نرفض عقائدهم – كما يرفضون عقائدنا – وحساب العقائد لله – سبحانه وتعالى – وحده، يوم الدين.

وهذه السنة التى سنها الإسلام وطبقها مع اليهود كانت هى التى طبقها رسول الله ﷺ مع النصارى، منذ اللقاء الأول الذى جاءه فيه وفد نصارى نجران سنة (١٠ هـ – سنة ٦٣١م) ففى هذا اللقاء حدثت المباهلة؛ أى استدعاء لعنة الله على الذين بدلوا عقائد شريعة عيسى – عليه السلام – ونقلوه من عبدالله ورسوله إلى حيث ألّهوه وعبدوه من دون الله!

لكن هذه المباهلة لم تحجب عدل الإسلام مع النصارى المخالفين فى الاعتقاد.. فلقد فتح رسول الله ﷺ لنصارى نجران هؤلاء – كما يروى ابن القيم فى «زاد المعاد» – أبواب مسجد النبوة فصلوا فيه صلاة عيد الفصح، مولين

وجوههم إلى المشرق! ثم كتب لهم – ولكل من يتدين بالنصرانية عهدًا لا تزال نصوصه متفردة، غير مسبوقة ولا ملحوقة، بين عهود حقوق الإنسان ومواثيقها.. ويكفى أن نقرأ فيه: «لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم.. أن أحمى جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا مما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..».

نعم.. تلك هى سنة الإسلام فى العدل مع الآخرين والمخالفين فى الاعتقاد الدينى:

– الرفض للانحرافات والتحريفات العقدية التى أصابت تلك الديانات.. وترك حسابها إلى الله – سبحانه وتعالى – يوم الدين.

– والعدل والقسط والبر مع المتدينين بهذه الديانات فى الدولة والسياسة والاجتماع والمعاملات.. وعلى طريق هذه السنة سارت الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية عبر التاريخ. فحررت الفتوحات الإسلامية أوطان النصرانية الشرقية من القهر الدينى والحضارى الرومانى، وتركت هؤلاء النصارى أحرارًا فى التدين بالعقائد التى رفضها ويرفضها الإسلام! وعلى امتداد تاريخ الإسلام لم يحدث إكراه على الدخول فى الإسلام.. وإنما دخل الناس فى الإسلام بالأسوة والجدال بالتى هى أحسن، وذلك وفقًا للمنهاج الذى سنه القرآن الكريم.

٧ وشهد شاهد من أهلها

هناك شهادات كثيرة شهد بها علماء نصارى على أن الفتوحات الإسلامية إنما كانت فتوحات تحرير للشرق من الاستعمار الغربي: الإغريقي، الروماني، البيزنطي الذي امتد عشرة قرون من الإسكندر الأكبر - [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] - في القرن الرابع قبل الميلاد.. وحتى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] في القرن السابع للميلاد - .. وعلى أن هذه الفتوحات الإسلامية - التي حررت الأرض - قد حررت الضمائر، وتركت الناس أحرارًا وما يدينون: لأنه ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦].

■ ومن هذه الشهادات النصرانية، شهادة المستشرق الإنجليزي الحجة سير «توماس أرنولد» (١٨٦٤ - ١٩٣٠م) التي يقول فيها:

«إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح».

ونحن عندما نقرأ هذه الشهادة لابد أن نتذكر أن التسامح الأوروبي الحديث، إنما كان ولا يزال تسامحا مع الذات أكثر مما هو مع الآخر.. وأنه قد تم على أنقاض الدين - في ظل العلمانية - بينما التسامح الإسلامي والعدل والإنصاف قد تم مع كل ألوان الآخر الديني - حتى المتدينين بالديانات الوضعية - وأن هذا التسامح الإسلامي إنما هو ثمرة لدين الإسلام، الذي يعترف بكل الديانات.. وليس على أنقاض الدين..

■ وغير «توماس أرنولد» يشهد على سماحة الإسلام المستشرق الألماني الحجة «آدم متز» (١٨٦٩ - ١٩١٧م) الذي قال: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام».

■ ولقد أيد هذه الحقيقة المؤرخ القبطى «يعقوب نخلة رفيلة» (١٨٤٧ - ١٩٠٥م) الذى شهد فى كتابه «تاريخ الأمة القبطية» على أن عمرو بن العاص [٥٠ ق.هـ - ٤٣ = هـ ٥٧٤ - ٦٦٤م] قد استعان فى حكم مصر بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالى، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلا منها حاكم قبطى ينظر فى قضايا الناس ويحكم بينهم».

■ كذلك يشهد المؤرخ المعاصر «الدكتور جاك تاجر» [١٣٣٦ - ١٣٧١هـ = ١٩١٨ - ١٩٥٢م] على التحرير الإسلامى لمصر وأهلها، فيقول: «إن الأقباط قد استقبلوا العرب كمحررين، بعد أن ضمن لهم العرب - عند دخولهم مصر - الحرية الدينية، وخففوا عنهم الضرائب.. ولقد ساعدت الشريعة الإسلامية الأقباط على دخولهم الإسلام واندماجهم فى المجموعة الإسلامية، بفضل إعفائهم من الضرائب. أما الذين ظلوا مخلصين للمسيحية، فقد يسر لهم العرب سبيل كسب العيش، إذ وكلوا لهم أمر الإشراف على دخل الدولة».

تلك شهادات من أهلها.. وهى مجرد نماذج.. فهل يعيها المرجفون فى المهاجر الذين أصبحوا خدما للمخططات المعادية لمصر والشرق، ولكل ما هو نبيل فى حياة الإنسان؟!

إن الذين يكثرون من الحديث عن حقوق «المواطنة» عليهم أن يتعلموا

١ - أن الإسلام هو الذى قرر المساواة فى الحقوق الدنيوية للمواطنة.. ولقد نص عهد رسول الله ﷺ إلى نصارى نجران على: «أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».. بينما لم يعرف الغرب حقوق المواطنة إلا بالعلمانية، وعلى أنقاض الدين.. فلسنا فى حاجة إلى العلمانية، وترك الإسلام وشريعته حتى يتمتع المواطنون بحقوقهم فى ديار الإسلام.

٢ - أن لكلّ حقوق واجبات توازيها.. فالتمتع بحقوق المواطنة يستلزم الولاء للوطن والانتماء إلى حضارته؛ لأن هذا الوطن هو «السفينة»، التى بدون الحفاظ عليها لن تكون هناك مجالات للتمتع بأية حقوق.. فموالاة الأعداء تسقط كل حقوق المواطنة عن هؤلاء الذين يقترفون هذا الإثم العظيم!

٨ عقد الذِّمّة

الذمة – فى مصطلح العربية – هى: «العهد، والحُرمة، والأمان، والضمان» وفى القرآن الكريم: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾ [التوبة: ٨].

وفى المصطلح الشرعى الإسلامى: هى وصف يصير به الإنسان أهلا لما لهُ ولما عليْه.

وأهل الذمة – فى الفقه والتاريخ الإسلاميين – هم أبناء الملل غير الإسلامية، من مواطنى دار الإسلام، الذين حكَم عقد وعهد الذمة – أى الأمان والحُرمة والضمان – علاقتهم بالدولة الإسلامية وبالمسلمين.

والأمر الذى استدعى وجود هذا النظام فى المجتمع الإسلامى هو القاعدة الإسلامية التى قررت التعددية فى الملل والشرائع والديانات فى دار الإسلام ودولته.. فـ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩]. و﴿لكم دينكم ولى دين﴾ [الكافرون: ٦] فالتعددية الإسلامية هى التى سمحت بالمغايرة، فاستدعى الأمر نظامًا للعلاقة بين المتغايرين..

ولقد شمل عقد الذمة كل أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – ومن لهم شبهة كتاب، أو قيل إنه قد كانت لهم كتب سماوية، ثم اندثرت.. فدخل فى أهل الذمة: المجوس والصابئة وأهل الديانات الوضعية، غير السماوية فى شرقى آسيا، بل وقال المالكية – فى المشهور من مذهبهم، وكذلك الإمام الأوزاعى – بإدخال المشركين والوثنيين – عربا وغير عرب – فى أمان الذمة وعقدها.

وعلة المغايرة، التى اقتضت عقد الذمة، فى رأى جمهور الفقهاء، ليست اختلاف الدين، وإنما هى قيام المسلمين، دون سواهم، بفريضة الجهاد، وتأمين الناس، بمن فيهم أهل الذمة، الذين لم يفرض عليهم الجهاد يومئذ، لكونه عقيدة

وفريضة إسلامية – من ناحية – ولمقتضيات وملابسات الفتوحات الإسلامية، حيث لم يكن ولاء غير المسلمين للدولة الإسلامية مضموناً إلى الحد الذى يجعلهم يحملون السلاح دفاعًا عن دولة الإسلام.

وعقد الذمة من العقود المؤبدة لأهل الذمة المقيمين بدار الإسلام.. وهو مؤقت بالنسبة للمستأمنين الداخلين إلى دار الإسلام لفترات موقوتة، كالتجار، والرسل، والسائحين.. وهو يقرر ويضمن لهم الأمن والأمان المقررين والمضمونين للمسلمين، وفق القاعدة الإسلامية المؤسس عليها هذا العقد – قاعدة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا – ومن المأثور فيها عن الإمام على بن أبى طالب قوله: «أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا» – فلأهل الذمة الأمان والحرمة والضمان فى أنفسهم وعيالهم وأموالهم وعقائدهم وشعائرهم وشرائعهم ودور عباداتهم وأدوات هذه العبادات.. وفى عديد من الأحاديث النبوية التأكيد والتوصية على الوفاء بالذمة لأهلها.. من مثل قوله ﷺ: «أوصيكم بذمة الله فإنه ذمة نبيكم» (رواه البخارى).

وكانت الجزية هى المقابل المالى لضريبة الدم والجندية والجهاد لحماية دار الإسلام.. وهى مبلغ زهيد لا يفرض على كل أهل الكتاب، وإنما على القادرين ماليًا وبدنيًا ممن هم فى سن الجندية، فهى لا تفرض على الصغار ولا على النساء ولا على المرضى ولا على العجزة ولا على أصحاب العاهات ولا على الأرقاء ولا على الرهبان المنقطعين للعبادة.. وتفاوتت مقاديرها – تبعا لمستويات الغنى والثراء – ما بين ١٢ درهمًا، و٢٤ درهمًا، و٤٨ درهمًا فى العام، تؤخذ مما تيسر من أموالهم، نقدًا أو سلعًا أو مصنوعات.

وفى التجارات العابرة بين أقاليم الدولة الإسلامية كان الكتابيون يدفعون – مرة فى العام – نصف عشر هذه التجارات، بينما كان التجار المسلمون يدفعون ربع العشر إلى جانب الزكاة فى سائر أموالهم، والتى أعفى منها الكتابيون.

وكانت أعمال الدولة ووظائفها مفتوحة لأهل الذمة، لا يستثنى منها إلا الولايات التى يشترط الإسلام فيمن يتولاها؛ للطابع الدينى فى مهام ولايتها.. كما كانت الوظائف ذات الطابع الدينى فى تنظيمات طوائف أهل الذمة مقصورة على أهل هذه الملل والطوائف والديانات.

وفى القضاء والفصل فى المنازعات، كان لأهل الذمة حقوق التحاكم إلى قضائهم الخاص فى قضايا شرائعهم الدينية، مع حق التحاكم فيها - لمن أراد - إلى شريعة الإسلام وقضاته.. أما ما عدا المنازعات الشرعية فكان الفصل فيها لقضاء الدولة الإسلامية الموحد.

ولقد شهد تاريخ المجتمعات الإسلامية فترات تعرض فيها أهل الذمة لألوان من الاضطهاد.. وغلب على هذه الفترات عموم الاضطهاد الذى شمل غيرهم معهم.. كما فى عهد المتوكل العباسى [٢٣٢ - ٢٤٧هـ = ٨٤٦ - ٨٦١م] الذى اضطهد الشيعة والمعتزلة بأكثر مما اضطهد به أهل الكتاب.. وعهد الحاكم بأمر الله الفاطمى [٣٧٥ - ٤١١هـ = ٩٨٥ - ١٠٢١م] الذى دام اضطهاده لأهل السنة، بينما تراجع سريعًا عن اضطهاده لأهل الكتاب.. وفى فترات الغزو الخارجى والدسائس الأجنبية - من الدول النصرانية - للبلاد الإسلامية، تعرض أهل الذمة لألوان من التضييق والاضطهاد، بسبب موالاة نفر منهم، وخاصة أبناء الكنائس غير الوطنية: كالأروام لقوات الغزو، أو الشبهات على هذه الموالاة.. كذلك ارتبطت فترات «التوتر الطائفى» حديثًا بنفوذ ودسائس الاستعمار الغربى الحديث.

ومع نمو وعموم القسمات والقيم الثقافية التى وحدت كل الملل - على أرض الإسلام - فى اللغة والقومية والحضارة، غدت الحضارة العربية الإسلامية رباطًا توحيديًا للجميع، فتبلورت فى ديار الإسلام أمة واحدة، بالمعنى الحضارى والقومى، ولاؤها للوطن الواحد، فذبلت عوامل المغايرة، وتساوى الجميع فى حمل مسئولية الجندية وحماية الوطن، الأمر الذى أدى إلى إلغاء نظام الجزية، وحلول المساواة فى المواطنة محل نظام الذمة.. ولقد لبت الاجتهادات الإسلامية، وواكبت هذا التطور الذى شهده الواقع الإسلامى الحديث.

٩ الحكومات غير الشرعية.. والأقليات

فى ظل حكم الدولة الفاطمية [٢٩٧ - ٥٦٧ هـ = ٩٠٩ - ١١٧١م] - الشيعية الإسماعيلية الباطنية - كان التناقض الفكرى والمذهبى بينها وبين الشعب المصرى - السنى - حائلا دون استمداد هذه «الدولة» لشرعيتها والرضا بها وعنها من جماهير المحكومين.. ولذلك كان اعتماد هذه الدولة على الأقليات النصرانية واليهودية، وخاصة النصارى غير الأرثوذكس - أى الملكانيين الأروام - وكان استقواء هذه الأقليات بضعف الحكم، لظلم جماهير الناس.

لكن الشعب المصرى قد ابتدع وأبدع ألوانًا من المقاومة لهذا التحالف غير المقدس، المعادى لهويته ولمصالحه.. قاوم بالعرائض التى حملتها الصور والتماثيل عندما أُغلقت فى وجوهه أبواب الحكام.. وقاوم «بالمنشورات» التى كتبت نثرًا وشعرًا

نعم.. صنع المصريون ذلك قبل أكثر من ألف عام! ولقد سخر المصريون يومئذ من عقائد الشيعة: عصمة أئمتهم - بمن فيهم الخلفاء الفاطميون - وادعاء علمهم بالغيب، والتبحر فى كل العلوم وجميع اللغات حتى ولو لم يدخلوا مدرسة أو حتى «كُتّابا»!.. وكتبوا هذه السخرية فى «منشور»، نظموه شعرًا، ثم وضعوه على منبر المسجد، ليقرأه الخليفة العزيز بالله [٣٤٤ - ٣٨٦هـ = ٩٥٥ - ٩٦٦م] عندما يصعد المنبر ليخطب.. وعندما رأى العزيز «المنشور»، قرأ فيه:

بالظلم والجـور قد رضينا   وليس بالكفـر والحماقـة

إن كنتَ أُعطيتَ علمَ غيبٍ   فقُـل لنا كاتب البطـاقـة!!

وعندما تولى وزارة مصر - فى عهد العزيز بالله - «يعقوب بن كلس» وأصله يهودى، وتولى «الفضل» قيادة الجيش.. تحدثت المقاومة المصرية عن سيطرة هذا

الثالوث.. وعبر الشاعر المصرى الحسين بن بشر عن تذمر الشعب المصرى عن هذه السيطرة.. فقال:

تنصّـــر فالتنصّـــر ديـــن حـق   عليـه زمانـنــــا هذا يـدل
وقـــل بثلاثـــة عـــزّوا وجلّوا   وعطّل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزيـر أب، وهـذا العز   يز ابن، وروح القدس فضل!!

فلما توفى العزيز بالله. وجاء الحاكم بأمر الله [٣٨٦ - ٤١١هـ = ٩٩٦ - ١٠٢١م].. ووجد هذه السيطرة الطاغية للأقليات النصرانية واليهودية على مصر - حكامًا ومحكومين - كان رد فعله الشهير والمغالى الذى اضطهد فيه النصارى، حتى إنه هدم كنيسة القيامة بالقدس.. وأجبر العديد منهم على اعتناق الإسلام!!

ثم عاد بعد أيام إلى إلغاء المراسيم الجائرة التى عالج بها جور الأقليات فبنى الكنائس التى هدمها.. وسمح لمن أُجبر على تغيير دينه بالعودة إلى دينه.. بينما ظلت أغلبية الشعب المصرى - السنية - تعانى اضطهاد الدولة الفاطمية حتى سقوط هذه الدولة، وتولى صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ - ٥٨٩هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣م] حكم البلاد حتى لقد كان لعن الفاطميين لأبى بكر الصديق ولعمر بن الخطاب، مكتوبًا بحروف من ذهب، ومعلقًا على مساجد الشيعة الفاطميين الغلاة!!

ولقد كانت ردود الفعل على استعلاء الأقليات، فى ذلك التاريخ مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ [الأنفال: ٢٥].

وإذا كان التاريخ - كوقائع وأحداث - إنما تحكمه سنن وقوانين ليس لها تبديل ولا تغيير، فإن وقائع العلاقات إبان الدولة الفاطمية - بين الدولة والسلطة، وبين الأغلبية الممثلة للعمود الفقرى فى الأمة والرعية.. وبين الأقليات - إن وقائع هذه العلاقات تقول:

عندما تفقد السلطة شرعيتها، فلا تكون معبرة عن الأغلبية، فإنها تستند فى تسلطها إلى الأقليات، وهنا تتجبر الأقليات وتطغى - حتى على سلطان الدولة أحيانًا - الأمر الذى يحدث ردود الأفعال الغاضبة والرافضة من الأغلبية ضد الحكام والأقليات جميعًا!

وفى ظل هيمنة الخارج الاستعماري، كثيرًا ما تلجأ الحكومات الفاقدة للشرعية وتأييد الأغلبية إلى الاستعانة برضى الخارج وحمايته.. وكذلك تصنع الأقليات.

فالخلل إنما يحدث دائمًا عندما يغيب الرضى والوفاق - وتغيب الشرعية - عن العلاقة بين السلطان وبين الأغلبية من رعيته، فيكون الضعف إما أمام الأقليات.. أو أمام الغزاة.. ولهذه الحقيقة كانت دعوة القرآن الكريم إلى أن يكون «ولاة الأمر» من الأمة: أي ممثلين لعقيدتها وفكرها وهويتها، وليسوا مجرد متغلبين على رعية تخالفهم فى الفكر والاتجاه.. وصدق الله العظيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فكلمة (منكم) يجب أن يوضع تحتها عشرات الخطوط! وأن يفقهها الفقهاء، ويلتزمها الجميع.

نعم.. إن للأقليات حقوقًا، لكنها جزء من حقوق الأمة، وليست «فيتو» على هوية الأمة وحقوقها!

١٠ اللعب بورقة الأقليات (١)

منذ بدايات الغزوة الغربية الاستعمارية الحديثة للوطن العربي، قلب العالم الإسلامي، بواسطة حملة «بونابرت» (١٧٦٩ – ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣هـ – ١٧٩٨م) كان الإعلان عن مخطط العمل على استخدام الأقليات في مشروع الهيمنة الاستعمارية على بلادنا، وذلك عندما أعلن «بونابرت» وهو في الطريق البحري من «مرسيليا» إلى «الإسكندرية» عزمه على تجنيد عشرين ألفا من أبناء الأقليات غير المسلمة، ليكونوا مواطئ أقدام وثغرات اختراق تعينه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية الشرقية.. وفي أثناء حصاره لمدينة «عكا» الفلسطينية سنة ١٧٩٩م – في الذكرى السبعمائة لاحتلال الصليبيين للقدس سنة ١٠٩٩م" – أصدر «بونابرت» نداءه إلى الأقليات اليهودية في العالم، كي تتحالف معه لتحقيق هذا الغرض الاستعماري مقابل أن يساعدها على احتلال فلسطين.

ومنذ ذلك التاريخ اتخذت قطاعات من هذه الأقليات اليهودية أكثر القرارات اللا أخلاقية، وذلك عندما وظفت نفسها في خدمة الحضارة الغربية التي اضطهدت اليهود طوال تاريخهم، ضد الحضارة الإسلامية التي آوتهم وأكرمتهم طوال تاريخها!! فبدأت «الشراكة» بين الصهيونية وبين الاستعمار الغربي منذ ذلك التاريخ.. الصهيونية تحلم بالخلاص من اضطهاد الغرب لليهود، على حساب العرب والمسلمين! والغرب الاستعماري يريد تحقيق «حزمة» من الأهداف، فهو يريد الخلاص من اليهود الذين كان ينظر إليهم باعتبارهم سرطانات في جسم حضارته المسيحية، وذلك بقذفهم إلى قلب الوطن العربي، يقيم بواسطتهم قاعدة لحضارته، وآلة حربية ضد أحلام العرب في التقدم والنهوض.. والبروتستانتية الغربية قد رأت في هذا المشروع «الصهيوني – الاستعماري» تحقيقا لنبوءة أسطورية تتحدث عن عودة السيد المسيح – عليه السلام – ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، عندما يُحشر اليهود في فلسطين،

ويقيمون «الهيكل الثالث» على أنقاض المسجد الأقصى، وتحدث معركة «هرمجدون» التى يباد فيها المسلمون!!

وعندما هزم المصريون حملة «بونابرت» وتبددت أحلامه، وأصبحت القيادة – فى المشروع الاستعمارى الغربى – لإنجلترا نقل الصهاينة «قبلتهم» وشراكتهم إلى الاستعمار الإنجليزى، وتولت إنجلترا رعاية هذه «الشراكة»، وتوظيف الأقليات اليهودية ضد العرب والمسلمين.

وفى مواجهة مشروع «مصر – محمد على باشا» [١١٨٤ – ١٢٦٥ هـ = ١٧٧١ – ١٨٤٩م] لتجديد شباب الشرق، وإنقاذه من الضعف العثمانى، للحيلولة دون نجاح مخططات الاستعمار الغربى، سعت إنجلترا إلى الدولة العثمانية كى تسمح بزرع اليهود فى فلسطين، لإعاقة المشروع النهضوى لمحمد على باشا. وطلب «بالمرستون» (١٧١٠ – ١٨٦٥م) وزير خارجية إنجلترا سنة ١٨٤٠م من سفيره فى «الأستانة» أن يقنع السلطان العثمانى بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين «حتى يكونوا حجر عثرة أمام محمد على باشا ونواياه والأغراض التى قد تخطر بباله أو بال من يخلفه»!

ولم تخرج فرنسا الاستعمارية من الساحة نهائيًا بهزيمة نابليون، فهى قد تولت تحويل الأقلية المارونية فى لبنان، بواسطة التغريب الثقافى ومدارس الإرساليات التبشيرية إلى ثغرات اختراق: لتحويل قبلة هذه الأقلية وغيرها إلى الغرب، بدلاً من الشرق والعروبة وحضارة الإسلام.. وذلك وصولاً إلى «جعل البربرية العربية – كما قالوا – تنحنى لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوربا».

كما تولت فرنسا – فى المغرب العربى – اللعب بورقة الأقلية الأمازيغية لإلحاق عاداتها وأعرافها بالقانون الوضعى الفرنسى، بدلاً من الشريعة الإسلامية، وإلحاقها – لغويًا وثقافيًا – بالفرنسية والفرنكفونية، بدلاً من هويتها الحضارية العربية الإسلامية.

ولقد كانت «الشراكة» الاستعمارية الصهيونية والأصابع اليهودية حاضرة وفاعلة، دائمًا وأبدًا، فى كل هذه المراحل لتنفيذ هذا المخطط الاستعمارى للعب بأوراق الأقليات فى بلادنا العربية والإسلامية.. ولقد زاد وضوح الدور الصهيونى فى هذا المخطط وهذه التحديات منذ أن تجسد الحلم الصهيونى فى

الكيان الإسرائيلى سنة ١٩٤٨م، فرأينا الكتابات الصهيونية تضع مخططات تفتيت الشرق العربى والإسلامى، بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية، باعتبار هذا التفتيت هو التعميم لمشروع الأقلية اليهودية فى إقامة كيانها السياسى الخاص.. وباعتبار أن هذا التفتيت هو الضمان لأمن الكيان الصهيونى، الذى لا بقاء له ولا مستقبل فى ظل الوحدة العربية والجامعة الإسلامية.. لقد تصاعد إغراء الأقليات باختيار الطريق الصهيونى: عض اليد العربية الإسلامية، والتوجه غربًا ضد العروبة والإسلام، وربط مستقبل هذه الأقليات بالهيمنة الاستعمارية الغربية، بدلاً من المشروع النهضوى للعرب والمسلمين!

١١ اللعب بورقة الأقليات (٢)

منذ أكثر من نصف قرن، وبالتواكب مع إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين – قاعدة عنصرية استعمارية غربية – لإعاقة تقدم أمتنا ووحدتها.. أعلن المستشرق الصهيوني «برنارد لويس» Bernard Lewis مخطط التفتيت للأمة الإسلامية، بواسطة الأقليات.. والذي نشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية – البنتاجون – Executive Intelligence Research Project وفيه يدعو إلى إضافة أكثر من ثلاثين كيانًا انفصاليًا، على أساس ديني ومذهبي وعرقي (إثني)، تضاف إلى التجزئة التي أحدثتها اتفاقية «سيكس – بيكو» سنة ١٩١٦م وبنص عبارات هذا المستشرق الصهيوني «فإن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع، فما هو على السطح يتناقض مع ما هو في العمق. على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة، ولكن في العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة في هذه الدول، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة»!

وبعد أن تحدث عن تفاصيل مخطط تفتيت العالم الإسلامي – من باكستان إلى المغرب – على أسس دينية ومذهبية وعرقية، خلص إلى الهدف الصهيوني من وراء هذا التفتيت، فقال: «ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها.. ونظرًا لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل»!

فالمطلوب هو استخدام الأقليات لتفتيت العالم الإسلامي إلى كيانات ضعيفة، لضمان الأمن والتفوق للكيان الصهيوني الموظف في خدمة المشروع الإمبريالي الغربي الكبير!

ولقد تحول هذا التخطيط «الاستعماري – الصهيوني» إلى الممارسة والتطبيق على أيدي «ديفيد بن جوريون» (١٨٨٦ – ١٩٧٣م) و«موشي شاريت» (١٨٩٤ – ١٩٦٥م) و«موشي ديان» في حقبة خمسينيات القرن العشرين. ابتداء بالأقلية المارونية في لبنان، وطموحًا إلى تعميمه خارج لبنان.. وكتب «شاريت» في مذكراته – عن المقاصد من وراء اللعب بأوراق الأقليات في بلادنا، يقول: إنها:

أولا: تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات في العالم العربي.

وثانيا: إذكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامي!! فمجرد تحريك الأقليات هو عمل إيجابي؛ لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر!

وفي مرحلة ثمانينيات القرن العشرين، ورغم الحديث عن «السلام. والتسوية.. وتطبيع العلاقات، بعد المعاهدة المصرية – الإسرائيلية سنة ١٩٧٩م نجد أن هذا المخطط التفتيتي لعالمنا الإسلامي، بواسطة الأقليات، هو من الثوابت الاستعمارية الصهيونية، التي لا تتأثر «بالمتغيرات»، حتى ولو سميت هذه المتغيرات «بالسلام.. وتطبيع العلاقات»!

ففي المحاضرة التي ألقاها «أربيل شارون» – وكان يومئذ وزيرا للدفاع، في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨١م، والتي نشرتها مجلة «معاريف» – نراه يقول: «إن إسرائيل تصل بمجالها الحيوي إلى أطراف الاتحاد السوفيتي شمالاً، والصين شرقا، وإفريقيا الوسطى جنوبا، والمغرب العربي غربا.. وهذا المجال الحيوي عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة».

ثم يواصل «شارون» الحديث عن مشروعات تفتيت العالم الإسلامي بواسطة الأقليات – على النحو الذي سبقه إليه «برنارد لويس» – حتى يكون هذا العالم الإسلامي «مجالاً حيويًا لإسرائيل».

وفي ذات الحقبة – ثمانينيات القرن العشرين – تصوغ «المنظمة الصهيونية العالمية» هذا المشروع التفتيتي تحت عنوان: «استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات»، وتنشره في مجلتها الفصلية «كيفونيم» Kivunim (الاتجاهات) – في عدد ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢م – وفي ثنايا هذا المخطط الاستراتيجي، تتحدث عن النجاحات التي حققتها إسرائيل في لبنان – إبان الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ – ١٩٨٩م)

بواسطة قطاع من الأقلية المارونية – المارونية السياسية – باعتباره النموذج الواجب التعميم مع كل الأقليات.. فتقول «المنظمة الصهيونية العالمية»: «إن تفتت لبنان بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربي بأسره، بما في ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية.. إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منها – [في المغرب] – لن تبقى على صورتها الحالية، بل ستقتفى أثر مصر فى انهيارها وتفتتها، فمتى تفتتت مصر تفتت الباقون(!!) إن رؤية دولة قبطية مسيحية في صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية – مصرية، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن، هو مفتاح هذا التطور التاريخى الذى أخرته معاهدة السلام، لكنه لا يبدو مستبعداً في المدى الطويل.

وإن تفتتت سوريا والعراق لاحقا إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية، على غرار لبنان، هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل. ولأن العراق أقوى من سوريا، وقوته تشكل في المدى القصير خطرًا على إسرائيل أكثر من أى خطر آخر، فهو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل فى التفتيت. فتفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا.

وشبه الجزيرة العربية بأسره مرشح طبيعي للانهيار، وأكثر اقترابًا منه، بفعل ضغط داخلي وخارجي، وهذا أمر غير مستبعد في معظمه، خصوصًا في السعودية.

والأردن هدف استراتيجى فى المدى القصير.. فليس هناك أى إمكان بأن يبقى الأردن قائمًا على صورته وبنيته الحاليتين فى المدى الطويل. وينبغى أن تؤدى سياسة إسرائيل – حربًا أو سلمًا – إلى تصفية الأردن بنظامه الحالى».

ثم تخلص هذه «الاستراتيجية» – بعد التفصيل لمخطط التفتيت للعالم الإسلامى بواسطة الأقليات – إلى أنَّ هذا هو «ضمان الأمن والسلام فى المنطقة بأسرها فى المدى الطويل.. ففى العصر النووى لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدًا بعثرة السكان، فهذا دافع استراتيجي، وإذا لم يحدث ذلك، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود»!

وهنا نسأل: أليس هذا هو المخطط الذى يتم تنفيذه اليوم فى العالم العربى، وخاصة فى العراق؟!

١٢ اللعب بورقة الأقليات (٣)

فى ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢م عقدت بإسرائيل ندوة - بجامعة «بارايلان» تحت عنوان: «تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية للجماعات العرقية والإثنية والاعتبارات الكامنة وراءه»!!

ولقد خلصت أبحاث ومقررات هذه الندوة إلى أن «هذه الأقليات.. هى شريكة لإسرائيل فى المصير، ولابد من أن تقف مع إسرائيل فى مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية، أو تبدى استعدادًا لمحاربتها أو مقاومتها، هى حليف وقوة لإسرائيل لتنفيذ سياسة الاستيطان والدولة التى مازالت فى مرحلة التكوين»!!

ولقد تزامن مع اشتعال الحرب الطائفية فى لبنان - فى سبعينيات القرن العشرين - غواية عدد من الشباب القبطى المصرى بالاشتراك مع المارونية السياسية فى هذه الحرب! واجتذبت الأصابع الصهيونية فى أمريكا قطاعًا من أقباط المهجر - وخاصة فى أمريكا وكندا وأستراليا - لتكوين «الهيئات القبطية»، الداعية إلى ما تسميه «تحرير مصر القبطية من استعمار العروبة والإسلام»!! حتى أفضت هذه الأنشطة الطائفية - المواكبة لهيمنة العولمة الأمريكية، والمدفوعة والمدعومة من «اللوبى الصهيونى»، ومنظمات وكنائس «التحالف المسيحى»، و«المسيحية الصهيونية» - إلى إصدار «الكونجرس الأمريكى، فى أكتوبر ١٩٩٩م، لقانون «الحريات الدينية الدولية»، الذى فرض الحماية الأمريكية على الأقليات الدينية - وخاصة فى العالم الإسلامى - وقنن لآليات إيقاع العقوبات الأمريكية على الدول التى لا ترضى عنها أمريكا فى هذا المجال!

وليس صدفة أن صدور هذا القانون قد جاء ثمرة لحركة إعلامية بدأها محام يهودى - هو «مايكل هورفيتز» Michael Horowit، فى ٥ يوليو سنة ١٩٩٥م، ثم تلقفت الخيط المؤسسات والكنائس «المسيحية الصهيونية»، و«التحالف المسيحى»،

و«المحافظون الجدد» لتفضى هذه الحملة – الموجهة بالأساس إلى العالم الإسلامى – إلى قانون «الحماية والعقاب» – كما أسماه بحق الكاتب «سمير مرقس».

وليس صدفة كذلك أن تجد هذه المخططات «مراكز أبحاث»، ممولة من أمريكا والغرب، تركز على اللعب بورقة الأقليات فى بلادنا.. وتدعو إلى تطبيق ذات المخطط الذى دعا إليه «برنارد لويس»، و«بن جوريون»، و«موشى شاريت»، و«موشى ديان»، و«آرييل شارون»، و«المنظمة الصهيونية العالمية».. مخطط تفتيت العالم الإسلامى إلى كيانات سياسية – نعم سياسية! – على أساس الدين والعرق والمذهب: أى تحويل التنوع من نعمة ومصدر قوة إلى نقمة وتشرذم وتفتيت.. وتحويل الأقليات من لبنات فى بناء الأمة والأمن الوطنى والقومى والحضارى إلى ثغرات اختراق، وأسباب للانهيار والدمار.. فيكتب رئيس أحد أهم هذه «المراكز البحثية» – د. سعد الدين إبراهيم – يقول بالنص: «إن المجتمعات التى تتسم بالتعددية الإثنية، فى الوقت الحالى، ينبغى أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضا».

ومع هذه الغواية الأجنبية، التى استجابت لها ووقعت فى شباكها جمعيات وجماعات طائفية، تعيش فى المهاجر، متعاونة مع الصهيونية وقوى الهيمنة الإمبريالية.. وقلة قليلة من غلاة العلمانيين والطائفيين فى الداخل، يستخدم المخطط الغربى – وخاصة الأمريكى – السلاح الاقتصادى فى إذكاء الصراع الطائفى. فبواسطة المعونات الأمريكية الموجهة إلى القطاع الخاص، وتوكيلات الاستيراد والتصدير، والمعونات الموجهة للمشروعات التنموية الصغيرة، يتم التمييز الطائفى، لإيجاد واقع اجتماعى يمزقه «ثراء الأقلية» و«حرمان الأغلبية»! لا حُبًا فى سواد عيون الأقلية، وإنما لتأجيج الصراع الطبقى ذى الطابع الطائفى. تكرارًا للتجربة التى سبق أن صنعها الاستعمار – وآتت ثمراتها فى لبنان – إغناء الأقلية المارونية، وإفقار الأكثرية المسلمة، وخاصة الشيعة منها، الأمر الذى أحدث – فى لبنان – ويحدث الآن تراجعًا للسماحة والتسامح، و«فرزا طائفيًا» على نحو غير معهود.. كما يخلق ضيقًا «بالآخر» وتضييقا على بعض حقوقه الطبيعية والمشروعة، كالحال مثلاً فى موقف العامة والجمهور من بناء دور العبادة فى بعض البلاد. بينما النهج الإسلامى يفتح الطريق أمام الحريات فى هذه الميادين، حتى ليحض الدولة على إعانة غير المسلمين فى بنائها.

١٣ اللعب بورقة الأقليات (٤)

وإذا كان هذا التمييز الاقتصادى للأقليات فى بلادنا مما يعترف به العقلاء منهم، حتى ليقول «الأنبا موسى» - أسقف الشباب فى الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - وهو من عقلاء وحكماء هذه الكنيسة «إن الأقباط جزء هام من نسيج الحياة المصرية، فهم أطباء وصيادلة ومهندسون، وغيرها من المهن، ونسبتهم فى رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية فى مصر» فإن هذه الفوارق الاقتصادية والاجتماعية المستفزة تشير إليها أرقام وإحصاءات رصدتها مصادر علمانية تقول إن الأقلية النصرانية فى مصر - والتى تقل نسبتها فى السكان عن ٦٪ والتى كان يصفها الشيخ محمد الغزالى [١٣٣٥ - ١٤١٦هـ = ١٩١٧ - ١٩٩٦م] عليه رحمة الله بأنها: «أسعد أقلية فى العالم» - تملك من ثروة القطاع الخاص فى مصر ما بين ٣٥٪، و٤٠٪! فهى تملك وتمثل:

- ٢٢.٥٪ من الشركات التى تأسست ما بين سنة ١٩٧٤، وسنة ١٩٩٥ - سنوات الانفتاح والمعونات الأمريكية!
- و٢٠٪ من شركات المقاولات فى مصر.
- و٥٠٪ من المكاتب الاستشارية.
- و٦٠٪ من الصيدليات.
- و٤٥٪ من العيادات الطبية الخاصة.
- و٣٥٪ من عضوية غرفة التجارة الأمريكية، وغرفة التجارة الألمانية.
- و٦٠٪ من عضوية غرفة التجارة الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين).
- و٢٠٪ من رجال الأعمال المصريين.
- و٢٠٪ من وظائف المديرين بقطاعات النشاط الاقتصادى بمصر.

- وأكثر من ٢٠٪ من المستثمرين بمدينتى السادات والعاشر من رمضان.
- و١٥,٩٪ من وظائف وزارة المالية المصرية.
- و٢٥٪ من المهن الممتازة والمتميزة - الصيادلة، والأطباء، والمهندسين، والبيطريين، والمحامين.

وذلك فضلاً عن أن هذه الأقلية نادرًا ما يعانى أحد منها المشكلات التى تطحن سواد الأغلبية - البطالة.. والأمية.. وأزمات الزواج.. والإسكان.. إلخ.. إلخ

ومع كل ذلك تصدر القوانين الأمريكية لحماية «أسعد أقلية فى العالم».. ويأتى أعضاء الكونجرس الأمريكى والدبلوماسيون الأمريكيون والغربيون «ليفتشوا» عن أحوالهم، ويرفعوا التقارير التى تتحدث عن «اضطهادهم»!! وتطلب توقيع العقوبات على مصر وشعبها، وفق القانون الأمريكى - قانون «الحماية والعقاب»! وتصدر «الهيئات القبطية» فى المهجر الكتب والنشرات، داعية إلى تحرير هذه الأقلية من العروبة والإسلام!

هذا هو «الفعل الاستعمارى» فى المسألة الطائفية.. وتلك هى «ردود الأفعال» على هذه التحديات فى تطبيقاتها على الأقلية القبطية فى مصر.. وهى أكبر الأقليات النصرانية العربية عددًا وأهم «الأوراق» التى يحاول الغرب اللعب بها!

وإذا كنا نحذِّر من «الفعل الاستعمارى».. و«النزعة الطائفية الانعزالية» التى تعمل على إحياء اللغة القبطية كما أحيت الصهيونية العبرية؛ كى تحل محل اللغة العربية، التى هى اللغة الوطنية والقومية والحضارية للأمة كلها، على اختلاف أديانها! فإننا ندعو إلى أن تتحمل الأغلبية مسئولياتها الكبرى فى مواجهة هذه التحديات، وفى قطع الطريق على مخططاتها.. وذلك عن طريق:

١ - حل المشكلات الحقيقية التى تعانى منها الأقليات، باعتبارها جزءًا من الأمة، وباعتبار مشكلاتها جزءًا من مشكلات الأمة.

٢ - إدارة حوار داخلى بين «الحكماء»، لتحديد وتمييز «المظالم» الحقيقية من «الأحاسيس الزائفة أو المتضخمة بالظلم»! فالحكماء فى مختلف الفرقاء كثيرون، وهم الممثلون للأغلبية.. وحوارهم هو السبيل لقطع الطريق على القلة العميلة والمعادية، التى صنعها ويغذيها الاستعماريون والصهاينة. وقطع الطريق على الغلو الدينى عند مختلف الأطراف.

٣ – إعمال المنهاج الإسلامي في «مداواة الجراح»، بدلاً من «توسيع هذه الجراح».. فمن الخطأ والخطيئة الاكتفاء بـ«ردود الأفعال»، وخاصة تلك التي تصدر عن العامة والجماهير.. فالتحصين ضد الغوايات، وإقالة العثرات هو الأولى بالاتباع، وليس تصيد الأخطاء.

وعلينا أن نتذكر ما صنعته الأمة – قبل قرنين من الزمان – عندما نجحت غواية الحملة الفرنسية على مصر في اجتذاب «المعلم يعقوب حنا» و«الفيلق القبطي» الذي قاده.. فسقطوا في حظيرة الخيانة لأمتهم وطائفتهم وكنيستهم.. فلقد صدر العفو – بعد هزيمة هذه الحملة سنة ١٨٠١م – عن الذين استجابوا لهذه الغواية.. وصدرت «الفرمانات السلطانية» التي أعلنت هذا العفو، والتي تحذر من الانتقام، ومن فتنة لا تصيبن الذين ظلموا خاصة.. ولقد تحدث «الجبرتي» عن هذا المنهاج في مداواة جراح تلك الغواية، فقال: «لقد نودي بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصراني ولا يهودي، سواء كان قبطيًا أو روميًا أو شاميًا، فإنهم من رعايا السلطان، والماضي لا يُعاد.. وكتبت فرمانات وأرسلت إلى البلاد – (في الأقاليم) – مضمونها، الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة، وعدم التعرض لهم، وفي ضمنها – (أي الفرمانات) – آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل على تداخلهم مع الفرنساوية صيانة أعراضهم وأموالهم، كما قرئت فرمانات فيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم».

فالأقليات جزء أصيل من نسيج الأمة، لهم كل ما للأمة من الحقوق، وعليهم جميع ما عليها من الواجبات.. ومسئولية الأغلبية في صد الغوايات، ومعالجة جراحاتها أكبر بكثير من مسئولية الأقليات

هكذا بدأ.. واستمر.. ويتم اللعب بأوراق الأقليات الدينية والقومية غير المسلمة، وأيضًا المسلمة في وطن العروبة وعالم الإسلام.. وهكذا يجب الوعي بمخاطر هذه التحديات التي تواجه وحدة الأمة وتقدمها.

١٤ اللعب بورقة الأقليات (٥)

إذا كانت هذه هى التحديات التى تواجه الأقليات في واقعنا الراهن، ويواجه بها المشروع «الاستعمارى – الصهيونى» أمتنا، محاولاً استخدام «أوراق» هذه الأقليات لتفتيت هذه الأمة، فما الحل الذى نواجه به هذه التحديات؟

إننا إذا استثنينا «حل» التجزئة والتفتيت للأمة، على أسس دينية ومذهبية وقومية – لأنه ليس «حلاً»، وإنما هو «المشكلة والتحدى» – فإن هناك مشروعين يتم الحديث عنهما لتحقيق التحصين لجسد الأمة ضد هذه التحديات:

أولهما : الحل العلمانى الذى يبشر به العلمانيون، والذى يتصور أصحابه أن «العلمانية» – التى تستبعد المرجعية الإسلامية من السياسة والدولة والقانون والدستور ومشروع النهضة – هى «الحل لمشكلة الأقليات» فى بلادنا، كما مثلت – برأيهم – الحل لهذه المشكلة فى النموذج الحديث والمعاصر للمجتمعات الغربية.

وثانيهما : هو الحل الإسلامى، الذى بدأ به الإسلام التعامل مع «الآخر» كل الوان «الآخر»، والذى حوّل الإسلام به هذا «الآخر» إلى جزء من «الذات»، ذات الدين الإلهى الواحد، فى ظل المرجعية الإسلامية الواحدة.. وهو النموذج الذى كان له الفضل فى إنقاذ أهل الديانات الأخرى من الإبادة، حتى لكأن وجودها وبقاءها فى الشرق هو «هبة» هذا الحل الإسلامى، كما أنه هو الحل الذى عرفته الأمة، واندمج به «الآخرون» مع المسلمين فى أمة واحدة، عبر هذا التاريخ الطويل.

ولما كنا قد سبق وانتقدنا ورفضنا وفندنا «الحل العلمانى»، فى عدد من كتبنا فإننا نكتفى فى هذا المقام بالإشارة إلى أن العلمانية قد مثلت وتمثل «المأزق»، وليس «الحل» لما يسمى «بمشكلات الأقليات».. فالعلمانية وافد غربى.

يستبعد المرجعية الإسلامية، التى هى هوية الأمة، والتى تتمسك بها الأغلبية وقطاعات واسعة من الأقليات. فاستبدال العلمانية بالمرجعية الإسلامية، هو – في الحقيقة – بمثابة فرض قطاع محدود من الأقلية – أى أقلية الأقلية – رأيه على أغلبية الأمة! وتحويل هذه الشريحة إلى «ڤيتو» ضد أغلبية الأمة وهويتها وتاريخها!! وفى هذا تعميق للشقاق على أسس طائفية، وتحقيق لمقاصد التحديات، وليس حلا نواجه به هذه التحديات.. فضلاً عن أنه نفى وإلغاء لجوهر الديمقراطية، التى يجتمع حولها ويتمسك بها الجميع، والتى تعطى الوزن المناسب لرأى الأغلبية فى تحديد مقومات المجتمع، ما دامت لا تنتقص من عقائد الأقليات وحقوقها.. وفوق كل ذلك فإنه يبدو غريبًا الدعوة إلى العلمانية – وهى وافد غربى – لحل مشكلة الأقليات، بعد أن سقطت وأفلست كل الحلول الغربية الوافدة، التى أضاعت أمتنا قرنين من عمرها وهى تجرب النهوض وفق نماذجها!

وإذا كان الحديث عن أقليات دينية، فإن المرجعية الإسلامية – التى عاشت فى ظلالها هذه الأمة أربعة عشر قرنًا، كانت فى أغلبها «العالم الأول» على ظهر هذه الأرض – ليست بديلاً لما تتدين به هذه الأقليات، حتى تكون تحديًا على حريتها فى الاعتقاد الدينى، لأن هذه المرجعية الإسلامية تترك هذه الأقليات وما تتدين به، وتقتصر تطبيقاتها على الجانب المدنى والقانونى والسياسى، الذى ليس له مناظر فى النصرانية التى تدع ما لقيصر لقيصر، وتقف عند ما لله، وخلاص الروح ومملكة السماء، ففقه المعاملات الإسلامى هو اجتهادات بشرية، فى ظل منظومة القيم الإيمانية، التى لا تختلف باختلاف الشرائع السماوية المتعددة، والاجتهادات فيه مفتوحة أبوابها لكل أصحاب العطاء القانونى، على اختلاف الديانات التى يتدينون بها.. فكما جعل الإسلام شريعة من قبلنا شريعة لنا، ما لم ينسخها التطور التاريخى، فتح الباب أيضًا أمام كل أبناء الأمة، على اختلاف مللهم ونحلهم، للإسهام فى البناء لحضارة الإسلام.. ومن ثم فهو يفتح كل الأبواب أمام كل عقول الأمة للإسهام فى بلورة المشروع النهضوى المتميز لهذه الأمة – الأقليات منها والأغلبيات – ومن هنا تصبح المرجعية الإسلامية، فيما وراء ما جاءت به النصرانية من عقائد، حلولاً «وطنية.. وقومية.. وحضارية» لكل أبناء الأمة، تجمعهم على هوية حضارية واحدة، ومشروع نهضوى واحد، فيصبح نهوضهم المعاصر المنشود امتدادًا لتاريخهم فى النهوض

والازدهار الحضارى.. ويصبح فقه «الشافعى» [١٥٠ – ٢٠٤هـ = ٧٦٧ = ٨٢٠م] فقهًا وطنيًا بالنسبة لكل المصريين، لا يمكن أن يتقدم عليه فقه نابليون، الذى جاء غازيًا وقاهرًا لكل المصريين.. وكذلك الحال مع فقه «أبى حنيفة» [٨٠ – ١٥٠ هـ = ٦٩٩ – ٧٦٧م] فى العراق.. وفقه الإمام مالك [٩٣ – ١٧٩هـ = ٧١٢ – ٧٩٥م] فى أقطار المغرب العربى.. إن وطنية النصرانى الشرقى لا يمكن أن تفضل القانون الرومانى، قانون «جستنيان» الذى اضطهد النصرانية الشرقية، على فقه «الليث بن سعد» [٩٤ – ١٧٥هـ = ٧١٣ – ٧٩١م] الذى أفتى بأن بناء الكنائس هو من عمارة البلاد.

١٥ اللعب بورقة الأقليات (٦)

لقد مثلت العلمانية – عندما طبقت فى تركيا، بعد إسقاط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م – نكبة على الأقليات الدينية والقومية، ولم تكن حلاً لمشكلاتها بأى حال من الأحوال، ويكفى أن نعلم أن نسبة النصارى فى سكان الخلافة العثمانية سنة ١٥٥٠م قد كانت ٤١.٨٪ وأنها ظلت حتى بعد انفصال واستقلال بلاد البلقان تمثل ١٩.١٪ من السكان سنة ١٩١٤م فلما جاءت العلمانية أجهزت على هذه الأقلية النصرانية، فلم يبق منها فى سنة ١٩٩١م سوى ٢٪ من السكان! وحتى الاضطهاد، وما يقال عن «الإبادة» التى حدثت للأرمن من سنة ١٩١٥م؛ فإن مرتكبيها هم العلمانيون من قادة «الاتحاد والترقى»، الذين انقلبوا على المرجعية الإسلامية للخلافة العثمانية!

أما حال الأكراد، فى ظل هذه العلمانية التركية – التى يريدونها حلاً لمشكلات الأقليات – فهو لا يقل سوءاً – رغم إسلامهم – عن حال النصارى.. فهم محرومون من الحديث بلغتهم، فضلاً عن التعليم والكتابة بها! بل ومحرومون من أن يسموا أبناءهم وبناتهم بالأسماء التى يريدون!!

إن الأقليات – غير المسلمة – وكذلك المسلمة – قد عاشت وتعايشت وأمنت وازدهرت فى ظل المرجعية الإسلامية، فى ظل شريعة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».. ولم تعرف المشكلات إلا فى ظل الاستعمار وغواياته.. وفى ظل العلمانية التى جلبها إلينا هذا الاستعمار.. وصدق «الأنبا موسى» عندما قال عن حال أقباط مصر فى ظل الخلافة العثمانية: «.. حينما نذكر الأقباط أيام الدولة العثمانية، كانوا مع إخوانهم المصريين لهم دور مشترك.. وكثير من الأقباط عملوا وشاركوا بشكل واضح فى الحياة السياسية فى عهد محمد على».

بل إن هذه العلمانية، ذات النشأة الأوربية، قد تحولت إلى «مأزق أوربي»، همش المسيحية فى أوربا، وجعل مجتمعاتها فراغًا دينيًا، انصرف فيه أغلبية الناس عن الإيمان الدينى، حتى لتغلق الكنائس وتباع! ثم عجزت هذه العلمانية عن أن تملأ هذا الفراغ، وتجيب عن أسئلة النفس الإنسانية التى يجيب عنها الدين.. وبشهادة القس الألمانى - عالم الاجتماع - الدكتور «جوتفرايد كونزلن»: «فلقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى.. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى.. ومن نتائج العلمانية فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملاً.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هى التى تصنع القانون. وهى التى تمنح الحرية الدينية.

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينًا حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوى دنيوية هى العقل والعلم.. لكن وبعد تلاشى المسيحية فى أوربا، سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة عن أسئلة الإنسان التى كان الدين يقدم لها الإجابات، فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل تفككت أنساقها - العقلية والعلمية - بعدمية ما بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة.. فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث.. وتحققت نبوءة «نيتشه» [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون (نجمهم) الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد واحد لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه».. وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ - ١٩٢٠م]: «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم!

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوربا. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوربى، عندما أصبح معبدها العلمى عتيقًا! ففقد الناس «النجم» الذى كانوا به يهتدون»!

هكذا تحدث «قس.. وعالم اجتماع» عن تحول العلمانية – فى بلاد نشأتها – إلى مأزق، عندما هزمت الدين الإلهى، ثم لحقت الهزيمة «بدينها الطبيعى»، ففقد الناس «النجم الذى به يهتدون»!

فهل يريد العلمانيون – بسبب الأقليات الدينية – أن تدخل فى هذا الطريق، وهذا «المأزق» الذى دخل فيه الغربيون؟ وألا تفيق النصرانية فى بلادنا، فتعلن رفضها «لكأس السم» التى تجرعتها النصرانية الأوربية.. وتدرك أن منظومة القيم الإيمانية – التى تتفق فيها كل الأديان – لابد أن تكون لها السيادة فى حياتنا.. وأن الشريعة الإسلامية هى أرعى للنصرانية والنصارى من العلمانية والعلمانيين؟!

وفى هذا الإطار، علينا أن تذكر ونذكِّر بالكلمات العاقلة والحكيمة التى رأت وترى «جوامع الإسلام» – فى الشريعة والحضارة – باعتبارها «جوامع الأمة»، وليست «خصوصية» للمؤمنين بالإسلام، دون الآخرين.. أن نتذكر:

■ كلمات البابا «شنودة الثالث» بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية، التى قال فيها: «إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة الإسلامية، يكونون أسعد حالاً وأكثر أمنًا، ولقد كانوا فى الماضى حينما كان حكم الشريعة هو السائد.. نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن، وتطبقها علينا، ونحن ليس عندنا ما فى الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام؟!».

ولقد رحب – البابا «شنودة» – أخيرًا بالحلول الإسلامية التى يقدمها الفقه الإسلامى لمشكلات الأسرة المسيحية – ومنها قانون «الخُلع» – وقال – رغم معارضات متعصبة ترفض «الخلع» لا لشىء إلا لمصدره الإسلامى!: «إن الخلع مبدأ موجود منذ القديم فى الشريعة الإسلامية، ولم يكن عديد من الناس على معرفة به. وبمقتضى مبدأ الخلع من حق المرأة أن تطلب الانفصال عن زوجها لأسباب تبينها للمحكمة، منها استحالة الحياة الزوجية بينهما.. وإذا كان قانون الخلع يسمح للمرأة المسلمة بأن تستفيد من هذا الوضع، فما المانع من أن تستفيد منه المرأة المسيحية؟ فالمعروف فى القانون هو عمومية القانون، فلا نطبقه فى حالة معينة لفائدة البعض ونرفضه فى حالة أخرى لفائدة البعض الآخر. إذن، الخلع يسمح للمرأة، مسيحية كانت أو مسلمة، أن تتخلص

من الزوج المتعب، وبخاصة لو كانت هناك أسباب تجعل استمرار الحياة المشتركة بينهما مستحيلا».

فالوحدة الوطنية، من مقوماتها - بعد وحدة منظومة القيم، ووحدة المدرسة - وحدة المحكمة، ووحدة القانون، ما دام ليس هناك نص دينى قطعىّ وجلىّ مخالف للشريعة العامة - الشريعة الإسلامية - ففيما يتعلق بمثل هذا النص يُترك غير المسلمين وما يدينون.. أما فى فقه المعاملات - ومنه أغلب قوانين الأحوال الشخصية.. وكل القوانين المدنية والجنائية والتجارية والدولية - فالفقه الإسلامى فيها قانون مدنى عام لكل الأمة، على اختلاف عقائدها الدينية..

هكذا.. بأصوات العقلاء نواجه الجهلاء والدهماء والأعداء!

١٦ اللعب بورقة الأقليات (٧)

في الحديث عن مستقبل الوحدة الوطنية في بلادنا، والتي يجب أن نحرص عليها حرصنا على عيوننا يجب أن نتذكر كلمات القائد الوطني «مكرم عبيد باشا» [١٣٠٧ - ١٣٨٠هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦١م] التي يقول فيها: «نحن مسلمون وطناً، ونصارى ديناً.. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصاراً.. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين».

- ولقد فصّل هذه الحقيقة أبو القانون المدني الحديث، القاضي العادل الدكتور «عبدالرزاق السنهوري باشا» [١٣١٣ - ١٣٩١هـ = ١٨٩٥ - ١٩٧١م] عندما تحدث عن «جامع الإسلام.. وشريعته.. وفقه المعاملات فيه» باعتبارها مقومات الوحدة للأمة جمعاء، فقال: «إن الإسلام دين ومدنية.. والمدنية الإسلامية لا تعني مجتمعًا من المسلمين فقط، وإنما تعني مجتمعًا ذا طابع فذ من المدنية قدمها لنا التاريخ كثمرة للعمل المشترك، ساهمت فيه جميع الطوائف الدينية التي عاشت وعملت معًا جنبًا إلى جنب تحت راية الإسلام، والتي قدمت لنا بذلك تراثًا مشتركًا لجميع سكان الشرق الإسلامي.. إن المدنية الإسلامية هي ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين في الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية.. والشريعة الإسلامية لا ينبغي الاقتصار على كونها صالحة لتطبيقها على المسلمين وحدهم في العصر الحاضر، بل على غير المسلمين أيضًا، وذلك دون إرغام غير المسلمين على اتباع خلاف عقائدهم؛ ولذلك يجب أن تكون حركة إحياء الشريعة الإسلامية مبنية على أساس لا يتناقض مع هذه المعتقدات.. وأن يشترك في هذه الحركة الإحيائية، إلى جانب المسلمين، غيرهم من الشرقيين غير المسلمين، القانونيون منهم والاجتماعيون، وأن نطبق قاعدة: أن الشريعة الإسلامية تكملها الشرائع الأخرى ما لم تتناقض معها هذه الشرائع..».

فالعلمانية ليست الحل.. بل إنها هى «المأزق» الذى يشكو منه عقلاء الأوروبيين والغربيين الذين شربوا كأسها المسمومة.. وحرام أن يظل العلمانيون فى بلادنا مثل أهل الكهف.. يبشرون «بالحداثة الغربية» بعد أن تجاوزها أصحابها إلى عدمية وتفكيك «ما بعد الحداثة»!! ويدعون إلى العلمانية بعد أن أفلست فى المجتمعات التى نشأت فيها، وشهد العالم ويشهد صحوات دينية حتى عند أهل الديانات الوضعية، ورأينا ونرى «اللغة الدينية» و«المقاصد الدينية» تسود حتى فى ميادين السياسة بالبلاد التى ظننا أنها علمانية حتى النخاع

إذن، يجب أن نتوجه جميعًا إلى الشرق.. وأن نحذر ونتخلص من غوايات الغرب.. وأن نخلص الولاء والانتماء لمقومات حضارتنا الواحدة الجامعة، الحضارة الإسلامية، التى ورثت واستوعبت وأحيت كل المواريث الحضارية التى سبقت ظهور الإسلام، والتى شاركت فى بنائها كل شعوب الشرق، على اختلاف عقائدها الدينية.. فالتغريب، والغوايات الغربية، والاختراق الغربى لأمن أمتنا الوطنى والقومى والحضارى.. هى المخاطر المحدقة بوحدتنا الوطنية والقومية والحضارية..

■ ولنتذكر كلمات شهيد الحرية عبدالرحمن الكواكبى [١٢٧٠ – ١٣٢٠هـ = ١٨٥٤ – ١٩٠٢م] – قبل قرن من الزمان –: «يا قوم، أليس مطلق العربى، أخف استحقارًا لأخيه من الغربى؟! هذا الغربى قد أصبح ماديًا لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الدينى إلا مخادعة وكذبا فالذين يطاردون الدين – [بالعلمانية] – فى بلادهم، لا تكون دعواهم الدين فى الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الشباك!».

■ فنحن جميعًا شرقيون، حضارة ومدنية وقيمًا.. وبعبارة «السنهورى باشا»: «..الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق، وإنهما لشىء واحد.. وأمتنا ذات مدنية أصيلة، هى اكثر تهذيبًا من المدنية الاوربية.. وليست هى الامة الطفيلية التى ترقع لمدنيتها ثوبًا من فضلات الأقمشة التى يلقيها الخياطون»!

وإذا كان أسلافنا قد علمونا: «أن صلاح آخر هذه الأمة لن يكون إلا بما صلح به أولها».. فإن المنهاج الإسلامى الذى جعل «الآخر» جزءًا من «الذات» – ذات الأمة.. والرعية.. والدولة.. والقومية.. والحضارة – بل والدين الإلهى الواحد، مع الاختلاف فى الشرائع، هو أصلح المناهج لبناء الوحدة الوطنية والقومية

والحضارية لشعوب الأمة الإسلامية، هذه الوحدة التي نواجه بها مختلف الغوايات وجميع التحديات..

وعلينا أن نتذكر - كمنطلق لنا في هذا المقام - كلمات رسول الإسلام، ورحمة الله للعالمين، وخاتم النبيين والمرسلين، والمصدق لما جاءوا به أجمعين، ومحرر الشرق والشرقيين، وباني نهضة هذه الأمة، عندما أعطى العهد والميثاق لغير المسلمين، أن يكونوا «مع المسلمين أمة واحدة، بينهم النصر والنصح والنصيحة والأسوة والبر دون الإثم.. لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا شركاء فيما لهم وفيما عليهم.. وأن أحرس دينهم وملتهم بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي..».

ذلك هو دستور العدل والإنصاف لوحدة الأمة، مع كل الحقوق والحريات في التنوع الديني، في ظل الولاء والانتماء لحضارتنا المشتركة والواحدة.. حضارة الإسلام.

١٧ اللعب بورقة الأقليات (٨)

وإذا جاز لنا، في ختام هذه الدراسة أن نرشح «لجماعة الحكماء»، التي يجب أن تأتلف، لتدير الحوار الموضوعي حول مشكلات الأقليات، والتحديات التي تواجه الأمة بسبب استغلال الغرب الاستعماري لهذه المشكلات.. إذا جاز لنا أن نرشح «النقاط الساخنة»، التي يجب أن تتصدر «جدول أعمال» هذا الحوار، فإننا نرشح:

أولاً : ضرورة استبعاد الأوهام التي تروجها قطاعات أقباط المهجر، تلك التي سقطت في شباك الغواية الصهيونية الغربية، والتي تزعم أن العروبة والإسلام طارئان على الشرق، ويجب «تحرير» النصرانية الشرقية منهما!! فليست هناك - ولا يعقل أن تكون - «امتيازات للأقدمية الدينية».. فدين الله واحد، والتعددية والتوالي إنما هما في الشرائع والنبوات والرسالات، التي هي معالم على طريق الوصول إلى الله.. فالمسلمون الفرس هم إيرانيون زرادشتيون أسلموا، وليسوا طارئين ولا وافدين على إيران.. وكذلك المسلمون المصريون، هم مصريون - أي أقباط - أسلموا، وليسوا مهاجرين من شبه الجزيرة العربية إلى مصر.. وعلى الذين يزعمون أن المسلمين في المشرق والمغرب هم مهاجرون طارئون على البلاد التي فتحها المسلمون، أن يتعلموا ويعلموا حقائق «الديموجرافيا» التي كتبها ونشرها العلماء غير المسلمين، والتي تقول:

■ إن كل سكان شبه الجزيرة العربية في عهد الخلافة الراشدة - أي عصر الفتوحات - كان عددهم ١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة فقط بينما كان عدد سكان مصر والشام والعراق وفارس وحدها - أي باستثناء المغرب - ٢٩,٠٠٠,٠٠٠ نسمة.. فحتى لو هاجر كل سكان شبه الجزيرة العربية - وهذا لم يحدث - إلى البلاد التي

فتحها المسلمون لما كان لذلك أى أثر «ديموجرافى» على التركيبة السكانية الأصلية لتلك البلاد.

وإذا كانت قد تمت هجرات عربية مسلمة محدودة العدد إلى تلك البلاد، فلقد تمت إليها هجرات أرمنية ويونانية وقبرصية مسيحية أيضًا.

وعلى الذين يقولون إن الإسلام «وافد» على النصرانية فى تلك البلاد، أن يتذكروا أن النصرانية «وافدة» على تلك البلاد أيضًا بل هى وافدة حتى على الفاتيكان! كما أن اليهودية «وافدة» على كل البلاد التى دخلتها، بما فى ذلك فلسطين! وإذا كانت «الأقدمية الدينية» ميزة وامتيازًا، فلربما كان الفوز بهذا الامتياز هو للذين يعبدون «العجل أبيس»!!

فعلينا أن نبدأ حوار الحكماء بتبديد هذه الأوهام.

وثانيا: أن المساواة فى حقوق المواطنة - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - هى حق إلهى، بحكم خلق الله سبحانه وتعالى، للإنسان - من الأقليات أو من الأغلبيات كان هذا الإنسان - فهذه المساواة ليست مجرد حق من حقوق الإنسان، تمنح أو تمنع تبعًا لدرجة التسامح فى المجتمع والدولة، وإنما هى «حق إلهى» بحكم الخلق والتكريم الإلهى لمطلق الإنسان.

وإذا كان الحق فى بناء دور العبادة، وفى إقامة الشرائع الدينية فيها، هو مما كفله الإسلام، بل وأوصى الدولة الإسلامية بأن تعين وتساعد عليه غير المسلمين.. قرر الإسلام ذلك، وطبقه قبل أى حديث عن حقوق الإنسان.. ولما كانت هذه القضية قد اكتسبت الكثير من الحساسية، لكثرة ما قيل فيها وعنها، ولما اختلط فى أوراقها من حق ومن أكاذيب.. فإن الاقتراح الذى نقدمه - للحوار حوله - بصددها، هو الذى سبق واقترحه شيخنا محمد الغزالى - عليه رحمة الله - فى الندوة التى دعت إليها نقابة المهندسين - بمصر - منذ سنوات، والتى حضرها معنا البابا «شنودة الثالث».. وفيها اقترح الشيخ الغزالى أن يعطى كل أهل دين مساحة من الأرض لبناء دور عبادتهم عليها، مساوية لنسبتهم العددية إلى السكان.. فهذا هو المعيار العادل الذى يخرج هذه القضية الحساسة والحيوية من غلو الغلاة، كل الغلاة.. غلو الذين يضيقون ببناء الكنائس.. وغلو الذين يريدون لبناء الكنائس أن يكون مظهرًا من مظاهر «الاستقواء» والتغيير لهوية المجتمع، لحساب الهوية المستوردة التى لا علاقة لها بهويتنا المشتركة.

وثالثًا: إذا كان من غير المتصور أن تفرض الأقلية الدينية على الأغلبية منهاجها ومذهبها فى «الدولة»، كأن يسعى المسلمون، فى فرنسا - مثلا - بملايينهم الخمسة، إلى فرض «الدولة الإسلامية وشريعتها» على الأغلبية العلمانية للشعب الفرنسى، أو أن يمثلوا «فيتو» على التوجه العلمانى للأغلبية - وكذلك الحال مع أكثر من مائتى مليون مسلم فى الهند - لأن «هوية الدولة» - بالمنطق الديمقراطى - هى خيار الأغلبية.. فإن هذه «الدولة» - التى تكون علمانية مع الأغلبية العلمانية، وإسلامية مع الأغلبية الإسلامية - مطالبة بألا تجور هويتها - علمانية كانت أو إسلامية - على الحق الإلهى والمقدس للأقليات فى حرية الاعتقاد الدينى، وإقامة شعائر وفرائض الدين.

فالأقليات الإسلامية فى البلاد العلمانية، مطالبة باحترام القانون الوضعى، بشرط أن يراعى هذا القانون حريتها فى الاعتقاد الإسلامى وإقامة الفرائض الإسلامية، ومراعاة الحلال والحرام الدينى فى أحوالها الشخصية وحياتها الأسرية، وعدم التجريح لمقدساتها..

والأقليات غير المسلمة، فى المجتمعات ذات الأغلبيات المسلمة، مطالبة باحترام قوانين وفقه الشريعة الإسلامية، خصوصًا وأن هذه القوانين مرجعيتها منظومة القيم الإيمانية المشتركة، والجانب المدنى والقانونى الإسلامى، الذى لا بديل له ولا نقيض فى النصرانية، وإنما هو بديل ونقيض للقانون الغربى العلمانى، الذى جاءنا فى ركاب الغزاة والمستعمرين.. فالقانون الإسلامى هو قانون «وطنى.. وقومى» بالنسبة لغير المسلمين، مع ضرورة مراعاة ألا يتعارض بند من بنود هذا القانون مع نصٍّ دينى جلىٍّ جاء به الدين لغير المسلمين».

بهذه القضايا، الأكثر حساسية، والأكثر عرضة للاستغلال، يجب أن يبدأ الحوار بين الحكماء..

وإذا كانت أوراق الأقليات قد تحولت - على يد الهيمنة الغربية - من «نعمة التنوع فى إطار الوحدة» إلى «نقمة تشرذم وتفتيت» فإن العقلاء والحكماء، من مختلف الفرقاء، يجب عليهم إنقاذ الأديان من هذا الاستغلال الاستعمارى. وإنقاذ الأقليات من هذا الذى تصنعه الغواية والخيانة بأقلية قليلة، أرادت وتريد تعميم جريمتها على الأغلبيات الساحقة من أبناء الأقليات.

إن التعصب رذيلة، بصرف النظر عن دين المتعصبين.. أما السقوط في شباك الغواية الاستعمارية فهو الخيانة للوطن.. وللدين معا.. ولنتذكر - مرة أخرى - الخيار الصهيوني للأقليات - كما جاء في مقررات «ندوة التسعينيات» - والذي قالوا فيه: «إن هذه الأقليات هي شريكة لإسرائيل في المصير، وفي الوقوف ضد الإسلام والقومية العربية»!! أعاذ الله أمتنا من شرور الغواية.. وحرسها من تحديات الخيانة.. ووفقنا جميعًا - أقليات وأغلبيات - إلى ما يرسخ وحدة أمتنا، ويعيد لها أسباب النهوض، لتأخذ مكانها ومكانتها الجديرة بدورها التاريخي، الذي تعلمت منه الكثير من الأمم والحضارات..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٨ قانون الاحتكاك بين الحضارات

بسبب ثورة وسائل الاتصال زاد الاحتكاك الحضارى، بين مختلف الحضارات والثقافات، فى العصر الذى نعيش فيه.. لكن هذا الاحتكاك الحضارى والثقافى قديم، وليس وليد عصرنا الحديث أو واقعنا المعاصر.

والذين يتتبعون موجات العلاقات والاحتكاكات بين الحضارات – عبر التاريخ المدون للإنسانية – يجدون قانونا قد حكم هذه العلاقات والاحتكاكات.. فكان هناك تفاعل حضارى في ميادين «المشترك العام» بين هذه الحضارات والثقافات.. وكانت هناك خصوصية وتميزٌ فيما تتمايز فيه وتختص كل حضارة من هذه الحضارات، فلم يعرف هذا التاريخ الحضارى والثقافى – فى أوضاعه الصحية والسوية – غلو «القطيعة – والتضاد» بين هذه الحضارات.. ولا غلو «المماثلة – والمحاكاة».. وإنما كان هناك «التفاعل الحضارى»، والتمايز – فى ذات الوقت – بين هويات وخصوصيات ونماذج هذه الثقافات والحضارات.

فالإغريق انفتحوا على المصريين القدماء، لكن تأثرهم وقف عند ثمرات «العقل» دون أن يتجاوزها إلى عالم «الروح» و«الوجدان».. فلم يأخذ الإغريق عقائد المصريين القدماء فى الروح والغيب والخلود والحساب والجزاء والتوحيد..

والمسلمون انفتحوا على الحضارة الهندية، لكنهم أخذوا عن الهنود الفلك والحساب، دون الفلسفات والعقائد والثقافات.. وكذلك صنعوا فى انفتاحهم على الفرس، عندما أخذوا عنهم التراتيب الإدارية، ورفضوا – فى ذات الوقت – مذاهبهم الفلسفية وعقائدهم الدينية.. وعن الرومان البيزنطيين أخذ المسلمون تدوين الدواوين، ولم يأخذوا القانون الرومانى.. وكذلك كان الحال فى الانفتاح على تراث الإغريق، فلقد أخذ المسلمون العلوم التجريبية التطبيقية المحايدة،

وأهملوا النظر فى إلهيات اليونان، بل وأهملوا النظر - ومن ثم الترجمة - للآداب الإغريقية؛ لما حملت من أساطير وثنيتهم، ولما جسدت من روح الوثنية فى ذلك التراث.

وذات القانون نراه فاعلاً إبان انفتاح النهضة الأوربية الحديثة على تراثنا الإسلامى. فلقد أخذوا العلوم التجريبية، التى طورها المسلمون، وأخذوا إبداع أسلافنا فى المنهج التجريبى والملاحظة والاستقراء - وهو الذى فتح به المسلمون باب التجاوز للقياس الأرسطى - لكن الأوربيين لم يأخذوا نموذجنا الثقافى الإسلامى، بل قد أحيوا النموذج الإغريقى والرومانى مع استلهامهم من تراثنا العلوم الطبيعية والمنهج التجريبى، فنهضوا كامتداد متطور للإغريق والرومان، ولم يقفوا من نموذجنا الثقافى موقف التبعية أو التقليد والمحاكاة.

بل لقد كان تعامل النهضة الأوربية مع فيلسوفنا أبى الوليد ابن رشد نموذجًا لإعمال هذا القانون الذى حكم احتكاك وتفاعل الحضارات.. فأخذوا «ابن رشد: الشارح لأرسطو» وأسموه «الرشدية اللاتينية»: لأن هذه بضاعتهم ردت إليهم.. ورفضوا - بل أدانوا - «ابن رشد: الموفِّق بين الحكمة والشريعة» و«المتكلم الذى أقام العقيدة الدينية على العقلانية المؤمنة» و«الفقيه الذى كان يقضى بالشريعة الإسلامية»؛ لأن هذا النموذج الثقافى الإسلامى - أو «الرشدية الإسلامية» - كان مغايرًا للنموذج الثقافى لـ«الرشدية اللاتينية»: تلك التى استبدلت العلمانية باللاهوت، وألَّهت العقل، عندما أصبحت عبارة: «لا سلطان على العقل إلا العقل» هى شعار فلسفة وفلاسفة التنوير!

بل إن بواكير نهضتنا الحديثة - وخاصة مصر فى عهد محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩م] - قد جسدت إعمال هذا القانون فى علاقة الذات الثقافية ونموذجها بالآخر الثقافى ونموذجه.

فرفاعة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م] هو الذى دعا إلى التتلمذ على أوربا فى «العلوم الحِكْمِيَّة العملية.. والمعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقدم الوطنية؛ لأنها - وإن ظهر الآن أنها أجنبية - هى علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة»؛

فدعا الطهطاوى إلى التفاعل مع معارف وحقائق وقوانين هذه العلوم، مع إحياء النموذج الثقافى الإسلامى، وذلك «بنشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة».

بل لقد أكد الطهطاوى تميز النموذج الثقافى الإسلامى عن النموذج الأوربى عندما قال: إن لهم فى «الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وهم من الفِرَق المحَسِّنة والمقَبِّحة بالعقل والنواميس الطبيعية وحدهما.. أما نحن المسلمين، فليس لنا أن نعتمد على ما يُحَسِّنُه العقل أو يُقَبِّحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع».

ففى علوم التمدن المدنى تتلمذت نهضتنا على أوربا.. وفى الفلسفة والعقيدة والثقافة والقيم احتفظنا بخصوصيتنا.. وذلك إعمالاً للفطرة السوية، وقانون الاحتكاك بين الحضارات.

١٩ الوعى بالآخر شرط للوعى بالذات

قديما قال أسلافنا: «والشيء يظهر حسنه الضد».. «وبضدها تتميز الأشياء»..

لذلك يستحيل علينا أن ندرك خصوصياتنا الثقافية والحضارية إذا نحن انغلقنا على تراثنا وحده، وثقافتنا دون سواها.. فمعرفة «الآخر» الثقافى والحضارى شرط لإدراك تميز «الذات» الثقافية والحضارية عن هذا «الآخر».. وبدون هذه النظرة «العارفة.. والمقارنة» لا سبيل لإدراك مناطق الاشتراك – ومن ثم التفاعل – ومناطق التمايز – ومن ثم الخصوصية – فى العلاقة بيننا وبين الآخرين.

وعلى سبيل المثال.. فجوهر الاعتقاد الإسلامى هو «التوحيد» للذات الإلهية، فى أرقى مستويات «التنزيه – والتجريد».. فالوجود الإلهى هو وجود متسام ومنزه عن وجود الاستخلاف، الخاص بالإنسان، والذى برئ من كل شبهات الاتحاد والحلول بين الله والإنسان، وفى ذات الوقت جعل للإنسان – الخليفة – بعدًا ربانيًا؛ لأن الله قد نفخ فيه من روحه، واستخلفه – تكريمًا له – لعمران الأرض واستعمارها.

وهذه النظرة الفلسفية الإسلامية تجعل حضارتنا الإسلامية حضارة تتمحور حول الله، لا حول الطبيعة، أو الإنسان.. وذلك دون احتقار للطبيعة، أو تهميش للإنسان.. فالطبيعة فيها مخلوقة لله – سبحانه وتعالى – لها حياة.. بل ولها عبادتها، التى تسبح فيها لله، وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح.. فنحن نتعامل معها لا بـ«القهر» وإنما بالإخاء والارتفاق!

كما أن هذه النظرة الإسلامية – التى لا تؤله الإنسان – ولا تتمحور ثقافتها الإسلامية حوله.. لا تهمش هذا الإنسان؛ لأنه – فيها – المخلوق الذى اختاره الله خليفة له.. ونفخ فيه من روحه.. وحمله الأمانة التى أبت حملها المخلوقات الإلهية الأخرى.. حتى لقد كرمه الله، وفضله على الملائكة المقربين.

وعدم تمحور الثقافة الإسلامية حول الإنسان يعنى عدم استقلاله عن الله – دون أن يكون هناك خلط بين «الاستخلاف» وبين «الحلول» –.. وعدم استقلال الإنسان عن الله يعنى نسبية قدراته وعلومه ومعارفه ومدركاته.. فهو – بالاجتهاد – عالم وعارف، لكن الاجتهاد الإنسانى لا يعدو أن يكون الاستنباط للحكم الظنى والنسبى، بينما العلم المطلق والكلى والمحيط هو لله – سبحانه وتعالى – ولذلك، فمع أن التعقل الإنسانى والعقلانية هى فريضة، إلا أنها لا تستقل بمعرفة المطلق، وخاصة فى نبأ الغيب ووحى السماء.

وفى مقابل هذه الفلسفة الإسلامية، نرى – فى الفكر الغربى – فلسفة «الحلول» الإلهى فى الإنسان، فالإنسان ليس «خليفة» لله.. وإنما هو «صورة الله»! ولذلك أدى هذا التأليه للإنسان إلى قيام الفلسفات التى جعلت الثقافات تتمحور حول الإنسان، وليس حول الله.. فكانت شعارات التنوير الغربى: «لا سلطان على العقل إلا للعقل»! وكانت العلمانية، التى رأت الإنسان مكتفيًا بذاته، والعالم مكتفيًا بذاته، لا حاجة بهما إلى رعاية إلهية وتدبير إلهى وشريعة تأتى من وراء هذا العالم وخارج عقل وحواس هذا الإنسان!

بل إن فى الموقف الإسلامى، الذى يقف بالإنسان عند درجة «الخليفة»، لا «الحلول» و«التأليه»، العصمة من الكهانة والكهنوت، اللذين فتحا الباب فى الفكر الغربى ليكون فريق من بنى الإنسان ممثلين لسلطان الله، يحكمون بحقه، ولا يُسألون عما يفعلون، ويملكون سلطان الغفران والحرمان فيما هو خاص بالله! لقد ابتلى الغرب بالكهانة والكهنوت – بسبب فلسفة «الحلول» و«التأليه» للإنسان، لا فى الإطار الكنسى وحده – كما هو شهير –.. وإنما – أيضًا – فى «تأليه الدولة».. و«تأليه الطبقة».. و«تأليه الحزب».. و«تأليه الفرد».. على النحو الذى شاع فى فلسفات الغرب ومذاهبه الاجتماعية والاقتصادية.

ففى مقابل «مركزية الطبيعة»، و«الإنسان الطبيعى» – فى الفكر الغربى – والتى أثمرت «علمنة المعرفة والحياة»، نجد – فى الفكر الإسلامى – التمركز حول «وحدة الله» – على المستوى الوجودى – التى تؤدى إلى عقيدة «وحدة الحقيقة»، و«وحدة الحياة»، على نحو من التراتب – وفق الاستخلاف الإلهى للإنسان – يحول دون علمنة الحياة والمعرفة والقيم فى الثقافة الإسلامية.. فالاستخلاف، والأمانة التى حملها الإنسان، هما أصل القيم المعيارية الإسلامية.. والعهد

٢٠ الوعى بالذات والواقع المحيط

تمثل «الاستنارة» حالة كيفية ونوعية من «الوعى – الفاعل» بحقيقة «الذات»، و«الواقع»، و«المحيط».. فلا بد فيها من الوعى «بالذات الحضارية والثقافية»، والمعرفة الواعية «بالآخر الحضارى والثقافى» أيضا.

والذين تقف ثقافتهم عند موروثهم الفكرى لا تتعداه، هم – فى أحسن الأحوال – كمن ينظر بعين واحدة، فلا يبصرون إلا ذاتهم، أو كالأعمى الذى لا يدرك من الوجود غير جسده الذى يتحسسه بيديه!

وكذلك حال ثقافة الذين ضربت عقولهم فى «المصانع الفكرية» للحضارات الأخرى، الذين جهلوا مواريثهم، وهوية أمتهم، وثقافة الحضارة التى يحملون أسماءها وإلى شعوبها ينتسبون.

إنهم مستنيرون.. لكن استنارتهم لا ترى غير الآخر، ولهم وعى، لكن وعيهم لا يدرك الذات الحضارية التى يستظلون بعنوانها العقدى والوطنى والقومى والثقافى.

ومن هنا، كانت الاستنارة الكاملة الفاعلة هى الوعى الحقيقى «بالذات الحضارية»، و«بالآخر الحضارى»، وإدراك وإعمال قوانين الأخذ والعطاء، والتفاعل الصحى بين تيارات الفكر الإنسانى، وثمرات العقول فى مختلف الثقافات والحضارات.

فالذين يكتفون «بذاتهم» الثقافية والحضارية، لابد وأن يقودوا هذه «الذات» إلى الذبول والاضمحلال، مثلهم فى ذلك كمثل المضرب عن الطعام، يعيش على الذات حتى يستهلك مكوناتها!

وكذلك الذين يتجاهلون أو يجهلون «الذات» الثقافية والحضارية لأمتهم، ويتقمصون «ذوات» الآخرين، لابد وأن تنتهى هذه «الذات» – التى فرطوا فيها – إلى الذبول والاضمحلال!

فمعرفة النفس لا تغنى عن معرفة الآخرين.. والعكس صحيح.

ولا يحسبن أحد أن هذا المنهاج – فى الاستنارة الحقيقية – هو وليد الواقع المعاصر، وما شهد ويشهد من تسارع وتعاظم فى ثورة وسائل الاتصال.. فمن القرآن الكريم نتعلم المنهاج الذى يدعونا – بعد الوعى بالذات، واليقين بالحق الذى نؤمن به، وننتمى إليه، ونجاهد فى سبيله – يدعونا هذا المنهاج القرآنى إلى التعرف إلى الآخرين.. بل والتأمل فيما يقولونه عنا، والتدبر فى «صورة ذاتنا» لدى هؤلاء «الآخرين»

■ إن عالمية الإسلام تفرض على أمته – كى تحقق القيام بفريضة الدعوة إليه – تحقيق مستويات ثلاثة فى الدعوة إلى هذا الدين:

١ – تبليغ الدعوة الإسلامية إلى الآخرين.

٢ – وإقامة الحجة، بصدق الإسلام، على هؤلاء الآخرين.

٣ – وإزالة الشبهة، عن الإسلام، لدى هؤلاء الآخرين.

وبدون المعرفة بالآخر، والوعى بما لديه من عقائد و«أيديولوجيات»، ومواريث فكرية وثقافية، يستحيل إنجاز هذه الأركان فى فريضة الدعوة إلى الإسلام.

■ وليس كالقرآن كتاب اعتمد «المقارنة» منهاجًا فى إثبات الحق الإسلامى، عندما عرض هذا الحق مقارنًا بما لدى الشرك والوثنية والإلحاد والتحريف من دعاوى ومواريث.. ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وفى تقرير صفات الكمال للذات الإلهية ينساب المنطق القرآنى إلى العقول والقلوب عندما يأتى فى معرض المقارنة مع بضاعة الآخرين: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢].

■ وليس كالقرآن كتاب سعى إلى استنطاق الآخرين كل ما لديهم من «حجج وبراهين» على ما يعتقدون: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

فالقرآن هو كتاب الشريعة الخاتمة.. والعالمية.. لذلك كان منهاجه فى المقارنة ليبرز التميز الذى جعله المصدق لما سبقه.. وأيضًا المهيمن بالإكمال والتصحيح

٢١ الاهتمام بـ«بضاعة» الآخرين

ليس كالقرآن كتاب اهتم بـ«بضاعة» الآخرين – العقدية والفكرية – على ما بها من سقم وعوج وتهافت.. فهو يثبت ما تحدثوا به عنه – وهو المعجز المتحدى – عندما قالوا ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ...﴾ [الأنبياء: ٥].

ويثبت ما وصفوا به الصادق الأمين ﷺ عندما قالوا عنه: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

ويثبت الفلسفة الدهرية – على بؤسها – عندما تعلقوا بحبالها: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويخلّد «منطقهم» العجيب، الذى انحاز للشرك، متعجبًا من التوحيد! ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

يتتبع القرآن الكريم «مقالات» الآخرين فيفندها، ثم لا يطوى صفحتها متجاوزًا إياها، وإنما يثبتها آيات فى سوره نتلوها ونتعبد بها، ليرسى دعائم هذا المنهاج فى مقارنة العقائد والفلسفات والأفكار.

بل إننا نتعلم من هذا المنهاج القرآنى أن الذين يصادرون الفكر الآخر، ويغلقون دونه الأسماع والأبصار إنما كانوا هم المشركين.. فتجاهل الفكر الآخر، والصد عن سماعه وتأمله وتدبره ليس منهاج أهل الإيمان.. والمشركون هم الذين يلهون ويصرفون أنفسهم وذويهم عن القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦] فلقد رفعوا شعار التعمية على هذا الذى خالف ما وجدوا عليه آباءهم وكبراءهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فلقد حسبوا أن الراحة والغلب فى التعمية على هذا الذى لم يألفوه، والكتمان لهذا الذى يريدون، والمصادرة لهذا الذى لا يريدون!

هذا هو المنهاج القرآنى فى التعامل مع الفكر الآخر - حتى عندما كان شركًا صريحًا وكفرًا بواحًا ووثنية جاهلية ودهرية حيوانية، مصادمة للفطرة السوية التى فطر الله عليها الإنسان فى الإيمان-.

واليوم.. ونحن نعيش واقعًا عالميًا، إن هدأت فيه أدوات القتال الدامى حينًا اشتدت فيه آليات التدافع الفكرى، بل والغزو الثقافى.. والاجتياح الإعلامى، فى كل الأحايين.. فى هذا الواقع، نرى فكر الآخرين يقتحم عقولنا وقلوبنا حتى مخادعنا التى نستكن فيها! وكذلك يتاح لفكرنا - هو الآخر - أن يصل إلى الآخرين فى عوالمهم، الأمر الذى أحدث تغييرًا نوعيًا فى المواقع الفكرية على خارطة الواقع المعاصر.. فلم يعد الفكر الآخر خارج الحدود، ولا حتى متربصًا ومتلصصًا على النوافذ والأبواب، وإنما غدا فى داخل حصوننا، قامت وتقام له المراكز والمؤسسات والجامعات والصحف والمجلات.. بل إنه يمطرنا صباح مساء وآناء الليل وأطراف النهار من أقماره الصناعية السابحة فى سماواتنا، بلا حواجز أو حدود!

كما أصبحت لنا نحن أيضًا - رغم حالة الاستضعاف وقلة الإمكانات - مراكز إشعاع فكرى فى ديار الآخرين، تؤتى - بقوة الحق الإسلامى، وجاذبية الفطرة فيه - من الثمرات ما يعوض سلبيات الاستضعاف وقلة الإمكانات!

لقد أثمر هذا الواقع الجديد - الذى أحدثته ثورة وسائل الاتصال - لونًا من «التلاحم الفكرى» العالمى، الأمر الذى فرض ويفرض على مختلف فرقاء التدافع الفكرى الوعى بما لدى الآخرين.. فلقد أصبح هذا الوعى ضرورة للقبول وللرفض على حد سواء!

وإذا كانت القضية، بالنسبة لنا، تتعدى حدود «المغالبة الدنيوية» فى عالم الأفكار إلى حيث هى فريضة دينية - أيضًا - لإبلاغ الدعوة إلى الإسلام، وإقامة الحجة على صدقه، وإزالة الشبهة عن عقول المشتبهين فيه.. فإن الوعى بما لدى الآخرين عن «ذاتهم» وعنا يصبح - هو الآخر - فريضة إسلامية على الذين انتدبوا أنفسهم للرباط الفكرى على ثغور الإسلام - الدين .. والحضارة.. والأمة.. والديار - هذه الشريحة من أهل العلم، الذين تحدث عن رسالتهم هذه رسول الله ﷺ

عندما قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين» [رواه الطبراني].

وهؤلاء العدول، الذين ينافحون عن الإسلام، ويكسرون أشواك الفلسفات والأيديولوجيات المعادية – بعد الإحاطة بحقائقها وأباطيلها – هم الذين تحدث القرآن الكريم عن نفيرهم إلى الجهاد الفكري فقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٢٢ الوسطية الإسلامية (١)

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالوسطية الإسلامية هى «المنظار» الذى بدونه لا نستطيع تبين حقيقة الإسلام ومنهاجه فى مختلف الميادين.

فالوسطية فى علاقة حاضرنا بماضينا تعنى التمييز بين «الثوابت» وبين «المتغيرات».. والالتزام بالدين - الذى هو وضع إلهى ثابت - مع الاستفادة بـ«الفكر الدينى» دونما جمود مذهبى أو التزام باجتهادات السابقين للوقائع التى تجاوزها التاريخ.

والوسطية فى علاقة «ذاتيتنا» الحضارية والثقافية بـ«الآخر» الحضارى والثقافى، تعنى التمييز فى الفكر الإنسانى بين علوم المادة، التى تمثل حقائقها وقوانينها المشترك الإنسانى لكل البشرية، فعلينا أن نسعى إلى طلبها والتتلمذ على علمائها، مميزين بينها وبين علوم العقائد والفلسفات والعلوم الاجتماعية والإنسانية والآداب والفنون والقيم والأخلاق.. ففى هذه المنظومات الثقافية تتمثل الخصوصيات التى تتمايز فيها وبها الأمم والحضارات.

والوسطية فى العلاقة بين «العقل» وبين «النقل» تخرج الأمة من المعركة الوهمية التى تشل قدراتها.. فالعقل - فى ديننا وحضارتنا - لا يقابله «النقل» وإنما يقابله «الجنون»! والعقل هو سبيلنا لفقه النقل، لكنه - ككل الملكات الإنسانية - نسبى الإدراك والعلم والمعرفة، فلابد له من «النقل» ليعلم به ما لا يستقل بإدراكه من نبأ الغيب ووحى السماء.

وهذه الوسطية تخرجنا من غلو «النصوصية الحرفية».. التى تتنكر لعقلانيتنا المؤمنة، ومن غلو «العقلانية المؤلهة للعقل» - كما هو الحال فى العقلانية

اللادينية الغربية – التي رفعت شعار «لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده»!

والوسطية فى العلاقة بين «الجوامع» الموحدة لأمتنا، وبين «التنوع» فى إطار هذه «الجوامع».. هى المنهاج الذى يحقق وحدتنا فى: العقيدة، والشريعة، والأمة، والحضارة، ودار الإسلام، مع التنوع والاختلاف والتعددية فى إطار كل جامع من هذه الجوامع الخمسة.. فمذاهب الفقه – علم الفروع – تتنوع فى إطار جامع الشريعة الإلهية الواحدة.. والشعوب والقبائل والقوميات الإسلامية تتنوع فى إطار الأمة الواحدة.. والأقطار والأقاليم والولايات والدول القطرية تتنوع فى إطار دار الإسلام. والعادات والتقاليد والأعراف تتنوع فى إطار الحضارة الإسلامية الواحدة.

وهذه الوسطية الإسلامية تخرجنا من غلو المركزية – النافية للتنوع – ومن غلو التشرذم – النافى للاتحاد –.

وإذا كان صحيحاً «أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».. فليس معنى ذلك صب الحاضر والمستقبل فى قوالب تجارب الماضين.. وإنما المعنى الصحيح لهذا القول. هو ضرورة سلوك منهاج النهوض الأول، حتى نصل به إلى النهوض المنشود.

وإذا كانت الوسطية هى من أبرز معالم المنهاج الإسلامى الذى صنع النهوض الأول لأمتنا وحضارتنا، فإن «الإحياء» بالإسلام إنما يمثل معلماً آخر من معالم هذا المنهاج.. وسبيلا لتطبيق وسطية الإسلام.

إن جماع رسالة الإسلام هو «الإحياء»، الذى يحرر طاقات وملكات الإنسان، عندما يضع عن كاهله الأغلال، فيضع الأفكار والمناهج فى الممارسة والتطبيق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وإذا كان «الإحياء» هو أكثر المصطلحات تعبيرًا عن فعل الإسلام فى الإنسان الذى يتدين التدين الصحيح بالإسلام.. فإن نقطة البداية لهذا الإحياء هى النفس الإنسانية، تلك التى إذا أعاد الإسلام إحياءها وتغييرها استطاعت أن تقيم الدولة وتغير الواقع وتبنى الحضارة أو تجددها.. فكل مناهج التغيير ومشاريع التقدم

التى تقفز على تغيير النفس، وتربية الضمير، وإعادة صياغة الإنسان بالإسلام، هى حرث فى البحر، لا يتجاوز أثرها «النخبة» التى تبشر بها.. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فبالوسطية الإسلامية.. و بالإحياء الإسلامي للنفس الإسلامية، نخطو نحو الإقلاع الحضاري، عندما نواجه التحدى الحضارى الذى يأخذ منا بالخناق، مجاهدين على جبهتي هذا التحدى: جبهة التخلف الموروث.. وجبهة الهيمنة الغربية، التى تحرس أمراض هذا التخلف، لتكرس الواقع البائس الذى تعيش فيه!

٢٣ الوسطية الإسلامية (٢)

من المصطلحات التى عدت عليها العاديات فأصابتها بما يمكن أن نسميه «سوء السمعة».. مصطلح «الوسطية»! وذلك على الرغم من شرف هذا المصطلح ومضمونه، ومن الخطر الذى له فى التصور والمنهج الإسلامى.

ففى الوسطية، بمعناها الإسلامي الخالص والأصيل، تتمثل السمة والقسمة التي تعد بحق أخص ما يختص به منهاج الإسلام فى الفكر والحياة، فى النظر والممارسة والتطبيق.. وفيها تتجسد أهم المميزات التى تميز هذا المنهاج الإسلامى عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات.. بها انطبعت الحضارة الإسلامية فى كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات.. حتى لنستطيع أن نقول إن هذه الوسطية الإسلامية – بالنسبة للمنهج الإسلامى وحضارته – هى عدسته اللآمة لأشعة ضوئه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضًا!

والوسطية الإسلامية قد بلغت وتبلغ هذا المقام فى حضارتنا، لأنها – بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل – إنما تمثل الفطرة الإنسانية الطبيعية فى براءتها، وقبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات.. تمثل الفطرة الإنسانية فى بساطتها، وبداهتها، وعمقها، وصدق تعبيرها عن فطرة الله التى فطر الناس عليها.. إنها صبغة الله، أراد سبحانه وتعالى لها أن تكون صبغة أمة الإسلام، وأخص خصوصيات منهج هذا الدين.. فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنها – فى التصور الإسلامى – الحق بين باطلين.. والعدل بين ظلمين.. والاعتدال بين تطرفين.. والموقف العادل المتوازن الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الرافض للغلو – إفراطًا وتفريطًا –: لأن الغلو، الذى يتنكب الوسطية،

هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبي الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان، يفتقر إلى توسط الوسطية الإسلامية الجامعة وإلى توازنها وعدلها واعتدالها.

والوسطية الإسلامية الجامعة ليست هي ما يحسبه ويتوهمه العامة، من المتعلمين والمثقفين: انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام المشكلات والقضايا المشكلة، بل إنها على العكس من ذلك، هي الموقف الأصعب، الذي لا يتحاز الانحياز السهل إلى أحد القطبين وفقط.. فهي بريئة من المعاني «السوقية» التي شاعت عن دلالات ومضامين مصطلحها بين العوام وهي كذلك ليست «الوسطية الأرسطية»، كما يحسب ذلك كثير من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها، لأن الوسطية الأرسطية، التي رأى بها أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] أن الفضيلة هي وسط بين رذيلتين، هي - في العرف الأرسطي - أشبه ما تكون، في توسطها، بـ«النقطة الرياضية» الثابتة والمستقلة، والتي تفصلها عن القطبين - أي الرذيلتين - مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية.. إنها نقطة رياضية، وموقف ساكن، وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين تتوسطهما.. وليست هكذا الوسطية الإسلامية الجامعة، كما حددها منهاج الإسلام.

إن الوسطية، في التصور الإسلامي، موقف ثالث، حقًا.. وموقف جديد، حقًا.. ولكن التوسط بين النقيضين المتقابلين لا يعني أن هذا الوسط منبت الصلة بسمات القطبين المتقابلين وقسماتهما ومكوناتهما.. إنه مخالف لهما، لكن ليس في كل شيء، وإنما خلافه لهما منحصر في رفضه الانحصار والانغلاق على سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها.. ينحصر في رفضه الإبصار بعين واحدة، لا ترى إلا قطبًا واحدًا! متحصر في رفضه الانحياز المغالي، وغلو الانحياز! ولذلك فإن هذه الوسطية الإسلامية، كموقف ثالث، وجديد، إنما يتمثل تميزها، وتتمثل جدتها في أنها تجمع وتؤلف ما يمكن جمعه وتأليفه - كنسق غير متنافر ولا ملفق - من السمات والقسمات والمكونات الموجودة في القطبين النقيضين كليهما.. وهي - لذلك - وسطية جامعة، تتميز في التصور الإسلامي والمنهج الإسلامي عن تلك التي قال بها فيلسوف اليونان أرسطو

★ ★ ★

٢٤ الوسطية الإسلامية (٣)

إن «العدل» - والوسطية هى العدل بين ظلمين - لا يعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما.. كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين دون الأخرى.. وإنما يعتدل الميزان فيتحقق العدل بالوسطية التى تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبينات الفريقين المختصمين - كفتى الميزان-.. ولهذا كان قول الرسول ﷺ: «الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطا». [رواه الإمام أحمد].

والعدل هنا - وبهذا المعنى - هو أبعد ما يكون عن «الاعتدال»، عندما يراد به الاستسلام للواقع إذا كان جائرا.. بل إن الوسط - العدل - فى المفهوم الإسلامى - هو ضد «الاعتدال»، بهذا المفهوم!

و«الكرم» - وهو خلق وسلوك وسط - ليس غريبًا تمامًا عن القطبين النقيضين «الشح» و«الإسراف».. وإنما هو جامع منهما سمات ومكونات هذا الموقف - الكرم - الجديد.. إنه جامع لـ«التدبير» و«الاقتصاد»، ولـ«البذل» و«العطاء».

وكذلك «الشجاعة»، تجدها - كوسط - مغايرة لكل من «الجبن» و«التهور»، لا على النحو التام فى المغايرة، وإنما على النحو الذى رفض الانحياز لقطب واحد، فجمع منهما «الحذر» و«الإقدام» ليكون الموقف الوسط الجديد.

فى ضوء هذا المضمون الإسلامى المتميز لمصطلح «الوسطية» نفقه كل المأثورات الإسلامية التى أشارت إلى هذه الخصيصة من خصائص منهج الإسلام: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] أى الاعتدال، الرافض لغلو الإفراط

والتفريط.. فلا الرهبانية المسيحية أو النسك الأعجمى، ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكاليف.

وفى ضوء هذا المضمون للوسطية الإسلامية الجامعة، نقرأ أيضًا أحاديث رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق» [رواه الإمام أحمد]، «إن دين الله، عز وجل، يسر» [رواه البخارى والنسائى والإمام أحمد]. «إنكم أمة أريد بكم اليسر، وإن خير دينكم أيسره» (رواه الإمام أحمد). «إن الله عز وجل لم يبعثنى معنفًا، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا» (رواه مسلم والإمام أحمد) وعن عائشة - رضى الله عنها -: «ما خُيِّر رسـول الله ﷺ بين أمرين فى الإسلام إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمامان مالك وأحمد). فهذا الإثم الذى كان الرسول ﷺ أبعد الناس عنه، هو المرفوض من سمات القطبين المتناقضين؛ لأنه الظلم والباطل والتطرف، المنحاز بعيدًا عن العدل والحق واليسر والاعتدال.

وفى ضوء هذا المضمون للوسطية الإسلامية الجامعة، نبصر امتياز المنهج الإسلامى عندما قاد الأمة إلى إبداع حضارة وسط، كانت وسطيتها هذه هى طوق نجاتها من تمزق وثنائية وانشطارية «المتقابلات المتناقضة» على النحو الذى حدث فى حضارات أخرى.. وفى الحضارة الغربية على وجه التحديد.

وفى ضوء هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامى - وخاصة إذا نحن خرجنا بها من الإطار النظرى إلى ميادين الممارسة والتطبيق - سنبصر التميز الواضح والامتياز العظيم الذى تقدمه لنا الوسطية الإسلامية الجامعة، والشمول الذى تبلغه تأثيراتها، إذا نحن راعيناها، والتزمناها، وسرنا على ضوئها فى البحث والممارسة والتطبيق.

لقد كانت هذه الوسطية الإسلامية فى عصر تبلور وازدهار حضارتنا الإسلامية - وما تزال - المنهج الذى يؤلف فى التصور الإسلامى بين الروح والجسد.. والدنيا والآخرة.. والدين والدولة.. والذات والموضوع.. والفرد والأمة.. والفكر والواقع.. والمادية والمثالية.. والواقع والمثال.. والمقاصد والوسائل.. والثابت والمتغير.. والقديم والجديد.. والأصول والفروع.. والعقل والنقل.. والخصوصية والعالمية.. والحق والقوة.. والاجتهاد والتقليد.. والدين والعلم.. والعامة والخاصة... إلى آخر هذه الثنائيات - إن جاز تصور آخر لهذه الثنائيات!

تلك هى وسطيتنا الإسلامية الجامعة.. صبغة الله التى أرادها لأمة الإسلام.. والفطرة الإسلامية المطهرة من العوارض والآفات.. وعدسة الرؤية اللامة لقسمات المنهج الإسلامى ومعالم تصوره، إن فى «الفكر» وإن فى «الحياة».

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وصدق رسوله الكريم عندما قال «الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطا».

٢٥ وسطية التجديد والاجتهاد

فى واقعنا الفكرى والثقافى المعاصر لدينا ألوان من «الهجرات»!

وليس مرادنا هنا الحديث عن الجماعة التى اشتهرت - إعلامياً - بـ«التكفير والهجرة»، والتى كفَّرت الأمة والدول والمجتمعات.. ثم هاجرت إلى المغارات حتى تعود فاتحة للبلاد!

وإنما مرادنا «هجرات» أخرى سببها أيضا الغلو الفكرى فى ميادين الثقافة بوجه عام

■ فهناك الذين هاجروا من «التاريخ المعاصر والزمن الحاضر» إلى «الماضى» يحلمون بصب حاضرنا ومستقبلنا فى «قوالب تجارب» الماضين والخالين! فهجرتهم هجرة من «التاريخ».

■ وهناك الذين هاجروا من «جغرافيتنا الحضارية» إلى «الجغرافية الغربية»، يحلمون بصب حاضرنا ومستقبلنا فى «قوالب تجارب وفلسفات» النموذج الحضارى الغربى! فهجرتهم هجرة من «الجغرافيا» وفى كلتا الهجرتين خلل فى علاقة «الحاضر» بـ«الماضى» و«الجديد» بـ«القديم» و«الذات» بـ«الآخر».. وهذا الخلل قد جعل فى واقعنا الثقافى نماذج ثقافية ثلاثة - فيها طرفا غلوٍّ، وبينهما الوسط العدل المتوازن الذى يزكيه الإسلام.

(أ) فهناك غلو الإفراط، الذى يمثله الجمود والتقليد، ذلك الذى لا يميِّز - فى الاعتصام بالماضى - بين «الثوابت» و«المتغيرات»، بين «الإلهى» و«البشرى»، بين «المناهج» و«التجارب.. والتطبيقات».. فيضفى القداسة والثبات على الماضى جميعه، حتى ليكاد أهله أن يهاجروا إليه، مديرين ظهورهم للحاضر والمستقبل والجديد.

(ب) وهناك غلو تفريط «الحداثة» – بالمعنى الغربى للحداثة – وهى التى أثمرتها فلسفة التنوير الغربى اللادينية، التى أقامت قطيعة معرفية مع الدين، عندما عزلت شرائعه عن ضبط شئون العمران، وحررت السلوك البشرى من أحكامه، وحالت بين السماء وبين تدبير الأرض والعالم.. وكما يقول أحد دعاتها «فإن التنوير – [الغربى] – قد مثّل القطيعة الأبستمولوجية – [المعرفية] – الكبرى التى تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الإكويني، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير».

فهنا غلو القطيعة مع الماضى.. وهناك غلو الهجرة إلى الماضى

(جـ) وبين غلوى الإفراط والتفريط – فى علاقة الحاضر بالماضى، والجديد بالقديم – يأتى الموقف الإسلامى المنحاز إلى «التجديد»، الذى هو تطور من داخل النسق الفكرى، يميز بين الثوابت والمتغيرات فى الموروث، فيفتح الباب للتطور، مع الاحتفاظ بالمعالم والسمات التى أعطت وتعطى النسق الحضارى خصوصيته المميزة له عن الأنساق الحضارية الأخرى.. فيواكب كل المستجدات – فى ميادين المتغيرات – دون أن تتبدل «هويته»، أو يفقد «بصمته»، التى تمثل «مبادئه» و«مناهجه» و«حِكَمه» و«مقاصده»

فهو لا يقيم قطيعة مع الموروث والماضى، وخاصة فى «الثوابت» و«الأصول»، و«المناهج»، و«الروح الحضارية»، المميزة للأمة.. ولا يقيم – أيضًا – قطيعة مع «الآخر الحضارى»، اللهم إلا فى «ثوابته»، التى يؤدى تبنيها إلى هجرة من «الذات» إلى هذا «الآخر»!

وهذا التجديد الإسلامى – الذى هو وسط عدل متوازن – يعتمد على «الاجتهاد»، الذى يستنبط أحكام «الفروع» من «المبادئ والأصول»، فيمد الأغصان الجديدة لتظلل المساحات المستجدة، فى ارتباط بالأصول التى تسرى روحها وتشيع ضوابطها وتتحقق مقاصدها فى كل اجتهاد جديد.. فيتم به «النمو» الدائم، مع الاحتفاظ بـ«الشخصية» التى يمثلها هذا النسق الفكرى والحضارى.

فالتجديد هو الاجتهاد عندما يوضع فى الممارسة والتطبيق.. فيصبح تجديدًا للحياة، وليس مجرد إبداع فكرى معزول عن الفعل فى واقع الحياة والمجتمعات.

وفى الحياة الفكرية الإسلامية، يبلغ «التجديد» مرتبة «السنة.. والقانون» – وليس فقط مجرد حق ومباح – وذلك لأن تمثيل النموذج الثقافى الإسلامى

للشريعة الخاتمة يستدعى «التجديد» فيها، حتى لا ينسخها التطور ويطوى صفحتها.. ولأن «عالمية» هذه الشريعة الخاتمة تستدعى - هى الأخرى - «التجديد» الذى يستجيب لجديد الأمم والبقاع والعادات والأعراف.. وعن هذه «السنة.. والقانون» يحدثنا رسول الله ﷺ فيقول: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» (رواه أبو داود)؛ ولأن أنبياء بنى إسرائيل كانوا «المجددين» لشريعة موسى - عليه السلام - أصبح علماء الإسلام - الحاملون لرسالة «التجديد» - كأنبياء بنى إسرائيل - كما جاء فى الحديث الشريف - .. فلو كانوا مجرد «حملة للعلم» لكانوا مثل «علماء» بنى إسرائيل.. لكن نهوضهم بـ«التجديد» هو الذى ارتقى بهم إلى مرتبة أنبياء بنى إسرائيل!

٢٦ للإسلام عقلانية مؤمنة

لقد ذهب فلاسفة التنوير الغربي - وهو تنوير وضعي مادى علمانى - منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر - إلى «تأليه العقل» حتى لقد رمزوا له - فى أحداث الثورة الفرنسية - بفتاة حسناء عبدوها!.. وجعلوا براهين «العقل» النقيض للوحى والدين، فدعوا إلى «تحرير العقل من سلطان الدين، وإعمال العقل دون معونة من خارجه، وجعل السلطان المطلق للعقل وحده، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلا للعقل»!

ولذلك جاءت عقلانية التنوير الغربي - الذى يبشر به عبيد الحضارة الغربية بين صفوفنا الآن - عقلانية وضعية ومادية.

أما النموذج الثقافى للإسلام فإنه - وإن لم يتنكر للعقل - ما كان له أن يصنع ذلك وهو الذى جعله مناط التكليف وجوهر إنسانية الإنسان وامتيازه على سواه من المخلوقات - إلا أنه لم «يؤلهه» - وإنما سلكه كإحدى الهدايات مع «النقل» و«التجربة» و«الوجدان»، ولذلك لم يعرف الإسلام هذه المقابلة المتناقضة بين «العقل» و«الإيمان الدينى»، وإنما قدم للفكر والفلسفة والثقافة «عقلانية مؤمنة»، يحث عليها الدين، وتنهض بدورها فى الدفاع عن الإيمان الدينى!.. فهى مناط التكليف، والحكم الذى به يتبين الإنسان ما فى القرآن من محكم ومتشابه، بل وسبيل معرفة الذات الإلهية، التى تمثل جوهر الإيمان الدينى!

بل لقد تفرد الفكر الإسلامى عندما عقد أواصر الارتفاق بين «العقل» و«الشرع»، والتزمت ذلك أعرض تيارات الثقافة الإسلامية انتشارًا، حتى قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى: «إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل فى تصرف

العقل، حتى صادموا به قواطع الشرع، ما أُتوا به إلا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط. فمثال العقل: البصر السليم عن الآفات والأذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء. فالمعرض عن العقل، مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور»!

هكذا رسم الغزالي للعقلانية الإسلامية المؤمنة هذه اللوحة الجميلة، فالعقل هو البصر، والشرع هو النور، وبصر بلا نور هو كالعمى! ونور بلا بصر لا قيمة له، ولا يتحقق الغرض من النور، والاستنارة والتنوير إلا إذا اجتمع نور العقل مع نور الشرع، فهما – معا – نور على نور!.. والآفة إنما تأتي من الغلو.. غلو الإفراط عند الذين غالوا في العقل حتى «صادموا به قواطع الشرع» – كما فعل أهل التنوير الوضعي الغربي – الذين رأى الغزالي أن دوافعهم إلى ذلك إنما هي «خبث الضمائر»!، وغلو التفريط عند الذين وقفوا عند ظواهر النصوص، لضعف عقولهم وقلة بصائرهم!.. أما الوسطية الإسلامية الجامعة بين «العقل» و«الشرع» فهي المعبرة عن امتياز الإسلام، وعبقرية الثقافة الإسلامية.

وانطلاقًا من هذا المنهاج الإسلامي – في تزامل العقل والنقل – العقلانية المؤمنة – رأينا رفض ونقض رفاعة الطهطاوي – وهو أول عين للشرق الإسلامي على الثقافة الأوربية، الوضعية العلمانية – رأينا رفضه ونقده لهذه الفلسفة الوضعية – التي قال عنها إن فيها حشوات ضلالية، مخالفة لكل الكتب السماوية – أي إنها فلسفة دهرية مادية، وليست نصرانية!.. وهي تقف عند العقل والنواميس الطبيعية في معايير النظر والتحسين والتقبيح للأشياء، بينما الإسلام يضم إلى العقل والقوانين الكونية معيار الشرع والوحي والدين – في التحسين والتقبيح –.

انطلاقًا من المنهاج الإسلامي في المعرفة، وفي العقلانية المؤمنة، رفض الطهطاوي الفلسفة الوضعية الأوربية – منذ اللحظات الأولى للاحتكاك الثقافي مع هذه الفلسفة – فقال : «إنه لا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينًا وتقبيحًا.. فقالوا: إن كل عمل

يأذن فيه العقل صواب.. وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود.. فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة، إذ لا عبرة بالتحسين والتقبيح بالعقول والنواميس الطبيعية وحدهما، وإنما لابد من الشرع معهما».

هكذا عرف الإسلام – وثقافته وفلسفته – العقلانية المؤمنة، التى جمعت بين «العقل» و«الشرع»، فلم تقف عند «العقل» وحده – مثل الوضعية المادية الغربية – ولا عند «الوجدان والقلب» وحده – كما صنعت الباطنية – فى التصوف الفلسفى.. وفلسفة الإشراق.

٢٧

تكامل دوائر الانتماء: الوطنى.. والقومى.. والإسلامى

على عكس الثقافات التى أقامت التناقضات بين دوائر الانتماء «الوطنية»، و«القومية» و«الحضارية»: لأنها اعتمدت «الأرض» وحدها مميزًا ومحددًا للوطنية والوطن، وجعلت العرق والجنس مميزًا ومحددًا للقوم والقومية.. على عكس هذه الثقافات، يأتى النموذج الثقافى الإسلامى – انطلاقًا من الفطرة – ليسلك هذه الدوائر كدرجات مترابطة ومتكاملة فى سلم الانتماء الأكبر، الذى يضم دوائر فرعية ليس بينها وبين الانتماء الأكبر تناقض أو تضاد.

فالفطرة الإنسانية السوية، التى فطر الله الناس عليها، قاضية بوجود ولاءات وانتماءات متعددة للإنسان، لا تناقض بينها إذا خلت مضامينها ومفاهيمها مما يؤدى إلى تناقض أو تضاد.. فللإنسان ولاء وانتماء إلى أهله وعشيرته، لا يتناقض مع ولائه وانتمائه إلى الوطن والإقليم الذى ولد وتربى ونشأ فيه، كما أنه لا تناقض بين الانتماء للأهل والوطن وبين الانتماء والولاء للقوم الذين تحدد اللغة دائرتهم.. وكذلك الحال مع الانتماء إلى الدائرة الحضارية – دائرة الجامعة الإسلامية – التى قد تجمع العديد من الأوطان والعديد من اللغات والقوميات، فإذا خلت مفاهيم مصطلحى «الوطن» و«القومية» من عصبيات العرق والجنس، وإذا اتخذت مكان الانتماءات الفرعية فى إطار الانتماء الجامع – الانتماء العقدى والحضارى – الذى يحدد الإسلام دائرته، فإن التناقض والتضاد سيختفيان فى التصور الإسلامى لقضية الانتماء ودوائر الولاء.

إن الإسلام – وهو الصبغة التى صبغت ثقافة الأمة – يجعل الانتماء إليه والولاء له الجامع الأكبر والأشمل والأول للإنسان المسلم ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]

فالنبى ﷺ - أى الرسالة والإسلام - أولى بالمؤمنين من أى ولاء فرعى آخر.. وفي ذات الآية بيان لولاء فرعى بين أولى الأرحام - ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦] - ولا تعارض بين الولاءين، ما دام مثل الثانى - الفرعى - لبنة فى الأول - الجامع - وانتفت المضامين التى توجد التناقض بينهما.. ولذلك، تجاورت وتساندت وتفاعلت فى التاريخ الحضارى الإسلامى.

- وحدة دار الإسلام، ومعها - وفى إطارها - تمايزت الأوطان والأقاليم والولايات.. دونما تناقض أو تضاد.
- ووحدة الحضارة - التى حددت العقيدة والشريعة والأمة دائرتها - وفى إطارها تنوعت اللغات - ومن ثم القوميات - وتمايزت العادات والتقاليد والأعراف.
- ووحدة الأمة الإسلامية، ومعها - وفى إطارها - تمايزت الشعوب والقبائل والأجناس والألوان.. كل ذلك دونما تعارض أو تناقض أو تضاد بين الانتماء الإسلامى الأكبر والأول وبين ما ضم واحتضن من دوائر فرعية للولاء والانتماء.

فالرسول ﷺ وهو الذى جسد بالرسالة معالم الانتماء للإسلام والولاء له - حتى كانت طاعته طاعة لله، ومحبته محبة لله - هو الذى عبر عن حبه وولائه لمكة - وطن النشأة.. ووعاء الذكريات - حتى وهى على الشرك الذى بلغ فى عدائه له حد إخراجه منها - فقال ﷺ مناجيا إياها فى لحظات الهجرة منها: «والله إنى أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إلى نفسى. ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت»!. ولقد كان يدعو ربه، فى المدينة، أن يحبب إليه المدينة حبه لوطن المولد والنشأة ووعاء الذكريات!

وهكذا تجاورت وتزاملت وتساندت وتفاعلت، فى التصور الإسلامى والثقافة الإسلامية، دوائر الانتماء للأهل.. والوطن.. والقوم.. ولجامعة الإسلام.. فتجاورت الوطنية مع الجامعة الإسلامية، عندما برئ الانتماء الإسلامى من «عصبية الجاهلية».. ومن «جنسيات» القوميات التى سادت فى الدول القومية بالحضارة الأوربية.

وهكذا جمع الإسلام - فى حضارته الإسلامية - بين وحدة دار الإسلام وتمايز الأوطان فيها، وتجاورت فيه الوطنية اللاعنصرية والأممية الحضارية - لا الأممية الطبقية التى ناصبت الوطنية والقومية العداء! - جمع الإسلام وضم وألف بين كل دوائر الانتماء الإنسانى، لتساند كل منها الأخرى وتدعمها، دونما تناقض أو تضاد.

٢٨ فلسفة السياسة بين الغرب والإسلام

على حين جعلت الفلسفة السياسية الغربية – الليبرالية منها والشمولية – وخاصة بعد سيادة المكيافيلية – جعلت «القوة» معيارًا للسياسة، ففصلتها بذلك عن «القيم».. وجدنا الفلسفة السياسية فى الإسلام تجعل «الاقتراب من الصلاح والابتعاد عن الفساد» معيارًا للسياسة الشرعية، فتجعل – بذلك – القيم معيارًا للسياسة، رابطة القوة السياسية بالتسامى الوجودى الإلهى، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فى سياسة الإسلام..

فالإسلام يضع «العدالة» هدفًا «للسياسة»، بدلا من «القوة»، التى هى هدف السياسة في المذاهب الغربية.. ومن هنا اتسعت في الفقه الإسلامى مساحة المبحث الرامى إلى إدانة استخدام واستغلال السلطة – السياسية أو الاقتصادية – انطلاقًا من الموقف القرآنى الذى أدان فرعون – لإساءته استخدام السلطة السياسية – وأدان قارون – لإساءته استخدام السلطة الاقتصادية – بينما امتدح ملكة سبأ – التى أحسنت التعامل مع السلطة السياسية عندما حكمت بالمؤسسة الشورية – وأثنى على الأنصار – الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

هكذا تتمايز الفلسفة السياسية الإسلامية عن نظيرتها فى الفكر الغربى.

وفى الميدان الاقتصادى، تقوم العقلية الغربية على أساس «أن ما يتم إنتاجه يجب أن يستهلك»!. الأمر الذى أثمر ثقافة استهلاكية، يؤدى تعميمها عالميًا إلى القضاء على التعددية فى أنماط العيش وفى الثقافة وفى القانون.. بينما تقوم العقلية الاقتصادية الإسلامية على أساس مبدأ «أن كل ما يحتاج إليه الإنسان ينبغى أن يتم إنتاجه»، وذلك انطلاقًا من الاقتصاد المعيارى، لا الاقتصاد الوضعى. فالمؤمن يأكل فى معًى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء – كما قال رسول الله ﷺ!

وعلى حين يقوم مفهوم «المواطنة»، فى النموذج السياسى الغربى، على معيار الأصل العرقى – الذى تأسست عليه القوميات – يقوم مفهوم «المواطنة»

فى النموذج الإسلامى على الهوية الاجتماعية السياسية، التى هى امتداد للإيمان بوحدة مسئولية الإنسان، ووحدة الحياة. انطلاقًا من عقيدة التوحيد.. فالأمة - إسلاميًا - بناء على هذا المعيار - مجتمع مفتوح أمام أى إنسان يقبل المسئولية، التى هى أساس تحديد الهوية، وعملية العلاقات الاجتماعية السياسية، بصرف النظر عن أصله أو جنسه أو لونه.

فوحدة الأمة - فى النموذج الإسلامى - تعتمد على الاتجاه الوجودى - المؤمن بالله سبحانه وتعالى - واجب الوجود - والمتمثل فى منظومة القيم، بأكثر من اعتمادها على العوامل اللغوية - فالأمة قد تتكون من تعددية لغوية وقومية - وبأكثر من اعتمادها على العوامل الجغرافية - فلقد تتوزع الأمة بين أقاليم وولايات متعددة - وبأكثر من اعتمادها على العوامل الثقافية - فقد تتعدد فى الأمة العادات والتقاليد والأعراف - وبأكثر من اعتمادها على العوامل «البيولوجية».. ذلك أن وحدة الأمة - فى المفهوم الإسلامى - مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بمفهوم هذه الأمة للألوهية، وبالتصور الإسلامى للكون والعالم، ذلك الذى ينبع من عقيدة التوحيد.

إن أساس تمايز الفلسفة السياسية الإسلامية عن نظيرتها الغربية راجع إلى تمايز رؤية كل من الفلسفتين وكل من النسقين الفكريين للعالم والكون والوجود. حيث تنطلق الرؤية الإسلامية من التوحيد والتنزيه، عبر التدرج الوجودى - باستخلاف الخالق للإنسان - إلى الأسس القيمية للتصورات والثقافة السياسية - كما نزل بها الوحى السماوى فى الشريعة الإسلامية الخاتمة - بينما تعتمد الرؤية الغربية على تقارب المستويات الوجودية - وليس تدرجها - وذلك من خلال نظريات «الاتحاد» و«الحلول» - المناقضة.. بل والناقضة للتوحيد والتنزيه - الأمر الذى جعل الرؤية الغربية «علمانية»؛ لأنها جعلت الإنسان سيد الكون، فهو مكتف بذاته عن التدبير السماوى الآتى من وراء الطبيعة.. فهى تعتمد على «مبحث القيم العقلانى»، وتضفى الإطلاق على سلطان العقل الإنسانى، بينما تضفى النسبية والذاتية حتى على الدين!.. بينما تلتزم الرؤية الإيمانية الإسلامية الثبات على منظومة القيم الدينية؛ لأنها تابعة من ثبات المطلق الدينى، وتعلى - فى ذات الوقت - من سلطان العقل الإنسانى، شريطة أن تظل مدركاته فى إطار النسبى؛ لأنه ملكة من ملكات الإنسان الخليفة.. الخليفة لسيد الكون والإنسان.. الواحد الأحد، سبحانه وتعالى.

٢٩ السياسة والدولة من الفروع

إن إخواننا الشيعة هم وحدهم الذين جعلوا نظام الحكم والإمامة - الخلافة - والدولة والسلطة من العقائد والأصول، بينما اتفقت كل تيارات الفكر السنى - بل كل من عدا الشيعة، حتى الخوارج والمعتزلة - على أن الحكم والدولة والسلطة والسياسة من الفقهيات والفروع، وليست من العقائد والأصول.. وفي ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ - ١١١١م]: «إن نظرية الإمامة ليست من المهمات، وليست من فن المعقولات فيها، بل من الفقهيات، والنظريات قسمان. قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع، وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسله، وباليوم الآخر، وما عداها فروع، والخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه التكفير».

فالحكم - بمعنى الدولة والسلطة والخلافة والإمامة - من الفروع والفقهيات - والفقه هو علم الفروع - وليس من العقائد والأصول. ولذلك فالخطأ والاختلاف فيه «لا يوجب شيء منه التكفير» - كما يقول الغزالى - بينما الشيعة - الذين جعلوه من العقائد والأصول - قد كفَّروا مخالفيهم في الإمامة.. ذلك أن معايير الاختلاف في العقائد والأصول هي «الكفر.. والإيمان»، بينما معايير الاختلاف في الفقهيات والفروع هي «الخطأ.. والصواب».. وإلى هذه الحقيقة أشار ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦م] فقال: «... وشبهة الشيعة الإمامية في ذلك إنما هي كون الإمامة من أركان الدين، وليس كذلك، إنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق».

وعلى هذا الرأى قام إجماع علماء السنة وأئمتها، فقال إمام الحرمين، «الجوينى» [٤١٩ - ٤٧٨ هـ = ١٠٢٨ - ١٠٨٥م]: «إن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد».. وقال «الشهرستانى» [٤٧٩ - ٥٤٨ هـ = ١٠١٦ -

١١٥٣م]: «إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد».. وهو نفس الرأي الذي أكده كل من «عضد الدين الإيجي» [٧٥٦ هـ - ١٣٥٥م] و«الشريف الجرجاني» [٧٤٠ - ٨١٦ هـ = ١٣٤٠ - ١٤١٣م] - عندما قالا في (شرح المواقف): «إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد، بل هي من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين».

هذا هو إجماع أهل السنة على أن الحكم والإمامة والخلافة والسلطة والدولة من الفقهيات والفروع، وليست من العقائد والأصول.. بل إن الأستاذ البنا عندما يذكر أن علماءنا قد وضعوا هذا المبحث في «كتبنا الفقهية» - والفقه هو علم الفروع - لابد أن يشير قوله إلى تناقض ذلك مع القول بأن هذا المبحث هو من مباحث «العقائد والأصول»!

ولا يحسبن أحد أن تصنيف الحكم والدولة في الفروع الإسلامية يقلل من أهميتها، أو يفتح الباب لعلمانية تفصل بينها وبين الإسلام وعقائده، ذلك أن «نظام الحكم» - بل وكل «نظم العمران» - لابد وأن تكون من الفروع حتى يكون فيها مجال للاجتهاد، وللتطور الذي يواكب المستجدات والمصالح المتغيرة، عبر الزمان والمكان.. فـ«النظم» مدنية يجتهد الفقه الإسلامي في إقامتها وتطويرها، وهي «إسلامية» - في ذات الوقت - لأنها محكومة بإطار تحقيقها لمقاصد الشريعة ومبادئ الدين في الشورى والعدل بين الناس، فالشورى من عقائد الإسلام وثوابت مبادئ الشريعة ونظامها من فقه الفروع المتطور عبر الزمان والمكان..وكذلك العدل بين الناس - في مختلف الميادين - مبدأ إسلامي ثابت، بينما «النظام» المحقق لهذا المبدأ مدني متطور؛ ولذلك فمكانه في الفروع المتطورة-بالاجتهاد، وليس في ثوابت العقائد والأصول.

ثم إن الحكم الإسلامي - مع أنه من الفروع والفقهيات - هو فريضة إسلامية. لا لأنه من العقائد، وإنما لأنه الشرط الضروري لإقامة عقائد الدين وفرائضه وثوابت شريعته الإلهية. وما لا يقوم الواجب الديني إلا به فهو واجب دينًا، حتى لو لم يكن من ثوابت الأصول وأمهات الاعتقاد.

ذلك مبحث دقيق، لكنه واضح كل الوضوح، ومحسوم كل الحسم في عموم الفكر السني، بل لقد أُفردت له بعض التآليف النفيسة في تراثنا الفقهي. وحبذا لو اهتم الفكر الإسلامي المعاصر بمراجعة كثير من التصورات الشائعة في الساحة الإسلامية حول هذا الموضوع.

٣٠ الإسلام والسياسة (١)

هاتان الكلمتان - «الإسلام والسياسة» - تحملان علامات استفهام عن علاقة «الإسلام» بـ«السياسة».

وهذا الاستفهام والتساؤل شائع فى الفكر الحديث والمعاصر، بل ومنذ ما قبل العصر الحديث.

لكن تحديد حقيقة علاقة الإسلام بالسياسة يقتضى - أولاً - التعريف بمصطلحات هذا العنوان.

- **فالإسلام** : هو الطاعة الواعية - أى المؤسسة على المعرفة - من الإنسان المخلوق للإله الخالق الواحد، وذلك بعبادته - سبحانه - على النحو الذى أوحى به فى شريعته السماوية إلى رسوله محمد بن عبدالله - عليه وعلى سائر الأنبياء والرسل الصلاة والسلام -. فهو إيمان وتصديق قلبى يبلغ درجة اليقين بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وطاعة لله تفصح عن هذا الإيمان، وتضعه فى الممارسة والتطبيق.
- **أما السياسة** : فهى التدابير المدنية التى يدبر بها الإنسان حياته الدنيوية، سواء أكانت سياسة فردية، يدبر بها الفرد عالمه الخاص، أم سياسة منزلية، تدبر بها الأسرة حياتها الأسرية، أم سياسة اجتماعية تدبر بها الأمة والدولة شئون العمران الاجتماعى - فى الاقتصاد والاجتماع والتعليم والحكم والإدارة.. إلخ -. أم كانت سياسة دولية - تدبر بها الدول والأمم والحضارات - بالقانون الدولى والمنظمات الدولية والإقليمية - العلاقات الدولية التى تحافظ على سلام العالم، وأمنه، ورخائه، وصحة بيئته، وفض المنازعات التى تنشب بين الدول والحكومات.

★ ★ ★

وإذا كان العنوان «الإسلام والسياسة» - يحمل التساؤل والاستفهام عن علاقة «الدين» - الذى هو وحى إلهى، وتنزيل سماوى، وتشريع ربانى - «بالسياسة» - التى هى تدابير مدنية بشرية - .. فإن الإجابة على هذا التساؤل تتميز في الإسلام عنها في أنساق فكرية وفلسفات إنسانية وشرائع دينية غير دين الإسلام.

- **ففى الفلسفة اليونانية - مثلاً -** ؛ وخاصة فى تصور «أرسطو» [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] لعلاقة الذات الإلهية بالعالم، كان الله - في ذلك التصور - مجرد خالق لهذا العالم، وقف نطاق عمله عند الخلق فقط.. فهو قد خلق العالم، وأودع فيه الأسباب الذاتية التي تدبره وتسوسه، دونما حاجة إلى شريعة سماوية أو دين إلهى، أو قوة فوقية ما ورائية - من فوق الطبيعة وعن ورائها - . فالعالم مكتف بذاته، والإنسان مكتف بذاته، والاجتماع البشرى مكتف بذاته.. ومثل الذات الإلهية، في علاقتها بتدبير وسياسة العمران الإنسانى، كمثل صانع الساعة. صنعها، وأودع فيها أسباب تدبيرها وسياستها.. فلا مدخل للدين السماوى فى السياسة الأرضية، بهذا التصور الأرسطى.
- **وفى الوثنية الجاهلية** ؛ عند العرب.. قبل الإسلام - كان التصور لعلاقة الخالق بالمخلوقات قريباً من هذا التصور الأرسطى.

فالوثنيون كانوا يؤمنون بالله خالقًا للكون والعالم، لكنهم كانوا يقفون بنطاق فعله عند حدود الخلق، وذلك عندما جعلوا تدبير حياتهم الدنيا وسياستها للأصنام - التى جعلوها شركاء لله فى السياسة والتدبير - فلله الخلق.. وللأصنام السياسة والتدبير!

والقرآن الكريم ينصفهم عندما يتحدث عن إيمانهم بالله خالقًا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]

لكنه يعيب عليهم شركهم بالله، عندما جعلوا سياسة الدنيا وتدبير الاجتماع الإنسانى للأصنام والأوثان - التى كانوا يلجئون إليها ويستشيرونها فى تدبير: السفر والإقامة.. والحرب والسلم.. والبيع والشراء.. والمحالفة والمنابذة.. والزواج والطلاق.. والحب والكره.. إلخ إلخ.. ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ

بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فالوثنيون قد عزلوا السماء عن الأرض عندما آمنوا بالله خالقًا للكون والعالم، ثم وقفوا بفعله عند الخلق جاعلين تدبير الحياة الدنيا للأصنام والأوثان.

■ **وفى النصرانية** ، كان هناك شىءٌ من هذا التصور الذى يعزل التدبير الإلهى عن سياسة العمران الإنسانى، وخاصة فى الحكم والإدارة وسياسة الدول والمجتمعات.. صحيح أن النصرانية – لأنها دين سماوى – قد تميزت عن الفلسفة الأرسطية، واختلفت عن التصورات الوثنية عندما جعلت الخالق للكون شارعًا للقيم والأخلاق، وشارعًا للعبادات، لكنها عندما فصلت بين «ما لقيصر» – أى الدولة وسياسة المجتمع – وبين «ما لله» – أى الدين – قد جعلت مرجعية السياسة فى الدولة والمجتمع – إدارة واقتصادًا واجتماعًا ونظمًا – للإنسان وحده، فكان رضاها بأية سلطة وأية دولة وأية سياسة لونًا من ألوان العزل الجزئى للسماء عن الأرض وللدين عن تدبير العمران الإنسانى وسياسة المجتمعات.. لقد وقفت بالقيم الدينية عند علاقة الفرد المخلوق بالله الخالق.. وتركت ما لقيصر لقيْصر، دون أن تجعل قيصر وما له لله!

وهذا هو الذى جعل تدخل اللاهوت النصرانى والكنيسة الكاثوليكية فى «السلطة الزمنية» – بأوربا العصور الوسطى – شذوذًا عن حقيقة الموقف النصرانى؛ لأن ذلك التدخل قد مثل تجاوزًا من الكنيسة لرسالتها – التى هى روحية خالصة –، ولإطار عملها – الذى هو مملكة السماء – ولجماع مقاصدها التى هى خلاص الروح – .. فتجاوزت ذلك عندما اغتصبت السلطة الزمنية – سلطة قيصر – التى دعا الإنجيل إلى تحريرها وفصلها عن «ما لله».

٣١ الإسلام والسياسة (٢)

■ **ولقد جاء التصور العلمانى** - إبان النهضة الأوربية الحديثة - رد فعل على تجاوزات الكنيسة الكاثوليكية لرسالتها.. فردتها العلمانية إلى حدود «ما لله» - خلاص الروح.. بالمعنى الفردى.. - وفصلت وعزلت عنه «ما لقيصر» - الدولة والسياسة وتدبير المجتمع وإدارة العمران منطلقة فى ذلك الفصل من التصور الأرسطى لنطاق عمل الذات الإلهية - مجرد الخلق، دون التدبير والسياسة للدولة والعمران - فأصبحت السياسة فى التصورات العلمانية شأنًا دنيويًا خالصًا، لا علاقة لها بالدين، وتدبيرًا إنسانيًا - بالعقل والتجربة وحدهما - غير محكوم بشريعة سماوية؛ لأن العالم - فى فلسفة الأنوار الوضعية، التى انطلقت منها العلمانية.. كما هو فى التصور الأرسطى - مكتفٍ بذاته، غير محتاج إلى شريعة سماوية تدبر شئونه.. وكذلك الإنسان - ومن ثم الدولة والمجتمع - مكتفية بذاتها، يتم تدبيرها أو سياستها بالعقل الإنسانى والتجربة الإنسانية، دونما حاجة إلى تدخل الدين فى هذه السياسة وذلك التدبير؛ ولذلك، يُعبِّر عن العلمانية أحيانًا بمصطلح: «الدنيوية» - أى مرجعية الدنيا، لا الدين - وأحيانًا بمصطلح: «الإنسانية» - أى اكتفاء الإنسان فى سياسة دنياه - بعقله وتجربته عن شريعة السماء.

فالعلمانية قد فكت الارتباط وفصمت العرى بين السماء والأرض، وحررت السياسة المدنية من القيم الدينية.. ولذلك تعايشت كنائس المجتمعات العلمانية مع «السياسة الميكافيلية»، التى جعلت الغايات مبررة للوسائل، بصرف النظر عن حظ هذه الوسائل من أخلاقيات الدين وقيمه ومُثُله، كما جعلت «القوة» - وليس «العدل» - المقصد الذى تتغياه أية سياسة لأية دولة من الدول؛

■ **أما فى الإسلام**: فإن العلاقة بينه - وهو دين إلهى - وبين السياسة كتدبير للدولة والدنيا والاجتماع والعمران - هى علاقة متميزة عن كل هذه التصورات التى رأيناها فى الأنساق الفكرية والفلسفية والدينية غير الإسلامية.

فهناك علاقة بين «الإسلام» وبين «السياسة»، لكنها علاقة وسط بين «الاتحاد والامتزاج والاندماج» وبين «الفصل والقطيعة والافتراق».

■ فالتصور الإسلامى لنطاق عمل الذات الإلهية، لا يقف فقط عند حدود عمل الخلق، وإنما لله أيضًا الرعاية والتدبير لكل عوالم المخلوقات، ومنها الاجتماع البشرى والعمران الإنسانى.. وفى القرآن الكريم حديث عن هذا التصور الإسلامى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهو - سبحانه - له الأمر والتدبير مع الخلق.. وله - سبحانه - الهداية والتسديد والرعاية والإرشاد، مع الخلق أيضًا: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

■ وللإنسان - فى التصور الإسلامى - حرية وإرادة وقدرة واستطاعة وسلطة وفعل فى سياسة حياته وتنظيم مجتمعه وتدبير عالمه ودنياه.. ولكنها حرية وإرادة وقدرة وسلطة الخليفة لله، المحكومة حريته بعقد وعهد الاستخلاف الذى هو الشريعة الإلهية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]

فللشريعة الإلهية مدخل فى السياسة لا يلغى حرية الإنسان وسلطانه وسلطاته فى تدبير المجتمع وسياسته، ولكنه يضبط هذه الحرية وهذا السلطان بحدود الحلال والحرام الدينى اللذين جاءت بهما قواعد ومبادئ وأحكام الشريعة وروحها ومقاصدها وفلسفتها فى التشريع.

فلا الشريعة تلغى سلطة الإنسان وحريته فى السياسة والتدبير للعمران الدنيوى، ولا هذه السلطة الإنسانية والحرية البشرية فى سياسة الدولة والمجتمع متحررة تمامًا من إطار الشريعة الإلهية وحدود الله وأحكام الدين.. فالإنسان - لأنه خليفة الله - هو سيد فى هذا الكون، محكومة سيادته وسلطاته بشريعة عقد وعهد الاستخلاف الإلهى له.. فهو حر فى سياسة المجتمع والدولة، حرية لا تخرج به عن إطار حدود الوكيل والنائب والخليفة.. إنه سيد فى الكون، لا سيد الكون.. إنه عبد لله وحده، وسيد لكل شىء بعده!.. والله - سبحانه - قد سخر له كل قوى

الطبيعة، لكنه هو وكلّ قوى الطبيعة لله - سبحانه وتعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

ولأن الدين هو «وضع إلهى ثابت».. بينما «السياسة» أغلبها تدابير متغيرة ومتطورة بحكم ارتباطها بالواقع الحياتى المتغير والمتطور، وقفت الشريعة الإسلامية - فى سياسة وتدبير المعاملات الدنيوية المتغيرة والمتطورة - عند المبادئ والقواعد والمقاصد وفلسفة التشريع تاركة للعقل الإنسانى والتجربة البشرية الإبداع والاجتهاد - فى فقه المعاملات - للسياسات التى تواكب المتغيرات والمستجدات.. فمقاصد الشريعة وقواعدها ومبادئها وحدودها، وأحكامها ثوابت.. وفقه المعاملات تدبيرات سياسية واجتماعية واقتصادية متغيرة، ومحكومة بمقاصد الشريعة وحدودها.

فلا كل السياسة - كتدابير دنيوية - هى دين ثابت.. ولا هى منفصلة ومغايرة للدين الثابت.. ومن هنا كانت علاقة الإسلام بالسياسة هى علاقة «التمايز»، لا علاقة «الوحدة والامتزاج» أو علاقة «المغايرة والانفصال».. فالسياسة - فى التصور الإسلامى - هى: «تدابير مدنية»، بمعنى أنها تدبر اجتماع الإنسان، الذى هو «مدنى» - أى «اجتماعى - بطبعه لكنها محكومة بالشريعة الإلهية الثابتة، ومن هنا سميت - فى الإسلام - بـ«السياسة الشرعية»؛ لأنها «مدنية» ذات مرجعية «دينية».. بل لقد عرّف علماء الإسلام «السياسة الشرعية» بأنها: «السياسة المدنية» - ليس بمعنى أن «المدنى» هو المقابل «الدينى»، كما هو معناه فى الفكر الوضعى الغربى - وإنما بمعنى أن «المدنى» هو «الاجتماعى».. فالسياسة الشرعية هى: التدابير الإنسانية التى يسوس بها الإنسان الاجتماع البشرى، فى إطار ثوابت الشريعة ومقاصدها.

فلا هى علاقة «الكهانة الكنسية» - التى دمجت ومزجت السياسة بالدين، فثبّتت المتغيرات الدنيوية بثبات الدين - ولا هى علاقة «العلمانية - الدنيوية» - التى فصلت السياسة عن الدين - وإنما هى السياسة الشرعية؛ أى «العلاقة» و«التمايز» - فى ذات الوقت - بين السياسة والإسلام.

فالسياسة لا تقف فقط عند ما جاء فى النصوص التى جاء بها الوحى الإلهى - فى القرآن الكريم - وبيانه النبوى - فى السنة النبوية -؛ لأنها تدابير

للمتغيرات والمستجدات المتطورة دائمًا وأبدًا، بتطور وتغير الزمان والمكان والمصالح والأعراف والعادات.. ولكنها – أى السياسة – لا تغاير ولا تخالف ولا تصادم ما جاء به الوحى الإلهى والبلاغ الربانى أو السنة النبوية الصحيحة، التى هى البيان النبوى للبلاغ القرآنى.

فكل التدابير التى تحقق المصالح الشرعية المعتبرة، هى سياسة شرعية، يبدعها الاجتهاد الإسلامى، ليحقق بها مصالح الفرد والأسرة والأمة والدولة والاجتماع الإنسانى والعلاقات الدولية.. وهى إسلامية بقدر ما تحقق المصلحة والعدالة للناس، وبقدر ما تنضبط بقيم الدين الإسلامى ومقاصد الشريعة الإسلامية. بهذا تعتبر «السياسة» جزءًا من «الشريعة»، رغم أنها إبداع إنسانى لبشر فقهاء.

٣٢ الإسلام والسياسة (٣)

ولهذه العلاقة بين الإسلام وبين السياسة تميزت السياسة الشرعية - بتميز الإسلام كدين - عندما لم تقف مقاصدها - كما هو الحال في السياسة المنفصلة عن الدين - عند طلب الصلاح والنفع الدنيوى للحياة الدنيا وحدها.. وإنما كانت مقاصد هذه السياسة الإسلامية تحقيق مصالح وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة معًا.

فالسياسة التى لا علاقة لها بالدين قد تحقق من الغنى والوفرة والقوة والغلبة ما يحقق للإنسان والمجتمعات الرفاهية والترف والحدود القصوى فى اللذات والشهوات.. تحقق «قارونية المال» و«فرعونية القوة».. وهنا يكون صلاحها دنيويًا صرفًا، يؤدى إلى ندامة وخسران فى الحياة الأخروية، يوم الدين، بل وإلى ندامة وخسران فى العواقب الدنيوية بعيدة المدى.

أما السياسة المحكومة تدابيرها بالمقاصد الشرعية، فهى التى تستهدف سعادة الإنسان وصلاحه فى الدنيا، باعتبار هذه الدنيا مزرعة الآخرة والمقدمة المفضية إليها.. ولهذه الخصيصة، جاء فى تعريف السياسة بالموسوعات والمصادر الإسلامية أنها:

«استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والآجل، وتدبير المعاش مع العموم على سُنن العدل والاستقامة» [الكليات - لأبى البقاء الكفوى - طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م].

وأنها: «ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد» [إعلام الموقعين لابن القيم - جـ٤ ص ٣٧٢ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م].

وأنها: «السياسة الدينية النافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة – فهي تدبير للاجتماع الإنساني على منهاج الدين» (المقدمة لابن خلدون – ص ١٥٠ – طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ).

فهي سياسة تدبير الدنيا وفق مقاصد الدين، لتكون السياسة – كالعبادة – سبيلاً لرضاء الله – سبحانه وتعالى – وسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة

وإذا كانت السياسة في «دولة الكهانة الكنسية» قد زعم أنها «دين خالص»، عندما ادعت «الدولة» أنها مقدسة، تحكم بالتفويض الإلهي، وبالحق الإلهي، وأن نيابتها إنما هي عن السماء.. فغدت هذه «الدولة» – سواء عندما حكم البابوات المعصومون – بزعمهم – أو الأباطرة الذين أضفى البابوات على سلطتهم القداسة – غدت هذه «الدولة الدينية» لا تُسأل عما تفعل، وفعّالة لما تريد.. الأمر الذي غيّب الأمة تماماً عن معادلة السياسة، فوقفت هذه المعادلة عند: الله ← فالدولة الدينية فقط.. دون وجود للأمة وسلطانها.

فإن الدولة العلمانية – التي هي النقيض الكامل لدولة الكهانة الدينية – قد غابت الشريعة وانتفى الدين من معادلتها ففيها: الأمة ← فالدولة.. ولا مكان للدين والشريعة في معادلتها وسياستها.

أما الصيغة الإسلامية للسياسة، في الدولة الإسلامية، فإنها جامعة.. ففيها سيادة الشريعة الإلهية وخلافة الأمة لله، حال التزامها بالشريعة، وممارستها السلطات في حدود الشريعة ← ونيابة الدولة عن الأمة ملتزمة – كالأمة – بإطار الشريعة وحدودها، وقائمة بما فوضت لها الأمة من مهام وسلطات.

فهي – الصيغة الإسلامية – الوحيدة الجامعة بين السماء.. والأمة.. والدولة - في السياسة الشرعية للدولة الإسلامية..

★ ★ ★

تلك هي علاقة «السياسة» بـ«الإسلام».. وهذا هو موقف «الإسلام» من «السياسة».. وهو موقف متميز عن مواقف الأنساق الفكرية الأخرى في هذا الموضوع.

وعلى مر تاريخ الإسلام كان هناك «وعي نظري» – في الفكر السياسي الإسلامي – لطبيعة وحقيقة هذه العلاقة بين «الإسلام» وبين «السياسة».. ولقد عرض الإمام «ابن القيم» [٦٩١ – ٧٥١ هـ = ١٢٩٢ – ١٣٥٠م] لهذه العلاقة عندما تحدث عن المناظرة التي دارت بين الفيلسوف الفقيه «أبو الوفاء ابن عقيل»

[٤٣١ – ٥١٣ هـ = ١٠٤٠ – ١١١٩م] وبين بعض فقهاء الشافعية، عندما قال الفقيه الشافعي:

– «لا سياسة إلا ما وافق الشرع».

– فقال له ابن عقيل: «إن أردت: أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح. وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة والخلفاء الراشدين ما اعتمدوا فيه على المصلحة. فالسياسة: ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحي».

عرض «ابن القيم» لنبأ هذه المناظرة، وعلق عليها – منتصراً «لابن عقيل» – فقال:

«إن الله – سبحانه وتعالى – قد أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العدل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره. والله – تعالى – لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدلّ وأظهر، بل بيَّن بما شرعه من الطرق أن مقصوده: إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها.

والطرق أسباب ووسائل لا تُراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها، التي هي المقاصد، ولكنه نبَّه – سبحانه – بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعة وسبيل للدلالة عليها. وهل يُظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟!

إننا لا نقول: إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحي، وإلا فإذا كانت عدلاً فهي من الشرع. وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى: شريعة، وسياسة، كتقسيم غيرهم الدين إلى: شريعة، وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى: عقل، ونقل. وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة، والحقيقة، والطريقة، والعقل، كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح، وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة، لا قسيم لها، والباطل ضدها ومنافيها..

ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبيَّن له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علمًا بمقاصدها، ووضعها موضعها، وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة، فإن السياسة نوعان:

١ – سياسة ظالمة، فالشريعة تحرِّمها.

٢ – وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها...

[ابن القيم: إعلام الموقعين – جـ٤ ص ٣٧٢ – ٣٧٣، ٣٧٥. و«الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» – ص ١٧ – ١٩، ٥ – طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م].

٣٣

الإسلام والسياسة (٤)

وعندما جاء فقيه المالكية.. وقاضي قضاتها.. وفيلسوف العمران عبدالرحمن بن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦م] فتحدث عن أنواع السياسات، التي تمايز بين أنواع الملك، نبه على تميز السياسة الإسلامية، بتميز علاقتها بالدين.. فقال:

«وحقيقة الملك: أنه الاجتماع الضروري للبشر.. ويجب أن يُرجع في ذلك إلى قوانين سياسيةٍ مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها.. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولا يتم استيلاؤها، سنة الله في الذين خلوا من قبل.

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبُصرائها، كانت سياسة عقلية.

وإذا كانت مفروضة من الله، بشارع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل؛ إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣].

فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم، من عبادة ومعاملة، حتى في الملك، الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرته على منهاج الدين، ليكون الكل محوطًا بنظر الشارع، فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال - (أي إطلاق) - القوة الغضبية في مرعاها، فجور وعدوان، ومذموم عندي، كما هو مقتضى الحكمة السياسية، وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها، فمذموم أيضًا؛ لأنه نظر بغير نور الله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]

لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم، من مُلك غيره، قال ﷺ: «إنما هى أعمالكم ترد عليكم» (رواه مسلم)

وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]. ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم. وكان هذا الحكم لأهل الشريعة، وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة.

١ – فالملك الطبيعي : هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة.

٢ – والسياسي : هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

٣ – والخلافة : هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي – في الحقيقة – خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به..» [المقدمة – ص ١٥٠، ١٥١ – طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ].

فالسياسة – كالمُلك.. والدولة – مصطلحات عامة في كل النظم والثقافات والحضارات.. لا مشاحة في وضعها ولا في استعمالها. لكن المضامين، في هذه المصطلحات، تتمايز بتمايز النظم والفلسفات والشرائع والثقافات.

فالسياسة الشرعية، هي التي تتغيا بتدبير عمران الدنيا تحقيق سعادة الآخرة.. وإنسانها خليفة عن الله، يتعبده بسياسة العمران الدنيوي.. فهو عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده.. بينما السياسة الدنيوية – العلمانية – التي تقف بمرجعيتها عند عقلاء الدولة وأكابر بُصرائها، فإنها تتغيا – بتعبير ابن خلدون – «مصالح الدنيا فقط» ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.. فهي «دنيوية – دهرية – لا دينية».

■ فلما جاء رفاعة الطهطاوي [١٢١٦ – ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ – ١٨٧٣م] وواجه تسلل المفهوم العلماني الغربي للسياسة نحو الشرق الإسلامي.. دافع عن

المضمون الإسلامي للسياسة في مواجهة المضمون «العلماني - الطبيعي» لهذه السياسة. وكتب يقول: «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع. والتكاليف الشرعية والسياسية، التي عليها نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة، الخالية عن الموانع والشبهات: لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.

والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع.. ومرجعها الكتاب العزيز. الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق، كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان، والعقول، والأنساب، والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض: كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها.. فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى.

ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينًا وتقبيحًا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود، بتعدي الحدود.

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة.

ومعلوم أن الشرع لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا ينافي المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة.

وإن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يترك من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية: لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع» [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي - جـ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧، وجـ١ ص ٣٧٠ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م]

٣٤

الإسلام والسياسة (٥)

■ فلما جاء جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] دافع عن السياسة الشرعية وعن منهاج «الإصلاح بالإسلام».. وكتب:

«إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها.. فهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. وبالإسلام كان النهوض الأول لهذه الأمة.. إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داعٍ إلى المحبة، مزكٍّ للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مباني الاجتماع البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

وإذا كانت هذه هي شرعة هذه الأمة، ولها وردت، وعنها صدرت، فما تراه من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريًّا.. فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته.. ولا سبيل لليأس والقنوط، فإن «أصول» الدين متأصلة في النفوس.. والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفي من محبته.. فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت.. فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططًا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسًا، ولا يكسبها إلا تعسًا.

ومن يعجب من قولي: إن الأصول الدينية الحقة تنشئ للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل،

وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية، فإن عجبي من عجبه أشد!

ودونك تاريخ الأمة العربية.. وما كان عليه قبل الإسلام من الهمجية.. حتى جاءها الدين فوحدها، وقواها، ونور عقلها، وقوم أخلاقها، وسدد أحكامها، فسادت على العالم» [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني – ص ١٩٧ – ١٩٩ – طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م].

■ فلما جاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ – ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ – ١٩٠٥م] سار على ذات الدرب: «الإصلاح بالإسلام».. وبالسياسة الشرعية.. فكتب يقول:

«إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها؛ لأن نفوسهم قد أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التي أودعه فيها. وإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا.

وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!

إن الإسلام دين وشرع، قد وضع حدودًا، ورسم حقوقًا، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وُجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام.. والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده في عمله، فكان الإسلام بذلك كمالاً للشخص، وألفة في البيت، ونظامًا للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه.. فكان دين الفطرة، والمدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية» [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده – جـ٣ ص ١٠٩، ٢٣١، ٢٢٥، ٢٢٦ – طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م].

وهكذا – وعلى مر تاريخ الفكر الإسلامي – ظل العلماء واعين بتميز الإسلام كدين ودولة، وبتميز السياسة الإسلامية عن سائر ألوان السياسات الأخرى، فهي

سياسة شرعية بينها وبين الدين - الذى هو وضع إلهى ثابت - علاقة وثيقة، هى علاقة الفروع - المتطورة - بالأصول الثابتة.. فلا هى ثابتة ثبات الدين.. ولا هى مقدسة قداسة الدين.. وإنما هى مدنية متطورة، محكومة فى حركتها ونموها بالمرجعية الدينية الثابتة - فى الحدود.. والقواعد.. والقيم وفلسفة التشريع .

٣٥ الإسلام والسياسة (٦)

وكما امتازت «السياسة الإسلامية» في الفكر والتنظير، امتازت دولتها الإسلامية – كذلك – عن دولة الكهانة الكنسية.. فلم يعرف «تاريخنا» حكومة فقهاء – رغم أن الفقيه في الإسلام هو «عالم دين» وليس «رجل دين» – بالمعنى الكنسي الكهنوتي –.. وإنما كانت الدولة الإسلامية – على مر تاريخنا – دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية.

ولذلك، أكد علماء أصول الدين – في الحضارة الإسلامية – على أن الدولة – الخلافة والإمامة – ليست من العقائد الثوابت، التي يكون الخلاف فيها كفرًا وإيمانًا.. وإنما هي دولة مدنية، معايير الخلاف فيها «الضرر.. والنفع» و«الخطأ.. والصواب».

■ وفي ذلك يقول الشهرستاني [٤٧٩ – ٥٤٨هـ = ١٠٨٦ – ١١٥٣م]: «إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد» [نهاية الإقدام في علم الكلام، لألفريد جيوم – ص ٤٧٨].

■ ويقول عضد الدين الإيجي [٧٥٦هـ – ١٣٥٥م] والجرجاني [٧٤٠ – ٨١٦هـ = ١٣٤٠ – ١٤١٣م]: «إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد، بل هي من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين.. وإنما ذكرناها في علم الكلام تأسيًا بمن قبلنا؛ إذ قد جرت عادة المتكلمين بذكرها في أواخر كتبهم» [شرح المواقف جـ٣ ص ٢٦١ – طبعة القاهرة، سنة ١٣١١هـ].

■ ويقول حجة الإسلام الغزالي [٤٥٠ – ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ – ١١١١م]: «إن نظرية الإمامة ليست من المهمات، وليست من فن المعقولات فيها، بل من الفقهيات» [الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٣٤].

■ ويقول إمام الحرمين الجويني [٤١٩ – ٤٧٨هـ = ١٠٢٨ – ١٠٨٥م]: «إن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد» [الإرشاد، ص ٤١٠ – طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠م].

■ ويتفق شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] أن تكون الإمامة من أركان الإسلام الخمسة.. أو أركان الإيمان الستة.. أو من أركان الإحسان.. [منهاج السنة - جـ١ ص ٧٠ - ٧٢ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢م].

■ ويعيب ابن خلدون على الشيعة جعلهم الإمامة من أركان الدين وأصوله.. فيقول: «وشبهة الشيعة الإمامية في ذلك إنما هي كون الإمامة من أركان الدين.. وليس كذلك، وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق» [المقدمة، ص ١٦٨].

■ حتى إذا جاء الإمام محمد عبده، وجدناه يفصل في القضية فصلاً حديثاً.. «فالإسلام: دين وشرع.. كمال للشخص، وألفة في البيت، ونظام للملك.. ومع ذلك، فهو ينكر السلطة الدينية التي عرفتها أوربا.. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنفير عن الشر.. وهي سلطة خولها الله لكل المسلمين، أدناهم وأعلاهم.. والأمة هي التي تولي الحاكم.. وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها.. فهو حاكم مدني من جميع الوجوه. ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة، عند المسلمين، بما يسميه الإفرنج «ثيوكرتيك»، أي سلطان إلهي.. فليس للخليفة - بل ولا القاضي، أو المفتي، أو شيخ الإسلام - أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام؛ وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية، قدرها الشارع الإسلامي.. فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه.. بل إن قلب السلطة الدينية، والإتيان عليها من الأساس، هو أصل من أجل أصول الإسلام» [الأعمال الكاملة - جـ٣ ص ٢٣٣، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٨].

★ ★ ★

تلك هي علاقة السياسة بالدين في الرؤية الإسلامية.. وهذا هو مفهوم السياسة في الإسلام، مقارنا بمفهومها في الأنساق الفكرية والفلسفية والدينية الأخرى.. وهو مفهوم متميز، يسقط كل حجج المعارضين لعلاقة السياسة بالدين الإسلامي، سواء كان هؤلاء المعارضون من أنصار الدولة الدينية - بالمعنى الكنسي الأوربي - .. أو من العلمانيين، الذين يريدون علمنة السياسة، بدعوى المخافة من السلطة الدينية التي عرفتها أوربا في عصورها الوسطى.. فلا شريعة الإسلام كغيرها من الشرائع الأخرى.. ولا مضامين المصطلحات - ومنها مصطلح «السياسة» - كمضامينها في الحضارات الأخرى.. لذلك لزم التحرير لمضامين المصطلحات، والله أعلم.

٣٦ كيفما تكونوا يُوَلَّ عليكم!

ولقد كانت الخلافة الراشدة شورية، يقول خليفتها الأول – الصديق أبو بكر –: « وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم»!

ويقول خليفتها الثانى – الفاروق عمر –: «رحم الله امرءاً أهدى إلىّ عيوبى.. فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها»!

كانت هذه الخلافة على هذا النحو من الشورى – وتأسست على البيعة والاختيار – اللذين شاركت فيهما الأمة جمعاء – لأنها كانت صورة تعكس «الجماعة» التى صاغها الإسلام، وتولى تربيتها الرسول ﷺ وفق المنهاج الإسلامى فى التربية والتغيير، ذلك المنهاج الذى يبدأ بإعادة صياغة النفس الإنسانية، حتى إذا ما تم إنجاز هذا التغيير النفسى – العقدى.. والفكرى.. والثقافى – استطاعت هذه الجماعة أن تختار «الدولة» المعبرة عن صورتها، لتقود الأمة والمجتمع فى ملحمة تغيير الواقع، وتطبيق الشريعة، وبناء الحضارة، وتغيير مجرى التاريخ!

لكن.. لماذا تبدل الحال.. فتراجعت الشورى فى «الدولة»، وحلّت الخلافة الناقصة محل الراشدة، وساد «الملك العضوض» بدلاً من الاختيار الحقيقى والبيعة الحرة الصادقة؟

إن التغيير السلبى الذى حدث فى «القاعدة» – الأمة – هو الذى أثمر هذا التغيير السلبى فى «القمة» – الدولة – وذلك وفق قاعدة وقانون: «كيفما تكونوا يُوَلَّ عليكم».. فالأمة التى مثلها الملك العضوض، والخلافة الناقصة، غير الشورية، قد اختلفت عن الأمة التى أثمرت الخلافة الشورية الراشدة، اختلافًا كبيرًا.. وكانت

الأسباب التي صنعت هذا التغيير – في الأمة والقاعدة – وثيقة الصلة بالتحديات الكبرى والشرسة التي واجهت الإسلام ودولته ونموذجه في ذلك التاريخ.

فإلى جانب الشِّرك العربي – الذي قاد الأعراب في الارتداد على الإسلام ودولته، عقب وفاة الرسول ﷺ – كانت هناك تحديات القوى العالمية العظمى – قوى الفرس والروم البيزنطيين – وبسبب من مخاطر هذه التحديات العظمى، كانت الفتوحات الإسلامية الكبرى، لإزاحة الهيمنة الكسروية والقيصرية عن المحيط الإسلامي، ضرورة حياة لهذا النموذج الإسلامي الوليد.. وبسبب من عقيدة الجهاد وروح الاستشهاد، وتقشف العرب – القوى الضاربة للإسلام ودولته – كانت السرعة القياسية التي تمت بها وفيها هذه الفتوحات الكبرى، تلك التي حررت الشرق من هيمنة استعمار الكسروية الفارسية والقيصرية الرومانية.. حتى لقد سجل التاريخ معجزة هذه الفتوحات، التي فتح فيها العرب المسلمون في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان – وهم سادة الفتح في التاريخ – في ثمانية قرون!

لكن هذه السرعة في الفتح – التي تمثل إيجابية، نفخر بها ونعتز.. كما تمثل ضرورة سياسية لمعاجلة المخاطر المهددة لوجود النموذج الإسلامي – لكن هذه السرعة في الفتح قد أثمرت واقعًا سلبيًا خطيرًا، وذلك عندما أدخلت في إطار الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وضمن رعية الدولة، أممًا وشعوبًا وقبائل ومللاً ونحلاً لم تتم صياغتها، ولم يحدث تغييرها وتربيتها بمناهج الإسلام. فدخلت – بل أدخلت – في باطن الجسد الإسلامي أشياء غريبة عن طبيعته ومزاجه وهويته وثقافته ومثله الإسلامية.. وبدأت هذه «الطوارئ» التي طرأت على «الجماعة – الأمة» تحدث الأحداث في داخل أحشاء الاجتماع الإسلامي..

وزاد من فعل وتأثير هذا «الجسم الغريب» عن النموذج الإسلامي، الذي أدخل في أحشائه، أن الإسلام قد قرر لهذه الأمم والشعوب والملل والنحل حرية الاعتقاد، وذلك وفقًا للمبدأ القرآني: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فبقيت قائمة – في الواقع الإسلامي – المؤسسات الدينية والفلسفية والثقافية الغريبة عن الهوية الإسلامية، والراعية لهذا «الجسم الغريب» الذي أدخل في أحشاء «الجسد الإسلامي»! فبدأ هذا الجسد الإسلامي، ونموذجه في «الدولة»، يعاني من تأثيرات

هذا الجسم الغريب، الذى أدخلته سرعة الفتوحات فى أحشاء النموذج الإسلامى قبل أن تتم صياغته وفق مناهج الإسلام فى الصياغة والتغيير.

وإذا تذكرنا دور الفرس المجوس فى مقتل الراشد الثانى عمر بن الخطاب.. ودور ثوار الأقاليم والأطراف فى الثورة على عثمان واستشهاده، أدركنا دور هذا «الجسم الغريب» فى إحداث الفتنة الكبرى، تلك التى انتهت بحلول الخلافة الناقصة والملك العضوض محل الخلافة الشورية الراشدة.. فعندما لم تعد «الأمة – الجماعة» هى الأمة التى تمت صياغتها إسلاميًا، وفق منهاج الإسلام فى التغيير، لم تعد «الدولة» هى دولة الخلافة الشورية الراشدة.. لقد تغيرت «القاعدة» فتغيرت «الثمرة»، وذلك وفقًا لقانون: «كيفما تكونوا يُوَلَّ عليكم»، وتلك كانت بداية التراجع فى تاريخ «دولة» الإسلام.

٣٧ المساجد والسياسة

أذكر – فى إحدى زياراتى للجزائر، للمشاركة فى ندوة علمية، قبل أحداثها الدامية – أن دعيت – مع بعض العلماء والمفكرين – للمشاركة فى مهرجان إسلامى، دعت إليه جبهة الإنقاذ فى مدينة «سطيف»، إحياء لذكرى شهدائها سنة ١٩٤٥م.. فسافرنا، فى صحبة الدكتور عباس مدنى، إلى هناك.. وكان يومًا مشهودًا وشاهدًا على الجماهيرية الكاسحة لعباس مدنى والجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وقبل ذهابنا إلى ساحة المهرجان – فى ملعب الكرة – عرجنا على المسجد – أكبر مساجد «سطيف» – للصلاة.. وعقب الصلاة – التى أمها إمام المسجد – تقدم عباس مدنى ليلقى كلمة فى هذه المناسبة السياسية، فامتعض إمام المسجد، وزمجر معبرًا عن اعتراضه على استخدام المسجد فى السياسة الحزبية.. لكن عباس مدنى أزاحه – برفق – وألقى كلمته.. ثم انطلقنا إلى المهرجان.

وأذكر – كذلك – أن بعض الصحفيين الغربيين قد سألوا عباس مدنى عن ما أسموه «احتكار المساجد» للدعاية لجبهة الإنقاذ، الأمر الذى رأوه مخلاً بتكافؤ الفرص بين الجبهة والأحزاب الأخرى.. فقال: لقد تركنا لهم الخانات!

إذن نحن أمام «مشكلة مثارة» لا تعنى الحكومات وحدها، بل ومختلف تيارات الفكر والسياسة فى بلادنا.. مشكلة مشروعية استخدام المسجد كمنبر سياسى.. الأمر الذى يستدعى تقديم وتقرير بعض الضوابط فى عدد من النقاط.

■ إن المساجد هى بيوت الله فى الأرض، يعمرها المؤمنون بالله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].. والدعاء فى هذه المساجد، وكذلك الدعوة يجب أن تكون خالصة لله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

■ ولقد كان المسجد - منذ بداية الإسلام - مصدر إشعاع التوحيد الإسلامى، كما كان هذا التوحيد الدينى هو مصدر التوحيد للأمة الإسلامية فى «الجوامع الخمسة» الجامعة لأهل هذا الدين: الوحدة فى العقيدة.. والشريعة.. والأمة.. والحضارة.. ودار الإسلام.. وتحت هذه الجوامع الخمسة، الموحدة للأمة، هناك تعددية وتنوع واختلاف فى الفروع المتعلقة بالمتغيرات، التى تقتضيها ظروف ومصالح الزمان والمكان والأفهام والعادات والتقاليد والأعراف.

فوحدة الأمة فريضة إلهية ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] - وفى إطار وحدة الأمة، هناك التنوع والتعدد فى الشعوب والقبائل والألسنة واللغات والقوميات والأجناس.. ولذلك، فإن وظيفة المسجد هى الحفاظ على وحدة الأمة؛ لأنه يستقبل كل المسلمين، على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ولغاتهم وألوانهم، ويجب أن يكون خطاب منبر المسجد جامعًا، فلا يجوز أن تتحول المساجد إلى ساحات خاصة، وفق التعددية، أو إلى ساحات للتدافع أو الصراع بين الفرقاء المختلفين.

والشريعة الإسلامية واحدة، عبر الزمان والمكان؛ لأنها وضع إلهى ثابت.. وفى إطار الشريعة الواحدة هناك تعددية وتنوع واختلاف فى المذاهب الفقهية.. ودور المسجد لابد أن يكون جامعًا للأمة بالشريعة الواحدة، ولا يجوز أن تتخصص المساجد بالمذاهب الفقهية، أو أن تتحول إلى ساحات صراع بين المختلفين فى الفقهيات.. ولذلك، استن الفقه الإسلامى فى الإفتاء مراعاة مذهب المستفتى - لا المفتى - وعادات بلد المستفتى - لا المفتى - حفاظًا على عوامل الوحدة، التى هى جامعة، ومقدمة على التنوع والاختلاف..

■ ولأن الإسلام منهاج شامل لعالم الغيب وعالم الشهادة، للدين والدنيا، للدنيا والأخرة، للأمة والدولة، للفرائض العينية والاجتماعية.. فإن سياسة الدولة والمجتمع هى مهمة من مهام الدين، بها تُساس الدولة، التى تقوم - هى الأخرى - بحراسة الدين.

وهنا تجابه المشكلة.. ويأتى السؤال: هل لأن السياسة بُعْدٌ من أبعاد المنهاج الإسلامى، يجوز أن تكون موضوعًا للخطاب على منابر المساجد؛ لأنها جزء من الدين، الذى قامت له المساجد فى ديار المسلمين؟ للإجابة عن هذا السؤال لابد من التمييز فى السياسة بين مستويين:

(أ) مستوى السياسات الكلية، الممثلة للمصالح العامة لجمهور الأمة، من مثل تلك التي نسميها السياسات الوطنية والقومية والحضارية، التي تتعلق بالقضايا التي اجتمع عليها جمهور الأمة.. ولهذه السياسات مكانها على منابر المساجد وفي ساحاتها. والأمة تمارس ذلك – واقعيًا – عندما يتحدث الخطباء عن قضايا التحرر الوطني والقومي والإسلامي، ومشكلات التقدم والنهوض الحضاري.

(ب) ومستوى السياسات الجزئية، التي تختلف فيها المذاهب والأحزاب.. وهذه يجب أن يكون مكانها المنتديات الحزبية، والمنابر الإعلامية الحزبية.. فالانتصار لقضايا الأمة له مكان على منبر المسجد، بينما الانتصار لمرشح في الانتخابات مكانه خارج المسجد.. والانتصار للشريعة مكانه المسجد، بينما الانتصار لمذهب فقهي بعينه ليس مكانه المسجد، وذلك حتى يظل المسجد: بيت الله، الجامع لكل الأمة، والمزكي لعوامل الوحدة بين جميع المسلمين.

٣٨ قانون التنوع والاختلاف

يؤمن المسلمون - بحكم دينهم - بوحدة الإنسانية فى الخلق.. وتساوى كل الناس فى التكريم الإلهى.. وفى التكليف.. والحساب.. والجزاء..

وهذه الوحدة للإنسانية، هى آية من آيات الله، سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفى العهد الذى كتبه الإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم وجهه - إلى واليه على مصر - الأشتر النخعى [٣٧هـ - ٦٥٧م] - يقول له: «الناس صنفان: أخ لك فى الدين، ونظير لك فى الخلق».

■ ويؤمن المسلمون أن الإنسانية قد بدأت حياتها على هذه الأرض أسرة واحدة.. وجماعة واحدة.. وأمة واحدة.. ثم كان التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف فى إطار الإنسانية الواحدة، وذلك حتى يتم التسابق والتدافع والتنافس فى الخيرات، ويتم التعارف والتعايش ويتحقق التعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

فالإنسانية واحدة.. والتكريم الإلهي شامل لكل بني آدم.. والتنوع والاختلاف قانون كوني وسنة إلهية، حتى يكون هناك تدافع وتسابق في الخيرات، وتعاون على عمران الكوكب الذي يعيش عليه الإنسان.

■ لقد سلك الإسلام تعدد النبوات والرسالات – ومن ثم تعدد أمم هذه الرسالات – وكذلك تعدد الشرائع الإلهية في إطار وحدة أسرة دين الله الواحد، الذي تتعدد فيه الشرائع مع وحدة الدين.. فكان الإسلام – وحده – هو الرسالة التي تؤمن أمتها بكل النبوات، والتي لا تفرق بين أحد من رسل الله، عليهم الصلاة والسلام.. وكان القرآن الكريم هو الكتاب المصدق بكل الكتب السماوية، والجاعل من الشرائع السماوية السابقة – شريعة من قبلنا – جزءاً من الشريعة الإسلامية الخاتمة، وذلك باستثناء الأحكام التي نسخها التطور من تلك الشرائع السابقة

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٢ – ٤].

وفى الحديث النبوى الشريف تعبير عن وحدة الدين، وتعدد الشرائع فى إطار الدين الواحد، يشبه الأنبياء جميعًا بأبناء أسرة واحدة.. أبوهم - دينهم - واحد.. وأمهاتهم - شرائعهم - شتى.. فقال ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، الأنبياء أولاد عَلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيننا نبى» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد).

ولذلك، سلك الإسلام كل المتدينين بالشرائع السماوية فى سلك واحد هو سلك المتدينين بالشرائع الكتابية، وساوى رسول الله ﷺ بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات، عندما نص - فى العهد الذى كتبه لنصارى نجران، ولكل المتدينين بالنصرانية - على «أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم، وفيما عليهم».

■ أما الخيرية - سواء كانت للفرد.. أو الأمة - فإنها لا تؤسس على عنصرية الصفات اللصيقة - بحكم الجنس أو اللون، أو حتى الانتساب إلى دين من الأديان - وإنما هى خيرية مشروطة بتقوى الله، والنهوض برسالة الإنسان فى عمران هذه الحياة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]

فكل المؤمنين - على اختلاف شرائعهم - أسرة التدين بالدين الإلهى الواحد.. وأكرمهم عند الله أتقاهم لله.

٣٩ واحدية الحَقّ.. وتعددية الخَلْق

إن جماع هذا الوجود - فى النظرة الإسلامية - هو «الحق» - الخالق - و«الخلق» فى كل عوالم المخلوقات.

وإذا كان هذا التصور قد بلغ قمة التنزيه والتجريد فى «وحدانية الخالق» - التى تنزهت عن التعدد والتركيب - فإنه قد آمن بأن التعددية هى السنة والقانون فى سائر عوالم الخلق، التى فطرها خالقها على الثنائية والازدواج والاشتراك والارتفاق، فطرة وسنة لا تبديل لها ولا تحويل.

فتعددية الازدواج سنة إلهية حكمت خلق الله لجميع المخلوقات: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]

وتعددية الذكر والأنثى سنة إلهية قد حكمت خلق الله للحيوان وللنبات وللأنفس والبشر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ [الحجرات: ١٣]. وفى بقية هذه الآية القرآنية، التى تحدثت عن سنة التعددية فى خلق الإنسان من ذكر وأنثى، إشارة إلى سنة أخرى هى تعددية الإنسانية والبشرية إلى شعوب وقبائل، أى تعددية فى الأمم والجماعات ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكما اقتضت السنة الإلهية تعدد البشر إلى شعوب وقبائل وأمم وجماعات، كذلك اقتضت تعدديتها فى القوميات - التى تحددها تعددية الألسن واللغات - وفى الأجناس - التى تشير إليها الألوان - سنة حاكمة وقانوناً عاملاً وآية من آيات الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وإذا كانت سفينة نوح - عليه السلام - قد مثلت «الحياة» الناجية من الطوفان، فلقد حكمت التعددية والازدواج عناصر ومكونات هذه الحياة ﴿حَتَّى إِذَا

جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن﴾ [هود: ٤٠].

وكما قام الخلق على التعددية، كذلك حكمت سنتها وساد قانونها فى «عالم الأفكار».. فالاختلاف في الشرائع والمناهج، والتعددية فى المذاهب والتيارات الفكرية، هى الأخرى سنة إلهية، لا تبديل لها ولا تحويل، فى «عالم الأفكار» – «كعالم الخلق» سواء بسواء – ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ [المائدة: ٤٨].

فالتعددية بين الأمم فى الشرائع والمناهج سنة إلهية، تثمر الابتلاء والاختبار الحافز على الاستباق فى طريق الخيرات.. بل إن هذه التعددية، وهذا الاختلاف قد بلغ – برأى العلماء من مفسرى هذه الآية القرآنية – إلى درجة اعتباره «حكمة الخلق.. ومقصده».. فقالوا: «وللاختلاف خلقهم» الله – سبحانه وتعالى!

وإذا كانت التعددية هى منطلق التدافع الحضارى والاجتماعى والفكرى، فإن هذا التدافع – الذى لا وجود له بدون فرقاء متعددين – هو سبب وطريق الصلاح والإصلاح لما يحدث فى الاجتماع الإنسانى من فساد وإفساد: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [البقرة ٢٥١]، ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾ [الحج: ٤٠]

وحتى فى إطار الأمة الواحدة – ووحدتها فريضة إلهية – فإن هذه الوحدة إنما تكون فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، أى ما اتفقت فيه الفطرة السوية – دون اختلاف – من الوحدة فى العقيدة والشريعة والأمة والحضارة والدار – وفى ثوابت الوضع الإلهى القطعى الدلالة والثبوت – أما فيما عدا هذه الجوامع للوحدة، فإن التعددية هى السنة التى تحكم تنوع الأمة إلى اجتهادات فى الفروع والمذاهب ومدارس الفكر وتيارات الاجتماع.. ففى الفكر تنوع فى إطار وحدة الأصول.. وفى الاجتماع طبقات وشرائح اجتماعية فى إطار الأمة والجماعة.. وكون الإسلام دين «الجماعة»، لا يلغى تميز «الفرد» ولا تمايز «الطبقات» وإنما تتميز التعددية – فى التصور الإسلامى – بالجامع الذى يجمع فرقاءها،

والأصول التى توحد جماعاتها وتياراتها ومذاهبها وطبقاتها.. فلا هى «الوحدة» التى لا تعدد فيها.. ولا هى «التعددية» التى لا جامع لأجزائها.. وإذا كانت التعددية الفكرية إنما هى تنوع فى الاجتهاد، بإطار وحدة التصديق بالبلاغ القرآنى والبيان النبوى لهذا البلاغ، فإن معايير الاختلاف فى هذا الاجتهاد هى «الصواب»، و«الخطأ»، و«النفع»، و«الضرر»، وليس «الإيمان» و«الكفر»؛ لأن «الإيمان» و«الكفر» هما معيارا الاختلاف فيما هو معلوم من الدين بالضرورة – وهو ما لا يجوز الخلاف فيه – لأنه الجامع لوحدة الأمة، التى هى فريضة إلهية، وبدونها لا يكون معنى للتعددية والاختلاف.

فكما تفردت الذات الإلهية – الحق – بالواحدية – التى لا تركب فيها ولا تعدد – كانت التعددية السنة الإلهية فى كل عوالم المخلوقات.

٤٠ الإسلام والتعددية (١)

لكل دينٍ من الأديان.. أو فلسفةٍ من الفلسفات.. أو نسقٍ من الأفكار، فلسفتهُ في رؤيةِ الكون، التي تُحدِّدُ مكانة الإنسان في هذا الوجود.. وعلاقتهُ بالموجودات.

وإذا كان الإسلامُ – ككل الديانات السماوية – يرى الله – سبحانه وتعالى. المُطلقَ، واجبَ الوُجود، والخالقَ لكل الموجودات، فإنه يرى الإنسانَ خليفةً لله في الأرض، حاملاً لأمانةِ إقامة العمران، حتى تأخذ الأرضُ زخرفها وزينتها.. وحتى تتهذَّبَ النفسُ الإنسانيةُ وترتقي وتسعد، عندما تتوازنُ علاقاتها مع الغرائز والملكات والموجودات.

كذلك، يرى الإسلامُ في الذات الإلهيةِ: المُطلق المُفارق لسائر أنواع وألوان المخلوقات.. فهو – سبحانه – ليس كمثله شيء.. وكل ما خطر على بالك، فالله ليس كذلك!

وفي موضوعنا – موضوع: «التعددية والتنوع والاختلاف في إطار الوحدة» – يرى الإسلام في هذا الوجود:

• إلهًا، انفرد وينفردُ بالواحديةِ والوحدانية، التي لا تَعْرِفُ أيَّ لون من ألوان التعدد أو الازدواج أو التركيب.

• وموجودات ومخلوقات ومحدثات، تقوم جميعها على التعدد والازدواج والتركيب والتساند والتسخير والارتفاق. فالتعددية في كل الموجودات ؛ الحية والجامدة.. الإنسانية والنباتية والحيوانية، العلوية والسفلية.. وكذلك في عالم الأفكار والفلسفات والمذاهب والتوجهات.. وأيضًا في الألوان والأجناس والألسنة واللغات والقوميات.

كل هذه العوالم، يراها الإسلامُ قائمةً على سُنَّةِ التعددية، وقانون التنوع، وقاعدة الاختلاف.

ليس باعتبار هذه التعددية وذلك التنوع مجرد اختيار بشرى، أو حق من حقوق الإنسان، وإنما باعتبارها القانون الحاكم لوجود الموجودات.. وسنة عن سنن الله فى سائر المخلوقات، لا تبديل لها ولا تحويل.

★ ★ ★

ولأن الإسلام هو دين الوسطية الجامعة.. التى لا تعرف الثنائيات المتناقضة: ثنائيات: «الدين.. والدنيا».. أو «الدين.. والدولة».. أو: «الدنيا.. والآخرة».. أو «الفرد.. والمجموع».. أو «الذات.. والآخر».. أو «الحرية.. والمسئولية».

ولأن هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، تجمع من أطراف وأقطاب هذه الثنائيات عناصر الحق والعدل، فتؤلفُ منها موقفًا وسطًا جامعًا.. متوازنًا.. ومتميزًا.. وجديدًا.. فلقد التزم الإسلام – بهذه الوسطية الجامعة فى التعددية – مذهبًا متميزًا، رفض فيه وبه غُلُوّ الإفراطِ وغُلُوّ التفْريط.

فهو، مع التعددية فى كل عوالم المخلوقات، لا يرى الواحدية والأحديةَ إلا فى الذات الإلهية وحدها.. وهو – أيضًا – لا يطلقُ للتعددية العنان، الذى يجعلها تشرذمًا وقطيعة بين أجزاء الظواهر والموجودات

وإنما يراها تنوعًا واختلافًا وتميزًا فى إطار الوحدة الجامعة للتنوع والتمايز والاختلاف.

فالوحدةُ – فى أى ظاهرة من الظواهر – تعنى التعددية والتنوع والاختلاف والتمايز فى إطارها.. ولا بدّ لهذا التنوع والاختلاف والتمايز من وشائج جامعة، وعدسة لامة، تؤلف بين التنوع، وتجمع بين المختلف، وتوجدُ الأرض المشتركة بين المختلفين.. المتميزين.. المتنوعين.. المتعددين.

٤١ الإسلام والتعددية (٢)

لقد خلق الله – سبحانه وتعالى – البشر جميعًا من نفس واحدة.. ثم جعل كل فرد من أفراد هذه الإنسانية عالمًا قائمًا بذاته .. فيه – وهو الجرم الصغير – انطوى العالم الأكبر!

ففى إطار وحدة الإنسانية – المتحدة فى أصل الخلقة.. وفى الإنسانية.. وفى الكرامة والتكريم.. وفى الحقوق.. وفى التكليف.. وفى الحساب.. وفى الجزاء – فى إطار هذه الوحدة، تتمايز وتتنوع هذه الإنسانية الواحدة إلى شعوب وقبائل وأمم وأفراد.. وإلى ألوان وأجناس وألسنة ولغات وقوميات وحضارات.. وإلى ملل ونحل ومذاهب وديانات وفلسفات وثقافات.

فلا غلوٌ فى التعددية، والتنوع يقطع روابط الوحدة، ويدخل بها فى نطاق العنصرية والتعصب وإنكار العلاقات بالآخرين.. ولا غلو فى عوامل الوحدة ينكر أسباب التنوع والتميز والاختلاف.

★ ★ ★

وبسبب من هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، فى رؤية علاقة الوحدة بالتعددية.. والواحدية بالتنوع.. والأحدية بالاختلاف.. ينكر الإسلام «نزعة المركزية المفرطة» التى تريد العالم نمطًا واحدًا، والإنسانية قالبًا واحدًا، منكرة على الآخرين حق التمايز والاختلاف.

• «فالمركزية الدينية».. التى تريد العالم دينًا واحدًا، ينكرها الإسلام، عندما يرى فى تعددية الشرائع الدينية سُنَّةً من سنن الله فى الاجتماع الدينى، لا تبديل لها ولا تحويل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

فهو - سبحانه - قد خلقهم للتنوع والاختلاف.. لكنه يريد لكل الملل والشرائع والديانات وحدة جامعة لتنوعها، ورابطة ضابطة لاختلافها.. وحدة في: توحيد الخالق المعبود.. وفي الإيمان بالغيب.. وفي العمل الصالح.. فهذه هي أصول الدين الإلهي الواحد، التي اتفقت فيها وعليها كل الشرائع والنبوات والرسالات، من آدم.. إلى إبراهيم.. إلى موسى.. إلى عيسى.. إلى محمد - عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

★ ★ ★

وإنكار الإسلام «للمركزية الدينية»، إيمانًا منه بتعددية الشرائع الدينية، بتعدد أمم الرسالات السماوية.. يعني - أيضًا - رفضه «للمركزية القانونية» التي تريد العالم كله خاضعًا لمنظومة قانونية واحدة، حتى لتثير الاعتراضات، وتكيل الاتهامات ضد فلسفات التشريع في المنظومات القانونية الأخرى، بل وتجرح أحكام القضاء التي تصدر انطلاقا من فلسفات التشريع التي لا تنتمي إليها.

ودعاة هذه «المركزية القانونية» في دوائر السياسة والإعلام - يتجاهلون أن فقهاء القانون العالميين، قد استقر رأيهم - في مؤتمراتهم العالمية - منذ عقد الثلاثينيات من القرن العشرين - على اعتماد منظومات قانونية ثلاث.. يجري الرجوع إليها، والاستفادة منها، والمقارنة فيما بينها.. وهي القانون الروماني، واللاتيني، والشريعة الإسلامية.

فدعوى «المركزية القانونية»، يرفضها - أيضًا علماء القانون.

★ ★ ★

■ والإسلام ينكر «المركزية الحضارية» التي تريد العالم حضارة واحدة، وتسلك سبل الصراع - صراع الحضارات - لقسر العالم على نمط حضاري واحد لأن الإسلام يريد العالم «منتدى حضارات» متعددة.. ومتميزة.

لكنه، لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب الشوفيني بالمركزية الحضارية القسرية.. وإنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام.

ففى العلوم الطبيعية – علوم المادة الدقيقة والمحايدة – وفى علوم تمدن الواقع – التى تحقق زينة الأرض، ورخاء البشر، وسلام الإنسانية، والحفاظ على البيئة – ميادين واسعة للوحدة، والتفاعل، والتساند بين كل الحضارات.

وفى الثقافات والفلسفات والمواريث الثقافية، ومنظومات القيم، والهويات الحضارية والقومية، ميادين للتنوع والتمايز فى إطار المشترك الإنسانى العام بين مختلف الحضارت.

★ ★ ★

• والإسلام ينكر «مركزية العرق والجنس واللون».. التى أثمرت العنصرية العرقية، حتى جعلت فى العالم طبقية للألوان والأجناس، تركت آثارها الكريهة حتى فى المعابد والعبادات، فضلاً عن الأندية والمساكن والمدارس والمصانع، ناهيك عن القوانين والحقوق والواجبات والامتيازات!

بل رأينا من يدعى أنه من «شعب الله المختار» بحكم الولادة من رحم بعينها، حتى ولو كان ابنًا غير شرعى.. بل حتى لو كان ملحدًا؟!

ينكر الإسلام هذه «المركزية العرقية»، عندما تكون مركزية الجنس الأبيض.. أو الأسود.. أو الأصفر.. أو أى عرق من الأعراق.. فاختلاف الألوان – فى إطار الإنسانية الواحدة – وتساويها جميعًا – فى هذا الإطار الإنسانى الواحد – هو سنة من سنن الله، وآية من آيات الخالق لكل هذه الألوان والأعراق والأجناس ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

★ ★ ★

إن الإسلام ينكر «المركزية اللغوية».. التى تريد العالم لغة واحدة، فتنكر على الأمم والقوميات حقها فى تعدد الألسنة واللغات.. بل ينكر هذه «المركزية اللغوية» فى إطار الدولة الواحدة، إذا هى حرمت الأقليات اللغوية من حقها فى تعلم لغاتها القومية، كى تحافظ على مواريثها الثقافية.

وفى ذات الوقت، ينكر الإسلام تحول التعددية اللغوية أو الدينية إلى قطيعة، تفصم – بالشيفونية القومية أو التعصب الدينى – عرى التفاعل والترابط بين الدوائر اللغوية والطوائف الدينية فى الأمة الواحدة أو الدولة الواحدة.. فالأمة

وحدة تضم تنوعًا فى الملل والأعراق واللغات.. والوسطية الإسلامية تحمى وحدة الأمة من أن تفتتها التمايزات اللغوية أو التعددية الدينية.. كما تحمى هذه الوسطية التنوع اللغوى والدينى من أن تقهره وحدة الأمة أو الدولة.

يريد الإسلام – بمنهاجه فى التعددية – للعالم الذى نعيش فيه

أن تعتنى ثقافاته المتعددة بالتعددية اللغوية والتعددية فى المواريث الثقافية والفكرية لأممه وقومياته. لأن اختلاف وتعدد الألسنة واللغات هو آية من آيات الله فى المخلوقات.

★ ★ ★

والإسلام ينكر «المركزية فى السلطة».. داخل الدولة، تلك التى تفرض وحدة الرأى والاتجاه والموقف والاجتهاد، قاهرة الأمة على حزب واحد.. ورأى واحد.. وحاكم فرد.

ينكر الإسلام هذه «المركزية السلطوية» التى تبعث «الفرعونية» من جديد.

وفى ذات الوقت، لا يريد الإسلام للتعددية – فى المجتمع – غلو التشرذم والقطيعة والتفتيت بين تيارات الأمة وطبقاتها وأحزابها ومدارسها الفكرية.. وإنما يريد تنوع الاجتهادات والتنظيمات فى الفروع والمتغيرات والمناهج والآليات، وذلك فى إطار ثوابت الأمة، ومقومات المجتمع، ومكونات الهوية، ومعالم المشروع الحضارى للأمة.

★ ★ ★

ولأن هذه هى وسطية الإسلام الجامعة بين عناصر الحق والعدل من أقطاب الثنائيات، وهى الوسطية التى جعلت من التعددية تنوعًا فى إطار الوحدة.. وجعلت الوحدة ترعى وتحتضن التمايز والاختلاف.

ولأن الإسلام ليس «اليوتوبيا» الحالمة أحلام فلاسفة «المدن الفاضلة» – التى عزّت على التحقيق منذ أقدم العصور – وإنما هو الدين الجامع بين «المثال» الملهم، وبين «الواقعية» الساعية أبدًا إلى الاقتراب من «المثال».. فلقد أدرك الإسلام أن حياة الأمم والشعوب والمجتمعات والدول، لابد وأن تشهد التناقضات.. وأن تمتزج فيها نوازع الخير والشر.. والإيجاب والسلب.. والاستعلاء والاستضعاف.. والأثرة والإيثار.. إلخ.. إلخ.

فكانت دعوة الإسلام - بوسطيته - إلى حل التناقضات بين الأفراد والطبقات والأمم والدول والحضارات بنفس منهاجه المتميز في التعددية.

فهو يرفض «الصراع» سبيلاً لحل التناقضات؛ لأن «الصراع» يفضى إلى إفناء طرف للطرف الآخر، وفى ذلك قضاء على التعددية، عندما ينفرد المنتصر - الذى صرع خصمه - بالساحة والميدان، ويرث كل الإمكانات.

والإسلام - أيضًا - عندما يرفض الصراع، لا يرضى بالسكون والاستسلام؛ لأنه يؤدى إلى تقليد الضعفاء للأقوياء، وتشبه المستضعفين بالمستكبرين، وتبعية المهزومين للمنتصرين. وهو يفضى - أيضًا - إلى زوال التنوع وذبول التعددية. يرفض الإسلام ذلك.. ويدعو - بدلاً من الصراع المدمر والسكون المقلد - إلى «التدافع الحضارى» الذى هو «حراك» وسط بين «دمار الصراع» و«موات السكون والتقليد».

فالتناقضات يجب أن تحل بالحراك الاجتماعى والسياسى والحضارى، الذى هو تنافس وتسابق بين الأفراد والطبقات والأحزاب والأمم والدول والحضارات.. تنافس لا ترتفع حرارته إلى «حدة» الصراع، الذى يصرع فيه طرف الطرف الآخر، فيلغى تعددية الفرقاء والأطراف والأقطاب.

وأيضًا، لا تنطفئ حرارته، فيتحول إلى سكون، هو - فى الحقيقة - استسلام الضعفاء للأقوياء، وتقليد المهزومين للمنتصرين.

★ ★ ★

هكذا يرى الإسلام قضية التعددية

- قانونًا إلهيًا.. فى كل عوالم المخلوقات.. وسنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.
- ويراها وسطًا.. عدلاً.. متوازنًا.. جامعة للتنوع والاختلاف فى إطار الوحدة، فالوحدة تعنى: التركب من الأجزاء المتنوعة.

والتنوع لابد أن يكون فى إطار الوحدة الجامعة للفرقاء المتمايزين.

- وعموم هذا القانون - فى قضية التعددية - يعنى شموله لكل عوالم الخلق.. من الذرة إلى العالم.. من الفرد إلى الإنسانية.. من الأحياء إلى الجماد إلى النبات.. من الملل والشرائع إلى الفلسفات والأفكار والأحزاب..

وصدق الله العظيم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ [المائدة: ٤٨]. ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

★ ★ ★

فهى التعددية فى إطار الوحدة.

وهى الوَحْدَة الجامعة للتنوع والتمايز والاختلاف.

إنها الجدلية الوسطية، التى تمثل - فى واقعنا المعاصر - طوق نجاة الإنسانية من غُلُوَّى الإفراط والتفريط.

٤٢ عن الشريعة الإسلامية

الشريعة – في اللغة – : هي مشْرعة الماء، أي مورد الشاربين من الماء الجاري.. ثم استعيرت كلمة الشريعة ومصطلحها للدلالة الاصطلاحية على كل طريقة موضوعة بوضع إلهي ثابت، جاءتنا بواسطة نبي من الأنبياء.

فالشريعة – بالمعنى الاصطلاحي – هي ما شرعه الله – سبحانه وتعالى – لعباده من الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء أو رسول من الرسل.. فهي وضع إلهي وليست اجتهادًا إنسانيًا. وهي ثابت، وليست متغيرًا.. ومن هنا تميزت «الشريعة» عن «الفقه»، الذي هو اجتهاد إنساني في إطار ثوابت الشريعة الإلهية.. وهي – أي الشريعة – ثابتة؛ لأنها دين وأصول، بينما الفقه متطور؛ لأنه فروع تواكب مستجدات الزمان والمكان والوقائع والمصالح والأفهام.. ولذلك، كان الشارع للشريعة هو الله – سبحانه وتعالى – وهو لا يوصف «بالفقيه»، والرسول مُبيِّن للشريعة الإلهية. أما الفقيه فليس شارعًا، وإنما هو مجتهد في فقه الشريعة

والشريعة تشمل ما تعلق «بكيفية العمل» – وتسمى: فرعية وعملية – ولها دُوِّن علم الفقه – فهو علم الفروع.. كما تشمل الشريعة ما تعلق «بكيفية الاعتقاد» – وتسمى أصلية واعتقادية – ولها دُوِّن علم الأصول – أي أصول الدين – الذي هو «علم الكلام» أو «علم التوحيد».

والإسلام عقيدة وشريعة.. وإذا كان جوهر العقيدة هو التوحيد، الذي يفرد الذات الإلهية بالعبودية والأحدية في الذات والصفات والخلق والأفعال.. فإن الشريعة هي كل المعالم والضوابط والوصايا والأحكام والقيم والأخلاقيات التي جاء بها الإسلام، ليستقيم بها المسلم على طريق ومنهاج الوصول إلى تحقيق الاعتقاد الديني، وهي بذلك تشمل العبادات والمعاملات والقيم، سواء منها ما

وفى الشريعة الإسلامية، أيضًا، أحكام جزئية كانت معروفة فى الجاهلية، هى من بقايا الشرائع الدينية السابقة، أو مما جاء ثمرة للصواب العقلى والحكمة الإنسانية.. ولقد أقرها الإسلام، واحتضنتها واعتمدتها شريعته لاتساقها مع فلسفة الإسلام فى التشريع، وذلك انطلاقًا من أن الرسالة الخاتمة – قد جاءت مصدقة ومهيمنة على كل ميراث النبوات والرسالات والشرائع السابقة، ومتممة لما جاء فيها من مكارم الأخلاق.

ففى الإسلام – كعقائد – أصول الإيمان التى اتفقت فيها كل الرسالات السماوية.. وفى الإسلام – كشريعة – ختام الشرائع السماوية، المتميزة عن الشرائع السابقة بالعالمية والخلود، والتى ضمت من الشرائع السابقة ما صلح للاتساق مع هذا التميز والامتياز.

٤٣

الشريعة الإسلامية..
والتحرر من الاستعمار

بسبب من أن الشريعة الإسلامية هى الشريعة الخاتمة، ولأنها عالمية - لعالمية الإسلام - رأيناها قد وقفت فى التشريع للوقائع المتغيرة والمتطورة عند الإجمال والكليات وفلسفة التشريع، وذلك حتى تفتح الطريق دائماً وأبداً أمام الفقه الإسلامى لتنمية القانون الذى يواكب المتغيرات ويستجيب للمستجدات.. بينما وجدناها قد فصلت الأحكام فى الأمور الثوابت، التى مثلت ضرورات إنسانية لا تتغاير بتغاير الزمان والمكان - من مثل الضرورات الخمس: الحفاظ على النفس، والدين، والعقل، والعرض والنسب، والمال - ومن مثل: القيم - وبذلك جمعت الشريعة الإسلامية بين ثبات الفلسفة الإسلامية فى التشريع والتقنين، وبين تطور الفقه وأحكام الفروع والمتغيرات، تلك التى اكتسبت وتكتسب إسلاميتها من التزامها بروح الشريعة، وحدود الله فيها، وفلسفة الإسلام المتميزة فى التشريع.

وفى الشريعة الإسلامية، ارتبطت القيم والمقاصد الأخلاقية بكل الأحكام، فتميزتْ فيها «المصلحة» بـ«الاعتبار الشرعى»، ولم تنفصل عن القيم والأخلاق، كما حدث فى المنظومات القانونية الرومانية واللاتينية التى تغيَّت ضبط حركة الواقع وتحقيق المصلحة الإنسانية، بالمعنى الدنيوى، غير الملتزم بأحكام الدين وحدود الله وقيم الأخلاق. فمنطلقات المنظومات القانونية الوضعية هى «العالم» و«الواقع».. أى عالم الشهادة، وحقائق وقوانين علومه، والمنافع الدنيوية.. بينما تضيف منطلقات الفقه الإسلامى فى المعاملات إلى ذلك: عالم الغيب ووحى الله وشريعته السماوية، بما فيها من قيم وأخلاق هى التى تحدد نطاق وروح القانون.

وكذلك، تقف المنظومات القانونية الوضعية، فى معايير «التحسين والتقبيح»، عند «العقل المجرد»، و«الحواس وتجاربها»، بينما تضيف الشريعة

الإسلامية ومتهاجها فى التقنين إلى هذه المعايير «للتحسين والتقبيح»: معيار «الشرع» بأوامره ونواهيه. وذلك انطلاقًا من تميز النظرة الإسلامية إلى مكانة الإنسان - صاحب «العقل»، و«التجربة»، - فى هذا الكون. فهو خليفة لله فى استعمار الأرض، محكوم عقله وتجربته - وهما نسبيتا العلم والإدراك - بحدود وحقوق الله - سبحانه وتعالى - وبالعلم الإلهى الكلى والمطلق والمحيط.

ولقد ظلت الشريعة الإسلامية - فى التطور والتاريخ الحضارى للأمة الإسلامية - متفردة بالمرجعية والحاكمية، فى فقه الأمة، وفى قضائها، وفى مرجعية اجتهادات مجتهديها، وتجديد مجدديها، دون شريك أو مزاحم لها فى هذه المرجعية والحاكمية، منذ ظهور الإسلام إلى أن وفد إلى البلاد الإسلامية - فى ركاب النفوذ والغزو الاستعمارى الغربى - القانون الوضعى الغربى، ذو الفلسفة الدنيوية - العلمانية - فى التشريع - منذ قرابة القرنين من الزمان - فبدأ هذا القانون الوضعى الغربى - مستعينًا بسلطان الاستعمار ونفوذ التغريب - يزاحم الشريعة الإسلامية وفقهها فى كثير من المؤسسات الحقوقية والمجالس التشريعية والدوائر القضائية.

فالاستعمار قد شرع فى تغيير «واقعنا»، ليكون على النمط الغربى، وبقدر ما أحدث من تغييرات فى هذا الواقع بقدر ما حكم هذا الواقع المتغرب بقانونه الوضعى الغربى.. ولذلك كانت الدعوة إلى استرجاع كامل المرجعية للشريعة الإسلامية فى حياتنا الإسلامية واحدة من مقاصد دعوات اليقظة الإسلامية الحديثة، طلبًا لتحرير العقل والواقع الإسلاميين من هذا الاختراق القانونى، المخالف - فى فلسفته والكثير من أحكامه - للمنظومة الإسلامية فى التشريع والتقنين .. فالعودة إلى حاكمية الشريعة الإسلامية هى عنوان لعودة الواقع الإسلامى إلى خصوصياته الإسلامية؛ أى إن هذه العودة هى جزء من التحرر الوطنى ضد الاستعمار الغربى، الذى شوه الواقع الإسلامى، وغير الشريعة التى تحكم حركة هذا الواقع.

كذلك، أصبحت الدعوة إلى الاجتهاد الإسلامى المعاصر، الذى يستنبط من الأصول والمبادئ الشرعية، الأحكام التى تحكم حركة المستجدات فى الواقع الإسلامى الجديد، أصبحت هذه الدعوة، هى الأخرى، مطلبًا من مطالب الأمة، التى تريد الاحتكام إلى شريعتها، مع مواكبة الواقع الجديد بفقه إسلامى جديد. ذلك أن

تطور الواقع – فى المتغيرات الدنيوية – هو سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. فإذا لم يواكب الاجتهاد الإسلامى – فى فقه المعاملات – هذا الواقع المتطور، فسينفتح الباب للوافد القانوني الغربي.. شاء الناس أم أبوا.. ومن هنا كان الاجتهاد الإسلامى للمستجدات الدنيوية ضمانة من ضمانات الاستقلال القانوني لمجتمعات الإسلام.. فهو شرط من شروط الحرية والتحرير!

ولعل مما ييسر هذا الاجتهاد الفقهي المعاصر: النهوض بالتقنين الحديث لتراث الفقه الإسلامى فى المعاملات، ففيه ثروة غنية من الاجتهادات والأحكام، يمكن – بالتقنين الحديث – أن تصبح منظومة قانونية حديثة ومضبوطة، تسد فراغًا كبيرًا.. وأيضًا تحرك العقل المسلم لاجتهادات جديدة للمستجدات الجديدة.

إن العودة إلى حاكمية الشريعة الإسلامية – علاوة على تحريرها للعقل المسلم– فإنها تحرير للواقع الإسلامي من الاحتلال التشريعي الذى جاءنا فى ركاب الغزو الاستعماري الحديث.

٤٤ وحدة الأمة الإسلامية (١)

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - الناس من نفس واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وبتكاثر الناس توزعوا إلى شعوب وقبائل وأمم مختلفة ومتمايزة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإذا كانت الإنسانية قد بدأت بلغة واحدة، فلقد أصبح التعدد فى الألسنة واللغات أمرًا طبيعيًّا، بل آية من آيات الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم ٢٢].

ولقد تبع التنوع في الأمم واللغات تنوع فى الثقافات والفلسفات والشرائع والحضارات، ومن ثم تنوع واختلاف فى المفاهيم والمضامين لعديد من المصطلحات التى يتم تداولها فى هذه اللغات والثقافات والحضارات.. صحيح أنه لا مشاحة فى استخدام المصطلحات، أى فى وحدة ألفاظها وشيوع تداولها من قبل جميع الأمم، لكنّ عددًا من هذه المصطلحات - ومنها مصطلح «الأمة» - تتمايز مضامينه بتمايز الثقافات والفلسفات والحضارات.

فالذين ينطلقون من الفلسفات المادية - شمولية أو ليبرالية - قد رأوا «الأمة» ثمرة لوحدة «السوق.. والاقتصاد».. فالحياة الاقتصادية المشتركة - عندهم - هى الرحم التي ولدت منها الأمة، وعلى أرض السوق المشتركة تنمو اللغة المشتركة، التى تثمر - فى الميدان الفكرى والثقافى - تكوينًا نفسيًا مشتركًا يربط الأمة بروابط المشاعر والمثل والقيم والذكريات والمواريث والآلام والآمال.

وفى الأنساق الفكرية والدينية التى انحرفت إلى العنصرية - والمغلقة - يكون العنصر والعرق والدم هو معيار الانتماء إلى الأمة وتكوينها.. ونموذج ذلك في اليهودية التلمودية، التي أرادت تحويل الأقليات اليهودية إلى شعب وأمة، فجعلوا اليهودي هو المولود من أم يهودية، بصرف النظر عن العوامل الأخرى المكونة لثقافته وهويته، بل حتى بصرف النظر عن مدى إيمانه وتدينه باليهودية! ولقد نحت هذا النحو الأيديولوجيات النازية والفاشية، وتلك التى تقسم الإنسانية على أسس عرقية، آرية وسامية وحامية وغيرها.

وهناك قواميس غربية ومتأثرة بالتغريب خلطت بين «الأمة» وبين «الدولة»، على ما بينهما من تمايز واختلاف.. فقد تضم «الدولة» الواحدة أممًا متعددة.. وقد تتجزأ «الأمة» الواحدة وتتوزع على عدة «دول» - كما هو حال الأمة الإسلامية الآن.

وفى الإسلام، حيث تنطلق المفاهيم من القرآن العربى المبين، يتميز مفهوم الأمة ومضمون مصطلحها.. فليست السوق الاقتصادية والعوامل المادية هى المعايير الأولى والحاكمة لتكوينها.. وليس العرق ووحدة الأصل والنسب ونقاء الدم من عوامل نشأتها.. لأنها - فى النسق الإسلامى - كيان مرن الضوابط والمعالم والسمات والقسمات.. ومن ثم فأبوابها مفتوحة دائمًا، ودوائرها منداحة أبدًا، وتحققها متطور باستمرار وفق حيوية الجوامع التى تميز أهلها.

إن الأمة كما يقول الراغب الأصفهانى [٥٠٢هـ - ١١٠٨م]: هى «كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك تسخيرًا أم اختيارًا».

ولقد كان هذا المعيار المرن.. والمتطور.. هو الذى حكم تبلور الأمة الإسلامية على مر التاريخ.. فلقد بدأت بأمة الدين - الجماعة المؤمنة بالإسلام - ثم استوعبت وضمت - بعامل الوطن - العرب غير المسلمين فى دار الإسلام.. ثم جمعت - بعامل الدين - الأقوام غير العرب الذين دخلوا فى الإسلام.

وهى - فى ذلك - قد وظفت العديد من الجوامع - التى انغلقت فيها وعليها أمم أخرى - وظفتها كلبنات فى إطار جامعها الأول: الإسلام.. صنعت ذلك مع جامع «القبيلة» و«الشعب»، و«اللغة» و«الجنس» و«اللون»، فكانت - الأمة الإسلامية - «المحيط» الذى احتضن هذه «الجزر»، دون تناقض مع أى منها.. ودون وقوف عند حدود أى منها كذلك.

٤٥ وحدة الأمة الإسلامية (٢)

لقد رفضت الأمة الإسلامية الوقوف عند عصبية «القبيلة»، لكنها لم تلغ القبيلة، وإنما جعلتها لبنة فى جدار الأمة.. وصنعت ذلك وظلت تصنعه مع العشيرة والأسرة الممتدة.. ورفضت الوقوف عند حدود «الوطن - الإقليم»، ووظفت هذا الوطن لبنة فى محيط «دار الإسلام»، الجامعة للأقاليم والأوطان.. ورفضت الوقوف عند حدود «الدولة»، عندما استمرت وحدتها - وحدة الأمة - فى ظل تجزئة دار الإسلام إلى دول وطنية.. ورفضت الوقوف عند حدود اللغة، عندما جعلت - انطلاقًا من القرآن الكريم - تعدد الألسنة واللغات آية من آيات الله، فضمت الأمة لغات عدة، واحتضنت ثقافات فرعية متنوعة فى العادات والتقاليد والأعراف.. ورفضت الوقوف عند العنصر والعرق، عندما اعتبرت ذلك «جاهلية منتنة»، أزالتها إنسانية الإسلام وعالميته.. بل ورفضت الأمة - فى المفهوم الإسلامي - الوقوف عند وحدة الدين - حتى ولو كان هذا الدين هو الإسلام - وذلك منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام.. فهو الذى أعلن أن دين الله واحد أزلاً وأبدًا.. وأن شرائعه متعددة أزلاً وأبدًا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] وأنه قد جاء متممًا لمكارم الأخلاق.. ومصدقًا لما بين يديه من الكتب.. لا يفرق بين أحد من رسل الله.. وداعيًا كل أصحاب الشرائع الأخرى إلى كلمة سواء - هى: التوحيد الخالص.. والعمل الصالح.. والإيمان بالغيب والجزاء الأخروى -.. وجاعلاً الاختلاف سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وتاركًا الحساب على هذه الاختلافات الدينية إلى البارئ - سبحانه وتعالى - يوم الدين.. ومقررًا كامل المساواة فى الحقوق والواجبات بين الأمة - المتعددة دينيًا - فى الدولة.. والسياسة.. والاجتماع.. والمعاملات.. فمنذ تأسيس دولة المدينة المنورة سنة [١ هـ - سنة ٦٢٢م] ضمت الأمة يهود المدينة - العرب ومواليهم العبرانيين - ونص دستورها - الصحيفة - على «أن

يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..».

وفى أول لقاء مع النصارى – نصارى نجران سنة [١٠ هـ – سنة ٦٣١م] أصبحوا جزءاً أصيلاً من الأمة.. ونص العهد النبوى الذى أعطى لهم: «على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

وعندما انداحت دائرة الأمة الإسلامية – بالفتوحات التى حررت الشرق من قهر الروم والفرس – تقررت هذه الحقوق كاملة لأهل الديانات الوضعية أيضًا، الذين غدوا جزءاً من رعية دار الإسلام، وذلك وفقًا لما قرره رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه عبدالرحمن بن عوف: «سُنُّوا فيهم سنّة أهل الكتاب».

وفى حديث الجاحظ [١٦٣ – ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ – ٨٦٩م] عن العوامل المكونة «للجماعة – الأمة – نجد عامل اللغة وليس الجنس.. فإسماعيل وإسحق – عليهما السلام – أخوان، لكن اللغة فارقت بين أمتيهما.. كما نجد «التربية والشمائل والهمة والأخلاق والسجية هى التى تسبك الأمة سبكًا واحدًا، فتجعل القالب واحدًا، تتشابه داخله الأجزاء والأخلاط، فتثمر ولادة جديدة أخرى».

هكذا تميز المفهوم الإسلامى للأمة – فى النشأة والتاريخ الحضارى – فكانت فيه: «الأمة – الأممية»، التى استوعبت الأديان والشعوب والقبائل والأقاليم. مع مواريثها الحضارية القديمة.. وظلت – على مر تاريخها – دائمة الامتداد والاحتضان والاستيعاب لكل من يدخل فى «دار» الإسلام أو فى «دائرة» الإسلام

٤٦ وحدة الأمة الإسلامية (٣)

واليوم.. تتنوع شعوب الأمة الإسلامية فى الأجناس والألسنة والأقوام.. وتتوزعها الأقاليم والأوطان والدول.. لكن هذا التنوع لا يعدو أن يكون تمايزا فى إطار «الأمة الواحدة»، التى وحدها الإسلام فى العقيدة والشريعة والحضارة ومنظومة القيم والأخلاق المعيارية.

أما وحدة هذه الأمة – أى الجماعة – الإسلامية، فإنها – من الناحية الشرعية – حقيقة قرآنية، تعبر عن إرادة إلهية: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. ومع كونها فريضة شرعية فهى ضرورة حياتية أيضًا.. وهذه الوحدة، التى صنعها الإسلام، وصبغها بصبغته، قد أهلت الأمة الواحدة لأن تعيش فى وطن واحد، سماه علماء الإسلام ومؤرخوه «دار الإسلام».. ولقد عاش هذا الوطن الإسلامى حينًا من الدهر تحت سلطة «دولة» واحدة.. وحينًا آخر تعددت فيه «الدول».. لكن كل تاريخ الإسلام والمسلمين، إلى ما قبل التجزئة التى فرضتها الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على دار الإسلام، قد احتفظ – حتى مع تعدد «الدول» – بوحدة «الدار – الوطن».. فكان المسلم – بل والمواطن من أهل الكتاب – ينتقل بحرية تامة عبر الأقاليم والإمارات والولايات – فيما بين المحيطين – ويقيم أنى شاء وحيث أراد، فيعامل – دون إجراءات جديدة – معاملة المواطنين فى المكان الذى يستقر فيه، له كل حقوقهم وعليه ما عليهم من واجبات.. فجمعت «دار الإسلام» بين «الوحدة» فى حقوق المواطنة وواجباتها، وبين «تنوع الدول والحكومات».. ولا تزال أسماء العائلات والأسر المنسوبة إلى أقاليم دار الإسلام، والتى تعيش فى بلاد إسلامية أخرى، شاهدة على هذه «الأممية» التى ميزت دار الإسلام.. أممية فى الأمة، وليس لطبقة من الطبقات!

ولذلك، استقر الرأى فى الفكر السياسى الإسلامى - السياسة الشرعية - منذ بداية تاريخه وحتى عصرنا الحديث - على أن الإسلام جنسية ووطن ودار واحدة لأمة واحدة، لا تمزقها «الجنسيات» - بالمعنى الغربى، الذى عرفته الدولة القومية الغربية -.. ولا «الامتيازات» الخاصة بالجنسيات المختلفة.

وعندما ورد إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] - وهو مفتى الديار المصرية - سؤال «فى المسلم إذا دخل بمملكة إسلامية، هل يعد من رعيتها؟ له ما لهم وعليه ما عليهم، على الوجه المطلق؟ وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه، عموماً وخصوصاً؟ وما هى الجنسية عندنا؟ وهل حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكبيتولاسيون» [Capitulations] موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم بعضا؟؟»..

جاء فى فتوى الأستاذ الإمام، على هذا السؤال:

«.. إن وطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذى ينوى الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه، ويقر فيه مع أهله، إن كان له أهل، ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد الذى نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات. وإنما بلده ووطنه الذى يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذى انتقل إليه واستقر فيه. فهو رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته، دون سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم ما لهم وعليه ما عليهم، لا يميزه عنهم شىء، لا خاص ولا عام.

أمّا الجنسية، فليست معروفة عند المسلمين. ولا لها أحكام عليهم، لا فى خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوربية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم.

جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها، وسوّى بين الناس فى الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر فى الحقوق ولا فى الأحكام. فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة، فقد قال ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية - [أى عظمتها] وفخرها بالآباء، وإنما هو مؤمن تقىّ وفاجر شقىّ.

الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب» (رواه أبو داود) .. وروى كذلك عنه. «ليس منا من دعا إلى عصبية».

وبالجملة، فالاختلاف في الأصناف البشرية، كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي، مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه. ومن كان مصرياً وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجوه.

وأما حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكابيتولاسيون»، فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة.. هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها.

لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره، والله أعلم».

هكذا استقر الفكر السياسي الإسلامي على أن وحدة الأمة الإسلامية في الدين والحضارة قد أثمرت واستلزمت وحدة دار الإسلام، حتى مع تعدد الإمارات والولايات والحكومات.. بل إننا نستطيع أن نقول إن الخلافة الإسلامية، حتى عندما كانت واحدة وكاملة، قد تمايزت في دار الإسلام – تحت حكمها – الولايات والأقاليم.

٤٧ وحدة الأمة الإسلامية (٤)

عندما فرض الاستعمار الغربى - وخاصة بعد إسقاط الخلافة العثمانية [١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م] - التجزئة الكاملة على عالم الإسلام وأقام حواجز «الجنسية» - بمعناها الغربى - بين دوله وأقاليمه، ذهب الفكر الإسلامى ليبحث عن شكل جديد يحقق «وحدة» دار الإسلام، ويحافظ على وحدة الأمة، دون تجاهل لواقع التجزئة، وتعدد الدول والحكومات، وتزايد النزعات القومية.. ودونما قفز على «الواقع» الذى كرسه الاستعمار.. وكان من أبرز الاجتهادات الإسلامية فى هذا الميدان، كتاب فقيه الشريعة الإسلامية والقانون المدنى الدكتور عبدالرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ - ١٣٩١هـ = ١٨٩٥ - ١٩٧١م]: «فقه الخلافة وتطورها».. وفى هذا الاجتهاد الحديث لإحياء شكل جديد للخلافة الإسلامية، يحقق وحدة الأمة.. وتكامل دار الإسلام.. وتحكيم الشريعة الإسلامية.. قال السنهورى باشا: «بما أنه يستحيل اليوم تصور إقامة نظام الخلافة الراشدة أو الكاملة، فلا مناص من إقامة حكومة إسلامية ناقصة، وذلك على أساس حالة الضرورة، للظروف التى يمر بها العالم الإسلامى حالياً.

وهذا النظام الإسلامى الناقص يجب اعتباره نظاماً مؤقتاً، وهدفنا التالى هو السعى إلى العودة مستقبلاً للخلافة الراشدة (الكاملة).

إن نظام الخلافة الراشدة التى يجب إقامتها مرة أخرى فى المستقبل يجب أن يتصف بالمرونة. إن الشريعة الإسلامية لا تفرض شكلاً معيناً لنظام الحكم.. وإنه يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار الاتجاهات القومية والنزعات الانفصالية فى بعض البلاد الإسلامية، وهى اتجاهات تزداد يوماً بعد يوم؛ لذلك فإنه يجب علينا أن نجد حلاً يمكن أن يضمن صورة من الوحدة بين الشعوب الإسلامية مع إعطاء كل بلد نوعاً من الحكم الذاتى الكامل.

إن وحدة الإسلام في صورة متطرفة غير مرنة لدولة مركزية لم تعد ممكنة الآن، وإن فكرة تكوين منظمة للشعوب الشرقية يمكنها أن توفق بين الاتجاهات القومية الناشئة، مع ضرورة تأمين قدر من الوحدة بين الشعوب الإسلامية..

على أن الخلافة الكاملة يمكن تحققها إذا اجتمعت كلمة المسلمين، لا على أن تكون لهم حكومة مركزية واحدة، فذلك قد يصبح مستحيلاً، بل يكفي – على ما أرى – أن تتقارب حكومات الإسلام المختلفة وأن تتفاهم، بحيث يتكون منها هيئة واحدة شبيهة (بعصبة أمم إسلامية) تكون على رأس الحكومات، وتكون هي هيئة الخلافة، ولا سيما إذا ألحق بهذه الهيئة مجلس مستقل منها، يكون قاصراً على النظر في الشئون الدينية للمسلمين»..

هكذا قدم الدكتور عبدالرازق السنهوري باشا – سنة ١٩٢٦م.. عقب إسقاط الخلافة العثمانية – اجتهاداً «فقهياً.. وسياسياً» لتجديد الخلافة الإسلامية، وتوحيد الأمة الإسلامية، في شكل «عصبة أمم إسلامية»، توحد الأمة، وتحقق تكامل «دار الإسلام»، ولكامل النهضة الإسلامية الحديثة، مع مراعاة التعدد في الحكومات والتنوع في الأوطان، تلبية للواقع الجديد، والتيارات القومية الصاعدة في محيط عالم الإسلام.

ونحن عندما نتأمل اجتهاد السنهوري هذا – عقب سقوط الخلافة العثمانية – نجد له نظيراً في أدبيات اليقظة الإسلامية إبان مرحلة ضعف هذه الخلافة، وذلك بهدف تجديد شباب تلك الخلافة، لمواجهة المخطط الاستعماري الغربي الساعي إلى التهام أقاليم تلك الخلافة، تمهيداً لإسقاطها ووراثة تركتها.. في النصف الأول من عقد الثمانينيات – في القرن التاسع عشر الميلادي – كتب جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ – ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ – ١٨٩٧م] في «العروة الوثقى» يدعو إلى تكامل وتضامن دار الإسلام وأمة الإسلام، فقال: «إن الدول الإسلامية متصلة الأراضي، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة.. أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم؟! ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق من أصول دينهم. أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات: ١٠]، فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من كل الجوانب؟!

لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصًا واحدًا، فإن هذا ربما كان عسيرًا، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي مُلك على مُلكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه. ألا إن هذا، بعد كونه أساسًا لدينهم، تقضي به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات».

ثم عاد جمال الدين الأفغاني ليصوغ هذا الاقتراح في شكل نظام لا مركزي، تصلح به الخلافة العثمانية إدارة أقاليمها وولاياتها، وتجدد به شباب تلك الولايات، وتفتح أبواب النهوض أمام الشرق الإسلامي، كي يستطيع التصدي للزحف الاستعماري الغربي.. ولقد قدم هذا المشروع إلى السلطان عبدالحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م] في العقد الأخير من القرن التاسع عشر.

٤٨ وحدة الأمة الإسلامية (٥)

اليوم.. تتحرك خريطة عالمنا المعاصر نحو إقامة التكتلات والاتحادات، سواء بروابط إقليمية، أو حضارية، أو أيديولوجية.. فالوحدة الأوربية، وإن استهدفت المصالح المادية - اقتصادية وعسكرية - إلا أن الأيديولوجية الليبرالية، والتراث المسيحي، والبعد الحضارى الغربى هى منطلقات ومكونات فى صنع هذه الوحدة.. وإلا فليست مصادفة أن يكون القادة الثلاثة المؤسسون للاتحاد الأوربى - الألمانى «أديناور» [١٨٧٦ - ١٩٦١م] والإيطالى «دى جاسبرى» [١٨٨١ - ١٩٥٤م] والفرنسى «شومان» [١٨٨٦ - ١٩٦٣م] - هم من الديمقراطيين المسيحيين، ومن الكاثوليك المخلصين!

بل إن هذه العوامل - الأيديولوجية.. والدينية.. والحضارية - هى التى تجعل الاتحاد الأوربى يفتح أبوابه لشعوب أوربا الشرقية والوسطى، التى تشترك مع شعوبه فى هذه المنطلقات.. بينما يمانع فى دخول تركيا المسلمة إلى «ناديه المسيحى»!

★ ★ ★

وعندما حدث حريق المسجد الأقصى [فى جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩هـ - ٢١ أغسطس ١٩٦٩م] اهتز ضمير العالم الإسلامى، فانعقد أول مؤتمر قمة للبلاد الإسلامية [فى رجب - سبتمبر من نفس العام].. وتأسست - فى العام التالى - «منظمة المؤتمر الإسلامى» وهى التى تمثل - فى حالة ما إذا دبت فيها الروح والحيوية - عصبة الشعوب الإسلامية.. فإذا حدث وعادت حكوماتها عن خلط الإسلام بالعلمانية فى تشريعاتها، والتزمتْ بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة وقيمًا، وغدت - بذلك - «دولاً» إسلامية كاملة الإسلامية أمكن - يومئذ - أن تتطور «منظمة المؤتمر الإسلامى» إلى «منظمة الدول الإسلامية».. وبهذا التطور،

تكون قد استجابت لضرورات الواقع المعاصر وتحدياته، في التكتل على أساس المصالح المادية، وحققت - أيضًا - المبدأ الإسلامى فى وحدة الأمة الإسلامية، وتكامل دار الإسلام.

★ ★ ★

إن أمتنا الإسلامية تملك وطنًا تبلغ مساحته ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع.. تعيش فيه أمة يبلغ تعدادها مليارًا ونصف المليار - أى نحو ربع البشرية، ونصف المتدينين بالديانات السماوية! - وهى تملك - مع وحدة العقيدة والشريعة والحضارة والقيم والتراث الفكرى - من الثروات المادية ما يؤهلها لأن تكون العالم الأول - بل إنها قد كانت العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون.. بينما عمر الغرب كعالم أول لا يتعدى قرنين من الزمان!

إن الأمة الإسلامية - التي يمتد وطنها من «غانة» إلى «فرغانة» غربًا وشرقًا، ومن حوض نهر الفلجا إلى جنوبى خط الاستواء شمالاً وجنوبًا، تملك:

- أطول أنهار الدنيا.. وأقدم فلاح علم الدنيا فن الزراعة.. وفي بلد واحد من بلادها - هو السودان - أكثر من مائتى مليون فدان صالحة للزراعة بأرخص التكاليف، ومهيأة لأن تكون سلة غذاء لعالم الإسلام.
- كما تملك من طول الشواطئ - البحرية.. والنهرية - ما يؤهلها لأن تكون مصدرًا غنيًا للثروات البحرية بكل أنواعها، السمكية والمعدنية.
- ووطن هذه الأمة هو العالم الأول فى البترول، والغاز، والمنجنيز، والكروم، والقصدير، والبوكسيت.

وهو العالم الثانى في: النحاس، والفوسفات.

وهو العالم الثالث في: الحديد.

وهو العالم الخامس في: الرصاص.

وهو العالم السابع في: الفحم.

وهو ينتج ثلثى الإنتاج العالمى من البترول والغاز.. و٢٤٪ من المنجنيز.. و٤٠٪ من الكروم.. و٥٦٪ من القصدير.. و٢٣٪ من البوكسيت.. و٢٥٪ من النحاس.. و٢٥٪ من الفوسفات.. و١٢٪ من الحديد.. و١٠٪ من الرصاص.

■ ولأن أغلب ثروات العالم الإسلامى مركوزة فى باطن الأرض؛ ولأن زكاة الركاز الخمس – وفق حديث رسول الله ﷺ: «فى الركاز الخمس» – رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والإمام مالك والإمام أحمد – فإن هذا «البند» من بنود الزكاة وحده ٢٠٪ من قيمة هذه الثروات المستخرجة من باطن الأرض – لو قامت عليه مؤسسة تنموية إسلامية، لاستطعنا تنمية عالم الإسلام اقتصادياً واجتماعياً.. وبالحلال تنمى مجتمعات الأمة الإسلامية. مع عتق رقابنا من الأغلال التى يكبلنا بها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى!

وجدير بالذكر، أن وحدة أمة الإسلام، وتكامل دار الإسلام، وسلوك السبيل الإسلامية فى التنمية والنهوض، وإقامة العدالة الاجتماعية فى الثروات والأموال وفق فلسفة الإسلام فى الاستخلاف.. لا يعنى أى من ذلك ولا كل ذلك عزلة المسلمين عن المشاركة فى الحياة الدولية، سواء من خلال المنظمات الإقليمية مع الدول غير الإسلامية، أو من خلال المنظمات الدولية.. بل ومن خلال الانفتاح والتفاعل مع الحضارات غير الإسلامية.. ففقهنا المعاصر يرى العالم كله «دار عهد» تحكمها القوانين الدولية، التى يجب أن يشارك العالم كله فى صياغتها.. وينزل على احترامها.. والله – سبحانه وتعالى – قد خلقنا شعوباً وقبائل لنتعارف.. وإذا كانت الموازنة بين المصلحة وبين المفسدة هى معيار الحلال والحرام والمستحب والمكروه فى أغلب ميادين السياسة الشرعية، فإن تحقيق المصالح الشرعية المعتبرة للمسلمين وللإنسانية كلها، ودفع المضرة والمفسدة عن المسلمين وعن الإنسانية، هما معايير الموالاة والمعاداة فى علاقات المسلمين بغير المسلمين.. وهذه هى المعايير التى أوجزت التعبير عنها آيات القرآن الكريم التى تقول: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧ – ٩].

إن الأمة الإسلامية، تريد العالم «منتدى حضارات»، تتفاعل فيه كل حضارات الأمم والشعوب، مع تمايز كل هذه الأمم فى الهويات الثقافية والخصوصيات العقدية والحضارية.. مثلها فى ذلك مثل الإنسان الذى يصافح كل

الناس، مع احتفاظه «بالبصمة» التي تميزه عن الآخرين.. فالتعاون مع الآخرين فريضة إسلامية ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. وليس مجرد مباح من المباحات..

والتنوع والتعدد والتمايز بين الأمم والحضارات - بل وكل الكائنات والمخلوقات - سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل.. وليس مجرد حق من حقوق الإنسان. والله أعلم.

٤٩ إنسانية الحضارة الإسلامية

لو شئت أن أكثف مفهومى للحضارة الإسلامية فى كلمة جامعة، لقلت:

إن الحضارة الإسلامية هى الحضارة الإنسانية.. ذلك أن «خصوصية» الحضارة الإسلامية هى عين «إنسانيتها».

■ فهى عندما تدعو الناس إلى لُبِّها وجوهر مكوناتها، وهو دين الإسلام، إنما تدعوهم إلى الدين الجامع للشرائع والملل والنبوات والرسالات. أى إلى كل مواريث الإنسانية فى الدين والتدين عبر التاريخ الإنسانى الطويل..

تدعوهم إلى الإسلام الجامع، الذى هو اكتمالٌ وكمالٌ لدين الله الواحد، والمصدقُ لما بين يديه، والمهيمنُ على ما بين يديه.. أى المتضمنُ له، والمضيفُ إليه.. وليس النافى له، أو الناقضُ لما فيه..

وعن هذه الحقيقة أفصح حاطب بن أبى بلتعة [٣٥ ق.هـ - ٣٠ هـ = ٥٨٦ - ٦٥٠م] عندما حمل رسالة النبى العربى، ورسول الإنسانية محمد بن عبد الله ﷺ، إلى «المقوقس» - عظيم القبط - فقال له

- «إن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقْدَ ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به».

وصدق الله العظيم: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وصدق رسوله الكريم: «الأنبياء إخوة لعلات، أبوهم واحد وأمهاتهم شتى».

■ وإنسانية الحضارة الإسلامية، نابعة من إنسانية الإسلام وعالميته، تلك التى جاءت لتسلك الشرائع المحلية فى شريعة عالمية.. والديانات القومية فى دين إنسانى.. والنبوات المرحلية فى نبوة خاتمة خالدة.

أى إنها جاءت لتنتقل بالإنسان من ضيق الأفق المحلى إلى استشراف الأفق الإنسانى.. وتنتقل بالإنسانية من التشرذم والتعصب القبلى إلى أفق الوحدة الإنسانية والعالمية.

وعن هذا المعنى عبّر «ربعى بن عامر التميمى» – فى جوابه عن سؤال: «رستم».. قائد الفرس الأكاسرة:

– ما الذى جاء بكم؟!

فكان جواب «ربعى»:

– «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وصدق الله العظيم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

■ وإنسانية هذه الحضارة الإسلامية، هى الإنسانية التى لا تلغى الخصوصيات، ولا المحليات، ولا القوميات، ولا التنوع، ولا الاختلاف، والاجتهاد.. وإنما هى الإنسانية الجامعة، التى تسلك مختلف أنواع التنوع، وكل ألوان الاختلاف، وجميع صور التمايز فى الإطار الإنسانى الجامع.. والقواسم الإنسانية المشتركة.. فالناس: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخَلْق – كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

والتعددية فى الملل والشرائع تتعايش فى إطار أصول الإيمان: بالخالق المعبود الواحد.. وبالغيب واليوم الآخر.. وبالعمل الصالح، معياراً للنجاح فى العمران الدنيوى، وفى النجاة يوم الدين.

والتعددية فى المذاهب، تتعايش فى إطار الشريعة الإلهية الواحدة.

والتعددية فى الأمم والشعوب والقبائل والأجناس واللغات والقوميات والمناهج والحضارات والثقافات، آية من آيات الله وسنة من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل.. وهى تتعايش فى إطار الإنسانية الواحدة، والمشترك الإنسانى فى الفطرة الإنسانية السوية، وفى المعارف المعلومة من العقل بالضرورة، والتى لا يختلف فيها العقلاء.

■ وإسلامية هذه الحضارة، تجعل العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.. فتحرر المؤمنين بها من ذل الطواغيت واستكبارهم.. في ذات الوقت الذي تضمن فيه لغير أهلها حريتهم وعزتهم.. وفق إعلان الفاروق عمر بن الخطاب:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا»؟! فهي لا تقيم تناقضا بين عزة أهلها وعزة أمم حضارات الإنسانية جمعاء.

■ إنها حضارة الوسطية المتوازنة الجامعة.

- الجامعة بين الفرد والطبقة والأمة.. فالإسلام دين الجماعة.

- والجامعة بين الدولة المدنية والمرجعية الإسلامية، التي لا كهانة فيها.

- والجامعة بين ملكية الله للأموال والثروات.. وبين اختصاص الإنسان بالحيازة وملكية المنفعة الاجتماعية، بحكم استخلافه عن الله، مالك الرقبة في الثروات والأموال.

- والجامعة بين الوحدة في العقيدة، والشريعة، والحضارة، والأمة، ودار الإسلام.. وبين التمايزات والخصوصيات في المذاهب والشعوب والأقاليم والأوطان والأعراف.. وصدق الله العظيم، الذي أنزل الكتاب كما أنزل الميزان، والذي جعل الوسطية جعلا إلهيا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

■ وهذه الحضارة الإسلامية - كلغتها العربية - مستثناة من قانون شيخوخة وموات الحضارات.

ذلك لأنها - رغم مدنية علومها.. ونسبية معارف أهلها - مؤسسة على المطلق الخالد والكلي المحيط: وحي الله ونبأ السماء العظيم..

فبالإسلام الخالد.. الخاتم.. المحفوظ إلهيًا اصطبغت روح هذه الحضارة الإسلامية.. ولذلك فإنها تجري عليها سنن النهوض والتراجع.. والصحة والمرض.. لكن تتجدد بتجدد الإسلام الخالد، فلا تموت.. فهي - والعربية - خالدتان بخلود القرآن الكريم.

★ ★ ★

هكذا، نجد أن إسلامية حضارتنا هي عين إنسانيتها..

- إنـهـا الـكلمـة السواء التى إليهـا تدعو عقلاء كل الحضـارات فى عـالمنـا المعاصر.
- وهى الأرض المشتركة التى تتعايش عليها الثقافات الإنسانية المتمايزة.
- وهى طوق النجاة لعالم اليوم من الصراعات المدمرة، التى يبشر بها مفكرون.. وتسهر عليها مراكز أبحاث ودراسات.. ويخطط لها باحثون استراتيجيون.. وتسعى لإيقاد نيرانها حكومات ومنظمات وأحلاف وجيوش.

٥٠ طبيعة الاجتهاد الإسلامى الحديث

إن طبيعة الاجتهاد الإسلامى، وآفاقه، وأدوات هذا الاجتهاد، وشروط أهله.. كلها - بالطبع - مرتبطة بطبيعة الإسلام.. الإسلام الدين، والإسلام السياسى والاجتماعى والاقتصادى والحضارى، فالإسلام - كدين وضعه الله سبحانه وأوحى به إلى رسوله ﷺ - قد اكتملت أصوله وأركانه وعقائده وشعائره، وكذلك منهاجه الذى هو شريعته، يوم أن اكتمل نزول القرآن الكريم، الذى بينت مجمله السنة النبوية الشريفة (وبالتحديد ما هو تشريعى منها).. وفى ذلك جاء قول الله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : «لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتى».

لكن الإسلام الدين - كما هو معروف - لا يقف عند العقائد والشعائر، وإنما يمضى ليتخذ موقفًا من شئون الحياة الدنيا وتنظيم حياة الإنسان الاجتماعية.. ولما كانت شئون الدنيا متغيرة ومتطورة دائمًا وأبدًا، فلقد وقف فيها الوحى والسنة التشريعية عند الكليات والمثل والمناهج والفلسفات والمقاصد والغايات، دون النظم والتفاصيل والجزئيات.. ومن هنا كانت ضرورة الاجتهاد ملحة ودائمة حتى تستوعب روح الشريعة الواقع المتجدد، وحتى لا يخرج هذا الواقع عن النسق الإسلامى العام، وحتى تستجيب التشريعات لما يستجد من المستحدثات.

وقديمًا، عندما كانت الحياة بسيطة، وعندما كانت «الثقافة الموسوعية» هى الطابع الذى يميز الأعلام من كبار المفكرين الإسلاميين، عرف تاريخنا الفكرى المفكر الموسوعى، الذى استوعب علوم الشريعة ومشكلات الواقع الذى عاش فيه، فاجتمعت له وفيه كل مؤهلات وأدوات الاجتهاد.

أما اليوم.. وبعد أن ضمر الإبداع الفكرى الإسلامى منذ العصر المملوكى فالعثمانى.. وبعد أن تطور واقعنا دونما مراعاة لروح الشريعة بفعل تأثير الاستعمار والحضارة الغربية، وبعد أن تعقدت شئون الواقع، فلم يعد بإمكان المفكر الفرد أن يلم بحقائقها وحده، وبعد أن غدا «التخصص» هو طابع العصر، سواء فى العلوم أو فى تطبيقاتها أو فى مجال العمل الإنسانى.. اليوم، وأمام هذا التطور الجديد فى ميادين الفكر وميادين الواقع، فلابد وأن يتخذ الاجتهاد الإسلامى أسلوبًا جديدًا ليلبى احتياجات هذا الواقع الجديد.. فأهل الذكر.. وأولو الأمر.. وأصحاب الحل والعقد.. لم يعودوا هم الأفذاذ من علماء الشريعة وحدهم، بل لابد أن يشملوا كل خبراء «الدنيا» مع الأفذاذ من علماء «الدين»!.. ولابد أن تتبلور المؤسسات الفكرية التى تجمع هذه الخبرات، الدنيوية والدينية معًا، حتى يمكن تألق الاجتهاد الإسلامى من جديد.. إن الاجتهاد هو «عقد قران» بين روح الشريعة ومقاصدها وبين الواقع المتطور والمصالح المتجددة، على النحو الذى يحقق مصلحة مجموع الأمة، بما لا يخرج عن روح الشريعة ومقاصدها. وكما يلزم لمؤسساته الفقهاء الذين يعرفون القرآن وعلومه والسنة وعلومها، والمحكم والمتشابه، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصل، والعام والخاص، وتراث الأولين فى التشريع.. إلخ.. إلخ.. كذلك يلزم لهذه المؤسسات أهل الذكر والخبرة بعلوم الواقع وتجاربه، تلك التى تعقدت إلى الحد الذى يستحيل أن يقطع فيها العالم الموسوعى – كما كان فى القديم – .. إن الاجتهاد الإسلامى هو – بالتعبير الحديث – «صنع للقرار الإسلامى» فى قضايا الواقع المتطور. والذين يحترمون عقولهم، ويعرفون مقدار تعقد الواقع ومشكلاته، يعرفون أن صنع القرار لابد له من جهود جماعية تنتظمها وتنظمها المؤسسات.. وهذا لا يعنى الحجر على الإبداع الفردى، فهو المنطلق الذى لابد وأن تتاح لأصحابه كل الفرص والإمكانات، وإنما الذى أعنيه هو استقطاب صناع «الفكر» وأربابه وخبراء «الواقع» وأهل الذكر فى مشكلاته، ليأتى الاجتهاد – أو صناعة القرار الإسلامى – عبر المؤسسات القادرة على تنظيم هذه العملية – أقرب ما يكون إلى الدقة والصواب.

هذا ملمح من ملامح الاجتهاد كما أراه.

وملمح آخر، أود أن أسلط عليه بعض الضوء.. فنحن نرفض «العلمانية» التى هى وافد غربى، وحل أوربى لمشكلة أوربية.. نرفضها: لأنها تعنى، ليس فقط الفصل بين الدين الإسلامى والواقع الذى يحيا فيه المسلمون، بل لأنها أيضًا - وهذا هام، بل خطير - تعنى فصل حاضر أمتنا ومستقبلها عن تراثها الحضارى، وتحويلنا إلى هامش للحضارة الغربية، الأمر الذى يفقدنا جوهر استقلالنا، وهو الاستقلال الحضارى.. نحن نرفض هذه «العلمانية»، لكن رفضها يجب ألا يتخذ صورة «رد الفعل الغاضب»، الذى يدفعنا للتمسك بكل قديم لمجرد أنه قديم!.. إننا يجب أن نميز بين «النصوص» وبين «مقاصد» هذه النصوص.. وشريعتنا مقاصد، وأهم مقاصدها هو العدل - كما يقول الإمام السلفى ابن القيم - وليست مجرد نصوص! ويجب أن نميز بين نصوص الوحى، القطعية الدلالة والثبوت، وبين النصوص الأخرى، وخاصة أحاديث الآحاد، أو الموضوعة، أو الضعيفة، أو تلك التى لا يتسق منطقها عندما تعرض على روح الشريعة ومنطق القرآن الكريم، ويجب أن نميز، فى السنة النبوية الشريفة، بين ما هو «تشريعى» يتعلق بتبليغ الوحى وتفصيله وتبيينه، وبين «غير التشريعى»، المتعلق بأمور دنيوية يتجاوزها التطور الذى هو قانون وسنة من سنن الله فى هذا الكون، ويجب أن نميز بين الشريعة - التى هى نهج ومقاصد - وبين تطبيقات السلف واجتهادات الأقدمين، فالشريعة «دين وضعه الله» وهى من الثوابت، أما تطبيقات السلف واجتهادات الأقدمين فإنها ليست دينًا، وهى ليست ثوابت ملزمة لمن يعيش واقعًا مغايرًا للواقع الذى عاشوا فيه واجتهدوا له.

قد تبدو هذه القضايا، عند المستنيرين الذين يفقهون الإسلام ويعون حكمته، بديهيات - وهى كذلك بالفعل -.. لكن.. ما الحيلة؟!.. ونحن نشهد من مظاهر الغضب، على طوفان «العلمانية» والانزعاج من شيوع الانفلات من روح الإسلام.. نشهد «ردة فعل نصوصية» تعتصم، فى جمود، بكل ما هو قديم.

نشهد جماعات تشكون، وتحكم على كل المسلمين بالكفر والجاهلية، بل تستبيح حرمات الدم والمال: انطلاقًا من نصوص هى أقرب ما تكون إلى القصص والإسرائيليات، يسمونها «أحاديث آخر الزمان» ! ونشهد جماعات تعتزل مساجد المسلمين، وتنهض لبناء مسجد خاص بها، فيسير شبابها - كما حدث فى مدينة الجزائر منذ سنوات - خلف ناقة، ينتظرون أن «تبرك» حتى يبنوا مسجدهم فى

المكان الذى «تبرك» فيه!!.. ونشهد جماعات يبلغ بها الغلو إلى الحد الذى يجعلها «تتعبد» لا بالنصوص الدينية فقط، وإنما «بوقائع التاريخ»! فإذا كانت دعوة الإسلام قد انتصرت فى جيل، فإن الدعوات التى لا تحقق الانتصار فى جيل هى - بنظرهم - غير إسلامية!! وإذا كان صلح الحديبية قد استهدف مهادنة قريش لعشر سنين، فإن المعاهدات المشابهة إذا زادت مدتها عن عشر سنوات تصبح غير إسلامية!!... إلخ... إلخ.

نعم.. نحن نشهد «العلمانية»، التى تتحلل من كل الموروث الإسلامى - بينما تجمد أنصارها عند «نصوص» المفكرين الغربيين! - ونشهد رد الفعل الغاضب ضدها الذى يجمد أصحابه عند كل موروث! والمطلوب هو التمييز بين «الدين» الذى وضعه الله وأوحى به، وتطبيقات السلف لهذا الدين على واقع عصرهم - الذى تغير وانقضى -، التمييز بين «الثوابت» و«المتغيرات»، التمييز بين «المقاصد» وروح الشريعة وظواهر النصوص، التمييز بين النصوص المتعلقة بالعقائد والأصول والنهج والحدود والحلال والحرام وتلك التى جاءت تقنينا لواقع دنيوى هو متغير بالضرورة، فذلك ملمح آخر من ملامح الاجتهاد، كما أراه.

بالطبع، هناك ملامح أخرى، لكن لنقف عند هذه الأمثلة - وهى كافية فى الدلالة وصالحة كى يقاس عليها - حتى لا يطول بنا الحديث، فيخرج عن حيز المقام!

٥١ في النموذج الثقافي

على المستوى الإنساني، وفى مختلف الميادين، ينهض «النموذج» بدور محورى فى تحديد «الأسوة» و«القدوة» التى تنهض بدور «البوصلة» المحددة والمرشحة لتوجهات الإنسان فى مختلف ميادين الحياة.

ففى الأسرة «نموذج الأب».. وفى الأمة «نموذج البطل».. وفى التاريخ «نماذج الانتصارات».. وفى العلاقات الدولية والإقليمية «نموذج الوطن»، وفى العقائد والأيديولوجيات «نموذج الدين» إلى آخر النماذج التى تأسر الإنسان على توجه بعينه وطريق بذاته عند مفترق الطرق، وتعدد الخيارات.. وفى اللحظة التى يتم فيها اختيار «النموذج» يحدث الإفصاح والإعلان عن انتماء «الذات»، ومن ثم تميزها عن «الآخر» الذى عدلت عن اختياره «نموذجًا» فى هذا الميدان من ميادين الاختيار.

والميدان الثقافى ليس فقط واحدًا من هذه الميادين التى يتم فيها اختيار الإنسان «نموذجًا» دون الآخر، بل إن «النموذج الثقافى» يكاد أن يكون، بعد اختياره، والانتماء إليه، والولاء له، المعيار الذى يحدد ويرجح «النماذج» التى يختارها الإنسان فى العديد من المجالات والكثير من الميادين.

فالثقافة التى صنعت هوية الإنسان هى الموجِّه لاختياراته لنماذج الأسوة ومناهج القدوة والمثل والمعالم التى تجعله يوالى هذا ويعادى ذاك، وينشط لهذا المقصد ويعدل عن سواه، ويضحى فى هذا السبيل ولا يلتفت إلى ما عداه، والنموذج الثقافى هو المحدد «لنموذج المستقبل» الذى يسعى الإنسان إلى صنعه، وتحقيقه فى الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه.

وإذا كان الله – سبحانه وتعالى – قد خلق الناس جميعًا من نفس واحدة، فلقد اقتضت حكمته، وحتى يتم استباق الناس على طرق الاستعمار للأرض، وتنافسهم فى تحصيل المنافع، وتدافعهم لحيازة الخيرات المادية والمعنوية.. شاء الله – سبحانه – أن تتوزع البشرية إلى تعددية فى الشعوب والقبائل والأمم

والألسن - اللغات - والمناهج والشرائع، ومن ثم في الملل والقوميات والحضارات والثقافات.

وإذا كانت «الذات» إنما تُعرف بالسمات الثوابت التي تميزها عن «الآخر»، وليس بالمشترك الذي يجمعها بهذا «الآخر».. وبما أن واقع أمتنا العربية الإسلامية، الحديث والمعاصر، هو واقع الاحتكاك والتدافع الثقافي والحضاري مع النموذج الغربي تحديدًا، وقبل - بل ودون - أي نموذج «آخر» سواه.. فإن الحديث عن «الذات» و«الآخر» ثقافيًا، لابد وأن يقود إلى تحديد المعالم المميزة للنموذج الثقافي الإسلامي عن النموذج الغربي - دون أن يعني ذلك إنكار ميادين المشترك الإنساني العام في العديد من العلوم والمعارف التي لا تدخل حقائقها وقوانينها وثمرات معارفها وتجاربها في «المميِّز للذات الثقافية».. وإنما تدخل في «الجامع» الذي تتفاعل فيه وتتشارك «الذوات الثقافية» للإنسانية جمعاء.

فالإسلام هو المكون لذاتيتنا الثقافية، والمحدد لمعالم نموذجنا الثقافي، وتميزنا عن «الآخر» الغربي قائم فقط حيث يكون التميز والافتراق: الأمر الذي يجعل علاقة نموذجنا الثقافي - الذات الثقافية - بالآخر هي علاقة «التميز.. والتفاعل».. التي هي وسط عدل متوازن بين غلوين: غلو الإفراط، الذي يرى هذه العلاقة علاقة «قطيعة.. وتضاد».. وغلو التفريط، الذي يرى هذه العلاقة علاقة «مماثلة.. ومحاكاة»!

فكما تميز «البصمة» الإنسان عن بني جنسه، مع اشتراكه معهم في جنس الإنسان، كذلك تتميز الذات الثقافية للأمة عن الذوات الثقافية الأخرى بتميز النماذج التي يجمع كل منها معالم المغايرة والسمات الفارقة لنموذج ثقافي عن سواه، وذلك دون إنكار أو إغفال لميادين الاشتراك الإنساني في كثير من حقائق وقوانين الكثير من التجارب والخبرات والعلوم والفنون.

لقد شاء الله - سبحانه وتعالى - أن تختص ذاته وتتفرد بالواحدية التي لا تعدد فيها ولا تركيب، وأن تقوم سائر المخلوقات على التعدد والتنوع والاختلاف، وأن يكون هذا التنوع عامًا في عوالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان والأفكار.

وليس كالنموذج والقدوة والأسوة معايير للتميز في عالم الثقافات والأفكار والحضارات.. إنه المدخل والمعيار لتمييز «الذات» عن «الآخر».. ولإدراك ما بين «الذات» و«الآخر» من تميز أو اشتراك.

٥٢ النموذج الثقافى.. ماذا يعنى؟

«النموذج» هو التصور والمثال الذى يتحول إلى «معيار» فارق ومميِّز – فى النسق الفكرى – لمنظومة فكرية أو عقدية أو حضارية أو ثقافية عن غيرها من المنظومات المتميزة – هى الأخرى – فى النموذج والتصور والمثال.

و«الثقافى»: هو جماع ما يعمر النفس الإنسانية ويصوغها ويهذبها من سائر ألوان الإبداع والعطاء.. إبداع الإنسان، وعطاء المحيط.. وهو – «الثقافى» – مع «المدنى» – الذى هو جماع ما يتجدد به ويعمر الواقع المادى، ويرتقى ويتهذب – يمثلان جماع «الحضارة» و«العمران».. فالثقافة عمران النفس الإنسانية، والتمدن عمران الواقع المادى؛ ولذلك كان الاشتراك الإنسانى. فى «التمدن» – أى فى عمران الواقع المادى – أكثر مما هو فى «الثقافة»، التى هى عمران النفس الإنسانية؛ إذ فيها تتجلى الخصوصيات بين الأمم والحضارات، لاستعصاء النفس، ومن ثم مقومات تهذيبها وعمرانها، على النمطية والقولبة والتكرار الوارد فى عمران الواقع المادى.

ولأن الإسلام – كمنظومة عقدية، تكوَّن من حولها نسق فكرى – قد مثل «الرحم» الذى ولدت منه الأمة الواحدة.. والدولة الواحدة.. والدار الواحدة.. والصبغة التى صبغت حضارة الأمة وميزتها، عبر الزمان والمكان.. وذلك فضلاً عن الوحدة فى العقيدة والشريعة، حتى لكأنما قد خرجت أمته من بين دفتى قرآنه الكريم؛ لأن هذه هى المكانة المحورية للإسلام فى حياة الأمة، فلقد صاغ الإسلام إنسان هذه الأمة، وحدد له معالم الطريق لبناء العمران الدنيوى، ولضمان النجاة الأخروية صاغ الإسلام لإنسانه وأمته المعايير التى لوَّنت الثقافة التى نهضت بمهام العمران والتهذيب للإنسان المسلم، إن فى لحظات التزامه بالنموذج والمعيار والمثال والتصور، وإن فى لحظات انحرافه عنه؛ لأن «الضمير» الذى

صاغه النموذج الإسلامي يظل واعيًا بأن الانحراف عن هذا النموذج هو الاستثناء الشاذ والحرام الذي ينتقص من تهذيب النفس وعمرانها؛ أي من ثقافتها التي لابد وأن تلتزم التصور، وتتغيا المثال.

تلك هي مكانة الإسلام في صياغة النموذج الثقافي للأمة.

ولعل الإسلام قد بلغ على هذا الدرب - درب صياغة النموذج الثقافي للأمة الإسلامية.. وصبغه بصبغته - أكثر من المنظومات العقدية والفكرية الأخرى، دينية كانت أو وضعية؛ لأن الديني في تلك المنظومات الأخرى قد وقف - في الغالب - عند مهام «خلاص الروح» و«مملكة السماء»، دون الشئون الحياتية والدنيوية.. بينما توجهت المنظومات الوضعية إلى «شئون الدنيا»، دون سواها. أما الإسلام، الذي مثّل منهاجًا شاملاً وجامعًا للروح والجسد، للفكر والمادة، للدين والدولة، لعالم الغيب وعالم الشهادة، للدنيا والآخرة، للذات والآخر، للفرد والطبقة والأمة، للتكاليف الفردية والكفائية (الاجتماعية)، حتى لقد جعل الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا وطيبات الحياة عبادة لله، وصنف إماطة الأذى عن الطريق في شُعب الإيمان!

إن الإسلام الذي مثّل بمنهاجه الشامل هذا الروح السارية في الحياة الإنسانية، وفي محيطها الطبيعي، وفيما وراء الحياة والطبيعة، قد بلغ - في صبغ الثقافة الإسلامية بصبغته المتميزة - الدرجات التي لم تبلغها المنظومات العقدية الأخرى.. لقد صاغ النموذج والمثال والتصور والمعيار الذي كان التزامه من قبل الإنسان المسلم السبيل لأسلمة الثقافة التي صاغت النفس المسلمة.

وحتى الأعراف - التي لم يصنعها الإسلام - رأيناه يضبطها، ثم يجعلها مصدرًا من مصادر التشريع، وحتى «الحكمة» التي هي الصواب البشري الذي يصل إليه العقل الإنساني، رأينا الإسلام يجعلها مناطًا للتكليف الشرعي، ويحدثنا عن أنها - كالكتاب - كلاهما تنزيل إلهي: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

لقد كانت الصناعة الثقيلة للإسلام هي تغيير النفس الإنسانية، وصياغتها صياغة إسلامية؛ أي تهذيبها وتعميرها تهذيبًا وعمرانًا إسلاميًا، وذلك لتصوغ هذه النفس - بعد أسلمتها - واقعها المادي صياغة إسلامية كذلك؛ أي ليقوم العمران الإسلامي، في النفس والواقع؛ أي في الثقافة والتمدن - وهما جماع

الحضارة - وذلك حتى تتحقق المقاصد الإلهية من وراء خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض لاستعمارها وعمرانها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فالإسلام هو صانع وصائغ هذا النموذج الثقافى للأمة الإسلامية التى تصوغ - وفقا لمعاييره - تمدن واقعها الدنيوى، فيتحقق بذلك النموذج الإسلامى فى الحياة.

٥٣ من أين تأتى معارف الإنسان؟

لقد أقام الغرب نهضته الثقافية الحديثة والمعاصرة على «المذهب الوضعى»، وذلك إبان ثورة فلسفة التنوير الأوربية على الكنيسة والمقدس واللاهوت.. والوضعية: هى المذهب الذى يرى أن الفكر الإنسانى لا يمكن أن يسمى علمًا ولا معرفة حقيقية إلا إذا كان مصدره الواقع.. فالظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، هى مصدر المعرفة الحقة والحقيقية، فالحق هو ثمرة التجربة، وحتى العقل، فليس له من عمل إلا مجرد تنسيق معطيات التجربة وتنظيمها.. والمثل الأعلى – فى الثقافة الوضعية الغربية – لليقين المعرفى هو للعلوم التجريبية.. أما غير الظواهر المحسوسة فوهم؛ ولذلك رأى المذهب الوضعى وفلاسفته أن تاريخ العقل قد مر بحالات ثلاث: الحالة اللاهوتية.. ثم الحالة الميتافيزيقية.. ثم الحالة الواقعية الوضعية التى تأسس عليها النموذج الثقافى لعصر النهضة الأوربية.

فالفلسفة الوضعية الغربية – ومن ثم نموذجها الثقافى الذى شاع فى كل أرجاء الحضارة الأوربية – قد أقامت المعرفة على مصدر واحد هو الواقع المادى، وحقائق عالم الشهادة؛ لأنها جاءت ثمرة للتنوير الأوربى الذى أحل العقل والعلم والفلسفة محل الله والدين واللاهوت، والذى اعتبر أن المرحلة اللاهوتية من مراحل تطور العقل البشرى هى مرحلة طفولة هذا العقل، تجاوزها إلى المرحلة الميتافيزقية، ثم إلى المرحلة الوضعية الواقعية والمادية.. فالكون والواقع هما المصدر الحق للمعرفة الحقة.

لكن التصور الإسلامى لم يقف بمصادر المعرفة عند العالم والكون وحدهما.. وأيضًا لم يهمل هذا الكون أو يخرجه من نطاق مصادر المعرفة والعلوم.. وإنما جاء حديث القرآن الكريم عن أن هذا المصدر الكونى لا يفى وحده بتفسير حقائق

المعرفة، عبر تاريخ المعارف الإنسانية.. فقال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ٦ - ١١].

فبمعارف ظاهر الحياة الدنيا وعالم الشهادة - الوضعية - وحدها، لا سبيل إلى معارف خلق الله السموات والأرض وما بينهما وحقائقها.. ومعارف لقاء الله في الدار الآخرة بعد هذه الحياة الدنيا.. ولا سبيل إلى تفسير عاقبة الأمم التي أخذها الله بذنوب تكذيبهم الرسل، وظلمهم لأنفسهم، مع ما كانوا عليه من قوة وعمران، لا يفسر هلاكهما بمعارف الواقع المادي وحدها.

لا سبيل إلى تفسير هذه العواقب - التي تحدث عنها الوحي الإلهي - بمعارف عالم الشهادة وحدها.. فنحن هنا أمام سنن غير معتادة، لا سبيل إلى معرفتها بحقائق الواقع المادي وحدها.

ولذلك، فإن النموذج الثقافي الإسلامي، في مصادر المعرفة، وإن لم يهمل عالم الشهادة والواقع المادي، كمصدر للمعرفة، فإنه لم يكتف بهذا المصدر، وإنما أضاف إليه عالم الغيب، ونبأ السماء، وكتاب الوحي، والأدلة والمعارف والحقائق السمعية، مصدرًا للمعارف التي لا تصدر عن الواقع المادي، ولا يستقل العقل بإدراكها، ولا تخضع لتجارب الحواس.. فأقام هذا النموذج الثقافي الإسلامي ثقافته على ساقين اثنتين، واعتمد للمعارف مصدرين: كتاب الوحي المسطور، وكتاب الكون المنظور، الأمر الذي ضمن التوازن لهذا النموذج الثقافي الإسلامي، وذلك بدلاً من إقامته على ساق واحدة، كما هو الحال في النموذج الثقافي الذي أثمرته الوضعية الغربية.

بل لقد اعتبر القرآن الكريم أن هؤلاء الذين لا يعتمدون للمعرفة إلا كتاب الكون، إنما يقفون بعلمهم عند «ظاهر الحياة الدنيا»، مغفلين معارف الوحي والغيب ونبأ السماء، وما لا تدركه العقول والحواس: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

فالإسلام - ونموذجه الثقافي والفلسفي - لم يبخس الكون والعالم والواقع حقه - كمصدر للمعرفة - ولكنه لم يكتف به وحده مصدرًا للمعرفة، وإنما أضاف إليه آيات الوحي الإلهي لتنضم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق.

وكذلك كان حال التصور الإسلامي مع سبل المعرفة وأدواتها. فعلى حين وقفت الفلسفة الوضعية عند «العقل»، و«التجربة» - كسبل للمعرفة - وجدنا الإسلام يضيف إليهما «النقل» و«الوجدان» - وهي السبل التي سماها الإمام محمد عبده «الهدايات الأربع» التي تتعاون وتتساند وتتفاعل لتجعل للثقافة الإنسانية التوازن الجامع بين «العقل»، و«القلب» وبين «التجارب المحسوسة» وبين «نبأ السماء».

٥٤ علاقة المعارف بالإسلام

فى العقود الأخيرة عقدت الكثير من المؤتمرات، بل وقامت عدة مؤسسات تدعو إلى «إسلامية المعرفة»، وعلى الرغم من أبحاث ومناقشات هذه المؤتمرات، وجهود هذه المؤسسات لا تزال هذه الدعوة محاطة بكثير من الغموض.. وفوق ذلك تثير الكثير من الجدل بين أنصارها وخصومها.. حتى ليكشف هذا الجدل – وتلك هى المفارقة الأكبر – أنها غير مفهومة على النحو الجيد عند كثيرين من هؤلاء الخصوم والأنصار على حد سواء!

فالبعض – من خصوم إسلامية المعرفة – يظن أنها تعنى الدعوة لاكتفاء المسلمين بعلوم حضارتهم عن علوم الحضارات الأخرى، بل والحكم «بكفر» علوم تلك الحضارات!

والبعض – من رافعي شعارات إسلامية المعرفة – يكتفون – فى تقديم نماذجها – بنقل نظريات العلوم الغربية – الاجتماعية والإنسانية والطبيعية – وينثرون عليها مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ثم يقدمونها إلى القراء، على أنها هى «المعرفة الإسلامية»!

لذلك، كانت ولا تزال هذه القضية في حاجة إلى الجلاء الذى ينصف حقيقتها من ظلم كثير من الخصوم والأنصار على حد سواء!

وإذا نحن شئنا تعريفًا – بسيطًا.. ودقيقًا.. ووافيًا – لإسلامية المعرفة أو للتأصيل الإسلامى للمعرفة – فإننا نستطيع أن نقول: إنها الإيمان بوجود علاقة ما بين المعارف والعلوم التى يكتسبها الإنسان وبين الإسلام الذى يتدين به هذا الإنسان، الذى يكتسب هذه المعارف ويحصّل هذه العلوم.. وذلك انطلاقًا من تأثيرات عقائد الدين وأحكام شريعته ومعايير التدين به على العادات والتقاليد والأعراف والمواريث والآداب والفنون التى صاغت وتصوغ «النموذج الثقافى» لهذا الإنسان الذى يخوض ميادين البحث والاكتساب للمعارف والعلوم.

فالمعتقد الدينى يلوّن نظرة الإنسان للحياة، ويطبع فلسفة رؤيته للكون، ويؤثر

فى تحديد مقاصده من وراء العلاقات الاجتماعية، وينهض بدور رئيسى فى تحديد معايير الحلال والحرام، والمقبول والمرفوض، والولاء والبراء، والانتماء والمفارقة. وقسمات «الذات» وسمات «الآخر» إلخ.. إلخ.. ومن ثم يسهم هذا المعتقد الدينى فى تمايز الثقافة التى تمثل المعارف والعلوم أبرز قطاعاتها وأخطر ميادينها.

وإذا كان التصنيف الموضوعي للمعارف والعلوم يميّز - انطلاقًا من موضوعات مباحث هذه المعارف والعلوم - بين:

- العلوم الشرعية.. ومن ثم علوم العقيدة وأصولها.. والفقه وأصوله.. والقرآن الكريم وعلومه.. والحديث النبوى الشريف وعلومه.. إلخ.
- والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. من مثل الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والفلسفة، والنفس، والآداب والفنون.... إلخ.
- والعلوم الطبيعية - الدقيقة والمحايدة - من مثل علوم الفيزياء، والكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، والهندسة، والطب، والصيدلة، والرياضيات.. إلخ.

إذا كان تصنيف العلوم - تبعًا لتمايز موضوعات هذه العلوم - لا يضع كل هذه العلوم فى خانة واحدة.. فإن نوعية ونسبة العلاقة بين الدين وبين المعارف والعلوم تتمايز وتختلف هى الأخرى.. فنسبة العلاقة - أى نسبة إسلامية المعارف والعلوم - بين الدين وبين العلوم الشرعية عميقة وعالية وشاملة وكلية ومحيطة: لأن الشرع والوحي والدين - أى الوضع الإلهى المطلق - هو موضوع هذه العلوم الشرعية، حتى لتسمى هذه العلوم، علوما شرعية ومعارف دينية بإطلاق وتعميم، ودونما خلاف على هذه التسمية بين أحد من العلماء والباحثين.. حتى إن الاجتهاد البشرى فيها، والفكر الإنسانى فى ميادينها - أى المعرفة الإنسانية المكتسبة في علومها - محكومة بثوابتها وأحكامها وقواعدها ومبادئها التى هى وضع إلهى ثابت، ووحى سماوى خالص يمثل الإطار الحاكم لأى تفكر أو اجتهاد وتجديد فى هذه المعارف والعلوم.

فإسلامية معارف العلوم الشرعية كاملة وشاملة.. كما أن مسيحية اللاهوت النصرانى كاملة وشاملة.. وكما هو الحال مع مادية المعارف الماركسية تمامًا!

فلا خلاف على العلاقة العضوية، والعروة الوثقى بين الإسلام وبين معارف العلوم الشرعية.. لكن حال هذه العلاقة، ودرجة هذه الأسلمة تختلف إذا كان الحديث عن معارف العلوم الاجتماعية والإنسانية.. وفى حال العلوم الطبيعية أيضًا.

٥٥ الإسلام وفلسفة العلوم

الدين الإسلامى - وهو وحى الله - سبحانه وتعالى - ونبأ السماء العظيم - هو موضوع العلوم الشرعية الإسلامية - العقيدة وأصولها.. والفقه وأصوله.. والقرآن وعلومه.. والسنة وعلومها... إلخ. ... إلخ؛ فغاية هذه العلوم هى إقامة الإسلام.. ومن ثم فدرجة الإسلامية فى معارف هذه العلوم كاملة.. وليس على هذه الإسلامية للمعارف الشرعية خلاف بين العقلاء.

لكن حال علاقة الإسلام بمعارف العلوم الإنسانية والاجتماعية تختلف عن حال علاقته بهذه العلوم الشرعية؛ أى إن نسبة إسلامية المعرفة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية - اقتصادًا، واجتماعًا وسياسة، وفلسفة، ونفسا، وآدابا وفنونا.. إلخ - ليست كاملة ولا شاملة ولا متطابقة؛ لأن موضوع هذه العلوم الإنسانية ليس هو دين الإسلام، وإنما هو النفس الإنسانية التى ليست دينا خالصًا، لكن تجاربها وخبراتها واختياراتها وفلسفاتها وأحلامها وأشواقها تتأثر وتتلون وتنطبع بعقائد الدين ومبادئه وأحكامه وفلسفته فى التشريع.. فمناهج وتجارب وحقائق ومقاصد هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية موضوعها النفس الإنسانية - على المستوى الفردى والاجتماعى - ولأن هذه النفس الإنسانية قد اصطبغت وتأثرت وتلونت بعقائد المطلق الديني، ومعايير الحلال والحرام الشرعية، وصاغتها العادات والتقاليد والأعراف والمواريث المصطبغة أو المتأثرة بمطلقات الدين.. وأيضًا، لتنوع وتعقد عوالم النفس الإنسانية، وفرادة واختلاف تجاربها الاجتماعية والروحية والفنية، كان تلون وتمايز المعارف الإنسانية فى ميادين هذه العلوم.. فمهما بلغت ضوابط موضوعيتها تظل مستعصية على الحياد الذى تتميز به حقائق وقوانين ومعارف العلوم المادية - الطبيعية - ومن هنا فإن نسبة الإسلامية لمعارف العلوم الإنسانية والاجتماعية هى حقيقة لا يمارى فيها العقلاء.. وإن كانت درجتها أقل من إسلامية العلوم الشرعية.

بل إن تأثيرات المعتقد الديني تظل فاعلة في نفوس الذين مرقوا من الدين وألحدوا فيه.. تظل – كما يقول جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ – ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ – ١٨٩٧م] كأثر الجرح المندمل! فإذا هم مرقوا من روحانية الدين وغيبياته ومناسكه وشعائره، تظل فيهم ثقافته وعاداته وعصبيته.. وحتى إذا فارقهم الحب له، فسيظل الكره له شاغلاً لنفوس هؤلاء الملحدين فيه!

فالعروة وثقى، إلى حد كبير، بين المطلق الديني وبين النسبي الإنساني في معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويلي هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية، في العلاقة بالمطلق الديني، حقائق ومعارف وقوانين العلوم الطبيعية.. ففي هذه العلوم – التي تمثل المادة موضوعاتها – يكون الحياد كاملاً، والموضوعية تامة في الحقائق والمعارف والقوانين المستخلصة من التجارب في موضوعات هذه العلوم.. فحقائق تجارب الطب والوراثة والفيزياء والكيمياء والفلك وطبقات الأرض.. إلخ موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية.. وما التطور فيها والتراكم المعرفي والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها، والتقدم على درب كشف أسرارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على البحث والتجريب في ميادين هذه العلوم.

فلا أسلمة على الإطلاق في الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب العلمية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية.. وإنما تأتي الأسلمة – فقط – في توظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية.. فالتدين – على المستوى الفردي والاجتماعي – يضبط توظيف هذه الحقائق المحايدة بأخلاقيات الدين وقيمه، لتحقق مقاصده الشرعية، بينما الانفلات من الدين قد يوظفها فيما يخالف أحكام الدين.

فحقائق تجارب زراعة العنب – مثلا – لا تختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعته.. لكن هذه العقائد هي التي تحدد اختيارات وتضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة.. فالبعض يوظفها لاستثمار العنب كي يكون خمرا.. والبعض يقف بوظائفها – في زراعة العنب – عند الطيب الحلال

وكذلك الحال مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات – وهى ثابتة ومحايدة – تقف العقائد عند حدود ضوابط وظائفها.. فالبعض يشوه بها خلق الله، ويخلط بها الأنساب.. بينما تضبط الأسلمة وظائفها وتطبيقاتها بمقاصد الشريعة الإلهية، وأخلاقيات الدين، وقيم الإيمان الدينى.

فإسلامية المعرفة – أى العلاقة بين المطلق الدينى وبين المعارف الإنسانية النسبية – قائمة دائمًا وأبدًا. لكن نسبتها وميادينها هى التى تتفاوت وتختلف – فى الدرجة – وذلك باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية.. فهى عالية جدًا فى العلوم الشرعية.. وكبيرة فى العلوم الإنسانية.. وواقفة فى العلوم الطبيعية عند فلسفات تطبيقات قوانين هذه العلوم.

٥٦ عن إسلامية المعارف والعلوم (١)

بعض الخبثاء – وبعض الجهلاء – يحاولون تشويه قضية إسلامية المعرفة، وعلاقة الإسلام بالمعارف والعلوم بادعاء أن هذه الإسلامية تعنى وجود «كيمياء مسلمة» وأخرى «كافرة»!.. وتعنى وجود «فيزياء مسلمة» وأخرى «كافرة».. وهكذا فى سائر العلوم الطبيعية.

بينما الذى تعارف عليه، ويلح عليه دعاة إسلامية المعرفة، هو أن الإسلامية؛ أى علاقة الإسلام بمعارف وقوانين وحقائق العلوم الطبيعية لا تعدو ضبط فلسفات ومقاصد تطبيقاتها بأخلاقيات الإسلام فى الاجتماع والعمران.

ذلك أن حقائق تجارب علوم من مثل الفيزياء والكيمياء والطب والوراثة والفلك وطبقات الأرض... إلخ. هى حقائق موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية. وما التطور فيها والتراكم المعرفى والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها، والتقدم على درب كشف أسرارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على البحث والتجريب فى ميادين هذه العلوم.. فلا أسلمة على الإطلاق فى الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب العلمية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية.. وإنما ترد الأسلمة – فقط – فى توظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية.. فالتدين – على المستوى الفردى والاجتماعى – يضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة بأخلاقيات الدين وقيمه فى الاجتماع والعمران، لتحقيق مقاصده الشرعية ومثله الإلهية، بينما الانفلات العلمى من الدين قد يوظف هذه الحقائق العلمية فيما يخالف أحكام الدين.

فحقائق تجارب زراعة العنب – مثلاً – لا تختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعته، لكن هذه العقائد هى التى تحدد وتضبط اختيارات الزارعين لهذا العنب..

أى تضبط توظيفهم لحقائق علم زراعة العنب.. فالبعض قد يوظفها للاستثمار الأكثر ربحا، وفق قواعد المنفعة الدنيوية البحتة، فيرى فى جعل العنب خمراً التوظيف المختار لحقائق علم زراعته.. بينما يقف البعض - انطلاقاً من أخلاقيات الدين وقيمه وأحكامه - عند توظيف ثمرات علم زراعة العنب فى الطيب الحلال، حاكمًا وظيفة العلم الطبيعى بأخلاقيات الدين.

وكذلك الحال مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات - وهى ثابتة، لا تتغير بتغير عقائد علمائها - تقف العقائد عند حدود ضوابط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة.. فالبعض يوظفها - إذا كان متفلتا من ضوابط الدين - فى تشويه خلق الله، وخلط الأنساب.. بينما تضبط الأسلمة وظائف وتطبيقات هذه العلوم المحايدة بمقاصد الشريعة الإلهية، وأخلاقيات الدين.

ومثل ذلك علوم الطاقة الذرية، تلك التى يدرسها المسلم على يد اليهودى، ويتتلمذ فيها النصرانى على يد الملحد، ويأخذها الشرقى عن الغربى.. والتى تتميز حقائقها وقوانينها بالثبات والتكرار.. فلا أثر للإسلامية ولا للقيم الدينية فى تلوين الحقائق واختلاف المعارف بهذه العلوم.. وإنما تتدخل الإسلامية والقيم الدينية - فقط - فى وظائف وتطبيقات هذه العلوم؛ أى إن التمايز - بين الإسلامية وعدمها - يأتى فى فلسفة المقاصد من وراء التوظيف والتطبيق.. فالبعض - من اللادينيين.. أو الذين لا يحتكمون إلا إلى المنفعة الدنيوية البحتة - يوظف ثمرات هذه العلوم الذرية فى الخراب والدمار.. بينما تقف بها التطبيقات المضبوطة بالإسلام وقيمه عند العلاج والبناء والتعمير.

فالأسلمة للمعرفة، فى ميادين العلوم الطبيعية - الدقيقة والمحايدة - لا دخل لها ولا تأثير فى حقائق وقوانين هذه العلوم.. وعلاقتها بهذه العلوم خاصة - فقط - بفلسفة توظيف الحقائق والقوانين المحايدة.. وبمقاصد هذا التوظيف.. فقط لا غير.

وهكذا.. فإن إسلامية المعرفة - بمعنى العلاقة بين «المطلق الدينى» والوضع الإلهى الثابت، وبين المعارف الإنسانية التى هى كسبية ونسبية؛ هذه العلاقة قائمة دائمًا وأبدا.. لكن نسبة هذه العلاقة، وميادينها هى التى تتفاوت وتختلف - فى الدرجة - وذلك باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية.

فنسبة الأسلمة للمعارف والعلوم عالية جداً فى العلوم الشرعية؛ لأن الإسلام - الدين - هو موضوع هذه العلوم.. ونسبة هذه الأسلمة كبيرة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ لأن كون موضوع هذه العلوم النفس الإنسانية يحد من حياد وموضوعية حقائقها، ويفتح الباب واسعًا لعلاقة الدين بحقائقها ومعارفها.. بينما تقف الإسلامية والأسلمة - فى العلوم الطبيعية، الدقيقة والمحايدة - عند فلسفة التوظيف والتطبيق للحقائق المحايدة فى هذه العلوم، وذلك عندما تضبط وتحكم تطبيقاتها ووظائفها بمقاصد الإسلام

٥٧ عن إسلامية المعارف والعلوم (٢)

إذا كانت إسلامية المعرفة لا تعنى أكثر من إدراك العلاقة بين دين الإسلام - بضوابط قيمه وأحكامه ومنظومة أخلاقه - وبين المعارف الإنسانية - المكتسبة والنسبية - وذلك على نحو متفاوت ومتدرج بتفاوت أصناف المعارف والعلوم حيث تكون نسبة الأسلمة عالية وشاملة فى العلوم الشرعية - لأن الدين هو موضوعها - وحيث تكون نسبة الأسلمة كبيرة وملحوظة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية - لأن النفس الإنسانية هى موضوعها - بينما تقف نسبة الأسلمة فى العلوم الطبيعية عند فلسفة تطبيقاتها وتوظيف حقائقها المحايدة

إذا كانت هذه هى حقيقة إسلامية المعرفة - التى تبدو بديهة من البديهيات - فإن إنكار هذه الإسلامية يبدو أمرًا غريبا.. خصوصًا فى إطار الإسلام الذى يكاد الإجماع أن ينعقد على أنه منهاج حياتى شامل، ومن ثم فإن علاقاته ملحوظة - وإن تفاوتت - بمختلف ألوان المعارف والعلوم.

لكن العجب يتزايد أكثر وأكثر عندما نرى أن المنكرين لوجود علاقة للإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية لا ينكرون وجود علاقات للفلسفات والأنساق والمرجعيات الفكرية غير الإسلامية بذات المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية!!

■ فلا أحد ينكر وجود فلسفة مادية؛ أى وجود علاقات وثمرات وتأثيرات للنزعة المادية والمنهج والمعتقد المادى فى تميز نسق فلسفى - أى علم اجتماعى - بالصبغة المادية .. فلم يكون الإنكار والاستنكار - فقط - للعلاقات والتأثيرات بين الإيمان والنزعة الإيمانية الإسلامية وبين الفلسفة، على النحو الذى يثمر معرفة فلسفية إسلامية مؤمنة؟!.. أم إن «حلال المادية» حرام على «الإيمانية»، عند المنكرين لإسلامية المعرفة؟!

■ ولا أحد ينكر وجود فلسفة وضعية، تقف بحقائق العلم عند الواقع وقوانينه ومعارفه.. فلمَ يكون الإنكار لتميزّ معرفى يحدثه العالم والعارف إذا هو أضاف إلى «آيات الكون» «آيات الوحى».. وضم إلى معارف الواقع المادى نبأ السماء عن المغيبات التى لا يستقل بإدراكها عقل الإنسان وتجاربه الحسية؟ أم أن تأثير «الواقع» فى الفلسفة أمر مقبول.. وتأثير «الدين» في هذه الفلسفة هو وحده المرفوض؟!

■ ولا أحد قد أنكر أو استنكر وجود «علم اجتماع ماركسى» تلوّن بالفلسفة المادية الماركسية – المادية الجدلية.. والمادية التاريخية – وبالمقاصد الشيوعية فى إقامة مجتمع البروليتاريا اللاطبقى.. فلم يكون الإنكار والاستنكار – فقط – لوجود «علم اجتماع إسلامى»، كثمرة لعلاقة الإسلام بمناهج وحقائق هذا العلم فى عقول ومجتمعات المتدينين بالإسلام، وكثمرة لإعمال سنن الله وقوانينه فى الاجتماع والعمران؟!

■ بل لقد قبل الذين ينكرون ويستنكرون إسلامية المعرفة وجود علم اجتماع للاهوت التحرير – أى التفسير الاجتماعى للإنجيل، المنحاز إلى الفقراء، فى الأوساط الكاثوليكية بأمريكا اللاتينية – بل وحاول بعضهم استلهام وتوظيف هذا اللون من الفلسفة فى العلوم الاجتماعية بواقعنا الإسلامى.

فلم يستنكر هذا البعض الصبغة الإسلامية فى علم اجتماع إسلامى؟! أم إن تأثير «لاهوت التحرير» فى علم اجتماع أمريكا اللاتينية حلال، وتأثير الإسلام فى علم الاجتماع عندنا حرام؟!

■ ولا أحد ينكر ولا يستنكر ما قرره «ماكس فيبر» [١٨٦٤ – ١٩٢٠م] عن علاقة البروتستانتية بالرأسمالية – فلسفة واقتصادًا واجتماعًا – بل لقد غدا هذا الذى قاله «ماكس فيبر» إحدى المسلمات عند الذين ينكرون ويستنكرون وجود علاقة بين الدين الإسلامى وبين وجود فلسفة واجتماع واقتصاد متميزة معارفها بالإسلام، ومصطبغة بفلسفة الإسلام المتميزة فى علاقة المسلم – فردًا ومجتمعًا – بالثروات والأموال.. وذلك انطلاقًا من نظرية الخلافة والاستخلاف الحاكمة للعلاقة بين المالك الحقيقى للثروة – وهو الله سبحانه وتعالى – وبين الخليفة والنائب والوكيل – وهو الإنسان مالك المنفعة – فى الثروات والأموال.

فلم يكون «حلال» البروتستانتية – الذي قرره «ماكس فيبر» – رغم أن هذه البروتستانتية تدع ما لقيصر لقيصر، ولا تجعله لله – لم يكون «حلالها» هذا «حراما» على الإسلام – رغم منهاجه الشامل للدين والدنيا، بل وللدنيا والآخرة – ورغم تقرير القرآن الكريم لفلسفة متميزة في علاقة الإنسان – فرداً ومجتمعاً – بالثروات والأموال؟!

إن العجيب.. والغريب.. والذي يستحق كل الإنكار والاستنكار هو أمر هؤلاء المنكرين لإسلامية المعرفة.. فهم – مثل قوى الاستكبار في الحضارة التي اتخذوها لهم مرجعية – قد افتقدوا الاتساق في المعايير التي يصدرون بناء عليها المواقف والآراء والأحكام!

٥٨ عن إسلامية المعارف والعلوم (٣)

إذا كان «التغريب» هو الداء الذى صنع ويصنع ذلك الشذوذ الفكرى الغريب، لدى الذين يقبلون بتأثيرات البروتستانتية فى فلسفة الليبرالية.. بينما ينكرون إسلامية المعرفة الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية كثمرة لتأثيرات الإسلام فى الاجتماع والعمران.

ومثلهم أولئك الذين قبلوا ويقبلون تأثيرات المادية فى الفلسفة والاجتماع الماركسى.. ومع ذلك ينكرون ويستنكرون تأثير الإيمان الإسلامى فى أسلمة المعارف الاجتماعية الإسلامية.

إذا كان «التغريب» هو الداء الذى صنع هذا الشذوذ الفكرى.. فلقد يكون مفيدًا فى علاج هؤلاء المرضى – الذين لا يستشهدون إلا بكل ما هو غربى.. ولا يحتجون إلا بما هو غربى.. ولا يسلمون إلا بما هو غربى – قد يكون مفيدًا فى علاج مرضهم هذا – الغربى الغريب! – أن نلجأ إلى «الصيدلية الغربية» لنأتى منها بعلاج لهذا المرض الذى بلغ بهم هذا الحال الشاذ والعجيب.

■ فالمستشرق الإيطالى «كارل نلّينو» [١٨٧٢ - ١٩٣٨م] قد كتب دراسة عن «محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية» أثبت فيها أن للإسلام علاقة بالفلسفة، وأن هذه العلاقة – وذلك التأثير – هو الذى ميز هذه الفلسفة الإسلامية عن الفلسفة اليونانية؛ أى إن هناك – برأى هذا المستشرق – إسلامية للمعرفة الفلسفية فى حضارة الإسلام ومعارف المسلمين.

■ والمستشرق الإنجليزى «ألفريد جيوم» يؤكد على أن الوسطية الإسلامية، التى جعلت الإسلام يؤلف بين العقل والنقل، ويؤاخى بين الحكمة والشريعة، قد صبغت الفلسفة الإسلامية بهذه الصبغة المتميزة.. فتميزت المعرفة الفلسفية الإسلامية بسمة التدين، وامتازت بهذه السمة عن الفلسفات الأخرى التى انحازت

إلى العقلانية المادية المجردة - وحدها - أو إلى المثالية الباطنية الخالصة - وحدها - فأصبح للإسلام - كما يقول «جيوم» - «فلسفة منطقية. تُدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية».. فلقد أثمر الإسلام معرفة إسلامية في هذا العلم الاجتماعي - الفلسفة -..

■ والمستشرق الفرنسي «سانتيلانا» [١٨٤٥ - ١٩٣١م] - وهو حجة في القانون الروماني وفي الفقه الإسلامي - يؤكد على علاقة النزعة الدنيوية الغربية بالطابع النفعي الدنيوي للقانون الروماني.. وعلى علاقة الوسطية الإسلامية - الجامعة بين الدنيا والآخرة - بتميز القانون الإسلامي وفقه المعاملات الإسلامي، عندما ارتبطت فيه كل مسألة قانونية بالضمير الديني والمقصد الأخلاقي؛ أي إن هناك تأثيرا للإسلام في المعرفة القانونية - وهي علم اجتماعي - وإسلامية للمعرفة القانونية في حضارة الإسلام.. يؤكد «سانتيلانا» على هذه الحقيقة المعرفية التي مايزت بين القانون الإسلامي وبين القانون الروماني - فجعلت الأول إسلاميًا، والثاني علمانيًا - فيقول: «إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف [في الحضارة الغربية] مجموعة من القوانين السائدة التي أقرها الشعب، إما رأسا أو عن طريق ممثليه، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.. إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضا. فالنظام القضائي والدين، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه، فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير، والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدًا تامًا، والأخلاق والآداب في كل مسألة ترسم حدود القانون. فالشريعة الإسلامية شريعة دينية، تغاير أفكارنا أصلا».

فالدين الإسلامي وشريعته الإلهية قد صبغت القانون الإسلامي بصبغة ميزته عن القانون الروماني؛ أي إننا بإزاء إسلامية للمعرفة في هذا العلم الاجتماعي - علم القانون وفقه المعاملات - يؤكد عليها هذا المستشرق الكبير.

فهل تجدى هذه الشهادات الغربية - بحسباتها «روشتات» من «الصيدلية - الغربية» - لعلاج ذلك المرض التغريبى الشاذ، الذى جعل نفرًا من مثقفينا يقبلون بوجود العلاقات بين مختلف الفلسفات والمرجعيات الفكرية - وبعضها ديانات - وبين المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. اللهم إلا إذا كان الأمر بإزاء الإسلام، فإنهم ينكرون ويستنكرون أية علاقة له بالمعارف والعلوم!

إن علاقة الإسلام - كدين، وفلسفة فى رؤية الكون.. والبدء.. والمسيرة.. والمصير.. والحكمة من وراء الخلق.. ومكانة الإنسان فى هذا الوجود - إن علاقة هذا الإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية هى بديهة من البدهيات.. يشهد عليها نفر من علماء الغرب.. فهل يراجع الموقف منها هذا النفر من مثقفينا الذين تغربوا؟!.. أم إن علم «الأئمة» لم يصل بعد إلى هؤلاء «المقلدين»؟!

٥٩ الاختلاف حول المرجعية الحضارية

قبل الاحتكاك الفكرى بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية - التى وفد إلينا نموذجها فى ركاب الغزوة الاستعمارية الأوربية الحديثة - كانت المرجعية الحضارية الإسلامية منفردة بميادين الإصلاح الإسلامى جميعها، فكل تيارات الفكر ومذاهبه كانت مرجعيتها الإسلام، ولا شىء غير الإسلام.. وكانت الخلافات بين «أهل الرأى» و«أهل الأثر» و«الذين يوازنون بين الرأى والأثر» جميعها فى إطار المرجعية الإسلامية، تحكمها جميعًا التصورات والاجتهادات والتأويلات التى تتخذ من حاكمية الإسلام - فى العقيدة والشريعة والقيم - الإطار المرجعى الذى لا تتعداه.. وذلك بصرف النظر عن حظ هذه الاجتهادات من الخطأ والصواب، ومدى قربها أو بعدها من التصورات الأدق لحقيقة الإسلام.. المهم أنه لم تكن هناك «شرعية معترف بها» لمرجعية فكرية فى التقدم والإصلاح لغير مرجعية الإسلام.

ولذلك لم تجد - عبر تاريخنا الحضارى والفكرى الطويل - ورغم التمايزات الفكرية، والتدافع المذهبى- إطلاق فريق من الفرقاء وصف «الإسلامى» على مذهبه أو فرقته أو اجتهاداته.. فجميعها كانت «إسلامية» دون حاجة إلى هذا الوصف «بالإسلامية»! اللهم إلا عندما كان الحال مع «المقالات»- أى النظريات - غير الإسلامية - أى ذات المرجعية اليونانية أو المجوسية أو الغنوصية- التى تحدثت عنها كتب [الملل والنحل] فلقد حرص علماء الأمة على وصف مختلف التصورات النظرية الإسلامية بوصف «الإسلامى»- تمييزًا لها عن التصورات النظرية غير الإسلامية فكان التأليف فى ذلك تحت عناوين [مقالات الإسلاميين].

- من مثل ما كتبه أبو القاسم البلخى [٣١٩ هـ - ٩٣١م] وأبو الحسن الأشعرى [٢٦٠ - ٣٢٤هـ ٨٧٤ - ٩٣٦م] تحت هذا العنوان.

كان هذا هو واقع فكرنا الإسلامى قديمًا.. عندما كانت «السيادة الشرعية» للمرجعية الإسلامية وحدها فى طول وعرض دار الإسلام وتاريخ الإسلام والمسلمين

لكن هذا الحال قد تغير بعد وفود المرجعية الغربية – ذات الطابع المادى والوضعى والعلمانى – إلى بلادنا العربية والإسلامية – منذ قرنين من الزمان – فلقد تخلق فى واقعنا الفكرى تيار ثقافى وفكرى مؤثر – بل وحاكم ومسيطر فى بعض الأحايين – يذهب فى التقدم والإصلاح مذاهب الغربيين لا مذاهب الإسلاميين، وذلك عندما يدعو إلى استلهام النموذج الغربى – فلسفة وتطبيقًا – مرجعية ينطلق منها فيما يدعو إليه من نهوض حضارى لأمتنا.

وإذا كان التنوير الغربى، الذى أحل العقل محل الدين، ووضع العلم مكان الوحى، واستبدل الفلسفة باللاهوت، عندما أعلن فلاسفته « أنه لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده».. والذى اعتبر الدين صفحة من صفحات طفولة العقل البشرى قد طوتها الفلسفة الوضعية – التى لا تعترف بغير معارف وحقائق وآيات عالم الشهادة والكون المادى.. ولا تستعين بغير العقل والتجربة فى إدراك المعارف والعلوم، منكرة معارف عالم الغيب وآيات الوحى الإلهى، وضاربة عرض الحائط «بالنقل» و«الوجدان» – كسبل للمعرفة – إذا كان هذا التنوير الغربى – بسبب صراعه مع الكنيسة ولاهوتها – قد أقام «قطيعة معرفية» مع الموروث الدينى للحضارة الغربية إبان عصر نهضتها.. فلقد رأينا أنصاره فى بلادنا يسيرون فى ذات الطريق، وذلك عندما استبدلوا فلسفته العلمانية فى التقدم والإصلاح والنهضة بالمرجعية الإسلامية فى النهوض والتجديد.. فتخلقت لدينا تيارات «لليمين» و«اليسار».. «لليبرالية» و«الشمولية».. «للاشتراكية» و«الرأسمالية».. «للجمود» و«التقدم» تعود جميعها إلى النظائر الغربية – الوضعية العلمانية – لهذه المذاهب والتيارات! فهم يختلفون لكن فى إطار المرجعية الحضارية الغربية.

وفى مواجهة هذه التيارات التى استعارت النموذج الغربى مرجعية لمذاهبها فى التقدم والنهوض، تبلور فى واقعنا الفكرى تيار الإحياء والنهضة والتجديد والتقدم والإصلاح ، انطلاقًا من مرجعية الإسلام.. بل وأخذ هذا التيار يميز نفسه بصفة «الإسلامى» وذلك تمييزًا لمرجعيته الإسلامية عن المرجعية الغربية – الوضعية العلمانية المتحللة من ضوابط الإسلام.

ولقد عرف هذا التيار الإسلامى – أيضًا – تمايز الفصائل، لكن.. فى إطار مرجعية الإسلام.. وذلك عندما تفاوتت مواقع هذه الفصائل وحظوظها من «التقليد» أو «التجديد» إزاء الموروث الإسلامي.. وعندما تمايزت مواقفها من الوافد الغربى.. وعندما اختلفت حظوظها من العقلانية والتأويل.

فالدراسة «لخارطة» الفكر المعاصر فى واقعنا العربى والإسلامى يجب أن تبدأ بتحديد وتمييز «المرجعيات الفكرية» أولاً.. وبعد ذلك يتم التحديد والتمييز للفصائل والتيارات فى إطار كل مرجعية من المرجعيات الحاكمة لمذاهب الساعين إلى التقدم والنهوض والإصلاح.

٦٠ المنهاج العلمى فى القرآن الكريم

يعلمنا الإسلام - فى قرآنه الكريم - الأمانة العلمية فى الحكم على الآخرين.. بل وفى الموازنة بين المسلمين وبين هؤلاء الآخرين..

فخيرية الأمة الإسلامية لا تعرف الإطلاق والتعميم، وإنما هى مشروطة بشروط وواجبات وممارسات وإنجازات، يدخل فى إطار هذه الخيرية - فقط - من حصّل هذه الشروط، وتحلى بصفاتها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠،٤١].

فمجرد الاعتناق النظرى للإسلام، دون العمل بأركانه وفرائضه ومبادئه، وتحقيق مقاصده، لا يحقق الخيرية لمعتنقيه على الآخرين ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وحتى فى داخل الأمة الواحدة للدين الواحد، يدعونا الإسلام إلى عدم التعميم والإطلاق.. فأهل الكتاب من اليهود ليسوا سواء، ولا هم كتلة واحدة صماء، فمنهم من أثنى عليه القرآن، فقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥].

ومن هؤلاء اليهود: الملاعين الملعونون ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ، ٧٩].

وتطبيقًا لهذا المنهاج القرآنى فى عدم التعميم والإطلاق، فإننا مطالبون اليوم بالتمييز بين اليهودى- هذا إذا وجدناه! - الذى يتلو آيات الله، ويسجد له، ويؤمن به وباليوم الآخر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسارع فى الخيرات.. نميز بينه وبين «اليهود» الذين عصوا، واعتدوا، ولا يتناهون عن منكر فعلوه بل والذين قالوا سمعنا وعصينا وليس سمعنا وأطعنا! وأشربوا فى قلوبهم العجل الذهبى وربا البنوك!

بل إننا مدعوون إلى التمييز بين «اليهودية» كدين سماوى، جاء بشريعته موسى عليه السلام، والله فيه هو إله العالمين، الواحد الذى لا شريك له - فهذه اليهودية لا يكتمل إيماننا الإسلامى إلا إذا آمنا بها وبرسلها وأنبيائها - لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم - .. نميز بينها وبين «اليهودية» التى نواجهها اليوم عند الصهاينة وفى إسرائيل - اليهودية الحاخامية والتلمودية -.. تلك التى تعرِّف دائرة معارفها «اليهودى» ليس بأنه المؤمن بالإله الواحد، وبشريعة موسى وهارون- وإنما بأنه: «المولود من أم يهودية».. فاليهودى فى هذه «اليهودية» يحدده معيار عنصرى - هو الولادة من أم بعينها - فهو يهودى بسبب الولادة، لا بسبب الدين، بل إنه - فى هذا المفهوم - يكون من شعب الله المختار، بسبب هذه الولادة وحدها، حتى ولو كان ابن زنا أو غير مؤمن بالله ولا متدين بالدين!!

فالتمييز - وعدم التعميم والإطلاق- الذى نتعلمه من القرآن الكريم - فضلاً عن أنه الدين الذى نتدين به فإنه هو المنهاج العلمى الدقيق، وسبيل الإنصاف لمن يستحق الإنصاف.. وأيضًا هو سبيلنا إلى عقول وقلوب الآخرين، أولئك الذين خدعتهم الصهيونية فأخذوا يتحاشون أى نقد لأى من ممارسات اليهود.. كما أخذوا يحسبوننا معادين لكل اليهود!

وكذلك الحال - حال المنهاج القرآنى - مع نصارى أهل الكتاب.. فهم - الآخرون - ليسوا سواء.. فمنهم من هم أقرب الملل مودة للمسلمين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ، ٨٣] ومن نماذج هؤلاء كان النجاشى - ملك الحبشة على عهد رسول الله -ﷺ- وكل «الآريوسيين» الذين يؤمنون بالله واحدًا، وبعيسى ابن مريم عليهما السلام - نبيًا ورسولاً..

أما الذين حولوا النصرانية من التوحيد إلى الشرك، وجعلوا عيسى معبوداً مع الله، فإن القرآن يميزهم عن هؤلاء الموحدين، ويضعهم - رغم أنهم أهل كتاب - في خانة وزمرة الكفر والشرك، عندما يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ ، ٧٣] وصدق الله العظيم.. فمن القرآن الكريم نتعلم المنهج العلمي في التمييز الدقيق، الذي يرفض التعميم والإطلاق؛

٦١ المنهاج النصوصى

إذا كان الإمام أحمد بن حنبل قد قنن أركان «المنهج النصوصى» على النحو الذى أشرنا إليه.. فلقد صاغه شعرًا كذلك، عندما قال:

دين النبى محمد آثار ... نعم المطية للفتى الأخبار

لا تَخْدَعَنَّ عن الحديث وأهله ... فالرأى ليل والحديث نهار!

ثم إن هذا المنهج عندما طبقه أهله فى ميدان العقيدة أثمر تصورها على هذا النحو- فى فكر الإمام أحمد أيضًا:

- **الإيمان**: قول وعمل.. وهو يزيد وينقص، تبعًا لنقاء العقيدة أو شوبها، وتبعًا لزيادة العمل أو نقصانه.
- **والقرآن**: كلام الله، وفقط.. فليس بمخلوق - كما تقول المعتزلة - وليس شريكًا لله فى قدمه، كما يلزم المعتزلةَ نفاةُ القول بخلق القرآن.
- **وصفات الله**: التى وصف بها نفسه وأثبتها لذاته، نصفه بها ونثبتها لذاته، على النحو الذى وردت عليه فى النصوص والمأثورات لا نلجأ فى بحثها إلى «رأى» أو «تأويل».
- **وعالم الغيب**: لا ينبغى أن نخوض فى بحث شىء منه، بل يجب أن نفوِّض حقيقة علمه إلى الله سبحانه.
- **ورؤية أهل الجنة لله**: عقيدة حق يجب أن يؤمن بها المؤمن، دون «تأويل» أو «تمثيل» كما وردت بها ظواهر النصوص.
- **وعلم الكلام**: منكر، منكرا الاشتغال به منكر، وأخذ العقائد بأدلته منكر.. بل ومجالسة أهله منكر، مهما كان دفاعهم به عن الإسلام!
- **والقضاء والقدر**: لا يكتمل الاعتقاد بدون الإيمان بهما.. وهما من الله.

- **والذنوب الكبائر لا تجعل المؤمن كافرًا ولا تخلده فى النار**؛ على عكس قول الخوارج فى الأمرين وقول المعتزلة فى الثانى.
- **وخلافات الصحابة**؛ لا يصح الخوض فيها، بل يجب العدول عن ذكرها، والوقوف عند محاسنهم وفضائلهم.
- **وترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل**؛ وفق ترتيبهم فى تولى الخلافة.
- **وطاعة ولى الأمر واجبة**؛ حتى ولو كان فاجرًا فاسقًا، والخروج عليه منكر، لما يجلبه ذلك من الأخطار، وما يعطله من مصالح الناس فى حياتهم اليومية.
- **والفرائض.. والمعاملات.. والجهاد**، نؤديها ونمارسها على النحو الذى جاءت به النصوص فى القرآن والسنة.... إلخ .... إلخ.

ذلك هو منهج مدرسة أهل الحديث.. وتلك نماذج لتطبيقات هذا المنهج على نماذج من ميادين الفكر.. فى السياسة.. وفى الاعتقاد.. ونماذج من الممارسات العملية التطبيقية لهذه الأفكار.

ومن أبرز ملامح الفكر السياسي التى اتفق عليها أعلام هذا التيار: رفض استخدام القوة.. وتجريد السيف سبيلاً لتغيير نظم الجور والفساد، حتى ولو قامت هذه النظم على التغلب واغتصبت السلطة اغتصابًا! وفى ذلك يقول الإمام أحمد: «ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة، وسمى أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إمامًا عليه، برًا كان أو فاجرًا، فهو أمير المؤمنين..»!

ويبدو أن هذا الموقف الذى اتخذه هذا التيار من هذه القضية قد جاء تعبيرًا عن «الواقع» الذى سادت فيه نظم الجور، حتى غدت هى القاعدة، أكثر من كونه تعبيرًا عن أصول ومبادئ الفكر الإسلامي فى هذا الموضوع.. فوازن أهل الحديث بين الجور السائد والراسخ والقوى وبين الثورات غير المضمونة الانتصار، فاختاروا الخضوع الصابر على التمرد والثورة.. وعن هذه الموازنة يتحدث ابن تيمية فيقول: «إن المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج – الثورة – على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم.. لأن الفساد فى القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى! إن ستين سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان».

ويزيد ابن القيم هذه القضية وضوحًا، عندما يؤكد على أن مصدر هذا الموقف هو «الواقع» وليس «الواجب – الدين»! فيقول: «إن الواجب شيء، والواقع شيء، والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب، وينفذ الواجب بحسب استطاعته، لا من يلقي العداوة بين الواجب والواقع، فلكل زمان حكم، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم. وإذا عم الفسوق وغلب على أهل الأرض فلو منعت إمامة الفساق وشهاداتهم وأحكامهم وفتاويهم وولاياتهم لعطلت الأحكام، وفسد نظام الخلق، وبطلت أكثر الحقوق.. فأمام الضرورة والغلبة بالباطل ليس إلا الاصطبار والقيام بأضعف مراتب الإنكار..»! أي الإنكار بالقلب؟!

ونحن نعتقد أن حدة الخطر الخارجي الذي هدد وجود الدولة والأمة والعقيدة لعدة قرون الخطر البيزنطي.. والتترى .. والصليبي.. هي التي جعلت التناقض الرئيسي بين الأمة وبين هذا الخطر، المهدد للوجود، وليس بين الأمة ونظم الجور والفساد المهددة للحرية والعدالة بين الناس!

فكان هذا الفكر وهذا الموقف السياسي لأهل الحديث- والذي تتفق الأشعرية معهم فيه – كان تعبيرًا عن «الواقع» وليس تعبيرًا عن «الواجب – الدين»!

٦٢ التوحيد الإسلامى

لقد بلغ الإسلام على درب عقيدة التوحيد، الذروة فى تنزيه الذات الإلهية عن أى تعددية أو تركيب أو مماثلة أو شبه لأى من المخلوقات والمحدثات - وكل ما عدا الذات الإلهية مخلوقات ومحدثات - وصاغ الإسلام للخالق - سبحانه - تصورًا تجريديًا، بلغ فى التجريد أقصى ما يطيقه عقل الإنسان ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١- ٤] وهو - سبحانه - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

حتى لقد اجتهد علماء أصول الاعتقاد الإسلامى كى يعبروا - باللغة البشرية - عن هذا التصور التنزيهى التجريدى الذى جاء به الإسلام للذات الإلهية، فلم يجدوا إلا طريق الوصف بالسلب.. فقالوا عبارتهم الشهيرة «كل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك»!

فهو - سبحانه - مفارق، ليس فقط للمخلوقات، وإنما - أيضًا - لكل التصورات الإنسانية عن هذه المخلوقات. قدم الإسلام هذا النموذج للتوحيد، فى مقابل اليهودية التى تحولت - بالتحريف - إلى وثنية صورت الإله مصارعًا! وجعلته إلهًا لبنى إسرائيل وحدهم، وللشعوب الأخرى آلهتها الأخرى - وفى مقابل نصرانية اغتالت الغنوصية والفلسفات الباطنية والحلولية توحيدها، فسقطت فى التجسد وتعددية التثليث!

ولم يقف الإسلام بهذا التصور التنزيهى والتجريدى للتوحيد عند نطاق الاعتقاد الدينى فى ذات المعبود وفقط، وإنما أشاعه روحًا سارية فى ثقافة الإنسان المسلم، وذلك عندما جعل من عقيدة التوحيد ثورة لتحرير الإنسان الموحد من العبودية لسائر الطواغيت.. ففى العبودية للمعبود الواحد قمة التمرد من أسر واستعباد كل مَنْ وما عدا الله.. ومن هنا تحول التوحيد ويتحول إلى حياة

يحياها الإنسان دائمًا وأبدًا، وليس فقط إلى تصور عند الشعائر والعبادات ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وهذا التصور الإسلامي الذي يخلص العبودية لله الواحد في كل الميادين – الدينية.. والدنيوية.. والأخروية– ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ – هو الذي ميز النموذج الثقافي الإسلامي بتصور متميز لنطاق عمل وفعل الذات الإلهية، انفردت به الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات.

■ ففي الأرسطية اليونانية، كان التصور للذات الإلهية باعتباره مجرد خالق للعالم.. خلقه وانتهت علاقته به.. وتدبير هذا العالم موكول إلى الأسباب الطبيعية والمادية المودعة في ظواهره وقواه.

■ وفي الوثنية الجاهلية، كان التصور لنطاق عمل وفعل الذات الإلهية قريبًا من هذا التصور الأرسطي.. فالوثنيون في الجاهلية لم يكونوا ينكرون الله خالقًا للمخلوقات ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] لكنهم كانوا يشركون معه – سبحانه وتعالى – الطواغيت والأوثان في تدبير العمران الدنيوي، فيلجئون إلى هذه الأوثان إذا أرادوا الحرب أو السلم، السفر أو الحِلّ، الإقدام أو الإحجام.. إلخ.. إلخ.. فجعلوا الله خالقًا.. ووقفوا بنطاق عمله وفعله عند الخلق لا يتعداه.. وجعلوا تدبير العمران للشركاء والطواغيت ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

■ وقريبًا من هذا التصور – الذي يعزل الذات الإلهية عن تدبير العمران الإنساني، ويحرر سياسة هذا العمران من شريعة السماء وتدبير الخالق – قريبًا من هذا التصور جاء التصور اللاهوتي النصراني، عندما قال: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فحرر «قيصر» – أي الدولة – والمجتمع والعمران – من قانون الله وشريعة السماء وتدبير الخالق، جاعلاً ذلك إلى المرجعية الإنسانية وحدها.

■ ولذلك كان التصور العلماني الغربي – الوضعي– والمادي – طبيعيًا في ذلك الإطار، فهو عندما رأى العالم مكتفيًا بذاته، والطبيعة تدبرها الأسباب المادية المركبة فيها وفي ظواهرها وقواها، والدولة والاجتماع البشري يدبرهما ويسوسهما الإنسان – بالعقل والتجربة – إنما كان هذا التصور العلماني –

إحياء حديثاً للتصور الأرسطي لنطاق عمل الذات الإلهية – الخلق دون الرعاية والتدبير– كما كان تصحيحاً رد الكنيسة – التي تجاوزت رسالة النصرانية، عندما جمعت السلطة الزمنية إلى السلطة الروحية، ردها إلى نطاق التصور اللاهوتي لرسالة نصرانيتها ولنطاق عمل إلهها «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

■ أما التصور الإسلامي، فقد جاء متميزاً عن جميع تلك التصورات فالتوحيد فيه يفرد الذات الإلهية لا كمجرد خالق وفقط، وإنما هو الخالق والراعي والمدبر لجميع المخلوقات، فالأمر والتدبير له سبحانه وليس الخلق فحسب ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

وبهذا التصور الإسلامي للتوحيد، تميز النموذج الثقافي الإسلامي، وسرى هذا التميز روحاً سارية في كل مناحي ثقافة الإنسان المتدين بهذا التوحيد.

٦٣ الخلافة .. والاستخلاف

فى التصور الإسلامى، لا يقف نطاق فعل الذات الإلهية عند «الخلق» وإنما له -سبحانه- مع الخلق «التدبير» لكن ذلك لا يعنى تجريد الإنسان من الفعل والقدرة والاستطاعة؛ لأن نظرية «الاستخلاف» الإسلامية تحدد مكانة الإنسان فى هذا الكون خليفة الله فى استعمار الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وحتى ينهض الإنسان بتكاليف إقامة العمران، وأمانات الاستخلاف ميزه خالقه بالاختيار والحرية والقدرة والاستطاعة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فكانت مكانته هى مكانة الخليفة - وهى وسط بين ادعاء السيادة فى الكون، وصورة المجبر المجرد من أى سلطان، فهو سيد فى الكون، لا سيد الكون وهو - بعبارة الإمام محمد عبده -: «عبد لله وحده، وسيد لكل شىء بعده»! فقدرة الإنسان ليست على حساب القدرة الإلهية كما أن قدرة الله لا تنفى قدرة الإنسان؛ لأن القدرة الإنسانية هى إرادة إلهية، خلقها للإنسان كى ينهض بأمانة الخلافة والاستخلاف.

- ولقد عبر الإمام ابن حزم الأندلسى عن هذا الاستخلاف الذى جعل الله فيه الإنسان «حاكمًا» كمستخلف عن الله الذى له الحكم والحاكمية والأمر والتدبير فقال: «إن من حُكم الله أن يجعل الحكم لغير الله»!

فلا تناقض بين حاكمية الله وبين حاكمية الإنسان؛ لأن حاكمية الإنسان هى قضاء إلهى، وبدونها لا تتحقق المسئولية، ولا يتم العمران ولا يقوم الاستخلاف.

وانطلاقًا من هذه الرؤية الإسلامية لفلسفة الخلافة والاستخلاف - والتى تمثل «منظار الرؤية» للعلاقة بين المخلوق والخالق - تتميز الرؤية الإسلامية لكثير من القضايا والمشكلات.

■ فحقوق الإنسان - التى ارتفع الإسلام بدرجاتها إلى مراتب الفرائض والواجبات والضرورات - هى حقوق الإنسان الخليفة، ولذلك فهى محكومة بحقوق الله، وليست - كالحال فى التصورات الأخرى - محكومة فقط بالمصلحة الدنيوية والمنفعة المادية.. بل إن المصلحة ذاتها - فى التصور الإسلامى - لابد وأن تكون «شرعية- معتبرة» فبنود عقد وعهد الاستخلاف أى الحلال والحرام الدينى - الشريعة - هى الضابط والسقف لهذه الحقوق الإنسانية

■ وحظ الإنسان من الثروات والأموال، وموقعه منها، هو موقع الخليفة المستخلف فيها.. وحريته فى الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف.. ذلك أن المالك الحقيقى - مالك الرقبة- فى هذه الأموال، هو الله - الخالق لها والمفيض لها فى الطبيعة- وللإنسان فيها مكانة الخليفة والنائب والوكيل- له فيها ملكية المنفعة - المجازية- وحرية الاختصاص والاستثمار والاستمتاع بها محكومة بحدود الله - فى الحيازة وفى الإنفاق، وفى التكافل الذى يحقق وحدة الجسد الإسلامى .. إلخ ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

■ وإذا كانت الأمة - الجماعة - هى المستخلفة لله فإن «الدولة» فى التصور الإسلامى هى دولة الخلافة: أى المستخلفة عن الأمة للنهوض بالمهام الموكولة من الأمة إليها.. فتميز التصور الإسلامى للدولة وللنظرية السياسية بالجمع بين «الله» - الشريعة - ولها السيادة والحاكمية.. وبين «الأمة» - المستخلفة لله - ولها السلطة والسلطان - .. وبين «الدولة» - المستخلفة عن الأمة.. والمفوضة منها وهى - كالأمة ملتزمة بالشريعة التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف.

وهذا التصور الإسلامى فى الدولة والنظرية السياسية متميز عن التصورات غير الإسلامية جميعها فدولة الكهانة الكنسية كان فيها «اللاهوت» و«الكنيسة» التى تحكم بالحق الإلهى - ولا وجود «للأمة».. والدولة العلمانية - التى هى نقيض دولة الكهانة الكنسية - فيها «الأمة» مصدر السلطات- «والدولة» التى تختارها الأمة ولا وجود للشريعة الإلهية.. بينما جمع التصور الإسلامى-

بنظرية الخلافة، الاستخلاف بين «الشريعة» وسيادتها – وبين «الأمة» وسلطاتها – وبين «الدولة» التي هي مستخلفة عن «الأمة» تحكم باسمها، ونيابة عنها، وليست مستخلفة– دون الأمة – عن الله!

ولذلك، فإنها لم تكن صدفة تسمية الدولة الإسلامية دولة «الخلافة»، وفي ضوء هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة – في الدولة والنظرية السياسية – نفهم حديث رسول الله ﷺ– الذي يتحدث فيه عن هذا التميز للنظام السياسي الإسلامي، فيقول: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، إنه سيكون خلفاء» (رواه البخاري وابن ماجه والإمام أحمد).

ولذلك كانت الخلافة الإسلامية هي الدولة التي تحرس الدين، وتسوس الدنيا والأمة بهذا الدين!

فالتميز الإسلامي في حقوق الإنسان.. والثروات والأموال .. والنظرية السياسية.. هي آثار وتجليات لفلسفة الإسلام في الخلافة والاستخلاف.

٦٤ دعوى تاريخية أحكام القرآن الكريم

في علاقة «النص الديني» - كتابًا وسنة - «بالاجتهاد»، واجه الفكر الإسلامي ويواجه - قديمًا وحديثًا - نزعات من الغلو، تراوحت بين الإفراط والتفريط.

فهناك النزعة «النصوصية الحرفية» التي وقف أصحابها عند ظواهر النصوص رافضين التأويل بإطلاق، بل ومنكرين المجاز في النص الديني، ومتخذين موقفًا غير ودي من «الرأي» و«النظر العقلي» في النصوص الدينية، بسبب الخلط عندهم ما بين «الرأي» و«الهوى»!

وهناك النزعة «الباطنية» التي دعت إلى لون من الغلو في «التأويل» وإلى تعميم هذا «التأويل» المغالي وغير المضبوط بضوابط اللغة العربية وثوابت الإسلام فزعمت أن لكل «ظاهر» «باطنًا» ولكل تنزيل تأويلاً.. حتى لقد تجاوزت كل المعاني والأحكام التي جاء بها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف!

واليوم وبعد أن «رشحت» «فلسفة» التنوير الغربي - الوضعي العلماني على شرائح من النخب الثقافية العربية والإسلامية، التي تغربت، فتبنت مقولات فلسفة التنوير الغربي إزاء النص الديني، وهي الفلسفة التي رأت في هذا النص وضعًا بشريًا، ناسب طور الطفولة للعقل البشري، ثم تجاوزه هذا العقل إلى حد ما في مرحلة «الميتافيزيقا» ليتجاوزه تمامًا - بالحكم عليه «بالتاريخية» - في المرحلة الوضعية - اليوم، يواجه نفر من مثقفينا المتغربين النص الديني الإسلامي بما واجه به فلاسفة التنوير الغربي - في القرنين السابع عشر والثامن عشر - النص الديني في اليهودية والنصرانية داعين إلى «تاريخية» معاني وأحكام القرآن الكريم باعتبارها معاني وأحكامًا تجاوزها الواقع الذي تطور، وعفا عليها التاريخ!

فالشريعة الإسلامية – عندهم – هى شريعة مرحلة البداوة «لا تصلح لمرحلة الحضارة.. وكذلك الشورى التى يجب أن تحل محلها الديمقراطية الغربية ... إلخ.. إلخ.. وهم يتخذون لهذه النزعة «التاريخية .. أو التاريخانية» صياغات عدة لكنها تفضى جميعًا إلى ذات المقاصد والغايات.

فالمستشار محمد سعيد العشماوى – مثلاً – يدعو إلى ربط أحكام القرآن وتشريعاته «بتاريخ النزول للآيات، وبأسباب النزول» وصولاً إلى ادعائه «بوقتية أحكام القرآن الكريم» لا استمراريتها وخلودها حتى ليصل فى ذلك إلى حد القول بأن الحكم بما أنزل الله قد كان خاصًا بالرسول – ﷺ – وأن الخطاب به غير موجه إلى الأمة ولا ملزم لها بعد وفاة الرسول!!

والعشماوى – لذلك – يرفض القاعدة الأصولية – التى أجمعت عليها الأمة – والقائلة «إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» وهى القاعدة التى تجمع بين عموم اللفظ وبين سبب النزول، فتفسر اللفظ العام فى ضوء سبب النزول – عندما يوجد –.. يرفض العشماوى تلك القاعدة، زاعمًا أنها قد نشأت فى فترات الظلام الحضارى والانحطاط العقلى» مع أنها ثمرة لإبداع الأمة فى أزهى عصور التألق الحضارى!

لكنه يصنع ذلك ليؤسس على هذا الزعم دعواه فى تاريخية أحكام تشريعات القرآن، فيقول «فأحكام التشريع فى القرآن ليست مطلقة.. فكل آية تتعلق بحادثة بذاتها، فهى مخصصة بسبب التنزيل وليست مطلقة.. وكل آيات القرآن نزلت على الأسباب – أى لأسباب تقتضيها سواء تضمنت حكمًا شرعيًا أو قاعدة أصولية أو نظمًا أخلاقية .. إنها أحكام موقتة ومحلية، تنطبق فى وقت محدد وفى مكان بعينه.. وبوفاة الرسول انتهى التنزيل.. وانعدم الوحى.. ووقف الحديث الصحيح.. وسكتت بذلك السلطة التشريعية الإلهية»!!

والذين يتأملون عبارة العشماوى هذه، سيجدون فيها من الأكاذيب الفجة والمغالطات الشنيعة بعدد ما فيها من الكلمات!

فأحكام القرآن موجهة للعالمين – عبر الزمان والمكان – ومن ثم لا يمكن أن تكون «موقتة ومحلية» كما يقول .. وانتهاء التنزيل هو «اكتماله» وليس «انعدامه» كما يقول!

وأسباب النزول هى – فى تعريف علماء هذا العلم –: «مناسبات نزول الأحكام وليست علة فى نزول الآيات وتشريع ما فيها من أحكام».. وبعبارة «الزركشى» و«السيوطى» – وهما أبرز من ألف فى أسباب النزول – «فلقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب فى نزولها، فالذى يتحرر فى سبب النزول: أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه فلقد نزلت آيات فى أسباب، واتفق الصحابة والتابعون على تعديتها إلى غير أسبابها» أما قول العشماوى « إن كل آية تعلقت بحادثة بذاتها ، فهى مخصصة بسبب التنزيل» فإن واقع أسباب النزول يكذبه.. فالآيات القرآنية التى لها سبب نزول لا تتعدى ٧,٥٪ من آيات القرآن! فأين هى «التاريخية» التى ربطت كل آيات القرآن بتاريخ وأسباب النزول؟!

ورحم الله ابن تيمية الذى قال عن مثل هذا الذى يقول به العشماوى: «إنه قول لا يقول به مسلم ولا عاقل على الإطلاق»! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٦٥ فى التزوير الفكرى!

لقد أراد المزورون لكتاب محمد عبده عن (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) -بهذا التزوير - التعمية على ما كتب الأستاذ الإمام عن «أصول الإسلام» وما أنتجت هذه الأصول الإسلامية المتميزة من نموذج حضارى متميز، ومن علاقة متميزة بين الدين والدولة - أفاض الإمام فى الحديث عنها فى هذا الكتاب

كما أرادوا التعمية على ما كتبه الأستاذ الإمام عن «أصول النصرانية» وما صنعته هذه الأصول من اضطهاد للعلم والعلماء، ومن رجعية وتخلف وجمود دخلت بالحضارة الأوربية عصورها المظلمة، التي لم يخرجها منها سوى حضارة الإسلام.. الإسلام الذى صنع الإصلاح الدينى والأوربى وفتح به باب أوربا إلى النهضة الحضارية الحديثة.

وإذا كان هذا الكتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة) قد جاء آية من آيات الفكر المقارن بين الإسلام والنصرانية.. والمقارن بين حضارة الإسلام والحضارة الأوربية.. وكذلك بين تاريخنا الإسلامى وتاريخ أوربا النصرانية.. فلقد كانت للأستاذ الإمام - في أثاره الفكرية الأخرى - نظرات عبقرية ونافذة وموضوعية فى تقويم المعتقدات الدينية لغير المسلمين...

- فهو القائل: «إن اليهود.. قد اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية، ولم يجعلوه هداية روحية، لذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء، ويحرفون كلمه عن مواضعه بحسب الأهواء»، أى إنهم فرّغوا اليهودية الحقة من جوهرها - من الدين: - وذلك عندما حولوها إلى عصبية عنصرية، ومجرد «تراث تاريخى»!

أما النصرانية - برأى الأستاذ الإمام - فلقد تحولت - فى صورتها الرومانية- إلى وثنية حاربت التوحيد الذى جاء به عيسى - عليه السلام- ثم

فرض الرومان والبيزنطيون هذه الصورة الوثنية على الكنائس الكبرى، بواسطة قرارات المجامع المسكونية التى فرضت هيمنتها على كنائس الشرق بالاضطهاد والترهيب والترغيب!

وبعبارة الإمام محمد عبده «فإن النصرانية قد انقلبت إلى الوثنية من عهد «قسطنطين» [٢٧٤ -٣٣٧م] بعد المسيح بثلاثة قرون. فقسطنطين كان ملكا وثنيا، وادعى التدين بالنصرانية سياسة لأجل الاستعانة بمنتحليها على خصمه «ليكتيوس».. ونجح فى ذلك» ثم إن قصص العهدين العتيق والجديد التى يسمى مجموعها «الكتاب المقدس» ليست وحيًا من الله.. وليس لها أسانيد متصلة متواترة ولقد أثبت القرآن الكريم أن الله تعالى أعطى موسى - عليه السلام - التوراة، وهى الشريعة، وأن أتباعه حفظوا منها نصيبًا ونسوا نصيبًا، وأنهم حرفوا النصيب الذى أوتوه، وأنه أعطى عيسى - عليه السلام - الإنجيل، وهو مواعظ وبشارة وقال فى أتباعه مثل ما قال فى اليهود: ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٤]».

ومع هذا النقد الذى وجهه الأستاذ الإمام لما أصاب اليهودية والنصرانية من تحولات وتحريفات أخرجتهما عن أصولهما.. فإن الرجل قد ظل وفيًا لعدل الإسلام مع أهل الكتاب فى شئون الدولة والسياسة والاجتماع والمعاملات والحقوق.. ذلك أن رفض عقائد دين من الأديان- وكل متدين بدين هو رافض لعقائد غيره من الأديان - لا يعنى الجور على أهل هذا الدين.. وتلك هى سنة الإسلام التى سنها رسول الله ﷺ والتى طبقها المسلمون - فى التعامل مع غير المسلمين - على امتداد تاريخ حضارة الإسلام

٦٦ جدل الإيجابيات والسلبيات فى التاريخ

صحيح أن التغيرات السلبية التى حولت الخلافة الراشدة الشورية إلى خلافة ناقصة وملك عضوض، قد تمت منذ وقت مبكر فى تاريخ الإسلام.. لكن هذه التغيرات لم تمثل «كارثة عظمى» فى ذلك التاريخ.. ذلك أن «الدولة» التى حدث فى إطارها الانحراف كان حجمها محدوداً، وتأثيرها ليس كتأثير الدول الأخطبوطية التى نعرفها منذ عصرنا الحديث.. فلقد كانت «الأمة» أعظم من «الدولة» وكثير من المهام والميادين والمسئوليات التى تتولاها «الدولة» الآن، والتى تصلح بصلاح الدولة وتفسد بفسادها، كانت تتولاها «الأمة» وتمولها تمويلاً أهلياً - بواسطة الأوقاف - حتى إن صناعة الحضارة الإسلامية وازدهارها قد حدثا فى ظل انحراف «الدولة»؛ لأن هذه الحضارة قد صنعتها «الأمة» لا «الدولة».. بل إن الجهاد الذى كانت تقوده «الدولة» كان إنجازا شعبياً يحارب فيه الناس أداء لفريضة دينية، ويمول الأوقاف الخيرية المرابطين فى سبيل الله على ثغور دولة الإسلام.

ولقد عظَّم من دور «الأمة»، ورجح كفتها على «الدولة» - فلم تعم الكارثة بانحراف الدولة عن الشورى - .. عظَّم من دور «الأمة» أن علماءها وفقهاءها - فى جملتهم - لم يستنفدوا طاقاتهم فى مصارعة «الدولة» وإنما شغلوا أنفسهم بتربية الأمة، ونشر الإسلام ولغته العربية. وصناعة الحضارة، فلقد امتدت الأمة وقامت التربية وازدهرت الحضارة، وتم الإبداع للعلوم الحضارية - الشرعية منها والمدنية - رغم ما أصاب «الدولة» من تراجع عن الشورى وما اعتصمت به من «الملك العضوض».

لكن هذه الجهود الحضارية العملاقة، التى قاد الفقهاء صناعتها، والتى أبدعتها الأمة، كانت تُواجِهُ - غير انحراف الدولة والمخاطر الخارجية - العديد من المعوقات والسلبيات.

فانغماس كثير من العرب في الترف - الذي وجدوا أسبابه في غنى الأقاليم التي فتحوها - قد حولهم من قوة جهادية خشنة وضاربة دون الدولة والأمة وفكريتها الإسلامية إلى مواطنين شغلتهم شواغل الدنيا عن حياة الجهاد.. لقد انشغلوا بالطيبات المباحة عن مكاره فريضة القتال الذي كتب على المؤمنين بالإسلام!.

وصاحب ذلك، استمرار وتصاعد التحديات الخارجية.. فالقسطنطينية - عاصمة الروم- ظلت تجيش الجيوش ضد الدولة الإسلامية. ثم جاءت حقبة الحملات والغزوات الصليبية التي امتدت قرنين من الزمان [٤٨٩-٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ - ١٢٩١م] وزاد من مخاطر هذه التحديات الخارجية ذلك الحلف الذي استعانت فيه الصليبية بالوثنية المغولية التي دمرت بغداد [٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م] واجتاحت المشرق الإسلامي، وهددت حتى الوجود الإسلامي ، لولا أن شاء الله هزيمتها في «عين جالوت» [٦٥٨ هـ - ١٢٦٠م] ولقد ألجأت هذه المخاطر الخارجية- التي تطاول بها الزمان - والتي انضمت إلى مخاطر الصراعات الداخلية - شعوبية وعربية ومذهبية- ألجأت هذه المخاطر - في ظل ترف العنصر العربي- دولة الخلافة العباسية، منذ خلافة المعتصم العباسي، إلى اتخاذ الترك المماليك قوة ضاربة للدولة، بحسبانهم الأكثر طواعية للخلافة من العرب ومن الفرس . فلما تضخمت مؤسستهم العسكرية أصبحت الخلافة لعبة في أيديهم «فتعسكرت الدولة» وامتدت «العسكرة» إلى «الفكر» عندما ضاقت الدولة بأهل العقلانية المؤمنة، فأحلت محلهم «النصوصيين الحرفيين».. وبدلا من الوسطية التي كانت تجمع بين العقل والقلب، وتؤلف بين «الرأي والأثر» أثمر الصراع والفصام النكد بين الفقهاء والصوفية ثقافة «إسلامية» قاصرة أو مغشوشة عرفنا فيها: فقهاء لا قلوب لهم.. وصوفية لا عقول لهم! وفقهاً وقف عند شكل الشعائر والعبادات.. وتصوفاً باطنياً منفلتاً من ضوابط الشريعة وحدودها!.

ولقد أخذت هذه المخاطر والتحديات - الخارجية والداخلية.. العسكرية والفكرية - تغالب قوى الإبداع والاجتهاد والتجديد والازدهار الحضاري الإسلامي، حتى استطاعت أن تدخل بالحضارة الإسلامية دور التراجع والركاكة والجمود والتقليد.

فلما كان العصر الحديث.. ونهض الغرب نهضته الحديثة.. وبدأت غزوته التي التف بها حول عالم الإسلام- عقب سقوط غرناطة [٨٩٧هـ - ١٤٩٢م] - ليُثنى بضرب قلب العالم الإسلامي - بحملة بونابرت على مصر [١٢١٣ هـ - ١٧٩٨م] أصبحت محاولاتنا في اليقظة والتجديد والنهوض تواجه تحديًا ذا جناحين: جناح التخلف الموروث عن مرحلة التراجع الحضاري - وهو خطر ذاتي - وجناح الهيمنة الغربية - في الفكر والعسكرية والاقتصاد-.. وبدون الجهاد على الجبهتين سنظل أسرى للقيود التي تحول بيننا وبين الإقلاع الحضاري من المأزق الذي تردينا فيه.

٦٧ الرأسمالية ليست نهاية التاريخ!

على المستوى العالمي، أفلست وتفلس وتراجعت وتتراجع. وسقطت وتسقط الفلسفات و«الأيديولوجيات» والنظم «الدنيوية» التي وقفت عند الدنيا وحدها عازلة لها عن الآخرة، ومانعة هدى الله عن تدبير العمران البشري وحاجزة نبأ السماء العظيم عن أن يكون دليل عمل الإنسان في هذه الحياة الدنيا..

فسقوط الشيوعية وهروب كهنتها من «معابدها - الملحدة!» وتحول «حلمها» في العدل الاجتماعي إلى «كابوس رهيب» لم ولن يكون نهاية السقوط لهذه النظم الدنيوية - العلمانية - الوضعية - المادية..

وإنه «لعبث - حالم» و«حلم - عبثي» تصوير سقوط الشيوعية باعتباره الانتصار التاريخي والأبدي للرأسمالية وتسمية ذلك بـ «نهاية التاريخ» فـ«المرفأ» النهائي والآمن للبشرية لا يمكن أن يكون هذه «الرأسمالية المتوحشة» التي تجعل ٢٠٪ من أبناء الشمال في الحضارة الغربية - يملكون ويتحكمون ويستهلكون ٨٦٪ من ثروات هذا العالم.. والتي جعلت وتجعل الملايين - في بعض الحواضر الإسلامية - يسكنون المقابر- مزاحمين الأموات- بينما تباع «الشقة» السكنية بأكثر من ستين مليونًا من الجنيهات!! والتي جعلت وتجعل التفاوت الفاحش في دخل الفرد يصل في الأمة العربية المسلمة ما بين ٢٣٠٠٠ دولار و ١٠٠ دولار فقط لا غير!!

فمأزق الإفلاس والعجز عن تحقيق حلم الإنسان في العدل الاجتماعي، ذلك الذي أسقط الشيوعية، حتمًا سيأخذ بخناق هذه «الرأسمالية - المتوحشة» وخاصة في وطن العروبة وعالم الإسلام.. ذلك أنه إذا كان قطاع من المسلمين قد عانوا ويلات الشيوعية نحوًا من سبعين عامًا، فإن كل المسلمين - ومعهم أمم وشعوب وحضارات الجنوب - قد اكتووا بنيران الرأسمالية واستعمارها وامبرياليتها منذ قرنين من الزمان!

قلسنا – ولا يمكن أن نكون – بإزاء «نهاية التاريخ» المكرسة لانتصار الرأسمالية وإنما نحن مقبلون – إن شاء الله – على «تاريخ النهاية» لهذه الرأسمالية المتوحشة.. مثلها كمثل كل النظم التى غالت فى «الدنيوية» فتعاملت مع الجانب الحيوانى فى الإنسان وحده، محاولة طمس الروحانية والربانية فى هذا الإنسان.

وإذا كانت الخديعة الكبرى التى زيفت بها الشيوعية وعى الجماهير، إنما كانت دعوى تحقيقها ملكية الجماعة بدلاً من الفرد، وسلطان الأمة على الثروات والأموال، بدلاً من استبداد الفردية بها، وطغيانها بهذا الاستبداد.. فلقد كان سقوط الشيوعية حتمًا عندما اكتشفت الجماهير أن الشيوعية قد تكشفت عن لون جديد من الرأسمالية! رأسمالية الدولة.. رأسمالية البيروقراطية الحاكمة «رأسمالية الحزب المتحكم» ولم تبلغ حتى رأسمالية طبقة البروليتاريا، فضلاً عن أن تكون ملكية الأمة والجماعة – كما كان الزعم والحلم الذى انخدعت به قطاعات عريضة من الجماهير.

وإذا كان من العبث أن يستجير العقلاء من «رمضاء الشيوعية» بنار «الرأسمالية المتوحشة» فلقد كان ذلك هو سر النهوض للصحوات الإيمانية فى كل الديانات.. صحوات تسعى إلى هدى السماء لتدبر به شئون العمران الأرضى خروجًا من هذا الكابوس الذى تجسد فى إخفاقات وإفلاسات الفلسفات «والأيديولوجيات» والنظم الدنيوية التى أفرزتها الحضارة الغربية، ورزأت بها الإنسانية المعاصرة جمعاء..

★ ★ ★

لذلك كان انعطاف اليقظة الإسلامية المعاصرة – منذ عدة عقود إلى إحياء نظام الوقف الإسلامى والدراسة لدوره فى تجديد الحضارة الإسلامية، وهو الذى نهض بالدور الأعظم فى صناعة حضارتنا لأكثر من عشرة قرون.. فالوقف الإسلامى

- الذى هو إعادة المال من ملك الإنسان، وملكيته المجازية، إلى مالكه الحقيقى – الله سبحانه وتعالى – هو المحقق دون كل النظم الدنيوية – ملكية الأمة والجماعة فى الثروات والأموال.. لأن الأمة هى المستخلفة عن الله فى هذه الأوقاف.

- وهو – لذلك – يعظم دور «الأمة» فى مواجهة «الدولة» التى غدت «أخطبوطًا» يقلص ميادين الحرية الإنسانية– وخصوصًا هذا الشكل «للدولة» الذى نقلناه عن الدولة القومية فى الحضارة الغربية، فالوقف عندما يحقق جوهر ملكية الأمة فى الثروات والأموال إنما يوسع فى ذات الوقت مساحة سلطان «الأمة» مقلصًا بذلك طغيان «الدولة» واستبدادها..
- وهو – الوقف – مع ذلك . وفوق ذلك آلية فعالة من آليات التنمية المستقلة فى عالم الإسلام الذى يشكو من قيود التبعية التى تكبل مشاريعه التنموية، بل إن التنمية بالوقف تتعدى حدود الاستقلال بالمعنى الاقتصادى إلى حيث تمثل نمطًا مستقلاً بالمعنى «الفكرى» أيضًا، فالتنمية به هى تنمية بآليات ومذهبيات الإسلام، تميز هذا النمط من التنمية عن نظائره فى الفلسفات والحضارات غير الإسلامية.. فهو استقلال اقتصادى، وخصوصية مذهبية وعزة فكرية أيضًا!
- وأخيرًا – وليس آخرًا – فهو سبيل للرخاء الدنيوى والعدل الاقتصادى، يفضى إلى سعادة فى الدار الآخرة التى هى خير وأبقى، فهو نموذج من العدل الاجتماعى الذى يوضع فى ميزان أصحابه يوم الدين!

٦٨ النهوض بالمرأة .. ووسطية الإسلام

يقول الله – سبحانه وتعالى– في محكم التنزيل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

أى أن الوسطية فى أمة الإسلام هى «جعل» إلهى وليست مجرد «خيار.. أو اختيار» يأخذ به المسلمون أو يدعوه، فهى صفة من صفات الأمة الإسلامية، وشرط من شروط شهودها على الناس. ومن ثم فبدونها لا تتحقق العدالة – عدالة الشهود فى أمة الإسلام..

ولأن هذا هو المعنى القرآني لمصطلح «الوسطية» كان البيان النبوى لهذا البلاغ القرآني، فى حديث رسول الله –ﷺ– الذى يقول فيه: «الوسط. العدل. جعلناكم أمة وسطا» رواه الترمذى. ولما كنا نقول فى «مأثورات الحكمة»: «العدل أساس الملك» فلقد رمزنا إلى هذا العدل بالميزان الذى اعتدلت كفتاه. والكفتان فى ميزان العدل، لا يمكن أن تعتدلا إلا إذا جمع القاضى والحاكم والراعى بين عناصر الحق والعدل من كل من المدعي والمدعي عليه.. فالعدل لا يقوم ولا يتحقق إذا نظر القاضى بعين واحدة إلى طرف واحد من أطراف الاختصام.. وكذلك الفكر لا يكون عادلاً ولا منصفًا إذا تجاهل جانبًا من جوانب الواقع.. وكذلك الثقافة لا تكون عادلة ولا منصفة إذا هى تجاهلت حقيقة من حقائق المعارف والعلوم.. وكذلك الاجتماع الاقتصادى والمعاشى لا يمكن أن يكون عادلاً إذا تجاهل طبقة من الطبقات فى المجتمع الذى تتفاوت فيه الطبقات فى أمور المعاش..

وقياسًا على هذه الحقيقة من حقائق الوسطية الإسلامية المميزة لأمة الإسلام – لا يمكن أن يكون اجتماعنا إسلاميًا كاملاً، وعادلاً حقًا، إذا قام على إنصاف الرجال دون النساء، وعلى مراعاة الذكور دون الإناث.. فالوسطية – أي العدل– المحققة لشهود الأمة الإسلامية على الناس، لا تقوم إلا إذا تحقق التوازن بين الفرقاء المختلفين، والأقطاب المتمايزين، والأركان المتغايرين فى كل ميدان من ميادين

الفكر.. والواقع.. والاجتماع.. فالوقوف على «ساق واحدة» هو لعبة مؤقتة للبهلوانات! وإغفال التوازن - أى العدل والإنصاف - بين فرقاء الاجتماع الإنسانى هو الظلم المضاد للعدل الذى هو فريضة إلهية، واسم من أسماء الله - سبحانه وتعالى- والروح السارية فى حضارة الإسلام والمميزة لها عن غيرها من الحضارات..

ولهذه الحقيقة من حقائق إسلامية الاجتماع، استحالت النهضة الإسلامية إذا أردناها إسلامية حقا إذا هى قامت على الرجال دون النساء.. فبدون النهوض بالمرأة يستحيل أن تتحقق نهضة للرجال، خصوصًا وأن الفطرة التى فطر الله الناس عليها قد جعلت من الرجال «صناعة» تقوم بها النساء!

فبدون النهوض «بالصناع» يستحيل النهوض «بالمصنوعات»!

ومن هنا يكون الفقه الحقيقى لمعانى الآيات القرآنية التى أقامت الحياة السوية على الرجال والنساء جميعًا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] - ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم ٢١] - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ومن فقه هذا البلاغ القرآنى يأتى الفقه للبيان النبوى لهذا القرآن، والذى يقول فيه المعصوم - ﷺ - «النساء شقائق الرجال» رواه الترمذى والدارمى - و«رفقا بالقوارير» - رواه البخارى - و«خيركم خيركم لأهله» رواه ابن ماجه والدارمى - وهو الفقه الذى تجسد فى مدرسة النبوة التى صنعت وخرجت - فى أقل من ربع قرن- أكثر من ألف قيادة نسائية من جملة ثمانية آلاف من الصحابة، الذين مثلوا الريادات والقيادات والصفوة الذين قادوا النهضة التى أقامت الدين.. وأسست الدولة.. وغيرت اتجاه التاريخ.. وصنعت حضارة الإسلام..

وإذا كانت القاعدة الذهبية فى النهضة والتقدم تقول لنا «إنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، فإن النهضة الإسلامية المنشودة والإقلاع الحضارى الذى نسعى إليه، لن يتحقق إلا إذا قام على ساقين اثنتين: المرأة والرجل كما حدث فى النهضة الأولى التى تحققت يوم ظهر الإسلام.. فذلك هو الطريق للنهضة الإسلامية المتوازنة.. أى العادلة.. أى المحققة لمعنى الوسطية الإسلامية فى الاجتماع الإسلامى الذى تنهض فيه الأمة بالإسلام.

٦٩ شبهات حول مكانة المرأة فى الإسلام

لقد ظهر الإسلام ونطاق الرق شائع وسائد فى كل المجتمعات العالمية، منذ قرون وقرون.. ولقد ضبط الإسلام نظام الرق على النحو الذى يؤدى إلى تصفيته وطى صفحته، ولكن بالتدريج، وذلك عندما أغلق وحرم الأبواب والمصادر والروافد التى كانت تزيد من الاسترقاق، وتمد «نهر» الرقيق، صباح مساء، بالمزيد من الأرقاء- من مثل الحروب غير المشروعة، والإغارات العدوانية، واختطاف الصغار، والاسترقاق عند العجز عن سداد الديون، وبيع الآباء والأمهات - المعدمين - لأنفسهم ولأولادهم.. إلخ ... إلخ - فلم يبق الإسلام من مصادر الرق القديم إلا الحرب المشروعة وحدها.. ثم ثنى على ذلك فوسع المصبات التى تحرر جموع الرقيق - بالقربات والكفارات، بل وجعل ذلك مصرفًا من مصارف الزكاة وبيت مال الأمة والدولة- ثم هو- بالإضافة إلى ذلك- قد جعل للأرقاء حقوقًا مدنية قاربت بين وضعهم الاجتماعى ووضع الأحرار - فضلاً عن المساواة فى التكاليف الشرعية - حتى تحول الاسترقاق إلى عبء مادى على مالكى الأرقاء بعد أن كان مصدرًا للثراء والاستغلال..

هذا هو موقف الإسلام من الرق والاسترقاق.. وإذا كانت التطبيقات والممارسات التاريخية- وخاصة بعد الفتوحات.. وأوضاع الرق فى البلاد المفتوحة.. وتراجع التطبيقات للمثال الإسلامى- إذا كانت هذه التطبيقات التاريخية لم تتسق مع المقاصد الإسلامية فى تحرير الأرقاء بالتدريج، الأمر الذى مد فى عمر نظام الرقيق حتى إلغائه فى العصر الحديث، فإن وضع الأرقاء فى الحضارة الإسلامية قد ظل متميزًا وممتازًا عن وضعهم فى الحضارات الأخرى بما لا يقبل الجدل ولا المقارنات..

ولقد عرف نظام الرق حالات «التسرّى» أى اتخاذ مالك الأمة والجارية منها «سرية» أى مملوكة، يعدها مالكها ويهيئها للمعاشرة – الجماع– على نحو ما بين الزوج وزوجه.. ويتم ذلك عند بعض الفقهاء ليس بمجرد الجماع، وإنما بإحصانها.. أى جعلها محصنة، أى رفعها إلى منزلة الزوجة الحرة، من حيث علو منزلتها، واختصاصها به، وحجبها عن الخروج من حرمه– كما كان حال الزوجات فى تلك العصور– وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «حصنوا هذه الولائد» فهدف التسرّى فى الإسلام – فضلاً عن الإحصان الجنسى والعفة للرجل وأمته– اختيار أمهات الأولاد، وليس مجرد المتعة الجنسية.. ويشهد على ذلك أن الكثير من الأمراء والخلفاء والقواد والعلماء كانت أمهاتهم «سرارى» أى «أمهات أولاد» وفى هذه التسمية «أمهات أولاد» شهادة على أن هذا كان المقصد الأول من نظام «التسرى»..

ولقد وضع الإسلام للتسرى ومعاشرة ملك اليمين ذات القواعد التى وضعها لمنع اختلاط الأنساب، ولتحقيق الاختصاص بين الرجل ومن يعاشر من النساء. فمنع مجامعة الأمة المملوكة إذا كانت حاملاً حتى تضع حملها وتطهر من نفاسها، ولغير الحامل اشترط الإسلام انقضاء عدتها، وذلك حتى يبرأ رحمها من احتمال الحمل..

ونظام التسرى هذا نظام قديم قدم العبودية فى تاريخ الحضارات والمجتمعات، لم يبتدعه الإسلام ولم تبتدئه الشريعة الإسلامية.. ففى التاريخ القديم تسرى إبراهيم الخليل عليه السلام بهاجر المصرية التى وهبها له ملك مصر، فولدت له إسماعيل عليه السلام أبا العرب العدنانيين.. وفى التاريخ القديم – أيضًا– تسرى سليمان بن داود عليهما السلام بثلاثمائة سرّية.. وكذلك كان الحال فى الحضارة الفرعونية والفارسية، وفى مختلف حقب حضارات التاريخ القديم..

وعندما جاء الإسلام تعامل مع هذه الظواهر والنظم الاجتماعية الموروثة والسائدة على النحو الذى هذبها، وضبط فوضاها، فأعطى الكثير من الحقوق للإماء والسرارى، وفتح أمامهن أبواب العتق والتحرير.. فقديمًا كانت السرية لمجرد المتعة الجنسية، لكن الإسلام جعل إحصانها – أى رفع منزلتها إلى ما يقرب من منزلة الزوجة الحرة – لونًا من التكريم.. وقديمًا كانت السرية تظل فى

الاسترقاق حتى لو ولدت الأولاد من مالكها، بل ويسرى الرق على أولادها أيضًا.. فلما جاء الإسلام قررت شريعته أن السرية تصبح «أم ولد» عندما تلد من مالكها، وتصبح حرة بعد وفاته، وكذلك أولادها يكونون أحرارًا منذ الميلاد.. وتلك نماذج وسبل للإلغاء التدريجي لنظام الرق، كما شرعه الإسلام..

ومن مقاصد التسرى إحصان واستعفاف الإماء عن الفجور، ورفع مكانتهن الاجتماعية، وكذلك إحصان المالك لهن بالمعاشرة والجماع، فضلاً عن الإنجاب.. فهو قريب من نظام الزواج، وإن تميز عنه فى بعض الأمور.. حتى أن بعض الفقهاء طبق على السرارى قاعدة تعدد الزوجات، فوقف بعددهن عند الأربع، كما هو الحال فى الزوجات.

ويشترط فى الأمة التى يتسرى بها مالكها ألا تكون محرمة عليه بسبب النسب والرضاع- كما هو الحال فى الزواج من الحرة - وكذلك يترتب على التسرى ما يترتب على الزواج من الحرمات التى جاء بها القرآن الكريم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ الآية [النساء: ٢٣] فالتحريم بالمصاهرة والنسب والرضاع يسرى على التسرى كما يسرى على الزواج..

ولقد دعا الإسلام إلى تخير السرية كما يتخير الإنسان الزوجة، لأنها ستصبح «أم ولد» ولباسًا للرجل، وهو لباس لها، تفضى إليه كما يفضى إليها، وذلك وفق القاعدة النبوية: «تخيروا لنطفكم» رواه ابن ماجه. ولقد أصبح هذا النظام - ككل نظام الرق - جزءًا من التاريخ، ذلك أن إلغاء الرقيق فى العصر الحديث.هو تحقيق للمقاصد الإسلامية التى كان مفروضًا أن تتحقق قبل ذلك بقرون طوال.

★ ★ ★

أما العاملات الأجنبيات فى بلادنا العربية والإسلامية فهن حرائر، تسرى عليهن أحكام الإسلام فى العفة والعورات وتحريم الزنا وغض البصر. ولا تجوز معاشرتهن إلا بالزواج الشرعى إذا كن كتابيات محصنات عفيفات كما هو حكم القرآن الكريم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

وإذا كان الإسلام يحترم أموال غير المسلمين، حتى لو كانت خمرًا أو خنزيرًا، فإنه من باب أولى أشد احترامًا لأعراض غير المسلمات.

٧٠ ميراث المرأة وتحريرها

عندما كتبت كتابي: «هل الإسلام هو الحل.. لماذا.. وكيف؟» عقدت فيه فصلاً عنوانه: «التحرير الإسلامي للمرأة» وعرضت فيه لمشكلات المرأة في عالم الإسلام، والحاجات الماسة إلى تحريرها من القيود والأغلال التي حملت منها أكثر مما حمل الرجال، ثم أبرزت الفلسفة الإسلامية المتميزة في هذا التحرير، والنموذج المتميز الذي قدمه الإسلام – منذ عصر صدر الإسلام – لعلاقة النساء بالرجال، وتساويهما كشقين متكاملين.. وليس كندين متماثلين- ودور كل منهما في بناء العمران الإنساني..

وفي صفحات ذلك الفصل، ناقشت العديد من الشبهات المثارة في هذا الميدان سواء منها تلك التي يثيرها – ضد الإسلام – نفر من المتغربين والعلمانيين – من أنصار النموذج الغربي لتحرير المرأة – أو تلك التي يثيرها – باسم الإسلام – نفر من أهل الجمود والتقليد – الذين يتعبدون بألوان من العادات والتقاليد والأعراف، التي أضفوا عليها – زورًا وبهتانًا – قدسية الدين!

ومن الشبهات التي عالجتها – في ذلك الفصل – شبهة التمايز بين الرجال والنساء في الميراث، والتي يزعم مثيروها أنها دليل على انتقاص الإسلام من مكانة المرأة وكرامتها، وانتفاء المساواة بين النساء والرجال.. ولقد أثبتُ في الرد على مثيري هذه الشبهة – أن التمايز في الميراث لا تحكمه الذكورة والأنوثة، وأنه محكوم بمعايير ثلاثة:

أولها: درجة القرابة بين الوارث – ذكرًا أو أنثى – وبين المورِّث – المتوفى – فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب في الميراث..

وثانيها: موقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال.. فالأجيال التي تستقبل الحياة عادة يكون نصيبها في الميراث أكبر من نصيب الأجيال

التى تستدبر الحياة، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين.. فالبنت ترث أكثر من الأم- وكلتاهما أنثى - بل وترث أكثر من الأب! والابن يرث أكثر من الأب - وكلاهما من الذكور!

وثالثها: العبء المالى الذى يوجب الشرع على الوارث القيام به حيال الآخرين.. وهذا هو المعيار الذى يثمر تفاوتًا بين الذكر والأنثى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

لأن الذكر الوارث هنا - فى حالة تساوى درجة القرابة والجيل - مكلف بإعالة زوجة أنثى.. بينما الأنثى - الوارثة - إعالتها فريضة على الذكر المقترن بها- وحالات هذا التمييز محدودة جدًا إذا ما قيست بعدد حالات المواريث.

وبهذا المنطق الإسلامى يكون الإسلام قد ميز الأنثى على الذكر فى الميراث، لا ظلمًا للذكر، وإنما لتكون للأنثى ذمة مالية تحميها من طوارئ الأزمان والأحداث وعاديات الاستضعاف!

★ ★ ★

وإبان الإعداد والاستعداد لانعقاد مؤتمر المرأة - فى «بكين» ٢٠ - ٢٥ سبتمبر ١٩٩٥م زارتنى مجموعة من السيدات الفضليات العاملات فى الحقل النسائى وكنّ يرتبن أوراقهن وأفكارهن للاشتراك فى المؤتمر.. ودار التساؤل والحوار حول حقيقة الرؤية الإسلامية والموقف الشرعى الذى يجب تقديمه لهذا المنتدى العالمى فى مشكلات المرأة وقضايا تحريرها..

وعندما طرحت عليهن الرؤية التى كتبتها فى كتابى (هل الإسلام هو الحل) بدت الدهشة على وجوههن جميعًا، لأنها كانت المرة الأولى التى يسمعن فيها هذا «المنطق الإسلامى» الذى لا يقف من هذه الشبهة المثارة والشائعة موقف الدفاع أو الاعتذار! أو الترديد لمقولة: إن الإسلام قد أنصف المرأة فجعلها ترث نصف نصيب الذكر بعد أن كانت لا ترث مطلقًا!

ويومئذ أدركت أن هذه القضية - ومثلها من القضايا المشكلة - فى حاجة إلى المزيد من الدراسة غير التقليدية، بمنطق غير تقليدى، وبعقل إبداعى، غير اتباعى، وبأسلوب لا يكتفى بترديد المتعارف عليه فى الساحة الفكرية.. ثم إذاعة وإشاعة هذا المنطق الإسلامى الجديد بين كل المهتمين بقضية المرأة وأوضاعها

ومشكلات حريتها وتحريرها، الإسلاميين منهم والعلمانيين على حد سواء.. وذلك حتى يثوب الجميع إلى الحقيقة الإسلامية، ويقترب الفرقاء المختصمون من الكلمة السواء التي جاء بها الإسلام.

وهكذا نجد أن الكثير من الشبهات المثارة ضد المذهبية الإسلامية - في قضية المرأة ومكانتها من الرجل في الرؤية الإسلامية- هي ثمرة للجهل أو التجاهل لحقيقة موقف الإسلام وفلسفته المتميزة في مساواة النساء بالرجال.

٧١ عن الجهاد .. والقتال .. والإرهاب

فى الأغلبية الساحقة من وسائل الإعلام - المقروءة.. والمسموعة.. والمرئية- وفى الكثير من دوائر الفكر والثقافة والسياسة، هناك خلط شديد وكبير بين مفاهيم مصطلحات:

١ - الجهاد.

٢ - والقتال.

٣ - والإرهاب.

وهذا الخلط، وإن بدأ فى دوائر الفكر والإعلام الغربى، إلا أن إعلامنا العربى والإسلامى قد تبناه، وشارك فيه بغباء الببغاوات!

بل وسقطت فى هذا الخلط كذلك جماعات كثيرة تمارس نشاطاتها تحت رايات الإسلام، الأمر الذى جعل مصطلحًا محوريًا فى الفكر الإسلامى، مثل مصطلح «الجهاد» كاد أن يصبح محملا بظلال سلبية كثيرة لدى كثير من الدوائر السياسية والإعلامية، حتى لقد ذهبت «منظمة المؤتمر الإسلامى» إلى حذف هذا المصطلح من البيان الختامى لمؤتمرها الذى انعقد فى «داكار» بالسنغال سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩١م.. أى قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر - بأمريكا- بعشر سنوات! الأمر الذى يشهد على سبق هذا الخلط فى المفاهيم - مفاهيم هذه المصطلحات - لتلك الأحداث!

■ لقد خلطت دوائر الفكر الغربى - الدينية والسياسية، وكذلك وسائل الإعلام الغربية - بين المفهوم الإسلامى للجهاد، وبين «الحرب المقدسة» فى اللاهوت الكنسى الأوربى.. وهذا خطأ فادح فى الخلط بين المفاهيم المختلفة تمام الاختلاف..

■ وخلطت كثير من جماعات العنف العشوائى - التى لبست لباس الإسلام - بين هذا العنف العشوائى، الذى حاولت به هز الاستقرار السياسى والاجتماعى

والاقتصادى والأمنى لعدد من الدول الإسلامية، والذى هو ترويع للآمنين وعدوان على الأبرياء.. خلطت بين هذا العنف العشوائي وبين المفهوم الإسلامي للجهاد، حتى لقد أطلقت كثير من هذه الجماعات ولا تزال على تنظيماتها اسم «الجهاد»!

ولقد سار الإعلام على هذا الدرب فى خلط المفاهيم.. حتى حسب الكثيرون من ضحايا وسائل هذا الإعلام أن كل قتال فى الإسلام هو جهاد.. وأن كل عنف له علاقة بالجهاد..

ثم جاءت الحملة الغربية على ما يسمونه «بالإرهاب» الذى لم يتم تعريفه دوليًا حتى الآن!

لتلصق مفهوم هذا المصطلح بالإسلام الدين، بدعوى أن «الجهاد» الذى هو ذروة سنام الإسلام هو العنف القتالى أى الإرهاب الذى يروع الآمنين ويعتدى على الأبرياء..

الأمر الذى يوجب على العقل العربى والمسلم تحرير مفاهيم مصطلحات:

(أ) الحرب المقدسة فى اللاهوت الكنسي النصرانى الأوربى.

(ب) والجهاد الإسلامى – الذى هو أوسع كثيرًا جدًا من مفهوم القتال.

(جـ) والقتال، الذى هو – فى الإسلام – مجرد شعبة من شعب الجهاد.. وضرورة لا يجوز اللجوء إليها إلا ردًا للعدوان على عقيدة المسلمين أو أوطان دار الإسلام والذى ضبط الإسلام ممارساته بدستور الفروسية الإسلامية، المحكوم بمنظومة القيم الإسلامية.

(د) والإرهاب، الذى لا علاقة لمفهومه الإسلامى كما جاء فى القرآن الكريم– بمفهومه الغربى، الذى شاع فى الثقافة الغربية منذ «عصر الإرهاب» الذى عرفته الثورة الفرنسية، فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى».

وذلك وصولاً إلى المفاهيم الصحيحة والدقيقة لهذه المصطلحات على أمل أن يسهم ذلك فى تصحيح الطرح الإعلامى حول هذه الموضوعات التى تعقد حولها المؤتمرات وتدور بصددها الحوارات، وتملأ فضاءات الإعلام الذى نعيش تحت قصفه هذه السنوات؟!

٧٢ أخلاقيات القتال

التعددية.. والتنوع والاختلاف - في كل عوالم الخلق، المادية والحيوانية والنباتية والإنسانية والفكرية - تصل في الرؤية الإسلامية إلى مرتبة السنة الكونية، والقانون الذى لا تبديل له ولا تحويل.. فالواحدية والأحدية للحق سبحانه وتعالى، وحده والتعددية هي السنة في كل عوالم المخلوقات.

ولهذه الحقيقة، يرفض الإسلام «فلسفة الصراع» لأن الصراع يعنى أن يصرع طرف الطرف الآخر، فينهيه وينفرد بالساحة.. والانفراد، والاستغناء في الرؤية الإسلامية - هو المقدمة للطغيان» وصدق الله العظيم:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

ولأن هذه هي ثمرة الصراع، جاء في القرآن الكريم: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨].

وفي مقابل الحضارة الغربية القائمة على فلسفة الصراع. في عالم الأحياء، حيث البقاء للأقوى بدعوى أنه الأصلح! والصراع الطبقى في الاجتماع الإنساني، بدعوى أنه هو سبيل التقدم والتطور والمحرك للتاريخ، في مقابل هذه النزعة الصراعية يقدم الإسلام فلسفة «التدافع» الذى هو وسط بين «السكون والموات» وبين «الصراع» والذى هو حراك اجتماعي، يُعدِّل المواقف لتصل إلى لحظة الوسط والعدل، دون إنهاء للتعددية والتمايز والاختلاف.. فتتعايش المذاهب والأفكار والفلسفات والطبقات والحضارات حتى إذا ما اختلت العلاقات بين أطراف التعدد، فوصلت إلى الظلم بدلا من العدل، أو إلى الغلو بدلا من التوسط، كان التدافع سبيلاً لإعادة الفرقاء إلى لحظة العدل والوسطية والتوازن مع بقاء التنوع والاختلاف..

وعن هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة تحدث القرآن الكريم:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]

وللحفاظ على سنة التعددية كانت المقاصد الإسلامية فى العلاقة مع «الآخر» هى التعايش، والمودة، والبر، والقسط (العدل) حتى مع الأعداء الذين يؤمل فى تغير مواقفهم المعادية: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

حتى إذا فرض الأعداء القتال على المسلمين بأن فتنوهم فى دينهم، أو أخرجوهم من ديارهم.. فإن الإسلام يضع لهذا القتال الضوابط والأخلاقيات التى صارت - فى التاريخ الإسلامى - دستورًا للفروسية الإسلامية..

وهذه الضوابط والأخلاقيات - فى القتال - هى فرائض إسلامية، وواجبات دينية، وليست مجرد «حقوق للإنسان» يجوز له التنازل عنها إذا أراد واختار.

■ فالمسلمون لا يجهزون على جريح.. ولا يمثلون بجثة قتيل.. ولا يقتلون أسيرًا، بل ولا يضيقون عليه فى ضروريات وحاجيات الحياة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

■ والمسلمون لا يقاتلون ولا يقتلون غير المقاتلين.. فلا قتال ولا قتل للنساء غير المحاربات.. والأطفال.. والشيوخ المسنين.. والمسالمين.. والرهبان والعباد..

والمنصرفين عن القتال إلى الزراعات والتجارات والصناعات والحرف وشئون العمران المدنى غير الحربى..

■ بل إن المسلمين - عندما يفرض عليهم القتال - مطالبون بالحفاظ على الطبيعة والرفق بمكوناتها قدر الإمكان.. فهم لا يقطعون شجرًا، ولا يقتلعون زرعًا.. ولا يدمرون البيئة.. ولا يذبحون حيوانًا إلا لضرورات الحفاظ على الحياة! لأن الطبيعة فى الرؤية الإسلامية كالإنسان هى خلق الله لها حياتها، بل إنها تسبح الله سبحانه وتعالى، وإن لم يفقه الإنسان لغة هذا التسبيح.. فالعلاقة بين الإنسان المسلم وبين الطبيعة هى علاقة مؤاخاة وارتفاق لا علاقة قهر وتدمير..

ولقد صاغت السنة النبوية الشريفة دستور الفروسية الإسلامية هذا فى أحاديث نبوية، كما وضعته السنة العملية فى الممارسة والتطبيق..

- فعن عبد الرحمن بن كعب أن رسول الله ﷺ «**نهى عن قتل النساء والولدان**» رواه مالك فى الموطأ.

- ولقد كتب عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - إلى أحد ولاته فقال: «إنه بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يقول لهم: «اغزوا باسم الله، فى سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا» رواه مسلم ومالك فى الموطأ.

- ولقد صاغ أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - هذه الأخلاقيات الإسلامية فى دستور للفروسية الإسلامية عندما أوصى «يزيد بن أبى سفيان» (١٨هـ - ٦٣٩م) وهو يودعه أميرًا على الجيش الذاهب لرد عدوان الروم البيزنطيين فى الشام فقال: «إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له.. وإنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة.. ولا صبيًا.. ولا كبيرًا هرمًا.. ولا تقطعن شجرًا مثمرًا.. ولا تخربن عامرًا.. ولا تعقرن شاة ولا بعيرًا إلا لمأكلة.. ولا تحرقن نخلاً.. ولا تفرقنه.. ولا تغلل.. ولا تجبن» رواه مالك فى الموطأ..

فكان ذلك أول دستور لأخلاقيات القتال، قبل اتفاقيات «جنيف» بأربعة عشر قرنًا من الزمان!

■ ولقد سجل التاريخ أن الغزوات العشرين، التى رد بها رسول الله ﷺ عدوان المشركين ومن تحالف معهم من اليهود، لم يقتل فيها سوى ٣٨٦ قتيلا، منهم ٢٠٣ هم قتلى المشركين و ١٨٣ هم شهداء المسلمين.. بينما الحروب الدينية، داخل النصرانية، بين الكاثوليك والبروتستانت والتى دامت أكثر من قرنين قد أبيد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوربا.. ويحصيهم «ڤولتير» [١٦٩٤ – ١٧٧٨] فيقول: إنهم عشرة ملايين! فالحمد لله على نعمة الإسلام.

٧٣ من آداب القتال فى الإسلام

فى جميع الآيات القرآنية التى تحدثت عن القتال - سواء عن الإذن به، أو الوجوب له، أو التحريض عليه - كان التشريع والشريعة للقتال خاصًا بمن يفتن المسلمين فى دينهم - والفتنة أكبر من القتل - وبمن يخرجون المسلمين من ديارهم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٦، ٢١٧].

ولقد وضع الإسلام للحرب آدابًا ومعايير، منها أن يكون رد العدوان بمثل ما حدث به العدوان، وذلك حتى لا يستبيح الناس فى الحرب غير المباح، ولأن الحرب - فى الرؤية الإسلامية- هى جراحات استثنائية، يجب الوقوف فى آلياتها ومقاصدها ونطاقها عند المداواة للداء الذى فرضها دون الآليات والمقاصد التى توسع أبوابها فتحول الداء إلى أدواء.. ولذلك جاء فى القرآن الكريم عن هذه الضوابط ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

والأصل فى القتال هو مقاتلة المقاتلين من الأعداء المعتدين، وليس قتال ولا قتل النساء والأطفال وعموم غير المقاتلين وعن هذه الشمائل للفروسية الإسلامية تحدثت وصايا رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين للجيوش والسرايا والبعوث القتالية: «لا تقتلوا شيخًا، ولا امرأة، ولا صبيًا ولا عابدًا أو راهبًا فى صومعته».

بل وتحدثت هذه الشمائل وآداب الفروسية الإسلامية عن الاحترام والرفق والحفاظ على الحيوانات والنباتات، فدعت إلى عدم قطع الأشجار أو ذبح الحيوانات إلا لضرورة الطعام..

وفي هذه الشمائل سبق الإسلام المعاهدات الدولية مثل معاهدة «جنيف» لسنة ١٩٤٩م التي تحرم قتل المدنيين، بمن فيهم النساء والأطفال في أثناء الحروب.

وحتى في الأسرى، يميز الإسلام بين المقاتلين وغير المقاتلين، فيجعل الأسر والأسرى فقط للمقاتلين المسلحين إذا ظفر بهم المسلمون أحياء بينما يعد النساء والأطفال «سبايا» بلغة وقواعد التاريخ القديم، وهذا التمييز تظهر آثاره في أن المقاتلين يجب أسرهم بينما غير المقاتلين وخاصة النساء والأطفال لا يجوز أسرهم في بعض المذاهب الإسلامية – طالما لا يخشى المسلمون ضررًا من تركهم أحرارًا..

وإذا كان أسرى الحروب – المقاتلون – تتم تصفية أوضاعهم عند انتهاء الحروب، وفق المعاملة بالمثل بين الفرقاء المتحاربين فلقد وضع القرآن لذلك قاعدة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

فإن من باب أولى تصفية أوضاع من يقعون في أيدي المسلمين من النساء والأطفال وفق المعاملة بالمثل. مع تحريم قتلهم في كل الحالات لأن الإسلام يحرم قتل غير المقاتلين، ولا يجيز قتل المقاتلين إلا لضرورة القتال وفي أثناء هذا القتال وفي القتال المشروع، وليس في أي قتال. وإذا كانت الحروب الحديثة. بأسلحتها التي تعمم القتل والدمار لم تعد تميز في الكثير من الأحيان بين المقاتلين وغير المقاتلين، ولا بين الكبار والصغار ولا بين الرجال والنساء بل ولا بين الأهداف العسكرية والمدنية بما فيها المستشفيات ودور العبادة فإن المعاهدات الدولية التي تحرم وتجرم قتل المدنيين واستهداف الأهداف المدنية، متمشية تمامًا مع مقاصد الإسلام في هذا الموضوع.

٧٤ الجهاد فى سبيل الله (١)

الجهاد من جهد-: هو كل جهد يوجه إلى غرض معين وبذل ما فى الوسع من القول والفعل والدعوة إلى الدين الحق.

وفى عرف الصوفية: مجاهدة النفس هى الجهاد الأكبر.. أما القتال فهو الجهاد الأصغر، والجهاد بصوره المختلفة، بما فيها الصورة القتالية فريضة إسلامية عند توفر دواعيها واكتمال شروطها ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهو فريضة كفائية - اجتماعية إذا قام به البعض سقط عن الباقين وإذا لم تنهض به الأمة وقع الوزر والإثم على الأمة جمعاء- ففروض الكفاية- الاجتماعية- أشد توكيدًا وخطرًا من فروض الأعيان - الفردية: ودليل كفايته قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فهو كالعلم المتخصص وكالدعوة من فروض الكفاية الاجتماعية ومن الأدلة على كفايته أيضًا قول الله سبحانه وتعالى ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] فقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.. دليل على أنه فرض كفاية.

ويتعين الجهاد فيصبح فرض عين على كل مسلم ومسلمة- حتى ليباح للمرأة أن تخرج إليه دون إذن زوجها وهى التى لا يباح لها ذلك فى أدائها لفريضة الحج" يتعين الجهاد إذا وطئت قدم الأعداء أرض الإسلام.. فيكون الجهاد فرض عين على أهل البلد الذى غزاه الكفار وفرض كفاية على غيرهم من أهل

الأوطان الإسلامية الأخرى إلا إذا عجز أهل البلد المغزو عن إجلاء العدو فإن الجهاد يتعين على أهل من يليهم من البلاد..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ويشترط فيمن يجب عليه الجهاد أن يكون: مسلمًا.. بالغًا.. حرًا.. عاقلاً.. قادرًا على أداء مهمة الجهاد.. وإذا كان الجهاد فرض كفاية يزاد شرط: إذن الوالدين لمن والداه- أو أحدهما- على قيد الحياة!

★ ★ ★

وفريضة الجهاد إسلامية خالصة، تميزت بها الشريعة الإسلامية عن الشرائع الدينية لأمم الرسالات السماوية السابقة.. لعموم الرسالة المحمدية إلى كل البشر ولخلودها كخاتمة لرسالات السماء.. فعمومها يقتضي الدعوة إليها بين كل الأقوام والأوطان، الأمر الذي يستلزم الجهاد لحماية الدعوة والدعاة. وخلودها كخاتمة للرسالات السماوية يقتضي حمايتها من العدوان عليها وعلى أمتها بالجهاد. فبدون حمايتها بالجهاد سيرد- بحكم سنة الصراع بين الحق والباطل - عدوان الباطل عليها، الأمر الذي يؤدي إلى الذهاب بها وبأمتها حيث لا نبي بعد محمد ﷺ ولا شريعة بعد شريعته ولا كتاب بعد القرآن.. فعمومها، والتبليغ بها، والدعوة إليها فريضة والحفاظ على خلودها فريضة.. ووجوبهما يقتضي فريضة الجهاد سياجا للعموم والخلود!

٧٥ الجهاد فى سبيل الله (٢)

وبسبب من اختصاص الشريعة الإسلامية، وأمتها بفريضة الجهاد.. وبسبب من تاريخ هذه الأمة الحافل بالقتال والجهاد، الذى فرضه عليها الأعداء.. البيزنطيون.. والتتار.. والصليبيون القدماء، والمحدثون: فلقد تعرضت الشريعة الإسلامية وأمتها لافتراءات من كثير من غير المسلمين الذين كتبوا عن الجهاد.. وكانت أبرز الافتراءات تلك التى زعم أصحابها أن انتشار الإسلام قد تم بالسيف.. سيف الجهاد الإسلامى! وبعبارة المستشرق ماكدونالد Macdonald, D.B [١٢٨٠ - ١٣٦٢ هـ = ١٨٦٣ - ١٩٤٣م] فإن «نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة»! وسبب هذه الفرية - إذا افترضنا حسن النية - هو الخلط بين استخدام سيف القتال فى إقامة «الدولة» وبين استخدام سيف الجهاد لنشر وإقامة «الدين» فالمسلمون - وهذه حقيقة تاريخية - قد فتحوا بالعنوة أو بالصلح بعض البلاد، وأدخلوها فى إطار الدولة الإسلامية.. وكانوا بذلك يحررون أوطانًا شرقية من موجة الغزوة الغربية - فى صورتها وطورها البيزنطى فالسيف قد استخدم فى إقامة «الدولة» لكن هل استخدم فى نشر «الدين»؟

هنا ترد الحقيقة الفكرية التى تميز بها الإسلام.. حقيقة تحريره للضمير ليؤمن أو ليكفر بالحرية والاختيار:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]

وهذه الحقيقة الفكرية الإسلامية، قد تأسست على حقيقة طبيعية نبعت من مفهوم ومعنى «الإيمان» في الإسلام.. فالإيمان: تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين.. ومن ثم فإنه يستحيل تحصيل وامتلاك اليقين القلبي بالإكراه! إن الإكراه قد يثمر نفاقا.. «شكلاً للإيمان» لكنه لا يثمر اليقين القلبي الخالص لوجه الله.. والذي هو حقيقة «الإيمان» في عرف الإسلام.. وبعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩-١٩٠٥م] «.. فالقهر لا يحدث إيمانا والإكراه لا أثر له في الدين»..

وهذه الحقيقة الفكرية الإسلامية، لم تكن مجرد «موقف نظري» غاير واقع المسلمين.. بل لقد وضعت وسادت في الممارسة والتطبيق، ليس فقط بدليل بقاء الكتابيين على أديانهم وشرائعهم في دولة الإسلام- وهو أمر انفردت به دولة الإسلام دون دول الديانات الأخرى! وإنما بدليل أن المؤمنين بدين الإسلام قد ظلوا أقلية عددية في الإمبراطورية العظمى التي فتحها المسلمون لعدة قرون؟! لقد استخدم السيف، أحيانا في إقامة «الدولة»لكن رعية هذه «الدولة» من غير المسلمين، قد ظلوا على دياناتهم القديمة، لعدة قرون حتى دخلوا في الإسلام بالموعظة الحسنة، والقدوة الطيبة.. بالتدريج.. وكما لم تنتشر «العربية» بسيف الجهاد الذي أقام «الدولة» فكذلك كان الحال مع انتشار «دين الإسلام»!

بل إن قصة الإسلام وجهاده مع «الشرك» والمشركين قد شابهت قصته مع «أهل الكتاب» لقد اضطهدوا الرسول ﷺ والمسلمين والإسلام. وقاتلوهم في الدين.. وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم.. حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.. فتركوا أوطانهم مهاجرين، عبر البحار والفيافي.. وجرى عليهم قهر الاستضعاف حتى لقد كانوا يئنون منه داعين ربهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

ومع كل هذا.. وحتى بعد أن فر المسلمون بدينهم تاركين الوطن والدار والمال والأهل ظل الجهاد الإسلامي سياجا لحماية حرية الدعوة والدعاة ولحفظ الدولة الوليدة من عدوان المشركين.. فكان «الإذن» بالقتال انتصافا للمعتدى عليهم، الذين ظلموا.. وظل الوفاء بعهد المشركين موقفا وخلقا إسلاميًا مرعيا.. واستمر الجهاد ردًا للعدوان، وليس مبادأة بالعدوان.. ولم يحدث أن كان السيف والإكراه سبيلا للإيمان بالدين الجديد!

٧٦ الجهاد فى سبيل الله (٣)

لقد بدأت قصة الإسلام مع فريضة الجهاد بالآيات الثلاث التى صاحب نزولها تمام حدث الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، وبدء قيام الدولة الإسلامية.. وهى الآيات التى «أذنت» مجرد الإذن! للمسلمين فى استخدام القتال للانتصاف من الظالمين لهم، الذين استفزوهم من الأرض فأخرجوهم من الديار.. وذلك إعمالا لسنة الله فى التدافع الفكرى والحضارى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٨-٤٠].

لقد أذن – مجرد إذن– للمظلومين الذين يقاتلون فى استخدام وسيلة القتال لرد ظلم المقاتلين المعتدين!

وفيما بين السنة الأولى من الهجرة والسنة السابعة التى أعقبت صلح الحديبية والتى تمت فيها عمرة القضاء فى هذه السنوات السبع شهد المسلمون أكثر من عشرين غزوة، مارسوا القتال فى عدد منها.. ومع ذلك، فلقد ظل قتالهم هذا طوال هذه السنوات محكوماً «بالإذن» الإلهى للمظلومين فى أن يستخدموا أدوات «الصراع» فى ردع الظالمين الذين أخرجوهم من الديار!

فلما كانت السنة السابعة من الهجرة، وتجهز المسلمون للسفر من المدينة قاصدين مكة لأداء عمرة القضاء وفقًا لصلح الحديبية، توجس المسلمون خيفة من غدر المشركين بهم عند أدائهم مناسك العمرة فهم سيدخلون مكة معتمرين وليس معهم من السلاح سوى سلاح المسافر.. وهم فى الأشهر الحرم، التى لا يحل فيها القتال وفى البيت الحرام، الذى لا يجوز فيه القتال! وأمام خشية المسلمين

هذه من غدر المشركين ونقضهم عهد الحديبية.. نزلت الآيات التى تمضى «الإذن» بالقتال ردا للعدوان حتى ولو كان ذلك عند البيت الحرام وفى الشهر الحرام لقد ظل التكليف عند حدود «الإذن» مع إضافة حله عند البيت الحرام وفى الشهر الحرام مادام القتال ردًا للعدوان! ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠ – ١٩٤].

فأمام عدوان المشركين، ونقضهم العهد، واستحلالهم حرمة الشهر الحرام والبيت الحرام على المؤمنين قتال الذين أخرجوهم من ديارهم، واجتهدوا فى فتنتهم عن دينهم دونما تحرج من «الحرمات» ذلك أن (الحرمات قصاص) وفى القصاص حياة لأولى الألباب!

بل وأكثر من ذلك. فإننا عندما نتأمل آيات «القتال» فى سورة «براءة» – التوبة. تلك التى يرجف المغرضون فى دعاوى انتشار الإسلام بسيف الجهاد فيقولون إنها تشرع لنشر الإسلام بالسيف، وإنها لذلك قد خلت من «البسملة» حتى لا تفتتح بذكر «الرحمن الرحيم»! حتى آيات القتال فى هذه السورة نراها تأمر المسلمين بقتال من نقض العهد وغدر بالمواثيق دون الذين استقاموا على عهدهم، رغم أنهم مشركون؟! فهى تشرع للفتح حتى يعود المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم إلى تلك الديار. وحتى ينال الناكثون للعهود ما يستحقون من القصاص والتأديب.. وحتى تأمن الدعوة الإسلامية غدر هؤلاء الناكثين.. فما فى آيات هذه السورة– عن القتال– لا علاقة له «بالعدوان» إلا من حيث كونه ردًا له! ولا علاقة له من ثم بنشر «الدين» عن طريق «القتال» ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ

يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ١ – ٧] . ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة : ١٢–١٥].

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

[البقرة : ١٩٠ – ١٩٤].

٧٧ الجهاد فى سبيل الله (٤)

مناسبة فتح مكة سنة ٨ هـ

وهكذا، فرغم أن المناسبة كانت محاطة بنضج الظروف السياسية لفتح المسلمين لمكة، وهو الفتح الذى يمثل «عودة» المهاجرين إلى الوطن الذى «أخرجوا» منه قسرا وظلما وعدوانا.. ورغم ما يمثله هذا «الفتح» من شرط ضرورى لتأمين الدعوة الإسلامية وضمان حرية دعاتها فى شبه الجزيرة العربية، بالقضاء على البؤرة المشركة المحركة للقوى المناوئة للدين الجديد.. رغم كل ذلك، فلقد ظل الأمر الإلهى للقتال فى سورة التوبة محكومًا بالمنهج الإسلامى الأصيل للجهاد أن لا عدوان إلا على المعتدين الظالمين الناكثين للعهود!

وحتى عندما جاء نصر الله والفتح.. ودخلت مكة فى الدولة الإسلامية لم يفرض رسول الله ﷺ «الإيمان الدينى» على أهلها بسيف الجهاد.. وإنما خطبهم سائلا

- **ما تظنون أنى فاعل بكم؟!**

فأجابوه وهم الذين صنعوا به وبأصحابه وبدعوته ما صنعوا - أجابوه

- أخ كريم وابن أخ كريم!

فقال لهم عليه الصلاة والسلام

- **اذهبوا فأنتم الطلقاء!**

فأين هو نشر الإسلام بالسيف.. الذى يرجف به المرجفون؟!

إن ملابسات القضايا التى تثار والأفكار التى تلقى هى مما يساعد على فهم طبيعة ومقاصد هذه القضايا والأفكار.. وكذلك معرفة حظ هذه القضايا والأفكار من الصدق والموضوعية والاتساق..

والأمر الملحوظ فى ملابسات الدعاوى التى زعمت أن «نشر الإسلام بالسيف هو فريضة كفائية على المسلمين كافة» هو ارتباط هذه الدعاوى - التى أرادت تشويه حقيقة الجهاد الإسلامى - بالقرون التى شهدت الغزوة الاستعمارية

الغربية الحديثة لعالم الإسلام واحتواء الاستعمار الغربى لأوطان المسلمين.. فاتساقا مع الاحتلال العسكرى.. والنهب الاقتصادى والاستلاب الحضارى.. جاء تشويه «الجهاد الإسلامى» لصرف المسلمين عن استخدامه أداة للتحرر من الاستعمار وسبيلا لرد العدوان!

وفى الوقت الذى كان نفر من المستشرقين يصنعون ذلك..كانت الفرق المارقة التى صنعها الاستعمار على عينه من مثل «الأحمدية» فى الهند و«البابية» و«البهائية» فى فارس تنكر شرعية ومشروعية الجهاد!

لقد كان الخوف من إحياء المسلمين لهذه الفريضة التى ضمنت للمسلمين – عندما أحيوها – العزة التى كتبها الله لذاته ولرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

لقد كان الخوف من إحياء الجهاد الإسلامى وراء كل هذه الادعاءات!

فبالجهاد يحافظ المسلمون على مقومات الحياة الإسلامية ومقاصدها، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد!**» رواه الترمذى.

فهو سياج الحفاظ على مقومات الحياة لأنه سبيل القصاص من المعتدين وفى القصاص الحياة!

وأخيرًا.. فإن الجهاد فى الإسلام ليس مرادفًا للقتال.. بل هو أوسع من القتال بكثير حتى ليمكن أن نقول إن ٩٩٪ من ميادين الجهاد هى ميادين سلمية.. فهو بذل الوسع واستفراغ الجهد فى أى ميدان من ميادين الإصلاح: إصلاح النفس، وإصلاح الواقع.. وإصلاح الاجتماع. فمجاهدة النفس جهاد.. ومجاهدة الشيطان جهاد.. والعلم والتعليم جهاد.. وعمران الأرض وتنمية المجتمع بالمعنى الشامل جهاد.. وبر الوالدين جهاد.. والرفق بالإنسان.. وبالحيوان.. والنبات.. والبيئة والطبيعة جهاد.. والحج والعمرة جهاد..

ولذلك كان الجهاد بهذا المعنى الشامل فرض عين على كل مسلم ومسلمة أن يبذل جهده فى أداء الأمانة التى حملها كإنسان لعمران هذه الأرض.. أما الجهاد الذى هو فرض كفاية فهو القتال دفاعًا عن حرية الاعتقاد وحرية الوطن الذى هو الوعاء لإقامة الدين وحياة الإنسان.

٧٨ عن الشهادة.. والاستشهاد (١)

«الشهيد».. اسم من أسماء الله الحسنى، لأنه - سبحانه وتعالى- عالم الغيب والشهادة.

والغيب: هو ما بطن وخفى.. أما الشهادة: فهى ما ظهر.. فهو - سبحانه - الشاهد المشاهد.. والذى يشهد على خلقه يوم القيامة بما علم وشاهد منهم.

ولقد سمى المؤمن، الذى يقدم روحه فداء لله «ودينه» وأمة رسوله - ﷺ - ودار الإسلام، شهيداً؛ لأنه يشهد ويشاهد مكانته فى الجنة فى ذات اللحظة التى تنبثق من جسده أول قطرة من الدماء! وفى الحديث النبوى الشريف، قال رسول الله - ﷺ - «للشهيد عند الله ستة خصال: يغفر له أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنساناً من أقاربه» رواه ابن ماجه.

ولهذه الحقيقة، قرر القرآن الكريم أن الشهداء ليسوا أمواتاً وإنما هم أحياء عند ربهم يرزقون فرحون بهذه الحياة الخالدة التى صاروا إليها- بعد الحياة الفانية- لأن شهودهم وشهادتهم ومشاهدتهم لمكانتهم فى الجنة لحظة انبثاق أول قطرة دم من أجسادهم، معناه أن حياتهم الخالدة قد بدأت فى ذات اللحظة التى بدأوا فيها المغادرة لحياتهم الفانية والتحول عنها.. فحياتهم موصولة ليس فيها أى انقطاع ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١]

لقد تفردوا بمشاهدة مكانتهم فى الجنة - دار الخلد- قبل مغادرتهم دار الفناء.. ومن ثم تفردوا بتجاوز الموت، عندما أفضت حياتهم الدنيا - الفانية- إلى حياتهم الأخرى- الباقية - فى جنات النعيم، ولأن الإسلام يريد الإنسان ربانياً ، يتسامى على الجانب الطينى فى خلقه وخلقته، ليصعد وينطلق من

الجانب الروحي الذي نفخه الله فيه من روحه – سبحانه وتعالى – فلقد دعا الإسلام هذا الإنسان إلى الارتفاع والارتقاء بحياته وخلقه وسلوكه من درك الحيوانية إلى آفاق التخلق النسبي والممكن بأخلاق الله وصفاته – المطلقة – ومنها صفة الشهيد فالتخلق بأخلاق الله بمعنى السعي على درب اكتساب الممكن من صفاته – سبحانه – هو سبيل التسامي بالإنسان.

وفي هذا المعنى يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ – ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ – ١١١١م] «إن كمال العبد وسعادته [هي] في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه ومن لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى فهو مبخوس الحظ، نازل، ليس يحسن به أن يتبجح بما ناله. فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع التي يدرك بها الأصوات، وهذه رتبة يشارك البهيمة فيها. وأما فهم وضعه في اللغة فلا يستدعي إلا معرفته العربية وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي، بل الغبي البدوي. وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها وهذه رتبة يشارك فيها العامي بل الصبي. فإنه بعد فهم الكلام إذا ألقي إليه هذه المعاني تلقاها وتلقنها واعتقدها بقلبه وصمم عليها.. ومن حظوظ المقربين من معاني أسماء الله الحسنى.. استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقربوا بها من الحق قربًا بالصفة لا بالمكان. فيأخذوا من الاتصاف بها شبهًا من الملائكة المقربين عند الله تعالى ولن يتصور أن يمتلئ القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنًا للمستعظم بكماله، فإن لم يكن بكماله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة.. فبالسعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها يصير العبد ربانيًا أي قريبًا من الرب تعالى..»

تلك هي ثقافة المسلم وتلك هي آفاق المثل الإسلامية، حيال التخلق بمعاني صفات الله وأسمائه الحسنى ومنها صفة الشهيد، فحتى يكون المسلم شاهدًا على الناس.. ومشاهدًا لمقعده من الجنة لابد أن يسعى لبذل جهده ووسعه بما في ذلك الروح والدم ليكون من الشهداء الأحياء الفرحين عند ربهم في جنات الخلود.

٧٩ عن الشهادة.. والاستشهاد (٢)

ولأن الإسلام دين ودنيا وآخرة.. وفرد وجماعة وأمة.. ودين ودولة ونظام واجتماع.. ولأن مقاصد الشريعة الإسلامية لم تقف فقط عند حفظ الدين.. وإنما أضافت إليه حفظ النفس.. والعقل.. والعرض.. والمال.. فلقد فتح الإسلام أمام المسلم أبوابًا كثيرة وواسعة للشهادة والاستشهاد.. فكل ميادين الحفاظ على الدين.. والنفس .. والعقل.. والعرض.. والمال.. هي ميادين للشهادة.. والمقبلون على بذل النفوس والأرواح فيها هم الشهداء الأحياء عند الله الفرحون بما أعد لهم مولاهم في دار الخلود وجنات النعيم.

ولقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**» (رواه الترمذي) وأول الناس دخولا في الجنة هم «**الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره**» (رواه الإمام أحمد).

فالتضحية بالنفس في جميع ميادين الحفاظ على مقاصد الشريعة - الدينية والدنيوية هي أبواب للشهادة والاستشهاد، تفضي إلى الحياة الحقة الخالدة للشهداء في جنات النعيم..

بل إن هذه الميادين - ميادين الشهادة والاستشهاد التي يحافظ بها المسلم على مقاصد الشريعة الإسلامية - إنما تتسع وترحب بتعدد وتنوع لوازمها وضروراتها..

فالحفاظ على الدين لا يقف عند التمكن من الاعتقاد.. والعبادات.. وإنما يمتد ليكون النظام الحاكم والمحقق لسعادة الدنيا والآخرة..

والحفاظ على النفس لا يقف عند صيانة حياة الأفراد، وإنما يمتد ليشمل كل ما يحقق فاعلية الأنفس والأمم والشعوب وعزتها وكرامتها وحرياتها .

والحفاظ على العقل لا يقف عند صيانته من السكر والجنون. وإنما يمتد ليشمل كل الميادين والعلوم والفنون والآداب التى تصون العقل والقلب عن التدنى والانحطاط.

والحفاظ على العرض لا يقف عند الحريم الفردى، وإنما يمتد إلى صيانة جميع الأعراض من كل ما ينتهك حرماتها.. بل وحياءها..مسلمة كانت تلك الأعراض أم على غير الإسلام من المعتقدات..

والحفاظ على المال لا يقف عند صيانة ما فى الحوزة من الأموال والثروات وإنما يمتد إلى سائر الميادين التى يتحقق بها العدل الاجتماعى بين الناس.. كل الناس.. فى ذلك يقول العلامة ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ - ٤٥٦هـ =٩٩٤ - ١٠٦٤م]: «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك، وإن لم تقم الزكوات بهم، ولا فيء أموال المسلمين بهم فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل [زيادة] عن صاحبه لمسلم أو ذمى.. وله أن يقاتل عن ذلك فإن قتل فعلى قاتله القود [الدية] وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه مانع حقا، وهو طائفة باغية قال تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق وبهذا قاتل أبوبكر الصديق، رضى الله عنه-مانع الزكاة..».

فالاستشهاد فى ميادين تحقيق العدل الاجتماعى داخل فى ميدان صيانة النفس كمقصد من مقاصد شريعة الإسلام.

- بل إن تكامل هذه الميادين- على اتساعها- ليبلغ الحد الذى جعل فيه الإسلام صيانة النفس بتحقيق ضروريات حياتها - الشرط لإقامة الدين وهو المقصد الأول لشريعة الإسلام! وفى ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا. فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليها إلا:

- بصحة البدن.

- وبقاء الحياة.

- وسلامة قدر الحاجات من:

(أ) الكسوة.

(ب) والمسكن.

(جـ) والأقوات.

(د) والأمن.

ولعمري! إن من أصبح آمنًا في سربه معافًى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها. ولا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة؟! فإذن، بان أن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين.»

فكل ميادين الصلاح الدنيوى هى ميادين لصلاح الدين، وجميعها مقاصد للشريعة الإسلامية والجهاد فيها أبوابه مشرعة للشهادة والاستشهاد.

٨٠ عن الشهادة.. والاستشهاد (٣)

ولهذه الحقيقة ربط القرآن الكريم القتال المشروع، الذى هو ميدان للشهادة والاستشهاد بالحفاظ على حرية الدين والتدين كى لا يفتن المؤمن فى دينه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وبالحفاظ على حرية الوطن الذى هو الوعاء الضرورى لإقامة الدين والشرط اللازم لكماله واكتماله.. والذى بدون حريته لا يتم الحفاظ على مقاصد الشريعة الأخرى: النفس.. والعقل.. والعرض.. والمال.. ولذلك بدأ «الإذن» فى القتال زمن البعثة النبوية للحفاظ على حرية الدين.. وحرية الوطن، منعًا للفتنة فى الدين.. وللإخراج من الديار ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وكان «الأمر» بالقتال خاصا بذلك أيضًا: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢].

وكذلك كان «فرض القتال وإيجابه» مقصورًا على هذه الأغراض: حماية الدين من الفتنة وحماية الوطن من العدوان -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٦، ٢١٧]

فالإخراج من الديار، والفتنة فى الدين هما سبب الأمر بالقتال والإيجاب لهذا القتال وكذلك كانت معايير الموالاة والمعاداة مع الآخرين- كل الآخرين - ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

هكذا وقفت مقاصد القتال عند حماية حرية الدين والتدين.. وحرية الوطن الذى هو الوعاء الضرورى لإقامة كامل الدين.. واتسعت ميادين الشهادة والاستشهاد لتشمل كل ميادين الجهاد، الذى هو بذل الوسع واستفراغ الجهد فى كل ميادين الصلاح والإصلاح..

ولهذه الحقيقة حقيقة أن حرية الوطن هى الشرط لحرية الدين والتدين. كانت صيانة الحرية لدار الإسلام بابا عظيمًا وواسعا من أبواب الشهادة والاستشهاد..

إن كثيرين من الجاهلين أو الغافلين يقفون اليوم عاجزين عن استيعاب مكانة ثقافة الشهادة والاستشهاد فى النسق الفكرى الإسلامى، تلك التى جعلت وتجعل «ناشئة الليل» يذيقون الفرعونية الجديدة كئوس المنية فى ساحات الجهاد الإسلامى على امتداد ديار الإسلام التى عدت عليها عاديات آلات الحرب الصليبية الصهيونية.. إنهم عاجزون عن فهم قول الشهيد- سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] وعاجزون عن فهم مكانة الوطن فى ثقافة الشهادة والاستشهاد الإسلامية.. فالوطن عندهم «تراب» بينما هو فى الإسلام «الوعاء الضرورى لإقامة الدين وكل مقاصد شريعة الإسلام».

٨١ عن الشهادة.. والاستشهاد (٤)

لقد جعل الإسلام حرية الوطن مرادفة ومساوية للحياة ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالإخراج من الديار، كالإخراج من الحياة: إعدام! تقابله الحياة المتمثلة فى حرية المواطن، التى لا تتحقق إلا فى وطن حر!

وإذا كان الإخراج القسرى من الديار إعدامًا.. فإن التفريط فى حرية الوطن هو موت لهؤلاء المفرطين حتى ولو ظل الجانب الحيوانى منهم «حيا» يأكلون به ويشربون! ذلك أن ذهاب منعتهم، وذوبان ذاتيتهم وهويتهم فى الغزاة هو موت حكمى، لا يعوضه بقاء الجانب الحيوانى لهؤلاء الذين فرطوا فى حرية الأوطان..

ولقد أبدع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فى تقرير هذه الحقيقة التى رفعت حرية الوطن إلى مرتبة الحياة.. وجعلت الخروج منه بالتفريط فى حريته موتا ومواتا. فقال - فى تفسيره قول الله - سبحانه وتعالى - فى سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٢٤٣ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤].

فقال الأستاذ الإمام: «تلك سنة الله - تعالى - فى الأمم التى تجبن فلا تدفع العادين عليها.. وحياة الأمم وموتها فى عرف الناس جميعهم معروف، فمعنى

موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها وذهبت جامعتها فكل من بقوا من أفرادها خاضعون للغالبين ضائعون فيهم، مدغمون فى غمارهم، لا وجود لهم فى أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم ومعنى حياتهم: هو عودة الاستقلال إليهم..

إن الجبن عن مدافعة الأعداء وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار هو الموت المحفوف بالخزى والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هى الحياة الملية المحفوظة من عدوان المعتدين..

والقتال في سبيل الله.. أعم من القتال لأجل الدين لأنه يشمل أيضا الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا أو أراد العدو الباغي إذلالنا،والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا في ديننا.. فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد فى سبيل الله. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين...».

فالحفاظ على حرية الوطن هو حفاظ على الوعاء الذى بدونه لا يمكن أن تقيم كامل دين الإسلام. فانتهاك حوزة الوطن هو المعادل للفتنة فى الدين كلاهما يوجب الجهاد القتالى لتحرير الضمير وتحرير الديار..

ولأن الإسلام هو الإحياء للقلوب.. وللأوطان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

كانت ثقافة المقاومة والشهادة والاستشهاد هى السبيل إلى حياة الفرد والأمة والحضارة.. وبهذه الحقيقة التى تجسدت منذ صدر الإسلام دينا وأمة ووطنا، حقق المسلمون – وسيظلون – العزة الإسلامية التى شاء الله – سبحانه وتعالى – أن تكون من عزته.. ومن عزة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]

وإذا كانت آلة الحرب الباغية والمدمرة للفرعونية الصليبية تحاول وأد اليقظة الإسلامية المعاصرة واغتيال حرية دار الإسلام، فإن ثقافة الشهادة والاستشهاد ثقافة [ناشئة الليل] هى التى تحقق الآن واحدة من أعظم معجزات الإسلام على امتداد أرض المواجهة بين أمة الإسلام وبين فراعنة القرن الواحد والعشرين ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

٨٢ فى التدافع بين الحق والباطل

إذا كان عمر الإسلام قد أكمل الآن أكثر من أربعة عشر قرنا فلقد أمضى المسلمون أغلب هذا العمر فى مواجهة التحديات التى فرضها عليهم الغرب والحضارة الغربية!

فالقرن الأول من عمر الإسلام قضاه المسلمون فى فتوحات تحرير الشرق من الاحتلال البيزنطى الذى امتد من القرن الرابع قبل الميلاد- غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٣ق.م] - وحتى القرن السابع للميلاد.

وما إن أوشك القرن الحادى عشر الميلادى على الرحيل، حتى عاد الغرب تحت أعلام الصليب - فى الحملات الصليبية المتعددة - ليقيم الدول والإمارات الاستيطانية فى قلب العالم الإسلامى على امتداد قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١م] وإبان هذه الغزوة الصليبية أقام الغرب النصرانى بقيادة البابوية مع الوثنية التترية حلفًا ضد الإسلام وأمته وعالمه!

وفى العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى نجح الغرب فى اقتلاع الإسلام من الأندلس عندما سقطت غرناطة (٨٩٧ هـ - ١٤٩٢م) وليبدأ حرب القرون الخمسة من يومها وحتى الآن للالتفاف حول العالم الإسلامى ثم غزو قلب هذا العالم، واحتلال واحتواء أقاليمه وأقطاره.. وفى هذه الغزوة أيضًا استعان الغرب باليهودية بل وبالمادية والإلحاد.. فى الصراع مع الإسلام والمسلمين!

ولقد تميزت هذه «الدورة» من دورات هذا الصراع «الحضارى - التاريخى» بدخول «الفكرة» جبهة من جبهات هذا الصراع عندما نهض «التبشير التنصيرى» و«الاستشراق السياسى» و«الغزو الفكرى» بأدوار رئيسية على ثغرات هذه الجبهة الفكرية فى الميدان الواسع والممتد لهذا الصراع.

ورغم تعدد أدوات الفكر الغربي ومدارسه ومناهجه، ومنطلقاته، فلقد اتفقت مؤسساته ومذاهبه على اعتبار الغرب عند النظر إلى الإسلام – هو «المعيار» الذى يتم الوزن والقياس بالنسبة إليه.. وهو «المطلق» ونحن «النسبى».. وهو «المركز» ونحن «الهوامش.. والأطراف»!

فإسلامنا «هرطقة نصرانية»! وحضارتنا «ساعى بريد» نقل علوم الإغريق إلى الأوربيين المحدثين، وشرقنا «أدنى» أو «أقصى» أو «أوسط» بحسب موقع أجزائه من «المركز الأوربى»!

لكن هذا الادعاء الغربي لم ينجح فى إخفاء مخاوفه من الإسلام وحضارته ولا فى التغطية على حجم هذه المخاوف التى لم يستشعر الغرب مثلها، بل ولا بعضا منها تجاه غير الإسلام من الديانات والحضارات.

فالخبرة التاريخية قد جعلت الغرب يرى فى الإسلام «تقنير الإحياء والتحرير» للشرق من قبضة الهيمنة والاستغلال الغربيين.. إن فى التاريخ القديم، أو الوسيط أو حتى هذه اللحظات!.. والتدافع الحضارى علم الغرب أن الحضارة الإسلامية هي المنافس الحضارى الوحيد – على الساحة العالمية – لحضارته الغربية.. فحضارات الهند والصين واليابان حضارات «محلية» لا تمتلك العطاء الحضارى الصالح للاستلهام فيما وراء حدود أوطان هذه الحضارات ولذلك فإن منافسة أممها للغرب لا تتعدى مزاحمة «مصانع» و«مراكز إنتاج» فى «سوق الاقتصاد».... وليس هكذا حضارة الإسلام، المالكة لوسطية التوازن والعدل المفتقدة فى الصيغة الحضارية الغربية، تلك التى تفتح لها أبوابًا حتى فى قلوب الشعوب الغربية ذاتها، وعلى النحو الذى يجعل الغرب يخشاها لا كمجرد «منافس» وإنما «كبديل»!

ولهذه الخصوصية من خصوصيات الصراع بين الغرب والإسلام وحضارته وأمته وعالمه كان اهتمام الغرب «بالثغور الفكرية» على جبهة هذا الصراع.

فالاستشراق القديم مثل «الثغرة الفكرية» فى جبهة الزحف الغربى على ديار الإسلام، وأعان بامتلاك مفاتيح التعامل مع العقل المسلم – أعان دوائر الاستغلال الاقتصادى والاحتلال العسكرى على إلحاق الشرق بالغرب، واليوم، وأمام فشل «النخب العلمانية» المحلية التى صنعها الغرب على عينه.. وصاغ عقولها ومناهجها وتوجهاتها وخياراتها وفق مذاهبه وفلسفاته – .. أمام فشل

هذه «النخب العلمانية» فى الحفاظ على ثمرات التحرر الوطنى وفى إقامة المشروع الحضارى المستقل تتعاظم ظاهرة الإحياء الإسلامى، وتتقدم قواها لتنهض بالدور الذى فشلت فيه النخب العلمانية: تحرير الأوطان.. واستخلاص الثروات.. وأيضا استرجاع الهوية.. واستكمال إسلامية الفكر والواقع وبعث الحضارة الإسلامية كنموذج متميز فى التقدم والنهوض والتجديد.. الأمر الذى أبرز دور الإسلام فى المواجهة مع الغرب من جديد.. والذى استنفر «العقل الاستشراقى الغربى» فوظف مراكز أبحاثه ودراساته وجامعاته ومعاهده وكنائسه لدراسة ظاهرة الإحياء الإسلامى محاولاً تطويقها وإجهاض مشروعها وتزييف الوعى بحقيقتها استنفارا لشعوبه كى تتخذها عدوا، وصرفا لشعوبنا عن السير فى طريق هذا الإحياء!

★ ★ ★

وإذا كان الباطل قد استنفر قواه لتزييف الوعى بحقيقة ظاهرة الإحياء الإسلامى، فإن على قوى الحق إعمالا لسنة التدافع الفكرى والحضارى أن تواجه «الكلمة الخبيثة» بـ«الكلمة الطيبة» حتى يذهب «الزبد» جفاء ويبقى ويمكث ما ينفع الناس!

٨٣ صراع له تاريخ! (١)

انطلاقا من القرآن الكريم يرى المسلمون ويريدون هذا العالم «منتدى» ثقافات.. وحضارات.. وشرائع.. وملل.. ونحل.. وفلسفات.. وأمم وشعوب وقبائل.. وأجناس وألوان.. ولغات وقوميات..

ويريد المسلمون لأعضاء هذا «المنتدى الإنسانى» «التفاعل» فيما هو مشترك إنسانى عام «والتمايز» فيما هو من الخصوصيات الثقافية والعقدية والفلسفية وذلك لتحقيق مقاصد التعارف والتعايش والتعاون على البر والتقوى فى القيام برسالة الاستخلاف الإلهى للإنسان كى يعمر هذه الحياة الدنيا. طلبًا للسعادة الأخروية فيما وراء هذه الحياة..

هكذا يرى المسلمون العالم، ويريدونه، انطلاقًا من الآيات المحكمة فى القرآن الكريم..

■ فالواحدية والأحدية هى فقط للذات الإلهية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

■ والتنوع والتمايز والتعدد والاختلاف، سنة إلهية كونية لا تبديل لها ولا تحويل فى سائر عوالم المخلوقات والشرائع والثقافات والحضارات والأفكار والفلسفات.. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

■ وهذا التنوع والاختلاف.. وهذا التعايش والتعارف والتعاون بين المختلفين هو فى الرؤية الإسلامية للعالم الشرط الأول للتسابق والتدافع على طريق التقدم والارتقاء والخيرات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ

أمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨]. ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

■ وهذا التنوع والتسابق على طريق التقدم والخيرات هو النقيض «للصراع» الذى يفضى إلى أن يصرع طرف الطرف الآخر فينتهى التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧،٨].

■ وفى هذا «المنتدى الإنسانى» للحضارات العالمية يرى المسلمون - انطلاقا من القرآن الكريم - أن التكريم الإلهى إنما هو لمطلق الإنسان.. لكل بنى آدم وليس وقفًا على جنس أو لون أو حضارة أو ثقافة أو أبناء دين من الأديان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وفى التسابق والتدافع على طريق التقدم والارتقاء تكون التقوى وليست الصفات اللصيقة - العنصرية - هى معيار التفاضل بين الأفراد والجماعات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

تلك هى الفلسفة القرآنية المكونة لرؤية المسلمين للكون والعالم والإنسانية والوجود «فهم يرون العالم ويريدونه منتدى أمم وشعوب وثقافات وحضارات وشرائع، تتوازن بينها «المصالح» - لا «القوى» - وتتعارف وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان».

■ وبسبب من هذه الفلسفة - وثمرة من ثمراتها - لا يتحقق الإيمان الإسلامى إلا إذا آمن المسلم بكل الكتب السماوية، وبكل النبوات والرسالات والشرائع التى تتالت وتوالت على امتداد تاريخ الإنسان: ﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١ - ٥].

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥].

ولهذه الحقيقة الإيمانية تميزت الرؤية الإسلامية بالاعتراف بكل الآخرين، كجزء من ذات الخلق الإلهى الواحد والدين الإلهى الواحد.. والتكريم الإلهى الشامل لكل بنى آدم.. كما تميز هذا الإيمان الإسلامى بإيجابه على المسلمين أن

يمكنوا كل الآخرين من حرية إقامة مقومات تميزهم الدينى والثقافى والحضارى حتى ولو كان هذا الذى يتميز به الآخرون مخالفًا لمقومات الاعتقاد الإسلامى، بل ومنكرًا للاعتراف بالمقومات الإسلامية وحتى لو كان هذا الإنكار فى دار الإسلام!

■ ولم تقف هذه الرؤية الإسلامية عند حدود البلاغ القرآنى، والبيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى.. وإنما بسبب من أن الإسلام قد أقام دولة، وأبدع ثقافة ومدنية، وبنى حضارة، وكون أمة وطنًا، وصنع تاريخًا، بسبب من ذلك وضعت هذه الرؤية القرآنية فى الممارسة والتطبيق فتعايشت وتعارفت وتفاعلت فى دار الإسلام كل ألوان الشرائع - السماوية منها والوضعية - والشعوب والقبائل والأمم.. فقامت الأمة والدولة، منذ فجر الإسلام وحتى الآن، على التنوع فى إطار الوحدة، كما قامت النظرة الإسلامية للعالم على هذا الأساس.

٨٤ صراع له تاريخ! (٢)

ولأن الإسلام، وهو يتطلع إلى «المثال» لا يغفل «الواقع»، فلقد علم أمته كيف تتعامل مع «الواقع» الذى يفرض عليها خلاف هذا «المثال».

فالإسلام يرفض «الصراع» ليحافظ على التنوع والتمايز والاختلاف.. وهو يقرر- ربما دون كل الفلسفات- أن القتال ليس القاعدة وإنما هو الضرورة المفروضة والاستثناء المكروه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

ومع ذلك فهو يوجب على المسلمين النهوض والجهاد لصد العدوان على مقومات تميزهم الدينى، وعلى وعاء أمتهم وثقافتهم وحضارتهم - الوطن الذى يعيشون فيه - فإذا فرض الآخرون المواجهة على المسلمين وإذا قاتلوهم فى دينهم أو أخرجوهم من ديارهم وأوطانهم، أو ظاهروا على إخراجهم من الديار.. فهنا يتعامل المسلمون مع «واقع» المجابهة والمواجهة والصراع والعدوان والقتال الذى يفرضه عليهم الآخرون، وفق التوجيه القرآنى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

★ ★ ★

بهذه الرؤية القرآنية، وهذه الفلسفة الإسلامية في رؤية العالم، وفي التعامل مع ما يفرض على المسلمين من مواجهات وتحديات يجب أن يتعامل المسلمون- اليوم- مع التحديات التي يفرضها الغرب على الإسلام وأمته وثقافته وحضارته وعالمه، كما تعامل أسلافهم- تاريخيًا- مع نظائر وأشباه هذه المواجهات والتحديات.. لا طمعا في إزالة هذا الغرب المعتدي من الوجود، أو طموحًا إلى الحلول محل حضارته وثقافته ومقومات نموذجه.. فهذا علاوة على عدم إمكانه - هو مما يرفضه منطق الإسلام وفلسفته في التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف كسنة إلهية كونية دائمة ومطردة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وإنما الهدف هو رد العدوان عن مقومات الإسلام وعن ديار الإسلام وصولا إلى تمكين الإسلام والمسلمين من العيش والتعايش الحر مع الآخرين كل الآخرين ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

بهذا الموقف المنطلق من هذه الفلسفة تعامل المسلمون - تاريخيا- مع التحديات التي فرضها الغرب على الشرق فكسروا شوكة موجات العدوان التي قام بها الغزاة الغربيون على ديار الإسلام..

■ فالغرب الإغريقي و«الروماني» قد فرض على الشرق احتلال الأرض ونهب الثروات وقهر الديانات والثقافات عشرة قرون من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م] في القرن الرابع قبل الميلاد إلى هرقل [٦١٠ - ٦٤١م] في القرن السابع للميلاد- فكانت الفتوحات الإسلامية تحريرًا لضمائر الشرقيين من هذه الفتنة في الدين ومن القهر الثقافي والحضاري وتحريرًا للأوطان والثروات من هذا العدوان والاحتلال والنهب والاستغلال..

■ ولأن هذا الغرب - كمشروع استعماري طامع في الشرق وثرواته.. وفي احتواء ثقافات شعوبه وحضاراتها لتأبيد الاحتلال والاستغلال فلقد اعتبر تحرير الإسلام للشرق من القهر «الروماني - البيزنطي» بداية «لمشكلة» هذا الغرب المزمنة مع الشرق الإسلامي - كما قال القائد والكاتب الإنجليزي الجنرال «جلوب باشا» [١٨٩٧ -١٩٨٦م]:

«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن الرابع الميلادي»!!! فلقد كانت عيون المطامع الاستعمارية الغربية موجهة دائمًا وأبدًا إلى محاولات

استعادة الهيمنة الغربية على ديار الإسلام.. وإلى كسر شوكة المقاومة عند المسلمين، المتمثلة في الإسلام.

وعبر هذا التاريخ من التحديات تكسرت على أرض الشرق الإسلامي موجات وموجات من العدوان الغربي حتى لقد تحول الشرق الإسلامي إلى مقبرة لموجات وإمبراطوريات الغزاة الغربيين.

■ فالموجة الاستعمارية الصليبية التي شاركت فيها كل أوربا بقيادة الكنيسة الكاثوليكية وتمويل المدن التجارية الأوربية، وسيوف فرسان الإقطاع الأوربيين، والتي دامت قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١م] قد انتهت بالهزيمة المنكرة، عندما اقتلعت الفروسية الشرقية الأيوبية المملوكية قلاعها وهدمت حصونها وأزالت كل آثارها.

■ والموجة التترية التي جاءت إلى الشرق الإسلامي، بدعوة من الصليبيين الذين تحالفوا مع الوثنية التترية ضد الإسلام، والتي عاثت فسادًا ودمارًا ضرب بهما المثل في التاريخ وذلك عندما دمرت الثقافة وأسالت الدماء أنهارًا.. هذه الموجة التترية قد ذاقت الهزيمة في عين جالوت (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) ثم انتهت بدخول التتر في الإسلام وتحولهم إلى سيوف للإسلام!

٨٥ صراع له تاريخ! (٣)

■ ومنذ سقوط غرناطة، ونجاح الصليبية الأوربية فى اقتلاع الإسلام وحضارته المشرقة من الأندلس [٨٩٧هـ - ١٤٩٢م] بدأت مرحلة جديدة فى هذه الحرب الاستعمارية - الصليبية «ضد الشرق والإسلام».

بدأت بالالتفاف حول العالم الإسلامى، واحتلال أطرافه الآسيوية.. ثم ثنت بغزو قلب العالم الإسلامى - الوطن العربى- منذ الحملة الفرنسية التى قادها «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣ -١٧٩٨م].

وإبان هذه المرحلة، تميز التحدى الغربى الحديث عن الحقبة الصليبية الأولى بالغزو الفكرى المصاحب لاحتلال الأرض ونهب الثروة.. وهو تحد لم يكن موجوداً فى الحقبة الصليبية الأولى، التى قادتها كنيسة جاهلة، وفرسان إقطاع، صدق فيهم وصف الأمير الفارس الكاتب «أسامة بن منقذ» [٤٨٨ - ٥٨٤هـ = ١٠٩٥ - ١١٨٨م] عندما قال عنهم: «إنهم بهائم ليس لديهم سوى فضيلة القتال».

ذلك أن الغزوة الغربية الحديثة قد جاءت مسلحة بأدوات النهضة الأوربية الحديثة وإنجازاتها الفكرية، بالرأسمالية الإمبريالية وبالليبرالية الرأسمالية.. وبالثقافة العلمانية.. وبالفلسفة الوضعية والمادية اللادينية - فمثلت - مع احتلال الأرض ونهب الثروة - غواية التغريب للعقل والتبعية فى الثقافة.. بل حتى التنصير فى الدين، ذلك الذى حاوله المنصرون.. مثلت الغزوة الغربية الحديثة كل ذلك فى ديار الإسلام!

وإبان هذه الموجة الممتدة حتى صورتها المعاصرة: «عولمة» الإمبريالية الأمريكية المتحالفة مع العنصرية الصهيونية.. مثل الشرق الإسلامي مقبرة الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية - الإنجليزية والفرنسية وأشباه الإمبراطوريات مثل البلجيكية.. والبرتغالية.. والهولندية.. والإسبانية. فطوت المقاومة وحركات التحرر الوطنى الإسلامية صفحات هذا الاستعمار، وإن بقى

التحدي التغريبي يقاوم اليقظة الإسلامية والمشروع الحضاري الإسلامي حتى هذه اللحظات.

■ ومنذ نهاية الحرب الاستعمارية العالمية الثانية (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م) بدأت حقبة القيادة الأمريكية، المتحالفة مع العنصرية الصهيونية لمحاولات الغرب التاريخية احتواء الشرق الإسلامي ومغالبة المقاومة الإسلامية لهذا الاستعمار وهذا الاحتواء.

ولأن الأمريكان هم «رعاة بقر» بلا تاريخ! فلقد كرروا ويكررون المحاولات الفاشلة التي مرت بها الإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية في التعامل مع الإسلام والحضارة الإسلامية عبر ذلك التاريخ.

وإذا كانت «القوة الأمريكية» قد تدرجت وتصاعدت في التعامل مع الشرق الإسلامي من «سياسة القوة» إلى «غطرسة القوة» حتى وصلت بعد سقوط الشيوعية، والانفراد بقيادة «النظام» العالمي إلى مرحلة «جنون القوة» فإن تعاملها مع الإسلام قد تدرج - هو الآخر- من محاولة «استغلال الإسلام» إلى أن وصلت الآن إلى «إعلان الحرب داخل الإسلام».

وعن المرحلة الأولى - مرحلة الاستغلال الأمريكي للإسلام - كتب المرحوم الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٦م] في كتابه [أمريكا من الداخل] سنة ١٩٥١م: «إن الإسلام الذي يريده الأمريكان، وحلفاؤهم في الشرق ليس هو الإسلام الذي يقاوم الاستعمار وليس هو الإسلام الذي يقاوم الطغيان، ولكنه فقط الإسلام الذي يقاوم الشيوعية، إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم، ولا يطيقون من الإسلام أن يحكم لأن الإسلام حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى، وسيعلم الشعوب أن إعداد القوة فريضة، وأن طرد المستعمر فريضة، وأن الشيوعية كالاستعمار وباء، فكلاهما اعتداء.. الأمريكان وحلفاؤهم إذن يريدون للشرق «إسلاما أمريكانيا» يجوز أن يستفتى في منع الحمل، ويجوز أن يستفتى في دخول المرأة البرلمان، ويجوز أن يستفتى في نواقض «الوضوء» ولكنه لا يستفتى أبدا في أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالي ولا يستفتى أبدًا في أوضاعنا السياسية والقومية، وفيما يربطنا بالاستعمار من صلات، فالحكم بالإسلام والتشريع بالإسلام والانتصار للإسلام لا يجوز أن يمسها قلم، ولا حديث ولا استفتاء في مذهب الأمريكان!»[١]

(١) د. جابر قميحة «سيد قطب والإسلام الأمريكاني» صحيفة آفاق عربية في ٢٠٠١/١٢/٢٧ وهو ينقل عن مجلة (الرسالة) ١٩٥١، ١٩٥٢م - التي نشر بها سيد قطب أجزاء من مخطوطة كتابه.

٨٦ صراع له تاريخ! (٤)

■ فلما سقطت الشيوعية.. وانتهت المرحلة التي حاولت فيها أمريكا استغلال الإسلام في حربها ضد الشيوعية كما استغلت المسيحية وكنائسها في ذات الحرب - بذات المرحلة ورأت أمريكا أن الإسلام يحث الخطا في إيقاظ أمته، لا لتحرير الأرض والثروة فقط، كما هي حدود «الوطنية العلمانية» في بلادنا وإنما تريد اليقظة الإسلامية تحرير العقل المسلم من التغريب، وبعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، بدأت أمريكا مرحلة «الحرب داخل الإسلام» كي يظل كما أرادته - في مرحلة «استغلاله» - مجرد شعائر وعبادات ورسوم وطقوس ودروشات وشعوذات، وذلك حتى يقف أثره - مثل النصرانية في ظل العلمانية - عند مملكة السماء، والخلاص الروحي وعالم الغيب والدار الآخرة تاركًا عالم الشهادة ودنيا المسلمين وأوطانهم وثرواتهم للهيمنة الأمريكية والعلو الصهيوني وعولمة الشركات متعددة الجنسيات وعابرة القارات!

ولقد تحدث الرئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون» وهو مفكر استراتيجي عن هذه اليقظة الإسلامية التي يقودها- في العالم الإسلامي- من أسماهم «الأصوليون الإسلاميون» الذين - كما يقول: «هم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»!

ودعا «نيكسون» إلى اتحاد الغرب - الأمريكي «والأوربي» - والروسي - لمواجهة هذا البعث الإسلامي، وإلى «تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة: ليكون «نموذج تركيا العلمانية المنحازة نحو الغرب والساعية إلى ربط

المسلمين بالغرب سياسيًا واقتصاديًا.» وذلك حفاظًا على مصالح الغرب في الشرق الأوسط لأن أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل.. وإن التزامنا نحو إسرائيل عميق جدا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق! نحن مرتبطون معهم ارتباطا أخلاقيا.. ولن يستطيع أي رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل»

ولقد أفصح «نيكسون» عن الموقف الأمريكي الذي اتخذ الإسلام والمسلمين عدوًا، عندما قال: «إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين.. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة حتى بالنسبة للصين الشيوعية - في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب.. متضادان. وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيبوليتيكية متطرفة.. وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة.. وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب.. وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو ليواجه الخطر العدواني للعالم الإسلامي»(١).

كل هذا الذي كتبه «نيكسون» بالطبع كان قبل قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م وبنحو خمسة عشر عاما! بل وكان ما كتبه استشرافًا للمستقبل.. مستقبل الحرب الغربية- بقيادة أمريكا - المعلنة على الإسلام منذ سقوط الشيوعية.. والتي تصاعدت بعد ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م واجتمعت فيها على الإسلام القوى الغربية التي تحدث عنها «نيكسون» منذ ذلك التاريخ!

(١) نيكسون: (الفرصة السانحة) ص ٢٨، ١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٥٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩. ترجمة أحمد صدقي مراد - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م

٨٧ صراع له تاريخ! (٥)

■ وهذا الذى خطط له «نيكسون» قبل سقوط الشيوعية، نظرت له وعللت لأسبابه مجلة «شئون دولية» التى تصدر فى «كمبردج»- بإنجلترا فى يناير سنة ١٩٩١م- عقب سقوط الاتحاد السوفيتي مباشرة عندما تحدثت عن «الأفكار الرائجة فى الغرب حول الإسلام والعالم الإسلامي».. وعندما عللت لإعلان الغرب أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية وتحدثت عن الأسباب الثقافية لهذا العداء وهذا الإعلان للحرب على الإسلام.. ففى «الملف» الذى نشرته المجلة ومن خلال دراستين علميتين رصينتين إحداهما عن «الإسلام والمسيحية» كتبها العالم البارز «إدوارد مورتيمر» وثانيتهما عن «الإسلام والماركسية» كتبها عالم الأنثروبولوجيا «إرنست جيلنر» قالت المجلة: «لقد شعر الكثيرون - فى الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول.. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي للثقافة الغربية ذلك أن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع والتى تقول إن المجتمع الصناعى العلمي الحديث يقوض الإيمان الديني- مقولة العلمنة - صالحة على العموم.. فالتأثير السيكولوجي للدين قد تناقص عمليا فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة.. لكن عالم الإسلام قد مثل استثناء مدهشا وتاما جدا من هذا، فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام.

إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية وهى بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من ١٠٠ سنة مضت إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعا ما، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحا فى ظل مختلف النظم السياسية وإن وجود تقاليد محلية للإسلام قد مكن العالم الإسلامى من أن يفلت من معضلة تقليد

العلمانية الغربية.. وإن عملية الإصلاح الذاتي استجابة لدواعي الحداثة يمكن أن تتم باسم الإيمان المحلي، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرعوقة للعلمنة.. وإن أوربيين كثيرين يتساءلون: عما إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني، مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؛ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحي الغربي الذي يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها في ديمقراطية علمانية..».

هكذا حددت هذه الدراسة العلمية لمجلة «شئون دولية» أن استعصاء الإسلام على العلمنة، وعلى التحول إلى صورة من النصرانية الغربية، التي اكتفت بما لله وتركت ما لقيصر لقيصر بعد سلسلة من الصراعات الكثيرة والطويلة والمؤلمة؛ حدث أن هذا الاستعصاء الإسلامي على التبعية الفكرية والثقافية للغرب هو السبب في اتخاذ الغرب من الإسلام عدوًا، بعد سقوط الشيوعية وهدفًا مباشرًا للحملة الغربية الجديدة على الإسلام!

كل ذلك كتب وأعلن.. ووضع في التطبيق على أرض البوسنة والهرسك سنة ١٩٩٢م – في ذكرى ٥٠٠ عام على سقوط غرناطة واقتلاع الإسلام من أوربا سنة ١٤٩٢م – أي قبل قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م بأكثر من عشر سنوات! وقبل ظهور الحركات التي يزعم البعض أنها المسئولة عن عداء الغرب للإسلام.

وإذا كان المفكر الأمريكي «فرانسوا فوكوياما» قد كتب قبل سنوات عديدة من قارعة سبتمبر عن الليبرالية الرأسمالية الأمريكية [المتوحشة] باعتبارها «نهاية التاريخ الإنساني» والنموذج الذي يجب تعميمه في كل أرجاء العالم، بما فيه العالم الإسلامي فلقد كتب بعد قارعة سبتمبر عن: «الحداثة التي تمثلها أمريكا والغرب والتي ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية.. وعن مبادئ الغرب التي ستستمر في الانتشار عبر العالم..».

وكتب عن استعصاء الإسلام وحده على الخضوع لهذه الحداثة الأمريكية، والقبول بهذه المبادئ الغربية «التي تلقى قبولاً كبيرًا لدى الكثيرين من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها بينما الإسلام هو الحضارة الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الغربية.

فالعالم الإسلامى لا يرفض فقط السياسات الغربية وإنما يرفض المبدأ الأكثر أساسية للحداثة الغربية وهو العلمانية نفسها.. وإن الصراع الحالى ليس معركة ضد الإرهاب ولكنه ضد الأصولية الإسلامية التى تقف ضد الحداثة الغربية.. وهذا التحدى بالنسبة لأمريكا وهو أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية.. وإن التطور الأهم يجب أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، وعلى المجتمع الإسلامى أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية».

فعلمنة الإسلام ومن ثم إلحاق الإسلام بالنصرانية الغربية، لإلحاق العالم الإسلامى بالغرب هو الهدف الأول المعلن فى كتاب «نيكسون» قبيل سقوط الشيوعية وفى دراسة مجلة «شئون دولية» فور سقوط الشيوعية.. وفى كتابات «فوكوياما» قبل قارعة سبتمبر وبعدها!

٨٨ صراع له تاريخ!(٦)

■ وإذا كان الكاتب الاستراتيجي الأمريكي - اليهودي - «صموئيل هنتجتون» قد كتب عقب سقوط الشيوعية فكشف عن واقع ممارسة الغرب لصدام الحضارات، وصراع الثقافات وأشار على صانع القرار الأمريكي أن يبدأ مسلسل صدام الحضارات بالحرب على الإسلام، لتميز ثقافة الإسلام عن الثقافة الغربية. ودعا إلى ما دعا إليه «نيكسون» من تحالف كل مراكز الغرب في هذه الحرب الحضارية، لتكريس الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية الغربية على العالم فلقد عاد وكتب «هنتجتون» بعد قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م داعيًا إلى «حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة»[١]!!

تلك هي حقيقة القضية وهذا هو سبب التحدي.. وجوهر المواجهة التي فرضها الغرب ويفرضها على الإسلام وأمته وعالمه وثقافته وحضارته ومنظومة قيمه، عبر هذا التاريخ الطويل من الصراع، الذي كتبه الغرب على الإسلام وأمته.. وفرضه علينا ونحن كارهون.

وكما قاتل المسلمون، امتثالا لأمر ربهم، عندما كتب عليهم القتال الذي يكرهون فلقد وجب الدفاع عن الإسلام الذي اتخذه الغرب عدوًا لا لشيء إلا لاستعصائه على العلمنة التي يريدون فرضها على المسلمين، لتكريس تبعيتنا للحضارة الغربية.

لقد علمنا رسولنا ﷺ فلسفة الموقف إزاء مثل هذه التحديات التي يفرضها علينا الأعداء، الذين يرون في «الصراع» سر البقاء.. بل ويرون أن الأقوى هو الأصح الذي يستحق وحده البقاء! علمنا رسولنا ﷺ فلسفة الموقف إزاء هذه

(١) انظر دراسات «فوكوياما» و«هنتجتون» في العدد السنوي من «نيوزويك» الأمريكية - ديسمبر ٢٠٠١م، فبراير سنة ٢٠٠٢م.

المواجهات، عندما قال لأمته: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية. لكن إذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله» رواه الدارمي..

فإذا فرضت علينا التحديات والمواجهات، فلابد من الثبات في مواجهة هذه التحديات.. ولابد للذين يرابطون على ثغور الإسلام من الإكثار من ذكر الله، أي إخلاص العبودية لله، ومن ثم رفض جميع الطواغيت التي تفرض علينا التحديات، وتعلن الحرب على الإسلام وتطمع في تغيير طبيعة الإسلام.

★ ★ ★

وإذا كان الفقه هو «الفهم» «والوعي» فإن للانتصار في هذه المواجهة على هذه التحديات «فقهًا» تحتاجه الأمة بمختلف فصائلها، وعلى اختلاف ميادين هذه المواجهة بين الغرب والإسلام.

ففقه سنن هذه المواجهة هو الوعي الذي ينير للأمة المسالك والدروب وهي تخوض هذه المواجهات التي فرضها عليها الأعداء.

ولقد علمنا رسول الله ﷺ منذ اللحظة الأولى التي دعا فيها قومه إلى الإسلام «إن الرائد لا يكذب أهله» ومكانة العلماء وأهل الفكر من الأمة هي مكانة الرواد والقادة المرابطين على ثغور الإسلام، ينيرون لأمتهم دروب الجهاد، بالفكر الذي هو من أمضى الأسلحة في بعث الطاقات وحشد الإمكانات.. فالمعركة التي فرضها علينا الأعداء هي - بالدرجة الأولى - معركة «إرادة» في الصمود والانتصار.. وبهذه «الإرادة» تكون «الإدارة» التي ترتب البيت وتعظم الإمكانات.

ولربما قادنا هذا الاستعداد - بصمود الإرادة الواعية.. والإدارة التي تعظم الإمكانات - إلى الموقف الذي يجعل الأعداء يراجعون مواقفهم الظالمة من الإسلام فيستجيبون إلى الكلمة السواء.. أن يكون عالمنا «منتدى» حضارات وثقافات وأمم وشعوب ولغات وقوميات وأجناس وألوان، تتعايش وتتعارف وتتفاعل وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

★ ★ ★

٨٩ جوهر الصراع العربى - الصهيونى

فى أى صراع من الصراعات، وأية مشكلة من المشكلات، هناك أهمية كبرى لأن تظل ذاكرة الأمة واعية بحقيقة وطبيعة المشكلة والصراع.. وذلك حتى لا ينجح الخصم - كما هو حادث الآن فى القضية الفلسطينية والصراع مع المشروع الصهيونى - حيث سحب اليهود أطرافًا عربية كثيرة إلى تفاصيل وفروع وجزئيات- بل ومتاهات لا علاقة لها بجوهر المشكلة وطبيعة الصراع. حتى كاد هذا المنهاج اليهودى أن ينسى هذه القطاعات العربية حقيقة وجوهر هذا الصراع.

إن مشكلتنا - فى هذا الصراع المعقد والمركب والتاريخى - لم ولن تكون مع «اليهودية» التى جاء بها موسى عليه السلام، فنحن نؤمن باليهودية رسالة سماوية من رسالات السماء، بل لا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بها كمعلم من معالم طريق الدين الإلهى الواحد، وشريعة متميزة لبنى إسرائيل.

ومشكلتنا - كذلك - ليست مع «توراة موسى» فقرآننا الكريم يعلمنا أنها تنزيل إلهى، فيها هدى ونور: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

ومشكلتنا - أيضا - ليست مع «الإنسان اليهودى» فحضارتنا الإسلامية هى التى جعلت من تعددية الشرائع والملل والشعوب والقبائل والأمم والأجناس والألوان والألسنة واللغات والقوميات والمناهج والثقافات والحضارات سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل.. ووضعت هذه السنة الإلهية فى الممارسة والتطبيق قرونًا طوالاً، تمتع فيها اليهود بكنف الحضارة الإسلامية وأحضانها كما لم يحدث لهم فى أى وطن من الأوطان أو حضارة من الحضارات، فأثروا وتأثروا، وفتحت أمامهم كل ميادين التفاعل الحضارى، حتى غدت فلسفتهم فرعا

من الفلسفة الإسلامية، ولاهوتهم متأثرًا بعلم الكلام الإسلامي، وعروض شعرهم متأثرًا بعروض الشعر العربي، وأجرومية عبريتهم متأثرة بأجرومية العربية.. فاستظلوا ، لأكثر من عشرة قرون، بمظلة التعددية، في إطار الأمة الواحدة، وحراسة المبدأ الإسلامي: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» الذي لم تصل إلى مستوى سموه حضارة من الحضارات الأخرى حتى الآن!

إذن.. فمشكلتنا ليست مع اليهودية الدين.. ولا مع التوراة وشريعتها. ولا مع اليهود.. وإنما مشكلتنا هي مع «الصورة التلمودية لليهودية» تلك التي نسخت ومسخت توحيد اليهودية، فحولته إلى وثنية أحلت «يهوه» محل الله ثم جعلته إلهًا لبنى إسرائيل وحدهم، من دون الشعوب الأخرى، التي جعلت لها آلهتها المغايرة والمتعددة!

ومشكلتنا – أيضًا – هي مع «اليهودية الصهيونية» التي جردت اليهودية من «عموم الدين» وجعلتها ذروة «العنصرية» عندما عرفت اليهودي بأنه: هو المولود من أم يهودية، وجعلته – بحكم وحق – «الولادة البيولوجية» من شعب الله المختار، حتى ولو كان ملحدًا أو ابن زنا.

ومشكلتنا – كذلك– هي مع «المشروع الصهيوني» الذي تبنى – أواستثمر – عنصرية «اليهودية» التلمودية ووظف إمكانات الجماعات اليهودية في «الشركة» التي دعت إليها الإمبريالية الغربية في مرحلة زحفها الاستعماري الحديث على وطن العروبة وعالم الإسلام: لأن هذا المشروع الصهيوني ذو طبيعة استيطانية، تناقض وتنفي الوجود الوطني والعربي والإسلامي في فلسطين وما حولها، وذو وظيفة إمبريالية غربية، تجعل من الكيان الصهيوني جسمًا غريبًا – وغربيا – مزروعا بالقسر في قلب وطن أمتنا يقطع وحدة أرضها ويجهض محاولات نهوضها ويتصدى بالعداء لصيغة يقظتها، قومية كانت تلك الصيغة أو إسلامية.

فنحن – في هذا الصراع – بإزاء «مشروع استيطاني» عنصري غربي النشأة والطبيعة والمقاصد، تبلور أول ما تبلور في «اللاهوت البروتستانتي» الغربي، انطلاقًا من الفكر الأسطوري حول «رؤيا يوحنا» وعودة المسيح – عليه السلام – ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة، بعد معركة «هرمجدون»، والذي جعل من جمع اليهود وحشرهم في فلسطين، وتهويد القدس، وإقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.. أي جعل من تحقيق العلو والهيمنة الصهيونية دينا

يتدين به البروتستانت في الغرب.. ثم حدث التبشير بهذا المشروع الديني بين الجماعات اليهودية.. فتلقفته الصهيونية - كحركة قومية عنصرية - والإمبريالية الغربية - إبان زحفها على الشرق الإسلامي وبحثها عن أقليات توظفها كمواطئ أقدام، في المشروع الاستعماري ومن هنا، فلقد اجتمعت في المشروع الصهيوني الذي نصارعه الآن على أرض فلسطين، عناصر متعددة ومركبة منها: البعد الديني في لاهوت النصرانية الغربية.. والبعد الإمبريالي الغربي، الذي جعل من الكيان الصهيوني رأس حربة في قلب وطن أمتنا. والبعد العنصري اليهودي الذي تغذيه القومية الصهيونية وأولى أوليات الذاكرة العربية الإسلامية أن تظل واعية بجوهر الصراع وذلك حتى لا تنسى الجوهر، وتغرق في الفروع والهوامش والتفاصيل!

٩٠

البعد الدينى فى الصراع العربى - الصهيونى

للصراع العربى- الصهيونى بعد دينى، يمثل «ثابتًا» من ثوابت اللاهوت الغربى، ويكسب كل يوم المزيد من «المؤمنين» والعديد من الكنائس.. ومحور هذا البعد الدينى قائم على أسطورة «رؤيا يوحنا» التى حولتها البروتستانتية من «رؤيا» و«مجاز» إلى حقيقة فزعمت أن عودة المسيح - عليه السلام- ليحكم العالم ألف سنة سعيدة- قبل يوم القيامة- مرهونة بجمع اليهود وحشرهم فى فلسطين وتهويد القدس، وبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وإبادة العرب والمسلمين فى معركة «هرمجدون».

وإذا كان هذا البعد الدينى للمشروع الصهيونى - فى اللاهوت الغربى- قد بدأ بروتستانتيا، فإنه قد مارس الابتزاز للكنيسة الكاثوليكية الغربية، حتى جعلها تشرع فى «تهويد نصرانيتها» بدلا من تحقيق الاعتراف اليهودى بالمسيحية! فهى - الآن- تسعى لتجعل «يهوه» إلهها! وتتحدث عن «دمج المسيح فى إسرائيل»! وتعدل، ليس فقط «الفكر المسيحى» وإنما فى «الأناجيل.. والصلوات»! لتصل إلى طلب «الغفران» من اليهود بعد أن ظلت قرونًا طويلة تبيع لأتباعها «صكوك الغفران»! بل إن هذا البعد الدينى - فى الفكر الغربى - للصراع حول فلسطين والقدس، لم يكن وقفا على لاهوت الكنائس الغربية وإنما تعداه إلى الأيديولوجيات التى حركت جيوش الحكومات الغربية «العلمانية». فتمثال السياسى الإنجليزى «سيكس» الذى عقد مع نظيره الفرنسى «بيكو» المعاهدة السرية - الشهيرة - التى مزقت أوصال المشرق العربى سنة ١٩١٦م - معاهدة «سيكس بيكو» - تمثال هذا السياسى فى قريته «سلدمير» بمقاطعة «يوركشاير» مكتوب عليه: «ابتهجى يا قدس»!

فتمزيق أوصال الوطن العربي – من قبل الاستعمار «العلماني» – هدفه: القدس!

والجنرال الإنجليزى «اللنبى» عندما يدخل القدس سنة ١٩١٧م على رأس جيشه الاستعمارى– يتقمص صورة «بابوات» الحروب الصليبية ويعبر عن أحلام الملك الصليبى «ريتشارد قلب الأسد» فيقول «اللنبى» «اليوم، انتهت الحروب الصليبية»!

ويومئذ، نشرت مجلة «بنش» Punch الإنجليزية رسما «كاريكاتوريا» لريتشارد قلب الأسد وهو يقول «أخيرا تحقق حلمى» وذلك تحت عنوان: «آخر حملة صليبية»! فالاستعمار «العلمانى» سنة ١٩١٧م يحقق أحلام الملوك الصليبيين فى العصور الوسطى!

أما الجنرال الفرنسى «جورو» الذى يرفع راية العلمانية الفرنسية المتطرفة فهو الذى يذهب عند دخوله دمشق سنة ١٩٢٠ م إلى قبر صلاح الدين الأيوبى، ليركله بحذائه، ويقول: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين».

فالبعد الدينى لهذا الصراع – حول القدس وفلسطين– قائم وحيٌ ومتأجج فى الفكر الغربى اللاهوتى منه والعلمانى، التاريخى منه والحديث والمعاصر لنا حتى هذه الأيام.

ومع هذا البعد الدينى– الذى يغذى العدوان على القدس وفلسطين– ويجعل هذا العدوان شرطًا لتحقيق مقاصد لاهوتية –عودة المسيح– هناك البعد الإمبريالى الغربى– بعد المقاصد الاستعمارية الغربية فى نهب الشرق، والسيطرة عليه، وإذلال العرب والمسلمين، وإخضاع حضارتنا العربية الإسلامية للنموذج الحضارى الغربى– وهو البعد الذى يوظف «البعد اللاهوتى» فى خدمة الاستعمار العلمانى!

- ثم يأتى بُعد «الشريك الأصغر» فى هذا التحالف الشيطانى.. البعد العنصرى اليهودى ذلك الذى تغذيه القومية الصهيونية التى استثمرت وتستثمر كل ألوان التعصب والأحقاد التى طفحت بها أسفار «التلمود» ضد «الأغيار» من غير اليهود!

هكذا.. وعلى هذا النحو يجب أن تظل ذاكرة الأمة واعية بالأبعاد الحقيقية والجوهرية لهذا الصراع، فحتى الذين يرفعون شعار: إنه صراع وجود،لا صراع حدود.. إذا هم غفلوا – فى الحديث عن «وجود العدو»– غفلوا عما وراء وفوق

«الوجود الصهيوني» فإنهم لن يروا سوى «الفرع» الصهيوني دون الأصل الغربى الإمبريالى فى هذا الصراع!

فالمشكلة التى نواجهها فى هذا الصراع- ذات طابع دينى وبعد لاهوتى بدأ فى البروتستانتية الغربية وها هو يزحف ليضم لها الكاثوليكية الغربية.. لتتلقفه الحركة الصهيونية التى دعمته «باليهودية التلمودية» لتوظف الجماعات اليهودية - بالتلمود- فى خدمة هذه «الشراكة» فى المشروع الإمبريالى الغربى ضد وطن العروبة وعالم الإسلام.

فعلى العقل العربى والمسلم.. وعلى الأمة العربية والإسلامية أن تدرك أبعاد الصراع الذى تخوض حتى لا تنسى الجذور.. والثوابت - وتغرق فى الفروع والهوامش - وحتى تصطفى من إمكاناتها ما يوازى أبعاد الخطر المحدق والمحيط!

٩١ من الملاحدة.. إلى المؤمنين بالأساطير!

بسبب من الطبيعة المركبة للصراع العربي - الصهيوني، فلقد عمل ويعمل في خدمة هذا المشروع - على الجبهة المعادية - لاهوتيون وملاحدة! ومتدينون وعلمانيون! ووضعيون ودهريون مع من ينتظرون عودة المسيح! وأيضًا، أعداء لليهود ولما يسمى بالسامية، أرادوا تهجير اليهود من المجتمعات الغربية إلى أرض فلسطين لتوظيفهم في خدمة المشروع الغربي الاستعماري كراهة في اليهود، وتخلصًا من مكرهم وسيطرتهم الاقتصادية على المجتمعات الغربية واستخدامًا لهم في الهيمنة على أمة الإسلام وحضارته! وهذه الطبيعة المركبة لهذا المشروع - الذي نواجهه في فلسطين - هي التي جمعت بين «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] - وهو وضعي دهري، لا يؤمن بأي دين - عندما ارتاد ميدان الدعوة إلى هذه «الشراكة» الإمبريالية - اليهودية، فأعلن نداءه إلى يهود العالم كي يساعدوه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية في الشرق لقاء «إعادتهم» إلى أرض فلسطين! فكتب وهو محاصر لمدينة «عكا» سنة ١٧٩٩م: «أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد.. إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن، حاملة إرث إسرائيل.. يا ورثة فلسطين الشرعيين إن الأمة الفرنسية تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»!

، جمعت هذه الطبيعة المركبة لهذا المشروع، بين «بونابرت» الدهري الملحد - وبين الكنائس البروتستانتية الغربية التي رأت في تحقيق رغبة الدهري «بونابرت» الشرط لعودة المسيح - عليه السلام - كي يحكم العالم ألف سنة سعيدة!

ومع الدهريين.. والعلمانيين والبروتستانت اجتمع في خدمة هذا المشروع الصهيوني - الإمبريالي - الكاثوليك الغربيون أيضًا.. وذلك عندما عقدت الكنيسة الكاثوليكية معاهدة الاعتراف بالأمر الواقع - أي اغتصاب القدس وفلسطين -

في ٣١-١٢- ١٩٩٣م وتحدثت في مقدمة هذه المعاهدة عن «العلاقة الفريدة بين الكاثوليكية والشعب اليهودي»! حتى لقد تحدث البابا يوحنا بولس الثاني عن القدس بمناسبة «سنة الفداء» في ٢٠-٤-١٩٨٤م فقال: «منذ عهد داود الذي جعل أورشليم عاصمة لمملكته، ومن بعده ابنه سليمان الذي أقام الهيكل ظلت أورشليم موضع الحب العميق في وجدان اليهود، الذين لم ينسوا ذكرها على مر الأيام وظلت قلوبهم عالقة بها كل يوم، وهم يرون المدينة شعارًا لوطنهم»!

ومع الدهريين.. والعلمانيين والبروتستانت.. والكاثوليك.. انضم الكونجرس الأمريكي - الذي تهيمن عليه أيديولوجية «التحالف المسيحي» - المعبرة عن «المسيحية - الصهيونية» ليقرر- ١٩٩٥م نقل السفارة الأمريكية عن «تل أبيب» إلى «القدس» حيث تبنى على أرض الأوقاف الإسلامية المغتصبة! معلنا - هذا الكونجرس - في مقدمة قراره هذا «أن القدس هي الوطن الروحي لليهودية»!

مع أن القدس لم تعرف في كل تاريخها - ولم يعرفها- نبي اليهودية موسى - عليه السلام - ولا نزلت فيها توراتها! وحتى داود وسليمان- عليهما السلام- اللذان عاشا فيها لمحة من التاريخ هما في عرف اليهودية التلمودية، ملوك، وليسا من الرسل ولا من الأنبياء!

فمن أين.. ومتى.. وكيف كانت أو تكون القدس «الوطن الروحي لليهودية»؟!

لقد أضفى الغرب الاستعماري على هذا المشروع الصهيوني طابعًا دينيًا وجعله ضمن مكونات البعد الديني في الحضارة الغربية.. وقدم الكيان الصهيوني باعتباره الامتداد العضوي للحضارة الغربية في الشرق العربي الإسلامي وتحدث عن علاقته بهذا الكيان باعتبارها علاقة أخلاقية واستراتيجية من النوع الذي يعلو على المعاهدات والنصوص المكتوبة!

وعلى هذا الدرب سارت الحركة القومية الصهيونية حتى الفصائل العلمانية والمادية والملحدة منها فتحدث الجميع عن أسطورة وعد الله بأرض فلسطين لنسل إبراهيم الخليل - عليه السلام - ثم احتكروا - بالاغتصاب - ميراث إبراهيم دون الأغلبية من نسله العرب والمسلمين! وتحدثوا جميعًا متدينين وعلمانيين عن أرض التوراة، والوطن التوراتي.. ورفضوا كل البدائل التي عرضت عليهم لإقامة وطن تحل به «المشكلة اليهودية» في أوغندا.. أو كينيا.. أو كندا.. أو أستراليا أو حتى في سيناء.

بل إن الصهاينة العلمانيين حتى هذه اللحظة يطبقون العقوبات التوراتية ضد المجاهدين من أبناء فلسطين. الإبادة وإهلاك الحرث والنسل - بتدمير البنى التحتية حتى للمؤسسات الخيرية والاجتماعية - وسد منافذ المنازل وهدم البيوت!

ففي مواجهة العرب والمسلمين اجتمعت في هذا المشروع كل الملل والنحل والتيارات!

٩٢ الحلف الإمبريالى - الصهيونى.. تراجع أم صعود؟

يخطئ الذين يتصورون أن «وظيفة» الكيان الصهيونى فى المشروع الإمبريالى الغربى - ومن ثم علاقة هذا الكيان بالمشروع الإمبريالى - قد تراجعت أو تخلخلت .. بعد تراجع المشروع القومى العربى الذى ناصبه الغرب كل العداء، أو بعد سقوط المنظومة الشيوعية والمعسكر الشيوعى الذى نهضت الصهيونية وكيانها بدورهما فى ضرب النظم العربية التى تحالفت مع هذا المعسكر الشيوعى .. يخطئ الذين يتصورون تراجع «الوظيفة الإمبريالية الغربية» للكيان الصهيونى، بعد حدوث هذه المتغيرات ويرتبون على هذا التصور - الخاطئ - أحلام السلام مع هذا الكيان الذى يظنونه فى مرحلة الانخلاع من الشراكة الإمبريالية الغربية، والبحث عن الاندماج فى الشرق الأوسط، والتعايش مع دوله وشعوبه!

ذلك خطأ كبير .. ووهم عظيم .. يقفان وراء الاجتهادات الخاطئة التى تحلم بالسلام مع هذا الكيان الصهيونى الاستيطانى .. بدعوى الدخول - دخول هذا الكيان - فى مرحلة جديدة يسمونها «ما بعد الصهيونية»! .. مع أن الذين تحدثوا عن «ما بعد الصهيونية» من المؤرخين الإسرائيليين الجدد - لم يتحدث أى منهم عن تغيير أو إلغاء الاغتصاب الصهيونى للأرض والديار، وإنما وقف حديثهم عند الدعوة إلى الاعتراف بالأمر الواقع، والتسليم بما صنعت الصهيونية بالأرض والمقدسات .. فلسنا بإزاء «إلغاء الصفحة الصهيونية» وإنما نحن بإزاء دعوة إلى تجاوز الحديث عن هذه الصفحة، والتعايش الذى يكرس جريمة الاستيطان والاغتصاب مع الاحتفاظ بالتفوق، والاستعلاء الذى يضمن بقاء الأمر الواقع على ما هو عليه!

ولو أن أصحاب هذا الاجتهاد الخاطئ وعوا حقائق التاريخ، لعلموا أن «الوظيفة الغربية» للكيان الصهيوني أسبق من وجود هذه العوامل التي أصابتها هذه المتغيرات.. فالصهيونية وكيانها موظفان في خدمة الاستعمار والاستعلاء والهيمنة الغربية، في الصراع التاريخي بين الغرب والشرق.. وهو صراع يتحدث التاريخ عن دوراته وصفحاته منذ غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ق.م] لبلادنا، وحتى الآن.. وما الفتوحات الإسلامية.. والحروب الصليبية.. واقتلاع الإسلام من الأندلس.. والالتفاف حول العالم الإسلامي بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م.. والغزوة الاستعمارية الحديثة التي بدأها بونابرت سنة ١٧٩٨م.. إلا محطات وحلقات وصفحات في هذا الصراع الحضاري التاريخي.. الذي بدأ الغرب - منذ حملة بونابرت - يوظف فيه الأقليات اليهودية.. فالوظيفة قائمة قبل القومية العربية ومشروعها.. وقبل الشيوعية ومعسكرها.. وهي مرتبطة بالمشروع الاستعماري الغربي في الأساس.

وإذا كان صعود التوجه الإسلامي - بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م - قد جعل المشروع الإسلامي هو الحامل لمقاصد المشروع القومي، فإن عداء الغرب لهذه المقاصد - الإحيائية.. النهضوية.. التحررية - هو الذي يديم وظيفة الكيان الصهيوني في التصدي لمقاصد المشروع الإسلامي، بل ويتصاعد بدور ومكانة هذا الكيان في المواجهة المعلنة بين الغرب وبين اليقظة الإسلامية المعاصرة.. فحاجة الغرب لدور الكيان الصهيوني تتزايد.. ودعمه لهذا الكيان في اطراد.. والتحالف الاستراتيجي بين أمريكا - طليعة الهيمنة الغربية حالياً - وبين الكيان الصهيوني قد تم وأعلن بعد تراجع المد القومي العربي.. واستمر هذا التحالف الاستراتيجي بعد سقوط المنظومة الماركسية ومعسكرها الشيوعي.

وإذا كان القائد الإنجليزي «جلوب باشا» - الذي عزل من قيادة الجيش الأردني سنة ١٩٥٦م - قد كتب:

«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يرجع إلى القرن السابع للميلاد»!!.. أي إلى ظهور الإسلام.. فإن جوهر العداء الغربي لأمتنا إنما يقوم حول عدائه للحضارة الإسلامية الطامحة إلى تحرير الشرق من الاستغلال الغربي، سواء اتخذ هذا الطموح عنوان «التحرر الوطني» أو «المد القومي» أو «اليقظة الإسلامية».. ومن ثم، فإن «الوظيفة الغربية» للكيان الصهيوني قائمة ما قام هذا الصراع

الحضارى التاريخى .. اللهم إلا إذا ثبت للغرب أن شراكته مع الصهيونية وكيانها هى مصدر خسارة لمصالحه فى علاقاته مع عالم الإسلام.

بل إن الناظر فى صفحات الفكر الصهيونى ومقاصد الكيان الاستيطانى القائم على أرض فلسطين، سيجد هذا الفكر وهذا الكيان يجعلان من «العالم الإسلامى» - وليس فقط العالم العربى - «المجال الحيوى» لهذا الكيان .. سنجد ذلك الموقف ثابتًا فى مخطط هذا الكيان الصهيونى من قبل صعود التيار القومى العربى .. وصعود التيار الإسلامى!

وإذا كانت إسرائيل تعلن «أن الخطر الأكبر الذى يهدد العالم هو الأصولية الإسلامية، وأن التصدى لهذا الخطر هو فى مقدمة أولوياتها» .. فإن المستشرق الصهيونى «برنارد لويس» يخطط ويعلن، منذ عقد الأربعينيات لتفتيت كل العالم الإسلامى - من باكستان إلى المغرب - وليس فقط العالم العربى - من المحيط إلى الخليج - وذلك -بعبارته - «حتى يكون كل كيان من هذه الكيانات - الورقية الفسيفسائية - أضعف من إسرائيل، فتضمن تفوقها» على كل الكيانات الاثنية والطائفية - المتشظية - فى العالم الإسلامى!

ونفس هذا المخطط - المعادى للعالم الإسلامى كله - يعلنه «شارون» سنة ١٩٨١م .. بل وتتحدث عنه بالتفصيل مجلة المنظمة الصهيونية «كيفونيم» باعتباره «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» .. وتعقد له ندوة متخصصة بإسرائيل سنة ١٩٩٢م.

فالغرب يعلن أن الإسلام هو العدو .. والكيان الوظيفى الغربى - إسرائيل - يعلن أن الأصولية الإسلامية هى الخطر الأكبر على العالم .. ومن ثم فإن الشراكة قائمة، ووثاقتها تتزايد لأن العداء الغربى للإسلام هو «الثابت» رغم كل ما يحدث من تغيرات!

٩٣ معاملة الأسرى بين الغرب والإسلام

على مر تاريخ الإسلام، كان للمسلمين فى معاملة الأسرى - إبان الحروب - موقف ثابت ومشهور .. موقف حدده القرآن الكريم، وطبقته السنة النبوية .. والتزم به المسلمون .. حتى عندما خرج عليه أعداء الإسلام .. فالأسير لا يقتل ..والجرحى من الأسرى يعالجون من جراحهم .. وإيثارهم بالطعام على النفس المحتاجة صفة من صفات المسلمين .. ومصير الأسرى إما المن بالحرية والتحرير .. وإما الفداء ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان: ٨، ٩] ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

ولقد التزم المسلمون بهذا الخلق الإسلامى، حتى فى الحروب التى قتل فيها الصليبيون الغربيون آلاف الأسرى من المسلمين .. مدنيين وجنودًا.

حدث ذلك فى عهد صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ - ٥٨٩هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣م] يوم حرر القدس [٥٨٣هـ/ ١١٨٧م] فلم يقتل أسرى الصليبيين الذين سبق وقتلوا سبعين ألفا من أسرى المسلمين عندما احتلوا القدس [٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م]!!

وحدث ذلك أيضًا إبان الحروب الصليبية، رغم قتل الملك الصليبى الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد [١١٥٧ - ١١٩٩م] لآلاف الأسرى المسلمين، عندما غدر بهم بعد أن قطع لهم عهد الأمان!!

وحدث ذلك أيضًا من الملك الكامل الأيوبى [٥٧٦ - ٦٣٥هـ = ١١٨٠ - ١٢٣٨م] عندما حرر مدينة دمياط من الصليبيين [٦١٨ هـ /١٢٢١م] الذين سبق وأبادوا جميع من كان بها من المسلمين - مدنيين وجنودًا!!

وحدث ذلك أيضًا إبان غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] عندما غدر بعهد الأمان الذى قطعه للأسرى المسلمين - من الجيش العثمانى - فى معركة يافا [١٢١٣هـ - ١٧٩٩م].

وتكرر هذا الموقف فى القرن العشرين، إبان الحرب العالمية الأولى .. ففى [سنة ١٩١٥م - ١٣٣١هـ] قاد العالم المسلم بديع الزمان سعيد النورسى [١٢٩٤ - ١٣٧٩هـ = ١٨٧٧ - ١٩٦٠م] كتائب الجهاد العثمانى ضد جيوش القيصرية الروسية، وأتباعها من الأرمن .. فكان الأرمن يغيرون على القرى المسلمة، فيقتلون أسرى المسلمين، بمن فيهم الأطفال .. حتى إن بعض عوام المسلمين ذهبوا إلى معاملتهم بالمثل .. وفى إحدى المرات تجمع آلاف من أسرى أطفال الأرمن، وكاد العوام أن يثأروا منهم بالقتل لهم .. لكن الشيخ النورسى منع ذلك، وقال لهم: «إياكم أن تمدوا أيديكم إليهم بأى أذى» .. ثم أمر بإطلاق سراحهم، وسمح لهم بالذهاب إلى المعسكر الروسى، حيث التحقوا بأهليهم خلف الخطوط الروسية..!!

ولقد كان من آثار هذا الموقف الإسلامى، الذى اتخذه بديع الزمان النورسى، أن حذا الأرمن حذوه، فتخلوا عن رذيلة قتل الأسرى، فى القرى المسلمة التى كانوا يغيرون عليها مع الجيش الروسى .. فحقن الإسلام دماء الأسرى من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء!

وهكذا يصبح الخلق الإسلامى مثالاً حتى للأعداء .. وحتى فى ساحات الصراع والاقتتال!!

٩٤ من هولاكو القديم إلى هولاكو الجديد

الذين يتابعون لغة التهديد والوعيد للإدارة الأمريكية، والتى تريد من العالم الإسلامى الاستسلام للهيمنة .. بل وتريد للقرن الواحد والعشرين أن يكون قرناً أمريكياً .. تسيطر فيه الإمبريالية الأمريكية على مصادر الطاقة، لتتحكم فى موازين القوى الدولية، وليظل العالم بلا قطب ثان ينافسها فى النفوذ.

الذين يتابعون هذه اللغة وهذا الخطاب الذى يصنف الناس إلى «أخيار» هم أمريكا وإسرائيل ومن سار فى ركابهما .. وإلى «أشرار» هم المارقون على هذا الجبروت.. ثم ينظرون إلى تطبيقات هذا الخطاب الأمريكى فى العراق وأفغانستان وفلسطين .. لابد أن يتذكروا النزعة الفرعونية التى جعلت فرعون يقول للذين آمنوا بالله وكفروا بفرعون، و﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ - ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٤].

كذلك.. يتذكر الذين يتابعون لغة الخطاب الأمريكى، ومحاولات الإدارة الأمريكية إضفاء العصمة على جنودها وعلى قراراتها المارقة ضد الشرعية الدولية والإرادة العالمية .. يتذكر المتابعون لهذا الخطاب - أو يجب أن يتذكروا خطاب «هولاكو» [٦١٤ - ٦٦٣ هـ = ١٢١٧ - ١٢٦٥م] الذى وجهه إلى مصر، طالبا منها الاستسلام لجحفل القوة التتارية .. وهو الخطاب الذى خاطب به الملك المظفر «قطز» [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م] فقال فيه:

«إنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه .. ولقد فتحنا بغداد، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها .. فلكم بجميع العباد مُعتبَر، وعن عزمنا مُزدجر، فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، وتندموا على الأخطاء .. فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم

بالهرب، وعلينا بالطلب، فأى أرض تأويكم ؟ وأى طريق ينجيكم؟ وأى بلاد تحميكم؟ إن كنتم فى الجبال نسفناها، وإن كنتم فى الأرض خسفناها، فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وأعدادنا كالرمال، فمن طلب حربنا ندم .. فالحصون معنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لايسمع .. فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم .. ولقد أعذر من أنذر»!!

وإذا كان البعض - يومئذ - قد حسب «أن القيامة قد قامت»!.. كما يحسب ذلك «اليوم» المهزومون المرتعشون أمام لهجة الخطاب الأمريكى.. فإن سنن التاريخ - التى لا تبديل لها ولا تحويل لأنها بعض من سنن الله، سبحانه وتعالى - تقول لنا شيئًا آخر.. تقول لنا إن الدائرة قد دارت على فرعون .. وإن مصر - ومن ورائها الأمة الإسلامية - هى التى أذاقت هولاكو وجيوشه الهزيمة فى «عين جالوت» التى كتبت النهاية للطغيان والطاغوت!!

إن الهزيمة النفسية هى أخطر التحديات التى تواجهها أمة من الأمم إبان اشتداد حدة الصراع بينها وبين الأعداء .. وإن الوعى بالتاريخ، وبسنن التدافع والصراع هو سلاح فعال فى مواجهة خطر الهزيمة النفسية التى يروج لها - فى بلادنا - العملاء والأغبياء!

■ لقد فتح المسلمون الأولون - من الصحابة والتابعين - فى ثمانين عامًا - أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون .. وحرروا الشرق من القهر السياسى والحضارى، بعد عشرة قرون من الاستعمار الرومانى، استمرت فيه من «الإسكندر الأكبر» - فى القرن الرابع قبل الميلاد - إلى «هرقل» - فى القرن السابع للميلاد - وحرروا - مع الأرض - الضمائر، فتركوا الناس وما يدينون، تطبيقًا للمبدأ القرآنى: «لا إكراه فى الدين»..

■ فلما جاء الصليبيون - أواخر القرن الحادى عشر الميلادى - ليعيدوا اغتصاب الشرق من التحرير الإسلامى، كان الفشل الذريع نصيبهم، رغم استمرار حملاتهم البربرية مدة قرنين من الزمان!.. ورغم تحالفهم مع التتر الوثنيين ضد الإسلام!

■ ثم جاءت الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، التى بدأت بإسقاط «غرناطة» سنة ١٤٩٢م .. والتى تحالفت مع الصهيونية اليهودية، لإعادة

اغتصاب الشرق من الإسلام .. وعلى امتداد قرون المواجهة مع هذه الغزوة، أثبت الشرق - تحت رايات الجهاد الإسلامي .. وبثقافة الفداء والاستشهاد - أنه لا يزال مقبرة الإمبراطوريات الغازية، على اختلاف أسماء وأعلام هذه الإمبراطوريات!

■ ومع الوعى بسنن هذا التاريخ .. فإننا بحاجة إلى الوعي بسنن التدافع التى حدثنا عنها القرآن الكريم .. وصدق الله العظيم ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

٩٥ النزعة الصليبية لكولمبس!

الناس يدرسون «كريستوفر كولمبس» [١٤٥١ - ١٥٠٦م] باعتباره «مكتشفًا جغرافيًا» سعى في سنة [٨٩٧هـ / ١٤٩٢م] إلى اكتشاف جزر الهند الغربية، فضلَّ طريقه واكتشف أمريكا.

لكن حقائق التاريخ، ومذكرات «كولمبس» ومراسلاته تكشف عن أن الرجل كان «صليبيًا» سخر حياته لجمع الذهب، كي تجهز إسبانيا حملة صليبية جديدة لاغتصاب القدس وفلسطين من المسلمين .. ولقد كتب «كولمبس» عن هذا المشروع الصليبي - الذي وهب له حياته - كتب إلى ملكي إسبانيا «فرديناند» [١٤٧٩ - ١٥١٦م] و«إيزابيلا» [١٤٧٤-١٥٠٤م] يقول:

«إن فهمي وإدراكي لمسألة استرداد الضريح المقدس بمدينة القدس لصالح الكنيسة المقدسة عسكريًا سوف أقوم بتوضيحه فيما يلي:

لقد ارتحلت إلى كل مكان يمكن الإبحار إليه حتى الآن .. كما ألهمني الرب أن أمثل أمام جلالتكم .. ولقد تجسد الدين والإيمان والإخلاص في جلالتكم.

ولقد أراد ربنا أن يكشف المعجزة الأكثر وضوحًا في تلك الرحلة البحرية باتجاه الهند من أجل أن يواسيني وآخرين عن المسألة المتعلقة باسترداد الضريح المقدس بمدينة القدس.

لقد مكثت سبعة أعوام في بلاطكم الملكي، مناقشًا الأمر مع العديد من الرجال.. إن ما حدث هو الذي سبق أن قال به يسوع المسيح المخلص، وذكره من قبل عبر رسالة المقدسين، ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس لهو أمر سوف يتحقق بالفعل .. لقد قلت إنني سوف أتحدث عن فهمي وإدراكي لمسألة استعادة الضريح المقدس بمدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية، ولهذا فيجب عليّ تنحية جميع رحلاتي البحرية

منذ حداثة سنى، وكذا الأحاديث التى أجريتها مع أناس من ملل وطوائف متباينة فى أراض مختلفة .. وأن أشير فقط إلى الكتاب المقدس وإلى آياته التنبؤية التى قال بها أشخاص يتصفون بالقداسة، والذين - عبر الوحى والإلهام - ذكروا أشياء حول هذا الأمر.

هذا هو ما أردت أن أقوم بكتابته، لتذكير جلالتكم به، ولتشجيع سموكم على القيام بالحملة الأخرى المتعلقة باسترداد مدينة القدس، عبر الرجوع إلى الآيات التنبؤية بالكتاب المقدس، وما دام توافر لدى جلالتكم الإيمان الصادق، فلتكونوا واثقين من إحراز النصر فى مسألة استعادة الضريح المقدس ومدينة القدس . ولقد ذكر الكاردينال «بيير» الكثير عن نهاية المسلمين .. كما أن الأب «يواقيم الفيورى» قد ذكر أن الشخص الذى سيقوم بإعادة بناء الضريح المقدس للمسيح، فوق جبل صهيون بالقدس، سوف يخرج من إسبانيا».

كما كتب «كولمبس» إلى البابا يخبره بأنه قد جمع المال الكافى «لتجهيز خمسين ألفا من الجنود المشاة وخمسة آلاف فارس لفتح الديار المقدسة».

فهل - بعد ذلك - يظل «كولمبس» فى كتبنا المدرسية وثقافتنا مجرد «مكتشف جغرافى»؟!

إن هذه «النصوص - الوثائق» تقول لنا:

- إن عمر الغزوة الغربية الحديثة ليس مائتى عام - منذ غزوة بونابرت سنة ١٧٩٨م - وإنما هو خمسمائة عام - منذ إسقاط غرناطة .. واقتلاع الإسلام من الأندلس سنة ١٤٩٢م .. فلقد بدأت هذه الغزوة بالالتفاف حول العالم الإسلامى، لتنتهى بضرب قلب العالم الإسلامى.
- وإذا كانت الحروب الصليبية قد سبقت هذه الغزوة الحديثة .. وامتدت لقرنين من الزمان [١٠٩٦ - ١٢٩١م] .. فإن عمر هاتين الغزوتين يصل إلى سبعة قرون!
- وإذا أضفنا إلى هذه القرون السبعة عشر من الاحتلال الغربى للشرق - قبل الإسلام - من الإسكندر الأكبر - فى القرن الرابع قبل الميلاد - وحتى «هرقل» - فى القرن السابع للميلاد .. فمعنى ذلك أن الغرب الاستعمارى قد مارس العدوان والنهب والقهر ضد الشرق على امتداد سبعة عشر قرنا، من التاريخ المكتوب لعلاقاتنا معه - وهو أربعة وعشرون قرنا!!

■ وإذا نظرنا اليوم إلى خارطة الواقع، لوجدنا القواعد العسكرية الغربية تغطى أغلب بلاد العالم الإسلامى وشركات النهب الاستعمارى الغربية تنهب ثروات العالم الإسلامي .. وأساطيل الغرب تملأ مياه البحار والمحيطات فى العالم الإسلامى - على حين ليس هناك جندى مسلم على أرض غربية .. ولا سفينة صيد فى المياه الغربية .. إذا نظرنا إلى الواقع الراهن .. ووعينا وقائع التاريخ. فهل يصعب على أحد – منا أو من غيرنا – أن يجيب عن سؤال:

– من هم الإرهابيون .. والمعتدون؟!

٩٦ من عبر التاريخ!

فى الوقت الذى ذبح فيه الصليبيون وأحرقوا جميع من وقع فى قبضتهم من مسلمى القدس .. فى مذبحة دامت سبعة أيام، وحصدت سبعين ألفًا من المسلمين «حتى كلّت أيدى الصليبيين من الذبح» !! - كما يقول المؤرخ النصرانى - رجل الدين - «مكسيموس مونروند» فى كتابه «تاريخ حرب الصليب» اجتذبت غوايتهم قطاعات من نصارى القدس «الذين كانوا يسيرون أمام الصليبيين بدلائل الاحترام والوقار، مرتلين معهم أناشيد الخلاص من الأسر»!!

وسرت هذه الغواية إلى قطاعات من النصارى خارج القدس .. ذلك أن «أخبار الانتصارات التى فاز بها الصليبيون بامتلاكهم هذه البلاد، قد انتشرت بسرعة فى الجهات القريبة إليها .. وهكذا شوهد المسيحيون متقاطرين جموعًا غفيرة إلى أورشليم، من أنطاكية، ومن الرها، ومن تروسوس، ومن كبادوكيا، ومن كيلكيا، ومن بين النهرين، ومن سائر أقاليم سوريا .. فالبعض سكنوا فى أورشليم وما يحوطها، وغيرهم كانوا يزورون الأراضى المقدسة ويعودون إلى بلادهم، والجميع حاصلون على فرح عام، غير فاترين عن تقدمة الشكر لله والتقريظات لشجاعة الصليبيين وانتصاراتهم كجنود محقين ليسوع المسيح الذين - أخيرًا - أنقذوا قبر ابن الله مخلص العالم من أيدى غير المؤمنين».

★ ★ ★

ولقد تكررت صفحة الغواية الاستعمارية من هذه القطاعات من الأقليات النصرانية إبان الغزوة التترية لدمشق [٦٥٨ هـ - ١٢٦٠م] - تلك التى قادها القائد التترى النسطورى «كُتبغا» - وكتب المقريزى [٧٦٦-٨٤٥ هـ = ١٣٦٥ - ١٤٤١م]: كيف «استطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان،

ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب، وصاروا يمرون فى الشوارع إلى كنيسة مريم،ويقفون به، ويخطبون فى الثناء على دينهم، وقالوا جهرًا:« ظهر الدين الصحيح دين المسيح» وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو «كتبغا» فأهانهم، وضرب بعضهم وعظم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم».

ثم يحكى المقريزى كيف أدت هذه الغواية والخيانة إلى ردود أفعال قاسية، وذلك بعد انتصار الدولة الإسلامية على التتار فى عين جالوت [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م] عندما «بادر أهل دمشق إلى دور النصارى فنهبوها وأخربوا ما قدروا على تخريبه».

★ ★ ★

ولقد تكررت هذه الغواية الاستعمارية بالخيانة لشرائح من أبناء الأقليات إبان الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] .. ونجحت هذه الحملة الاستعمارية فى غواية قطاعات من «أراذل القبط» الذين قادهم المعلم «يعقوب حنا» [١١٥٨-١٢١٦ هـ = ١٧٤٥ - ١٨٠١م] الذى يسميه «الجبرتى» [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] «يعقوب اللعين» فجند فيلقًا قبطيًا، تزيا بزى الجيش الفرنسى وأصبح جزءًا من الحملة الاستعمارية، يشارك فى محاربة المصريين وإذلال المسلمين، بل وفى سجن علماء الأزهر الشريف!

وفى تاريخ الجبرتى إشارات كثيرة لمظاهر هذه الغواية والخيانة، التى استفزت أغلبية الأمة، وأحدثت الآثار السلبية فى جسد الوحدة الوطنية .. وفى هذه الإشارات نقرأ - مثلا - «كيف ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود - «اعتمادًا على المستعمر» - فركبوا الخيول، وتقلدوا السيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس، ومشوا بالخيل، وتلفظوا بفاحش القول، واستذلوا المسلمين، مع عدم اعتبارهم للدين، إلى غير ذلك - مما لا يحيط به الحساب، ولا يسطر فى كتاب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

وكيف احتفلوا بانتصار جيش بونابرت فى معركة «غزة» [١٢١٣هـ - ١٧٩٩م] - إبان سعيه لاحتلال الشام «فأظهر النصارى الفرح والسرور فى

الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولايم، وغيروا الملابس والعمايم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة»!

وعندما حل الجنرال «كليبر» [١٧٥٣-١٨٠٠م] محل بونابرت في قيادة جيش الاحتلال عهد إلى المعلم «يعقوب حنا» الذى أصبح «جنرالاً» في الجيش الغازي! «بأن يفعل بالمسلمين ما يشاء فتطاولت النصارى من القبط ونصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكاناً! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»!

الأمر الذى ترك جراحاً غائرة في مجتمع ذلك التاريخ، وخلف رواسب في الكثير من صفحات التاريخ[١] . لذلك فإن الدراما التاريخية تستطيع أن تستدعي صفحات ذلك التاريخ لتتقى عموم البلوى – بلوى الغواية والخيانة لسائر أبناء الأقليات – ولتقول للأقليات المعاصرة – من المسلمين وغير المسلمين » إن الأمن والأمان .. وكذلك الشرف والكرامة، هي في الوحدة الوطنية – والقومية والحضارية .. وليس في التعلق بحبال الغواية الاستعمارية، التي لا مكان لصفحاتها سوى في «مزبلة التاريخ»!

٩٧ ليسوا سواء

لأن الغرب ليس كتلة واحدة صماء .. وليس كلُّ الغربيين ضالعين فى مشروع الهيمنة الغربية على العالم .. والمظاهرات والاحتجاجات ضد العولمة .. وضد الحروب على العالم الإسلامى شواهد على ذلك.

ولأن إسلامنا يعلمنا العدالة التى تتنافى مع التعميم والإطلاق فى الأحكام .. فيتحدث قرآننا الكريم – مثلا – عن أهل الكتاب فيميز بين فرقائهم وفرقهم ومذاهبهم، مستخدمًا صيغ ﴿من أهل الكتاب﴾ [البقرة: ١٠٥]، ﴿كثيرٌ من أهل الكتاب﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿ طائفة من أهل الكتاب ﴾ [آل عمران: ٦٩]، ﴿وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إنّ الله سريع الحساب ﴾ [آل عمرن: ١٩٩] .. وحتى فى حديث القرآن الكريم عن اليهود – قتلة الأنبياء – الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.. والذين هم أشد عداوة للذين آمنوا والذين لعنهم الله لخروجهم عن شريعة موسى، عليه السلام، ولتحالفهم مع الوثنية العربية ضد التوحيد الإسلامى – حتى هؤلاء، لم يعمم القرآن الأحكام عليهم جميعًا، وإنما ميز بين فرقائهم، فقال: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حقٍّ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (١١٢) ليسوا سواء من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين (١١٤) وما يفعلوا من خيرٍ فلن يكفروه والله عليمٌ بالمتقين ﴾ [آل عمران: ١١٢–١١٥].

ولأن إسلامنا يعلمنا العدالة والموضوعية في النظر إلى الآخرين فإن واجب المسلمين أن يقدموا حقائق الإسلام للجماهير الغربية، التى هى ضحية الثقافة

المغشوشة، والفكر العنصرى، والزيف الإعلامى، المتدفق من مراكز قوى الهيمنة الإمبريالية – والذى يغترف فى عدائه للإسلام وتزييفه لحقيقته من مخزون «الذاكرة الصليبية» القديمة – فحاجة هذا الإنسان الغربى – الذى تضلله الأكاذيب الثقافية الموروثة، والتزييف الإعلامى المعاصر، والمؤسسات التى أقامتها الرأسمالية الغربية للكذب – باسم صناعة الصورة وتوجيه الرأى العام – والتى يرتزق أصحابها من «صناعة الكذب» مصداقًا لقول الله سبحانه وتعالى فى قرآننا الكريم: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] .. إن حاجة هذا الإنسان الغربى إلى معرفة حقيقة الإسلام، تفرض على المسلمين الاهتمام بتقديم هذه الحقيقة إلى هذا الإنسان.

وكما يمثل هذا الأمر «حاجة ثقافية .. وضرورة علمية» فإنه يمثل للمسلمين القيام «بفريضة دينية، وتكليف إلهى» فريضة أن ندعو إلى الإسلام بالكلمة الطيبة – التى شبهها القرآن الكريم بالشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] .. وأن نحاور ونجادل طلاب الحقيقة والمحتاجين إليها بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالتى هى أحسن – وليس فقط الحسن ! .. رجاء أن تحل المودة بيننا وبين الذين يناصبوننا العداء، كل هذا العداء: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

فهى فريضة من فرائض الإسلام: أن نبلغ دعوة الإسلام .. ونقيم الحجة على صدق الإسلام .. ونزيل الشبهات عن حقائق الإسلام .. وذلك فضلاً عن أن فى ذلك التحقيق لمقاصد الإسلام فى التعارف بين المسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب والثقافات والحضارات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فمن منطلق العزة الإسلامية، التى أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن تكون من عزته وعزة رسوله، صلى الله عليه وسلم ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] .. ومن منطلق الاعتزاز بالإسلام، الذى يمثل القوة الصاعدة – على النطاق العالمى – رغم حالة الاستضعاف المفروضة على أهله..

ومن منطلق نزع سلاح كُتّاب الإمبريالية والهيمنة «الأمريكية – الغربية» والصهيونية .. وتجريدهم من «حججهم» الزائفة .. ومن منطلق تعريف الذين لا يعرفون حقائق الإسلام، وهو مقصد إسلامي أصيل ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

٩٨ الإيمان العلمانى المنقوص!

فى حديث أجرته إحدى المجلات الشهرية – منذ سنوات – مع قائد إحدى الدول – وهو مسلم، يحكم شعبًا مسلمًا – سألته عن رأيه فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.. فكانت الإجابة التى أدهشتنى، بل وأذهلتنى – حتى تمنيت أن تكون المجلة كاذبة فيما نشرته!.. لكن هذا التمنى قد تبخر، بسبب أن هذه المجلة، ناطقة باسم نظام ذلك المتحدث، وممولة من خزائنه!.. كانت الإجابة المذهلة التى قال فيها:

– **لا .. إن الله فى السماء، ونحن فى الأرض نصنع ما نشاء!!**

وبعد الدهشة .. والذهول .. فكرت فى مضمون هذه الإجابة، فاكتشفت أنها التعبير الدقيق والصريح عن كل الذى يقول به العلمانيون! .. فما العلمانية والعلمانيون إلا الدعوة والدعاة إلى عزل السماء عن الأرض، ورفض التدبير السماوى للاجتماع الإنسانى والعمرانى البشرى حتى إن العلمانيين المؤمنين بالله خالقًا للعالم والإنسان، نراهم يقفون بفعله – سبحانه وتعالى – عند مجرد «الخلق»، منتزعين منه – سبحانه – سلطات الحكم والتدبير والتشريع!

إنه – هذا الذى عبرت عنه العبارة العارية – موقف كل تيارات العلمانية وسائر مذاهب العلمانيين .. فنحن إذا استثنينا «العلمانية – المادية» – التى يتبناها الماديون والدهريون الملاحدة – فإننا سنجد فى العلمانية تيارًا عريضًا يؤمن بالله خالقًا لهذا الكون وما فيه ومن فيه، ويعبد الله بأداء المناسك والشعائر الفردية – التكاليف العينية – وقد يكون منهم ورعون ومتنسكون فى الشعائر والمناسك .. ولكنهم يعزلون الذات الإلهية عن تدبير شئون العمران البشرى، وحكم الاجتماع الإنسانى، قاصرين الحكم والتدبير فى هذه الميادين الدنيوية على «العقل .. والتجريب» وحدهما.. أى: إنهم جاحدون للشريعة، مغايرون للمؤمنين بها الذين يدعون إلى تحكيمها فى كل مناحى الحياة

وهؤلاء العلمانيون – فى موازين الإسلام: هم مؤمنون بالله، خالقًا للكون.. جاحدون به وله كمدبر وحاكم فى شئون الدنيا والدولة والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وغيرها من شئون وميادين الحياة والعمران فهم ليسوا جاحدين لله .. لكنهم ليسوا بكاملي الإيمان .. إنهم مؤمنون ببعض الكتاب وجاحدون لبعضه الآخر!

والحقيقة التى لابد وأن يعلمها هؤلاء العلمانيون – ومنهم جمهور مخدوع لا يعلم هذه الحقيقة – أنهم فى إيمانهم بالله – سبحانه وتعالى – قد زيفت عليهم صورة الإله! .. فنموذج الألوهية الذى يؤمنون به ليس هو النموذج الحق الذى علمنا إياه القرآن الكريم، وبينت لنا صفاته وأسماءه الحسنى سنة رسولنا ﷺ.

نعم، هم يؤمنون بالله .. ويعبدونه .. لكن علمانيتهم قد جعلتهم «يشركون» مع الله «طواغيت» أخرى، جعلوها الحاكمة والمدبرة، دون الله، فى الاجتماع البشرى والعمران الإنسانى .. ذلك أن العلمانية التى تجعل العالم مكتفيًا بذاته عن التدبير الإلهى .. والتى تجعل الإنسان مكتفيًا بعقله وتجربته عن الشريعة الإلهية، إنما تجعل الإنسان سيدا لهذا الكون، بدلاً من أن يكون – كما أراده الله – خليفة لله، يدبر العمران بشريعة الله، التى هى ميثاق عقد وعهد الاستخلاف.

إن فارقًا كبيرًا بين «الماديين – الدهريين» الذين يجحدون وجود الله بإطلاق .. ويقولون – كما عبر عن مذهبهم القرآن الكريم – ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] .. فارقًا بين هؤلاء وبين «المشركين» الذين يؤمنون بالله، لكنهم يعزلونه عن التدبير فى بعض الميادين، ويشركون معه آلهة وطواغيت وشركاء يتحاكمون إليهم فى حكم هذه المساحات والميادين، ويلتزمون بمرجعياتهم فى تدبير شئون هذه المساحات بدلاً من مرجعية الشريعة الإلهية التى تجسد حاكمية الله وتدبيره فى كل ميادين وعوالم الوجود، وفى العمران البشرى والاجتماع الإنسانى على وجه الخصوص.

لقد اصطلح العلمانيون – حتى المؤمنون منهم بالله والدين – على الفصل بين الدين وبين الدولة والسياسة وشئون الاجتماع والعمران .. ودعوا ويدعون إلى شعار «الدين لله والوطن للجميع»، بمعنى جعل الدين شأنًا فرديًا خاصًا، وتحرير الوطن ودولته ومجتمعه من حاكمية الدين .. وذلك على الرغم من أن كلمة «الدين لله» هى بعض من آيات القرآن الكريم! وهى تعنى تحرير الإيمان الدينى من

سلطان الطواغيت، ليكون خالصًا لله! .. وعلى الرغم من أن عبارة «الوطن للجميع» لا تعنى الفصل العلمانى بين الدين والوطن، لأن القرآن هو الذى يجعل الأرض – كل الأرض – للأنام – كل الأنام.

وفى مقابل هذا التفسير العلمانى لهذا الشعار، يرى الإسلام أن الدين لله، وكذلك الوطن لله .. ذلك أن الإيمان الكامل هو الذى يجعل شعار صاحبه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٢– ١٦٤].

ذلك هو الفارق بين الإيمان الكامل – للمؤمنين – وبين الإيمان المنقوص – للعلمانيين!

٩٩ خالق فقط .. أم خالق ومدبر للوجود ؟!

فى التصور الوثنى الجاهلى للذات الإلهية هناك اعتراف بوجود خالق لهذا الوجود .. لكن الوثنية الجاهلية قد وقفت – فى تصورها هذا – بعمل الخالق عند حدود «الخلق» .. ثم أشركت معه شركاء آخرين فى «تدبير» شئون الحياة الدنيا، كان يحتكم إليها الوثنيون فى شئون السلم أو الحرب، السفر أو الحل، الإقدام أو الإحجام..إلخ.

والقرآن الكريم لم ينع على هذا التصور الوثنى الجاهلى إنكار الخالق للوجود.. وإنما نعي عليه الوقوف بعمل هذا الخالق عند حدود «الخلق» دون آفاق «التدبير» فى كل ميادين الوجود وسائر شئون العمران..

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

ففي هذا التصور الوثنى الجاهلى – المشرك – إيمان بالله «خالقًا» لهذا الوجود، وعزل له عن «تدبير» شئون الدنيا، وإحلال «الشركاء» محله فى هذا «التدبير» تمامًا كما هو حال التصور العلمانى، الذى يؤمن بالله، خالقًا للوجود، لكنه يعزله عن تدبير العمران والاجتماع الإنسانى، مستبدلاً «العقل .. والتجريب» بالشريعة الإلهية، وذلك بدلاً من جعل «العقل .. والتجريب» سبلاً مؤمنة بهذه الشريعة الإلهية، وعاملة على الاجتهاد فيها والتطوير لما بها من فروع ومتغيرات .. فالعلمانية تحل «العقل .. والتجريب» محل الشريعة؛ أى بدلاً من التدبير الإلهى، زاعمة «أنه لا سلطان على العقل إلا العقل»! .. بينما «الإسلامية» تجعل من «العقل .. والتجريب» ومعهما «الوحي والنقل» سبلاً للمعرفة تتآزر وتتكامل فى هداية الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وكذلك نجد الحال مع التصور «الأرسطي - اليوناني» للذات الإلهية . فهو شبيه بهذا التصور الوثني الجاهلي .. فأرسطو يرى الله مجرد خالق للعالم .. ويزعم أن الله، بعد خلقه للعالم، قد ترك تدبيره للأسباب المادية الذاتية المودعة والمركبة فيه .. فعلاقة الخالق بالوجود - في هذا التصور الأرسطي - هي «علاقة منطقية»، كعلاقة المقدمة بالنتيجة .. وليست علاقة الراعي المدبر لشئون هذا الوجود!

وعلى درب التصور الوثني الجاهلي .. والتصور «الأرسطي - اليوناني» .. في حصر نطاق فعل الذات الإلهية في «الخلق»، وعزله عن التدبير لشئون العمران وسياسة الاجتماع البشري .. على هذا الدرب سار التصور النصراني - كما تمثل في لاهوت الكنائس النصرانية - فلقد فصل هذا التصور بين ما لله وبين ما لقيصر: أي جعل الله حاكمًا ومدبرًا في الدين - كشأن فردي، ووصايا خلقية - وأطلق العنان لقيصر، كي يكون تدبير الدولة والاجتماع متحررًا من سياسة الدين وضوابط الشريعة.

وعلى خلاف جميع هذه التصورات - الوثنية .. والعلمانية .. والأرسطية .. والنصرانية - رأينا ونرى التصور الإسلامي لنطاق فعل الذات الإلهية. فكما أنه قد مثل تصور «التوحيد .. والوحدانية .. والتنزيه» في أرقى صورها .. نراه - كذلك - قد رفض الوقوف بنطاق فعل الذات الإلهية عند مجرد «الخلق» فقط لهذا الوجود، وجعل الله - سبحانه وتعالى - مع الخلق - الراعي والمدبر والحاكم - بقضائه.. وبشرعه - لكل شئون الحياة ولسائر ميادين العمران.

فهو - سبحانه - «الخالق» وهو - أيضًا - «مدبر الأمر» .. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وله - سبحانه وتعالى - «الخلق» و«الأمر» - أي الرعاية والتدبير ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو - سبحانه - الذي «خلق» والذي «هدى» - ودبر ورعى - ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

هذا هو التصور الإسلامي للذات الإلهية، يتميز تميزًا جذريًا عن سائر التصورات الأخرى، تلك التي تقف بنطاق عمل الذات الإلهية عند مجرد «الخلق»

عازلة له عن «التدبير» لسياسة الاجتماع وشئون العمران .. وهذا التميز للتصور الإسلامي - كما رأينا - يجعل التوحيد الإسلامي رافضًا لكل تلك التصورات التي تشرك مع الله المدبرين للدنيا والعمران .. تستوي في ذلك: التصورات الوثنية الجاهلية .. والأرسطية اليونانية .. واللاهوتية النصرانية .. والعلمانية الوضعية .. فجميعها تعزل السماء عن الأرض، وتحل الإنسان - في التدبير للاجتماع - محل الله!

١٠٠ تيار التغريب (١)

لقد بدأت بذرة هذا التيار أول ما بدأت بمصر إبان الحملة الفرنسية عليها [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] .. فكانت بدايات فكرة: الاستقلال عن الموروث، وقطع حبال التواصل الحضارى والاستقلال عن المحيط العربى الإسلامى .. واستبدال النموذج الغربى بدلاً من المنابع الحضارية الإسلامية .. والوطنية القطرية بدلاً من الجامعة الإسلامية.

ولقد صاغ هذا المشروع - لاستقلال مصر عن منابعها وعن محيطها - «المعلم يعقوب» [١٧٤٥ - ١٨٠١م] - وكان رجلا من أراذل القبط، التحق بجيش بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] وأصبح جنرالاً فيه! استخدمه الفرنسيون جلادًا للمصريين .. حتى لقد تحفظت إزاءه الكنيسة المصرية، وسماه الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] «يعقوب اللعين»!

وإذا كان هذا المشروع قد قبر بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر [١٢١٦هـ - ١٨٠١م]، ومعها «المعلم يعقوب» .. فلقد عاد مشروع «الإلحاق الحضارى» بعد احتلال الإنجليز لمصر [١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م] .. عاد هذه المرة لتبشر به مؤسسات فكرية، ومنابر ثقافية، وأجهزة إعلامية قامت ومارست عملها بمصر فى رعاية سلطات الاحتلال الإنجليزى التى كان يقودها يومئذ اللورد كرومر [١٨٤١ - ١٩١٧م] .. ثم أخذت إشعاعات هذه الدعوة فى الامتداد إلى ما حول مصر من أقاليم.

ولقد كان رواد «مشروع الإلحاق الحضارى» هذا - فى هذا الطور من أطواره - مجموعة المثقفين الموارنة الشوام، الذين هاجروا إلى مصر فرارًا من السلطة العثمانية، والذين تحركهم كراهية شديدة للدولة العثمانية، وبغض دفين للإسلام.. ولما كانوا أبناء أقلية دينية لا تملك نمطًا للدولة والقانون والعمران،

مماثلاً أو مغايرًا لما لدى الإسلام – فمسيحيتهم رسالة روحية خالصة لمملكة السماء، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله – فلقد رأوا أن البديل المرشح لإزاحة الإسلام عن أن يكون صيغة النهضة للأمة هو بديل التغريب .. فوظفوا طاقاتهم والمؤسسات التي أقاموها بمصر لخدمة هذا المشروع .. مشروع التبشير بالنموذج الغربي نمطًا لنهضة الشرق وتقدمه، بدلاً من النموذج الإسلامي – الذي أهالوا عليه كل سوءات وسيئات العثمانيين!

وفي ضوء هذه الحقيقة يجب أن نعيد قراءة تاريخ وتأثير مدرسة صحيفة «المقطم» [١٣٠٦-١٣٧١ هـ = ١٨٨٩ – ١٩٥٢م] ومجلة «المقتطف» [١٢٩٣ – ١٣٧١ هـ = ١٨٧٦ – ١٩٥٢م] .. وأن نعي دلالات وتأثيرات الفكر الغربي الذي بشر به وأشاعه أقطاب وأعلام هذه المدرسة وهذا التيار.. من مثل:

يعقوب صروف [١٢٦٨ – ١٣٤٥ هـ = ١٨٥٢ – ١٩٢٧م] .. وفارس نمر [١٢٧٢ – ١٣٧٠ هـ = ١٨٥٦ – ١٩٥١م] .. وشاهين مكاريوس [١٢٦٩ – ١٣٢٨ هـ = ١٨٥٣ – ١٩١٠م] .. وشبلي شميل [١٢٧٦ – ١٣٣٥ هـ = ١٨٦٠ - ١٩١٧ م] .. ونقولا حداد [١٢٩٥ – ١٣٧٣ هـ = ١٨٧٨ – ١٩٥٤م].. وجورجي زيدان [١٢٧٧ – ١٣٣٢ هـ = ١٨٦١ – ١٩١٤م] .. وفرح أنطوان [١٢٩١ – ١٣٤٠ هـ = ١٨٧٤ – ١٩٢٢م] .. وبشارة تقلا [١٢٦٥ – ١٣٠٩ هـ = ١٨٤٩ - ١٨٩٢م] .. وسليم تقلا [١٢٦٨ – ١٣١٩ هـ = ١٨٥٢ – ١٩٠١م] .. وأمثالهم.. فمن خلال هذه المؤسسات والمنابر التي رعاها الاستعمار، تسربت عناصر المشروع الغربي كبديل للمشروع الإسلامي، وتسربت «الثقافة الغربية» – وليس «حقائق العلم الغربي» – لتحل محل الثقافة العربية الإسلامية، مستفيدين من الفراغ الذي نشأ من عجز تيار التقليد والمحاكاة للموروث.

وإذا شئنا كلمات معبرة – بصراحة عارية – عن مقاصد هذا التيار، فإننا نختار كلمات سلامة موسى [١٣٠٥ – ١٣٧٨ هـ = ١٨٨٨ – ١٩٥٨م] – وهو الذي مكنته «مواطنته» المصرية من أن يكون صريحًا! – والتي يقول فيها عما يريده هذا التيار للشرق وأهله «إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة؛ لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا .. ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان .. وحكومة ديمقراطية برلمانية، كما هي في أوربا، فنعاقب كل من

يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون أوتوقراطية دينية .. إنني كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي:

يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوربا، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عني. وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها. هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرًا وجهرًا، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب»!!

١٠١

تيار التغريب (٢)

لم يكن هذا التيار «الكافر بالشرق، المؤمن بالغرب» غافلا عن مكان العربية – كلغة قومية، وكلسان للإسلام – فى السمات والقسمات التى تميز الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية؛ ولذلك وجدنا «الوعاء اللغوى» – العربية – مثله كمثل «المضمون الفكرى» – الإسلام – هدفًا لسهام هذا التيار.

فوجدنا سلامة موسى – الذى رأى فى «الرابطة الشرقية سخافة» وفى «الرابطة الدينية وقاحة» – ودعا إلى «الخروج من آسيا» – و«اسيا» هو التعبير الاستشراقى عن «الإسلام»! – وأعلن «كفره بالشرق» و«إيمانه بالغرب»!! .. رأيناه يدعو إلى «لغة عامية» تكتب «بالحرف اللاتينى» لتنقطع صلات الأمة – وهى مصر فقط بنظره – مع تراثها العربى الإسلامى ومع محيطها العربى الإسلامى .. رأيناه يدعو إلى «اصطناع العامية لغة أدب، والكتابة بالحروف اللاتينية؛ لأن هذه الكتابة تضمنا إلى مجموعة الأمم المتمدنة، وتكسبنا عقلية المتمدنين . فالمتعمق فى اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد .. فنظره متجه أبدا نحو الشرق، وثقافته كلها عربية شرقية مع أننا فى كثير من الأحيان نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب، والثقافة تقرر الذوق والنزعة، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق!».

ثم يكشف سلامة موسى القناع عن أن العداء لـ«الوعاء اللغوى» – العربية – إنما هو فرع عن العداء لـ«المحتوى الفكرى» – الإسلام – الذى يحتويه هذا الوعاء .. فيقول عن تراث العربية .. إنه «تراث لغوى يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها! فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتلفزيون، بل لغة القرآن وتقاليد العرب»!!

فالالتحاق بالغرب، حضارياً، والكفران بالحضارة الشرقية .. وبلغتها العربية وبتراث هذه اللغة، لغة القرآن، الحاملة «لعقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها» –

بتعبير سلامة موسى – وتبنى الحرف اللاتينى حرف كتابة للغة عامية تقطع روابط أمة الإسلام وتحولها إلى أقاليم يلتحق كل منها بالغرب الحضارى .. وتبنى المضامين الحضارية الغربية بدلاً من المضامين الإسلامية – هى جماع معالم المشروع الذى بشر به هذا التيار .. تيار التقليد والمحاكاة للغرب، الذى اختار هذا الطريق عامداً متعمداً، وبوعى بمعالم هذا الطريق، وبنتائجه ومقاصده: لأن أعلامه كانوا كارهين للإسلام، كخيار حضارى لنهضة الشرق والعرب والمسلمين.

وإذا كانت «مدرسة المقطم» و«مدرسة المقتطف» – وهما جناحان لتيار واحد – عبرتا عن «التغريب – الليبرالى».. فإن السنوات التى أعقبت قيام الثورة البلشفية فى روسيا [١٣٣٦ هـ - ١٩١٧م] قد شهدت بدايات تيار «التغريب – الشمولى» على يد طلائع «اليهود – الصهاينة – الماركسيين» .. فعرف هذا التيار، وعرفت منظماته قادة ومؤسسين ومنظرين من مثل «روزنتال» - و«مارسيل إسرائيل» .. و«هنرى كوربيل» .. و«أوديف» .. و«إيزاك إسرائيل» .. و«شوارتز» .. و«ريمون دويك».. وأشباههم من شذاذ الآفاق، الذين انضموا إلى متغربى الموارنة، مؤملين تحويل المسار الحضارى للأمة عن التوجه إلى رسالة نبيها محمد بن عبدالله ﷺ .. وحالمين بمنافسة أعلامها المحدثين .. من مثل: جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ – ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ – ١٨٩٧م] ومحمد عبده [١٢٦٦ – ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ – ١٩٠٥م] ورشيد رضا [١٢٨٢ – ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ – ١٩٣٥م] وعبدالله النديم [١٢٦١ – ١٣١٤ هـ = ١٨٤٥ – ١٨٩٦م] وعبدالحميد ابن باديس [١٣٠٥ – ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ – ١٩٤٠م] ومصطفى عبدالرازق [١٣٠٢ – ١٣٦٦ هـ = ١٨٨٥ – ١٩٤٦م] وسعد زغلول [١٢٧٣ – ١٣٤٦ هـ = ١٨٥٧ – ١٩٢٧م] وحسن البنا [١٣٢٤ – ١٣٦٨هـ = ١٩٠٦ – ١٩٤٩م] .. وغيرهم من الأبناء البررة لثقافة هذه الأمة وحضارتها.

هكذا بدأ وتبلور تيار التغريب والاستلاب الحضارى الذى بشر بثقافة الغرب أداة لإزاحة تميز الثقافة العربية الإسلامية .. والذى دعا إلى تبنى النموذج الحضارى الغربى، بخيره وشره، وبحلوه ومره، زاعماً أن العقل الشرقى كان ولايزال عقلاً يونانياً، حتى بعد أن تدين أهله بدين الإسلام!

ولقد كان الهدف – الذى أعلنه سلامة موسى – لهذا التيار هو إخراج الأمة من «آسيا» – أى من الإسلام وحضارته – وإلحاقها بالغرب، حضارياً .. وهو ذات الهدف الذى وضع بذرته الأولى الجنرال «يعقوب اللعين»!!

١٠٢ تيـار التقليد للموروث

منطلقات هذا التيار ومنابعه هي فكر أسلافنا، الذى تبلور فى عصور التراجع لحضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص والتحديد! .. فأهله ومؤسساته لا يعرفون كثيراً عن حقيقة المنابع الجوهرية والنقية لفكر الحضارة الإسلامية، ولا يهتمون كثيراً بإبداع عصر الازدهار لهذه الحضارة .. وأغلب زادهم الفكرى هو ابن لقرون التراجع والجمود المملوكية – العثمانية .. وإذا كان هذا التيار قد ضم فصائل ثلاثا

(أ) **مؤسسات العلم والتعليم الموروثة** .. مثل الأزهر، وما ماثله وشابهه من المدارس والجامعات.

(ب) **والطرق الصوفية** .. وتنظيماتها، ومشيخاتها المتعددة.

(جـ) **والنصوصيون** الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ودلالاتها، عازلين إياها عن ملابساتها وعن مقاصد الشريعة والتشريع المبتغاة من هذه النصوص

إذا كانت تلك هي أبرز فصائل هذا التيار .. فإننا نعرف له فضل الحفاظ على تراثنا وفضيلة الدفاع عنه أمام الوافد الغربى الذى أراد اقتلاعه والحلول فى مواقعه، الأمر الذى حفظ للأمة ولثقافتها التواصل مع ماضيها الحضارى، ومكن لحركات الإحياء والتجديد من مادة ومنطلق هذا الإحياء والتجديد.

ذلك فضل لا ينكر لفصائل هذا التيار..

لكن هذا التيار الذى جفل من «الوافد الغربى»، فانكفأ على «الذات» .. قد ظل عاجزاً عن صياغة الخيار الحضارى والنموذج التجديدى القادر على منافسة النموذج الغربى .. لا لقصور طبيعى فى عقول أعلام هذا التيار، وإنما لعيب فى بضاعتهم الفكرية .. فلقد كانت بضاعة عصر تراجعنا الحضارى : أى أنها كانت عرضاً من أعراض مرض التخلف الحضارى الذى أصاب هذه الأمة فأنى لها أن تكون سبيلا ومادة للنهضة والإحياء؟!

لقد تأملتُ – وأنا الذى درست فى الأزهر – وتساءلت: لماذا كانت أغلب الكتب التى ندرسها مؤلفة فى عصر التراجع وليس فى عصر الإبداع الحضارى لأمتنا؟!

وفى ضوء هذا التأمل، وهذا التساؤل، فهمت معنى عبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ – ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ – ١٩٠٥م] التى يقول فيها عن الأزهر وأبنائه – فى عصره: «إنهم لا يتعلمون فى الأزهر إلا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد، على نهج يبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها! وجل معلوماتهم: تلك الزوائد التى عرضت على الدين، ويخشى ضررها، ولا يرجى نفعها .. فهم أقرب للتأثر بالأوهام، والانقياد إلى الوساوس من العامة، وأسرع إلى مشايعتها منهم! .. فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية!».

وهذه المؤسسات التعليمية العريقة الموروثة، عندما سلكت طريق التطور، أخذت «بشكل التجديد»، لا بجوهره، فاقتربت – فى أحيان كثيرة – من «التغريب» أكثر من اقترابها من المنابع الجوهرية والنقية للفكر الذى أبدع وميز حضارة الإسلام!!

أما المؤسسات الصوفية فإنها – باستثناء القلة القليلة التى رحم ربى – قد استبدلت الشعوذة والخرافة بحقيقة التصوف، كسبيل لتهذيب النفس، ورافد يزامل العقل فى إقامة التوازن بثقافة الإنسان.

وإذا كان التيار النصوصى الحديث قد نفض عن عقائد الدين كثيرًا من البدع، وعن تصورات العامة كثيرًا من الخرافات، فإن جموده عند حرفية ظواهر النصوص قد أورثه العجز عن إبداع المشروع الحضارى الذى يصوغ الإنسان المقاوم للزحف الغربى .. لقد أضاف هذا التيار النصوصى حصنًا جديدًا منيعًا إلى حصون «الرافضين للتغريب»، والممتنعين عن الاستلاب الحضارى .. لكن عجزهم عن إبداع البديل المعاصر، القادر على منافسة النموذج الغربى والانتصار عليه، قد هيأ ذلك «الفراغ»، الذى تقدم التغريب لملئه واحتلاله إما فى عقول «النخبة» التى تغربت، أو فى واقع الأمة الذى أصبح محكومًا بقوانين وفلسفات التغريب!

وإذا كنا قد أوردنا عبارة الإمام محمد عبده، التى وصفت الحالة الفكرية لأبناء الأزهر – على عهده – فإن له عبارة تصف هذا «الفصيل النصوصى» من فصائل تيار التقليد للموروث .. يقول فيها عن أهله: إنهم «أضيق عطنًا وأحرج صدرًا من المقلدين» .. فهم، وإن أنكروا كثيرًا من البدع، ونحوا عن الدين كثيرًا مما أضيف إليه، وليس منه، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيد به، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحباء».

١٠٣ الأزهر فى العصر العثمانى

بعد أن كان الأزهر يمد مصر - فضلا عن غيرها - بالقضاة أصبح قضاء مصر للأتراك منذ المحرم سنة ٩٢٩ هـ = نوفمبر سنة ١٥٢٢م.

■ وكانت المدارس التى بنيت بمصر منذ عهد صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣م] قد غدت الامتداد العلمى والفكرى للأزهر، يدرس فيها شيوخه، ويتخرج منها العلماء على منهجه، فجاء العصر العثمانى ليدمرها بمظالمه، حتى ليتحدث على مبارك باشا [١٢٣٩ - ١٣١١ هـ = ١٨٢٣ - ١٨٩٣م] عن ذلك فى «الخطط» فيقول: «لقد أهمل أمر المدارس، وامتدت أيدى الأطماع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا فى مفارقتها، وصار ذلك يزيد فى كل سنة، عما قبلها، لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشعث وتتخرب .. فامتدت أيدى الظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها، حتى صار بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة .. زريبة أو حوشا، أو غير ذلك، ولله عاقبة الأمور».

■ ولقد انعكس «الفقر المادى والفكرى» الذى ميز الحقبة العثمانية على الأزهر، فزادت غربته عن العلوم التى أبدعها السلف، والتى تأسست عليها صفحة ازدهار حضارتنا، ووقف التدريس فيه عند الكتب التى ألفها «علماء» العصر «المملوكى - العثمانى»، وهو العصر الذى توقف فيه الإبداع وأغلق فيه باب الاجتهاد .. بل واقتصر التدريس، غالبا، على علوم الوسائل والأدوات .. حتى لقد غدت علوم وفنون مثل: المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، غريبة، يرتاب فيها الكثير من الشيوخ، ويخشون ضررها على الإسلام!

وفى الحوار الذى يحكيه المؤرخ الجبرتى [١١٦٧ – ١٢٣٧ هـ = ١٧٥٤ – ١٨٣٢م] والذى دار بين الوالى التركى أحمد باشا (كور وزير) وشيخ الأزهر الشيخ عبدالله الشبراوى [١٠٩٢ – ١١٧٠ هـ = ١٦٨١ – ١٧٥٧م] تجسيد للحال الفكرية التى بلغها الأزهر [١١٦٢ هـ – ١٧٤٩م] أى قبل نصف قرن من حملة «بونابرت» وبدء هجمة التغريب. فى هذا الحوار منطق طريف يجسد حال الأزهر البائس فى ذلك التاريخ.

- **الوالى التركى**: المسموع عندنا بالديار الرومية – «التركية» – أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها، فلما جئتها وجدتها – كما قيل – «تسمع بالمعيدى خير من أن تراه»!
- **شيخ الأزهر**: هى، يا مولانا، كما سمعتم، معدن العلوم والمعارف.
- **الوالى**: وأين هى؟ وأنتم يا أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئًا، وغاية تحصيلكم: الفقه، والمعقول، والوسائل، ونبذتم المقاصد!
- **شيخ الأزهر**: ... غالب أهل الأزهر لايشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث
- **الوالى**: وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلة، وغير ذلك.
- **شيخ الأزهر**: نعم .. معرفة ذلك من فروض الكفاية .. وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرقة الطبيعة، وحسن الوضع، والخط، والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك.

هكذا صنعت الحقبة العثمانية بالأزهر .. قلصت مجاله المادى بتدمير المدارس التى مثلت هذا المجال، وأصابته بالفقر الفكرى، الذى كان سمة لهذه الحقبة فى كل المجالات وجميع الولايات .. وهكذا جاءت الهجمة التغريبية

القوية لتجد الأزهر أشبه ما يكون بالفارس الذى يحمل سلاحاً تراكم عليه الصدأ وعلاه الغبار!

لكن الأزهر – مع ذلك – لم يستسلم، وما كان بالإمكان أن يستسلم لتيار التغريب .. لقد حصن موقعه، فنجا، لأكثر من قرن ونصف قرن، من تأثيرات التغريب، ومثل وسط المجتمع الذى مال إلى التغريب الاستثناء الداعى إلى أن تعود الأمة إلى ذاتها وهويتها الحضارية المتميزة، والتى بدونها لن يتحقق لها الاستقلال الحقيقي عن التبعية للاستعمار!

١٠٤ مصطلح «الشرق الأوسط»

إبان الحرب العالمية الثانية [١٣٥٨ - ١٣٦٤ هـ = ١٩٣٩ - ١٩٤٥م] أطلق الاستعمار على الوطن العربى اسم: «الشرق الأوسط» .. وذلك ليفرّغ هذا الوطن من هويته «العربية - الإسلامية» وليصبح مجرد «جغرافيا» قابلة للإلحاق «بالمركز الغربى» وليفتح الباب الثقافى لصبغ هذه «الجغرافيا» بالصبغة الثقافية التغريبية التى يريدها الاستعمار!

وكان لهذه التسمية (الشرق الأوسط) مقصد آخر أكثر إمعانًا فى محاولات هذه «المركزية الغربية» إلحاق الآخرين بمركزيتها .. فتسمية «الشرق الأوسط» - بعد محوها لهويتنا «العربية - الإسلامية» - تسمينا باعتبار موقعنا - كتابعين - من المركز الغربى! .. فهناك من هو «شرق أدنى» - بالنسبة لموقعه من المركز الغربى - ومن هو «أوسط» .. ومن هو «أقصى» - بالنسبة لموقعه من هذا «المركز» - فكأننا العبيد الذين تتم تسميتهم بحسب موقعهم من «السيد»!!

ولقد ابتلعت كثير من دوائر السياسة والفكر والثقافة والإعلام، فى وطن العروبة وعالم الإسلام - بسبب الغفلة والجهالة - هذه التسمية التى تكرس معانى التبعية .. ومحو الهوية .. والإلحاق.

فلما حدثت نكبة الاغتصاب «الصليبى - الصهيونى» لفلسطين - عقب الحرب العالمية الثانية - ذاع وشاع التعبير عن هذه القضية باسم «مشكلة الشرق الأوسط» .. وذلك بدلاً من اسم «الصراع العربى - الصهيونى» وذلك - مرة أخرى - لتكريس محو الهوية المميزة لهذا الصراع

وفى السنوات الأخيرة .. ومع الحديث عن التسويات التى تحاول تكريس النكبة والهزيمة، حسبت الدوائر الصليبية والصهيونية .. أنها قد اقتربت - بهذه التسويات البائسة - من كسر الإرادة العربية والإسلامية الرافضة «لاغتصاب

الصهيونية للقدس وفلسطين».. وأن هذه التسويات توشك أن تمحو هويتنا العربية الإسلامية، حتى تقبل «جغرافيتنا» الكيان الصهيوني.. بل وسيطرته على هذه «الجغرافيا».. فبدأ شيوع مصطلح «الشرق الأوسط الجديد».. ثم مصطلح «الشرق الأوسط الكبير»!

★ ★ ★

ومنذ شيوع هذا المصطلح – «الشرق الأوسط» – كانت هناك محاولات لطمس جذور هذا الصراع الذي يدور على القدس وفلسطين، كرمز للصراع الإمبريالي الغربي – التاريخي – ضد الشرق الإسلامي.. حتى لقد أصبح الكثيرون يظنون أن تاريخ هذا الصراع قد بدأ مع قيام الكيان الصهيوني في فلسطين سنة ١٩٤٨م.. أو أن تاريخه لا يعدو «وعد بلفور» سنة ١٩١٧م.. أو أن جذوره لا تتجاوز المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في «بال» بسويسرا ١٨٩٧م.

كل ذلك لتسطيح القضية.. وإخفاء جذورها العميقة والدفينة.. وقبل كل ذلك لمحو هوية هذا الصراع التاريخي، وطمس الأبعاد الفكرية والعقدية و«الأيديولوجية» والدينية التي غذته، وتغذت عليه عبر قرون طوال! ولتصويره على أنه مجرد «حاجز نفسي» – حديث النشأة – تزيله وتبدده هذه التسويات!!

وكان القائد العسكري الإنجليزي «جلوب باشا» [١٨٩٧ – ١٩٨٦م] – الذي عمل قائداً للجيش العربي الأردني حتى سنة ١٩٥٦م! – وهو كاتب ومؤرخ – قد أصاب كبد الحقيقة عندما كشف عن تاريخ هذا الصراع بعبارته التي توقظ النيام والغافلين – بل والسكارى – والتي تقول: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد» أي إلى تاريخ ظهور الإسلام!!

١٠٥ مصطلحات .. ومفاهيم

منذ الاحتكاك بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية، دخلت إلى قواميس العلوم الإنسانية والاجتماعية، وإلى مؤلفات الفكر والثقافة، بل ووسائل الإعلام، الكثير من المصطلحات الغربية، ذات المفاهيم الغربية .. والتى تحتاج إلى ضبط مفاهيمها، وإلى التعريف بهذه المفاهيم ومن هذه المصطلحات:

■ **الوجودية** رؤية فلسفية للوجود الإنساني، ظهرت فى أوربا – عقب الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ – ١٩١٨م] – فى ألمانيا أولاً، ثم فى فرنسا .. ثم امتد انتشارها – بعد الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ – ١٩٤٥م] – إلى الأوساط الفلسفية فى أوربا وأمريكا .. وبلاد الشرق والجنوب.

وتنطلق الفلسفة الوجودية من وحدة الذات والموضوع، والنظر إلى الإنسان باعتباره وجودا .. وسبيلها فى المعرفة هو الحدس .. وهى تولى الحرية، بمعنى الاختيار الفردى، اهتمامًا شديدًا، مع عزل الحرية والاختيار عن الضرورات الموضوعية والقوانين والسنن التى تحكم الواقع وتحيط بالإنسان .. فالحرية – فى الوجودية – هى الغاية، وهى تعنى تحرير الفرد من المجتمع.

ولقد أجادت الوجودية استخدام الفن والأدب، بما فى ذلك المسرح، فى نشر فلسفتها.

وفى إطار الفلسفة الوجودية تمايزت تيارات أبرزها:

١ – تيار الوجودية المؤمنة بالدين – كما هى عند الفيلسوف الفرنسى جابرييل مارسيل .. والألمانى كارل ياسبرز [١٨٨٣ – ١٩٦٩م] .. والروسى نيقولاى ألكسندروفيتش برديانييف [١٨٧٤ – ١٩٤٨م] والألمانى مارتن بوبر [١٨٧٨-١٩٦٥م].

٢ – والوجودية الإلحادية – كما هى عند الألمانى مارتن هيدجر .. والفرنسى جان بول سارتر .. والفرنسى ألبير كامو [١٩١٣ – ١٩٦٠م].

ومع أن الوجودية غير علمانية، إلا أنها - ككل الفلسفات الغربية - فلسفة علمانية النزعة تعزل الدين عن الحياة - في تيارها الملحد - وتعزله عن الدولة - في تيارها المؤمن : لأن الإيمان - ككل الفلسفة الوجودية - مجرد نزعة ذاتية واختيار فردى، لا علاقة له بالدولة أو السياسة أو الاجتماع.

ولقد تراجعت بل وانهارت وتدهورت الفلسفة الوجودية في العقود الأخيرة .. وربما لن يدخل منها إلى القرن الحادى والعشرين سوى التاريخ.

■ **أما العلمانية**: فإنها النزعة التى ميزت فلسفة التنوير الوضعية الغربية، على اختلاف مدارس هذا التنوير، منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك بإحلال العقل والتجربة والعلم - ثالوث التنوير الغربى - محل الله والكنيسة واللاهوت .. والتركيز على عالم الشهادة - الدنيا - دون عالم الغيب، وجعل الإنسان الطبيعى - وليس الذى نفخ الله فيه من روحه، واستخلفه - هو محور الثقافة الحداثية بدلاً من أن يكون الله هو محور هذه الثقافة، وعزل السماء - أى الله والشرائع الدينية والقيم الإيمانية - عن أن تكون حاكمة ومدبرة للاجتماع الإنسانى .. فالعلمانية - وثمرتها ثقافة الحداثة - تحل «العالم» و«الواقع» و«الدنيا» محل الله والسماء والدين، وتعزل السماء عن الأرض، وتحرر الإنسان والمجتمع من الرعاية الإلهية والتدبير الديني .. فالإنسان - فيها - مكتف بذاته، والعالم - عندها - مكتف بذاته تدبرهما الأسباب الذاتية المودعة فيهما، دونما حاجة إلى التدبير الإلهي والشرائع الدينية.

وفي العلمانية تياران رئيسيان:

١ - تيار العلمانية الكلية والشاملة، وهو مادى يطمح إلى تحرير الحياة - بجميع ميادينها، والإنسان فى كل عوالمه - من الدين - بكل أبعاده القيمية والقانونية والشعائرية، والماركسية من نماذج هذه العلمنة الكلية والشاملة.

٢ - وتيار العلمانية الجزئية، التى لا تنكر الإيمان بالله والدين، ولكنها تقف بالدين عند العلاقة الفردية بين الإنسان والله، وعند الشعائر العبادية وبعض القيم الأخلاقية لمن يريد، بينما ترفض كل تدخل للدين فى تدبير الدولة والاجتماع الإنسانى .. فهى تكتفي بفصل الدين عن الدولة .. على حين تطمح العلمانية الشاملة إلى عزله عن كل الحياة.

■ **أما الماسونية:** فإنها حركة عالمية وتنظيم دولي، نشأ بأوربا في عصورها الوسطى، وتميز باختلاف ما يعلن من شعارات عما يبطن من مقاصد وأسرار.

فالماسون – في محافلهم – يسمون أنفسهم «البنائين الأحرار» ويرفعون شعارات الثورة الفرنسية (الحرية – والإخاء – والمساواة) ويدعون إلى التحرر من سلطة الكهانة البابوية، ويبرزون الإخاء الديني بين كل المنتسبين إلى محافلهم – من كل الديانات – عندما يستبعدون الهوية الدينية للأعضاء .. لكن حقائق مقاصد الماسونية – التي اتضحت علاقاتها باليهودية والصهيونية – كشفت عن أنها تستخدم التحرر من العصبية الدينية سبيلاً للتحلل من الانتماء الديني – وخاصة لدى غير اليهود –. فتذويب الخصوصيات الدينية – فضلاً عن مضاره – إنما يتم لحساب اليهودية والصهيونية .. كما أن ألغاز تعاليم الماسونية تسهم – بالتدريج، وبشكل غير مباشر – في تشكيك الآخذين بها في مواريثهم وعقائدهم الدينية .. وذلك فضلاً عما تكشّف عبر القرن المنصرم من علاقة الماسونية بالصهيونية، وليس فقط باليهودية .. فالماسونية «تعلمن» أعضاءها من غير اليهود، وذلك خدمة للأقلية اليهودية ومخططاتها الصهيونية. بل لقد تبيّن أن عبارة «البنّائين الأحرار» إنما تعني – في الحقيقة – العاملين على إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى في القدس الشريف!

وعندما تكشفت هذه البواطن والمقاصد الماسونية لبعض المجتمعات والدول الإسلامية، فأغلقت المحافل الماسونية. عادت لتتسرب تحت لافتات أندية وتنظيمات عالمية أخرى، من مثل «الروتاري» و« الليونز» وأمثالهما.

١٠٦ عن العروبة والإسلام (١)

فى دراسة المشاريع الفكرية لأعلام الفكر، من الخطأ الوقوف عند البدايات مـع إغفال التطور والنهايات .. أو الوقوف عند النهايات، مع إغفال البذور والجذور والبدايات.

وفى التعرف على علاقة العروبة بالإسلام فى المشروع الفكرى لميشيل عفلق [١٩١٠ - ١٩٨٩م] وهو أكبر منظرى التيار القومى العربى - هناك مفارقة غريبة هى وقوف كل من الإسلاميين والقوميين عند كتابات عفلق الأولى، وتجاهل أو جهل تطوره الفكرى والنهايات التى انتهى إليها فى علاقة العروبة بالإسلام . ويكفى لمعرفة حجم هذا الخطأ، إدراك أن الرجل قد بدأ من موقع «القومية أولاً» .. ثم تطور وانتهى إلى موقع «الإسلام أولاً» الأمر الذى يحتم - لفهم هذه القضية فى مشروعه الفكرى - تتبع الخط البيانى لفكر هذا الرجل على امتداد سنوات مشروعه الفكرى التى استمرت لأكثر من خمسين عامًا.

وفى دراسة علاقة العروبة بالإسلام، فى فكر ميشيل عفلق، نجد أن هناك «ثوابت» صاحبت فكره دائمًا وأبدًا .. وهناك «تطور» أصاب هذا الفكر فى علاقة العروبة بالإسلام.

ففى إطار «الثوابت» نجد التأكيد الدائم على وجود علاقة بين الإسلام والعروبة، وتنبيهًا على دور هذه العلاقة فى «تميز» القومية العربية عن القوميات الأخرى.. تميزها بـ«الخلود» و«الإطلاق» النابعين من «خلود» الدين الإسلامى، و«إطلاق» هذا الدين . وهو تميز امتد إلى أمة هذه القومية، فجعل لها «رسالة خالدة» حملتها وتحملها إلى العالمين، ولهذه الخصوصية فى العلاقة بين العروبة والإسلام، ولامتياز الإسلام بالتجدد الدائم، فلقد تميزت هذه العلاقة هى الأخرى بالدوام - فى مشروع النهضة المعاصرة، كما فى النهضة العربية التى فجرها

ظهور الإسلام – ومن ثم فلقد تميزت صيغة «البعث» فى المسألة القومية، عن الصيغ القومية التى نشأت فى الحضارة الغربية، والتى استعارها قوميون عرب، جردوا القومية من هذه العلاقة العضوية والخاصة بالإسلام.

تلك أمور «جوهرية – وثوابت» فى المشروع الفكرى لميشيل عفلق، على امتداد الخمسين عامًا التى قضاها الرجل فى الفكر والممارسة.

أما القضايا التى شهدت «تطورًا» فى فكره، إزاء علاقة العروبة بالإسلام، ومن ثم مكانة الإسلام بين مكونات القومية العربية، وموقعه فى مرجعية المشروع الحضارى العربى، فلعل أبرزها:

- أن الرجل كان يرى فى العقود التى سبقت عقد السبعينيات – من القرن العشرين – انفراد القومية العربية وحدها كمحركة للأمة العربية نحو الثورة والنهوض .. والإسلام الحضارى هنا هو مجرد مكوِّن من مكوِّنات القومية، يغذيها بتراثه الروحى، وهو مُتَضَمَّنٌ فيها.
- أما منذ عقد السبعينيات، وبعد اتساع مساحة الحديث عن الإسلام فى مشروعه الحضارى، فلقد أصبح الإسلام أكبر مكوِّن من مكوِّنات القومية العربية.. أصبح أباها الذى وُلدت منه ولادة جديدة .. كما أصبح الإسلام الحضارى خيارًا قائمًا بذاته ضمن خيارات النهضة الثلاثة كما تحدث عنها ميشيل عفلق، وهى: القومية .. والتقدم .. والإسلام الحضارى.

لقد كانت العروبة فى المرحلة الأولى هى الأصل وكان الإسلام «مجرد مُفْصِح» عن رسالة الأمة العربية، إبان ظهوره .. وكانت القومية، وليس الإسلام، هى «المفصِح» عن رسالة الأمة فى العصر الحديث .. أما فى المرحلة الثانية – مرحلة «الحقبة العراقية» فى تطور ميشيل عفلق .. والتى اعتزل فيها «العمل السياسى» وتفرغ «للفكر» وتخلص فيها من ضغوط وملابسات «الطائفية الشامية»! – .. أما فى هذه المرحلة الثانية، فلقد تحدث عفلق عن الإسلام باعتباره الأب الشرعى للعروبة – وليس المُفْصِح عنها – وباعتباره المكوِّن الأول لها – وليس مجرد مكوِّن من مكوِّناتها – وباعتباره جوهر مشروعها النهضوى.. بل وباعتباره وطن الأمة، والسياج الحامى لوحدتها، فى الماضى والحاضر والمستقبل على السواء.. لقد أصبح الإسلام عنده: دينًا، ووطنًا، ووطنية، وقومية، وحضارة، وثقافة .. بل وأصبح المبرر لوجود الأمة العربية!

على هذا النحو الهام والجذرى والعميق، تطور فكر ميشيل عفلق إزاء علاقة العروبة بالإسلام .. الأمر الذى يجعل من الوقوف فى دراسة فكره حول هذه القضية عند البدايات والجذور، خطأ كبيرًا .. كما يجعل رؤية قمة التطور والنهايات، دون وصلها بالبدايات والجذور، خطأ آخر كبيرًا .. فتتبع الخط البيانى لتطور فكر الرجل حول علاقة العروبة بالإسلام، ووزن كل منهما إزاء الآخر، ضرورة من ضرورات الدراسة العلمية لفكر عفلق فى هذا الموضوع الهام، والشاغل لكل من الإسلاميين والقوميين على حد سواء.

إننا لم ندرك عظمة صحابة رسول الله، ﷺ، إذا رأينا جاهليتهم فقط! كما لن ندرك أبعاد عظمتهم هذه إذا لم نبصرها في ضوء جاهليتهم .. لا لأن خيارهم فى هذه الجاهلية كان خيارهم فى الإسلام – كما قال رسول الله ﷺ – فقط .. وإنما لأن درجة عداء بعض من عظمائهم – كعمر بن الخطاب مثلا فى جاهليته – للإسلام ورسوله .. قد رشحته ليكون الفاروق الفارق بين الحق والباطل، عندما اهتدى بهدى الإسلام .. فالتطور الفكرى – للإنسان .. وللمشروع الفكرى – هو آية الحيوية والحياة .. وبدونه تصبح الدراسة بلا حياة!

١٠٧ عن العروبة والإسلام (٢)

لقد بدأ ميشيل عفلق [١٩١٠-١٩٨٩م] مشروعه القومي، مؤمنًا بالإسلام كدين سماوي .. لكن ما كان يهمه من الإسلام، ويستدعيه منه في حركته القومية هو «الحركة» التي قام بها العرب عندما تدينوا بهذا الدين .. كانت «الحركة العربية»، المتمثلة في إنجاز الأمة العربية، هي ما يحفل به ويحتفل، ويبرزه ويستدعيه .. ولعلاقة «المحرك - الإسلام» بـ«الحركة - الأمة - وقوميتها» فلقد رفض عفلق نموذج القومية الغربي المجرد من الدين، ورأى أن للعرب وقوميتهم خصوصية متميزة في هذا الميدان، جاءت ثمرة للعلاقة العضوية بين العروبة والإسلام .. فالمفهوم الغربي للقومية يجعلها نقيضًا للدين، لثبات الدين ونسبيتها، ولإلهية الدين وبشريتها، وهو يجردها من التراث - لأنها لديه ظاهرة حديثة لا علاقة لها بالتراث - بينما رأى عفلق - في الواقع العربي - أن علاقة الإسلام بالعروبة قد منحتها شيئًا من «خلوده» و«إطلاقه» .. كما أصبح تراثه الروحي المعين الذي ترتوي منه العروبة والقومية العربية .. واللغة العربية هي - عندنا - لغة الدين والقومية معا، وليس كذلك لغة الدين والقوميات في الغرب .. فالإسلام ولغته ليسا أجنبيين عن الأمة العربية، كما هو حال الدين المسيحي مع القوميات الغربية .. والإسلام الحضاري، الحركة، والثورة، والتاريخ، والرسالة الإنسانية، والتجربة، التي امتزجت فيها تأثيرات السماء باستجابات الأرض .. كل هذا الجانب البشري من الإسلام - والذي هو وليد الآلام العربية، ومفصح عن عبقرية الأمة العربية - قد غدا مكونا ومغذيا للقومية العربية، الأمر الذي ميزها ويميزها عن القوميات الغربية.

يحدثنا ميشيل عفلق عن هذه القضية، منذ السنوات الأولى لمشروعه الفكري، فيكتب سنة ١٩٤١م يقول «إن هذه القومية التي تأتينا من أوربا، مع الكتب والمجلات، تهددنا بخطر مزدوج، فهي من جهة تنسينا شخصيتنا وتشوهها، ومن

جهة أخرى تسلبنا واقعنا الحي، وتعطينا بدلاً منه ألفاظًا فارغة ورموزا مجردة. وإن في مقارنة القومية بالدين والتقاليد والفن مثلا ما ينم عن إخلال بدقة التفكير، وفهم جزئي للقومية كأنها شيء مستقل عن الدين والتقاليد والفن، مع أنها التربة التي تنمو فيها مواهب أمة ما في كل الميادين. وعلى هذا لا يعود جائزا أن تختلق خصومة بينها وبين أحد أجزائها الأصيلة المنبعثة منها، ولا أن نساويها بها. إن التفكير المجرد منطقي مع نفسه إذ يقرر أن القومية لابد أن تصطدم بالدين مثلا لأنهما يختلفان في المنبع والمظاهر. ولكن لنهجر اللفظ قليلا، ولنسم الأشياء بأسمائها وصفاتها المميزة، فنستبدل بالقومية «العروبة» وبالدين «الإسلام»، تظهر لنا المسألة تحت ضوء جديد، فالإسلام في حقيقته الصافية نشأ في قلب العروبة، وأفصح عن عبقريتها أحسن إفصاح، وساير تاريخها، وامتزج به في أمجد أدواره فلا يمكن أن يكون ثمة اصطدام. وبعد، فهل القومية محصورة في الأرض، كما يظن، بعيدة كل البعد عن السماء حتى يعتبر الدين شاغلاً عنها، مبذرًا لبعض ثرواتها، بدلاً من اعتباره جزءًا منها، مغذيًا لها، ومفصحًا عن أهم نواحيها الروحية والمثالية؟ إن القومية العربية ليست نظرية، ولكنها مبعث النظريات، ولا هي وليدة الفكر، بل مرضعته، وليست مستبعدة الفن، بل نبعه وروحه، وليس بين الحرية وبينها تضاد: لأنها هي الحرية، إذا ما انطلقت في سيرها الطبيعي وتحققت ملء قدرتها».

هنا يرفض ميشيل عفلق نموذج القومية الغربية، المجرد من الدين، وذلك لإيمانه بعلاقة الإسلام بالعروبة، في النموذج القومي العربي.. لكنه يرى الإسلام «جزءا» من أجزاء القومية العربية «نشأ في قلب العروبة، وأفصح عن عبقريتها» فهي الأصل وهو الفرع! وهي الكل وهو الجزء!

وفي سنة ١٩٤٣م، يعيد عفلق تأكيد هذه المعاني التي تلح على خصوصية قوميتنا وتميزها عن القوميات الأخرى، فيقول: «فالفكرة القومية المجردة - [عن الدين] - في الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين : لأن الدين يدخل على أوربا من الخارج، فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق، ولم يتزل بلغاتهم القومية، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم، ولا امتزج بتاريخهم، في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب، ولا هو أخلاق مجردة، بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكوني

ونظرتهم إلى الحياة، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل، والنفس بالقدر، وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وآدابهم، وأضخم قطعة من تاريخهم القومي، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربيا ونهمله وننفر منه بصفته مسلمًا. قوميتنا كائن حي متشابك الأعضاء، وكل تشريح لجسمها وفصل بين أعضائها يهددها بالقتل .. فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست كعلاقة أى دين بأى قومية .. فملحمة الإسلام لا تنفصل عن مسرحها الطبيعي، الذى هو أرض العرب، وعن أبطالها والعاملين فيها، وهم العرب .. فالإسلام إذن كان حركة عربية، وكان معناه: تجدد العروبة وتكاملها، فاللغة التى نزل بها كانت اللغة العربية، وفهمه للأشياء كان بمنظار العقل العربى، والفضائل التى عززها كانت فضائل عربية ظاهرة أو كامنة، والعيوب التى حاربها كانت عيوبًا عربية سائرة فى طريق الزوال، والمسلم فى ذلك الحين لم يكن سوى العربي، ولكنه العربى الجديد، المتطور، المتكامل.. إن هذا الدين يمثل وثبة العروبة إلى الوحدة والقوة والرقى».

فعفلق هنا .. مع اعترافه بـ«سماوية» الإسلام، كدين إلهى .. إلا أنه يسلط كل الأضواء على الجانب «البشرى» فيه .. على «الحركة العربية» التى أفصحت عن عبقرية الأمة فى «صورة الإسلام» .. وهو ينفى أن يكون الإسلام قد «وجد ليكون مقصورًا على العرب» لكنه يعتبر «بعده الإنسانى» التعبير عن نزوع القومية العربية «فى أصل تكوينها إلى القيم الخالدة الشاملة، والإسلام خير مفصح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول .. فرسالة الإسلام إنما هى خلق إنسانية عربية»!

إنه لا يزال فى مرحلة: العروبة أولاً .. وهى الأصل، والإسلام مجرد جزء من مكوّناتها .. ومفصح عن عبقرية أمتها!

(١٠٨) عن العروبة والإسلام (٣)

في المرحلة الأولى من مراحل فكر ميشيل عفلق - السابقة على مرحلة السبعينيات من القرن العشرين - لا يرى الرجل اليقظة العربية الأولى - إبان ظهور الإسلام - ثمرة للإسلام، وبعضًا من آثاره وتجلياته، وإنما يرى في الرسالة الدينية الإسلامية مفصحًا عن تلك اليقظة القومية العربية الأولى؛ فالأصل هو القومية .. والإسلام ثمرة لعبقرية الأمة ومظهر لرسالتها الخالدة؛ وفي ذلك يقول - مغلبا «البشري» على «السماوي» - في هذا الذي شهده العرب إبان ظهور الإسلام «إن العرب ينفردون دون سائر الأمم بخاصية: أن يقظتهم القومية قد اقترنت برسالة دينية، أو بالأحرى كانت هذه الرسالة مفصحة عن تلك اليقظة القومية .. وما الإسلام إلا وليد الآلام، آلام العروبة»!

وبسبب من هذا الموقف المتأثر بالتحليل المادي لنشأة الأديان - الموقف الذي رأى الإسلام مجرد مكوِّن ومغذٍّ للقومية العربية - أفصح - بلغة السماء - عن يقظة العرب الأولى، وعبقرية أمتهم، وتجسد في الحركة البشرية العربية الثورة.. والعلوم .. والتراث .. والمثل والحضارة .. بسبب هذا الموقف، الذي غلب فيه عفلق «البشري» على «السماوي» - حيال النظرة إلى الإسلام - رأيناه، رغم حديثه عن البعد الإنساني والعالمي للإسلام، يرى أن «الإسلام لا يمكن أن يتمثل إلا في الأمة العربية، وفي فضائلها، وأخلاقها ومواهبها.. ولذلك وجب أن توجه كل الجهود إلى تقوية العرب وإنهاضهم، وأن تحصر هذه الجهود في نطاق القومية العربية»!

وفي سنة ١٩٤٦م يعود عفلق فيطرق ذات الموضوع، ليؤكد على ذات الفكرة .. فالأصل والمنبع - عنده - هو أن للأمة العربية «رسالة خالدة» هي: «نزوع واستعداد» لتحقيق الذات، والإفصاح عن هذه الذات .. نزوع واستعداد دائم وخالد. أما «أشكال» الإفصاح والتعبير فإنها تختلف باختلاف مراحل تطور هذه الأمة.

فقبل الإسلام أفصحت الأمة عن ذاتها ورسالتها في صورة «تشريع حمورابي» [١٧٩٢ - ١٧٥٠ق.م] مرة .. وفي صورة «الشعر الجاهلي» مرة ثانية .. وعند ظهور الإسلام كان الإفصاح عن الذات في صورة هذا الدين - «دين محمد» ! ثم جاء عصر أفصحت فيه الأمة عن ذاتها ورسالتها في صورة «ثقافة عصر المأمون» [١٧٠ - ٢١٨ هـ = ٧٨٦ - ٨٣٣م] والآن .. غدت «القومية» هي الصورة العصرية التي تفصح بها الأمة العربية عن ذاتها وعن نزوعها الدائم ورسالتها الخالدة.

يعبر ميشيل عفلق عن هذه الفكرة عندما يقول «فهذه الأمة التي أفصحت عن نفسها وعن شعورها بالحياة إفصاحًا متعددًا متنوعًا. في تشريع حمورابي، وشعر الجاهلية، ودين محمد، وثقافة عصر المأمون. فيها شعور واحد يهزها في مختلف الأزمان، ولها هدف واحد، بالرغم من فترات الانقطاع والانحراف .. لقد أفصح الدين، في الماضي، عن الرسالة العربية التي تقوم على مبادئ إنسانية، فهل معنى ذلك أنه يتعذر على هذه الرسالة أن تكون قومية؟ .. إن هذه الرسالة يجب أن تفهم على أنها نزوع واستعداد أكثر من كونها أهدافًا معينة محدودة».

ويذهب عفلق، على درب التأكيد لهذا الرأي الذي يرى الإسلام - في آثاره الأرضية والبشرية - ثمرة لعبقرية الأمة العربية - وليس ثمرة للوحي الإلهي والوضع الرباني - عندما يمضي مؤكدًا حلول «القومية» محل «الدين» كالمحرك الأول، بل"والوحيد للأمة العربية في هذا العصر الذي نعيش فيه .. «فمشكلتنا هي القضية القومية. لكل أمة في مرحلة معينة من مراحل حياتها، محرك أساسي يهز أعماقها ويفجر فيها ينابيع النشاط والحيوية والحماسة وينفتح له قلبها، وهو بمثابة نقطة يتركز فيها انتباه الأمة، وتكون مفصحة عن أعماق حاجاتها في مرحلة ما .. فإذا نظرنا إلى العرب في الماضي، وجدنا هذا المحرك الأساسي كان في وقت ما، عند ظهور الإسلام، هو الدين. فقد قدر وحده على استثارة كوامن القوى في النفس العربية، واستطاع أن يحقق الوحدة والتضامن، وأن يلهب النفوس، ويفتح القرائح، وأن يحقق بالتالي تلك النهضة. في ذلك الوقت دُعي العرب إلى الإيمان بإله واحد، فقادهم ذلك الإيمان إلى تحقيق الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي الذي كانوا بحاجة إليه. فالإصلاح الاجتماعي كان فرعًا ونتيجة للإيمان العميق بالدين.

أما اليوم، فإن المحرك الأساسي للعرب .. هو القومية، التي هي كلمة السر التي تستطيع وحدها أن تحرك أوتار قلوبهم وتنفذ إلى أعماق نفوسهم، وتتجاوب مع حاجاتهم الحقيقية الأصيلة .. لذلك، لا يمكنهم أن يفهموا لغة غير لغة القومية.. وكما استجابوا في الماضي لنداء الدين فاستطاعوا أن يحققوا الإصلاح الاجتماعي، فإنهم يستطيعون اليوم تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين وضمان الحرية بين العرب جميعًا، نتيجة الإيمان القومي وحده».

فـ«الإيمان القومي وحده» - بنظر عفلق - في هذه المرحلة من مراحل فكره - هو المحرك الوحيد للأمة، في عصرنا الراهن .. وهو قد حل محل «الإيمان الديني» الذي كان المحرك للأمة على عهد ظهور الإسلام! .. حل محله في المشروع القومي للنهوض المنشود.

ولقد قادت هذه الأفكار -التي اختزلت الإسلام فجعلته «جزءا» من «الكل القومي» واستبدلته «كمحرك تاريخي» بـ«المحرك القومي» المعاصر - قادت هذه الأفكار ميشيل عفلق إلى فكرة أخطر، جعلته يتبنى «الإسلام التراث» إذ هو من مكونات القومية، يحقق وحدة الأمة الثقافية والروحية .. على حين قد أهمل «الإسلام الدين الصرف» بدعوى افتقاره إلى ما يميزه ويفضله على الديانات الأخرى في الواقع العربي، وبدعوى أنه عامل «تفريق» للأمة، وليس عامل «توحيد»، فكتب - في سنوات ١٩٥٠، ١٩٥٥، ١٩٥٧م - داعيًا إلى الوقوف من الإسلام عند تبني «ناحيته القومية»: لأنها هي أداة التوحيد للدولة القومية، دون تبني «ناحيته الدينية» بدعوى أنها عامل «تفريق لا توحيد» ومتوهمًا وجود تماثل بين «الدولة» في الإسلام، ونظيرتها في المسيحية الغربية إبان حكم الكنيسة في العصور الأوربية الوسطى والمظلمة!

(١٠٩) عن العروبة والإسلام (٤)

فى حقبة خمسينيات القرن العشرين، كتب ميشيل عفلق، داعيًا إلى استبدال القومية بالدين، والاقتصار من الدين الإسلامى على تراثه الموحد لثقافة الأمة: لأن هذا هو الإسهام الإسلامى فى القومية، التى غدت الصورة العصرية للرسالة الخالدة للأمة العربية .. وعن ذلك كتب فقال: «إن البعث العربى حركة قومية، تتوجه إلى العرب كافة، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وتقدس حرية الاعتقاد، وتنظر إلى الأديان نظرة متساوية في التقديس والاحترام، ولكنها ترى إلى جانب ذلك، في الإسلام، ناحية قومية لها مكانتها الخطيرة فى تكوين التاريخ العربى والقومية العربية، وتعتبر هذه الناحية ذات صلة وثيقة بتراث العرب الروحى وبمميزات عبقريتهم.. فالإسلام، من حيث هو دين صرف، مساو لغيره من الأديان فى الدولة العربية التى تساوى بين جميع مواطنيها وتحترم حرية معتقدهم. والإسلام - من حيث هو حركة روحية امتزجت بتاريخ العرب واصطبغت بعبقريتهم وأتاحت ظهور نهضتهم الكبرى - له مكانة خاصة فى روح القومية العربية وثقافتها وحركة انبعاثها .. وبهذا المعنى تستلهم حركة البعث العربى من الإسلام تجدده وثورته على القيم الاصطلاحية .. تستقى من نبعه فضائل الإيمان والمثالية والتجرد عن المنافع الشخصية والمغريات الدنيوية فى سبيل نشر المبادئ التى تنقذ العرب فى هذا العصر من ضعفهم وتفككهم وانخفاض مستواهم الروحى والاجتماعى».

فموقف عفلق هنا من الإسلام موقف انتقائى، يأخذ منه فقط «الناحية القومية»، دون غيرها من نواحيه التى تغطى جميع الميادين!

وهذه «الناحية القومية» من الإسلام والتى هى من مكونات العروبة، ومتضمنة فيها، هى «عامل التوحيد القومى» فى الإسلام .. بينما - فى رأى عفلق -

تكون «النواحي الدينية» وكذلك «العالمية – غير العربية» هي عوامل «تفريق»، لا توحيد! «فالإسلام الذى هو أقرب ما يكون إلى الواقع وإلى الماضي وإلى المستقبل هو العروبة، فإذا قلنا: الإسلام فسنختلط مع عالم آخر نصطدم معه بالمصالح، فالفروق القائمة وسط مجتمعاتنا العربية تظهر أنها لا شيء أمام الفروق فى وسط العالم الإسلامي، إذا أخذنا الأقليات العنصرية ما بين العالم العربي والإسلامي نجدها كثيرة .. فالعرب اليوم لا يريدون أن تكون قوميتهم دينية: لأن الدين له مجال آخر: وليس هو الرابط للأمة، بل هو على العكس قد يفرق بين القوم الواحد، وقد يورث – حتى لو لم تكن هناك فروق أساسية بين الأديان – نظرة متعصبة وغير واقعية .. والدولة الدينية التى كانت تجربة فى القرون الوسطى انتهت بالفشل وكلفت البشرية كثيرًا من الجهد ومن الدماء ومن المشاكل، وحدثت تقريبًا فى أوقات متقاربة فى البلاد الإسلامية وفى أوربا المسيحية».

هكذا – وعلى هذا النحو – رأى ميشيل عفلق علاقة الإسلام بالعروبة فى مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين .. فرغم إيمانه بالإسلام دينًا سماويًا .. إلا أنه قد دعا فقط إلى استلهام الإسلام: الثورة .. الإسلام .. الحضارة .. الإسلام .. التراث .. لأن هذا الجانب من الإسلام هو «الحركة» العربية التى أفصحت عن عبقرية الأمة ورسالتها الخالدة .. أى عن نزوعها واستعدادها الدائم للتجدد، أفصحت عن هذه الرسالة فى «صورة إسلامية» ولأن هذا «الجانب القومي» من الإسلام قد غدا مكونًا قوميًا فى قوميتنا العربية، ومتضمنًا فى «العروبة» التى هى الصورة العصرية لرسالة الأمة، المفصحة عن عبقريتها، والمحرك الأول والوحيد، فى عصرنا، للعرب كي ينهضوا لأداء رسالتهم الخالدة .. وأيضًا: لأن هذا «الجانب القومي» فى الإسلام هو «عامل التوحيد» للأمة، بينما – فى رأى عفلق – يمثل «الإسلام الدين الصرف» عامل تفريق بين العرب أنفسهم، وبين العرب وغيرهم من القوميات التى اعتنقت الإسلام!

تلك هى صورة الإسلام .. ومكانته .. وحجمه فى المشروع القومي لعفلق، منذ الأربعينيات وحتى منتصف السبعينيات.

وأيضًا هذه هى الصورة التى وقف عندها قراؤه ودارسوه – من القوميين والإسلاميين على السواء! – بل إنها هى صورة الإسلام ومكانته التى استقرت فى مجمل الفكر البعثى الحركي بوجه عام!

أما الجديد في فكر الرجل .. والذي أبدعه في «الحقبة العراقية» من عمره - على امتداد خمسة عشر عامًا بدأت منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين - عندما تفرغ «للفكر» ولم يبق له من «العمل الحزبي» سوى لقب «الأمين العام للقيادة القومية» - وهو اللقب الذي رغب في التنازل عنه أيضًا لكنه اضطر للاحتفاظ به تحت إلحاح رفاقه! - . أما الجديد في فكر الرجل عن الإسلام - صورته .. ومكانته في المشروع القومي، والذي لم يدرس من قبل - فهو مدهش بالقياس إلى هذا الذي سبق وقدمه .. وهو يستحق الدرس والتأمل والإنصاف.

١١٠ عن العروبة والإسلام (٥)

منذ أن استقر ميشيل عفلق بالعراق، في منتصف سبعينيات القرن العشرين، وتحرر من العمل الحزبي، ومسئولياته وحساسياته ومناوراته .. برزت في مشروعه الفكري قسمة الحديث بتوسع عن الإسلام .. وشرع الرجل يلقي الأضواء على الدور المحوري والمصيري «لاكتشافه الإسلام» منذ فجر حياته الفكرية والنضالية .. و«اكتشافه» خصوصية العلاقة بين الإسلام والعروبة، وتأثير هذا «الاكتشاف» في تميز صيغة البعث عن الصيغ التي كانت سائدة في ساحة الفكر والسياسة العربية في عقد الأربعينيات .. صيغ «القومية المجردة من الدين» كرد فعل ضد الدولة العثمانية أو تقليدًا للقوميات الغربية اللادينية - من ليبرالية .. أو ماركسية مادية.

وأخذ ميشيل عفلق ينبه على أن هذه المنطلقات - منطلقات الإسلام الحضاري - لم تعط في المشروع البعثي حقها من البحث والدرس والإيضاح واستخلاص الدروس .. وإلى جانب مزيد عنايته بها في كتاباته وخطبه ومحاضراته في «مدارس الإعداد الحزبي» أخذ ينبه الأجيال البعثية الجديدة إلى ضرورة بذل المزيد من العناية لجلاء وتطوير الرؤية البعثية لهذه المنطلقات.

فإلى جانب التركيز على دور الإسلام في تحديد الاختيار البعثي المتميز عن الخيارات الأخرى التي أهملت الإسلام أو حاربته، أخذ ميشيل عفلق يربط بين «الإسلام: الدين» و«الإسلام: التجربة» - بعد أن كان في السابق يعلن أن ما يعنيه من الإسلام فقط هو «الإسلام: التجربة» -. أخذ الرجل «يطور فكره» حيال هذه القضية .. فاختفت من كتاباته العبارات التي كانت تتهم «الإسلام: الدين الصرف» بأنه مفرق للأمة، وليس جامعًا لها .. وبأنه مساوٍ لغيره من عقائدها الدينية!

وأخذ يؤكد أن «تجربة العرب الإسلامية» فيها شيء «مطلق» و«خالد» اكتسبته من «الإسلام: الدين» فتميزت به عن «تجارب» الأمم الأخرى .. وعلى تداخل «السماء» و«الأرض» في تراث الأمة وثورتها وحضارتها ورسالتها الإنسانية .. ففي ذلك كله امتزجت «البشرية» بـ« السماوية» بل وبلغ الرجل درجة القطع «بأن الأمة العربية لا تستطيع شيئًا أقل من الوحي الإلهي .. الشيء السماوي»!

وبعد أن كان الإسلام عنده مجرد مكوِّن من مكونات القومية، وتراثًا روحيًا يغذيها، وهو مُتَضمَّن فيها . أصبح الإسلام – في كتاباته الأخيرة – الأب الشرعي للقومية العربية والعروبة، ولدت منه ولادة جديدة ومتميزة!

وبعد أن كان الإسلام عنده – فيما قبل المرحلة الجديدة – مجرد «مُفْصِح» عن عبقرية الأمة ورسالتها – التي هي سابقة عليه – ومستقلة عنه – ودائمة معه وبعده – .. غدا الإسلام – في كتاباته الأخيرة – كل شيء! .. فهو العروبة وهو الوطن .. وهو الثقافة .. وهو القومية .. وهو الحرية .. وهو الحضارة .. وهو أثمن شيء في العروبة!

وبعد أن كان حبه للإسلام نابعًا من حبه للأمة العربية، غدا الحب لذات الإسلام! .. وأصبح الحب للعرب نابعًا من أنهم أمة الإسلام!

لقد كانت «العروبة أولاً» – في فكر عفلق القديم – وهي قد حلت محل الإسلام كمحرك وَحيد للنهوض .. فلما اقترب الرجل من الإسلام أكثر وأكثر – في مرحلته الأخيرة – قال:« الإسلام أولاً»!

تلك هي حقيقة الوضوح والتطور اللذين حدثا لفكر ميشيل عفلق إزاء مكانة «الإسلام: الحضاري»، وحجم مرجعيته في المشروع القومي لنهضة الأمة العربية. وهما وضوح وتطور قد استتبعا امتداد رؤيته إلى ما وراء حدود الوطن العربي والأمة العربية. فاختفت نظرته السلبية لعلاقة الأمة العربية بالمسلمين غير العرب .. وبرز حديثه عن «الشعوب الإسلامية» وعن العلاقة المتميزة بين الأمة العربية وهذه الشعوب الإسلامية .. بل ودعا إلى الحوار مع «الإسلاميين» – «حوار الحب والعقل» – بعد أن كانت دعوته للحوار قاصرة على القوميين والماركسيين:

كل ذلك حدث في فكر ميشيل عفلق منذ عقد السبعينيات .. مصاحبًا لتعاظم المد الإسلامي .. ولتعاظم الهيمنة الغربية على وطن العروبة وعالم الإسلام .. ولقد

سبق هذا التطور - فى فكر ميشيل عفلق - قيام الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م والحرب «العراقية - الإيرانية» فبرئ من شبهة المزايدة بشعارات الإسلام!.

نعم .. لقد صاحب هذا التطور - فى اتجاه تبنى الإسلام - تعاظم مد الصحوة الإسلامية .. الأمر الذى يوحى بالعلاقة بينهما .. لكنه سبق الثورة الإيرانية بخمس سنوات.

أما نصوص الرجل وعباراته، التى كشفت وقدمت هذا التطور الجديد، فإنها تحتاج إلى حديث جديد.

(١١١) عن العروبة والإسلام (٦)

فى سنة ١٩٧٦ بدأ ميشيل عفلق – بعد أن تحرر من قيود التنظيم الحزبى – يولى الأهمية لإلقاء الأضواء على دور الإسلام فى تحديد «الخيار القومى البعثى» وعلى تداخل «خلود» الدين و«إطلاقه» فى «التجربة العربية» على النحو الذى ميزها بنسبة من «الخلود.. والإطلاق» جاءت ثمرة لتداخل «السماء» و«الأرض» فى هذه «التجربة» فكتب – فى نص طويل وهام – يقول:

«قراءة جديدة للإسلام كشفت لنا عن حقائق أساسية فى روح شعبنا ونفسيته، وأضاءت لنا طريق العمل الثورى.. وثمة واقع ذاتى جاء فى الوقت نفسه تعبيرًا عن واقع موضوعى.. الواقع الذاتى هو أننى شخصيًا فى بداية تكوين الحزب اكتشفت الإسلام. أقول اكتشفت، ولا أعنى أننى لم أكن أعرف الإسلام.. فقد كانت هنالك ألفة منذ الصغر. اكتشفت الإسلام كثورة.. كتجربة ثورية هائلة، وقرأته قراءة جديدة من هذا المنظار. إنه عقيدة، ونضال فى سبيلها.. وقضية، هى قضية أمة، وقضية إنسانية. بل إنه قضية أمة بتصور إنسانى أوسع.. ونضال على أروع ما يكون، بأعلى مراحله، وبما فيه من تنظيم دقيق، وتثقيف، إلا أنه أيضًا دين، فهو تجربة ثورية السماء فيها متداخلة مع الأرض.

ولولا هذا الاكتشاف لما كان مستبعدًا أن يأخذ تفكيرنا، كشباب مثقف مخلص لبلده، يريد أن يعمل شيئًا بإحدى الصيغ: إما بالتحرر بالصيغة الغربية.. وهذه كانت معروفة عند الكثيرين، ولم تكن شيئًا معيبًا.. وإما صيغة أخرى أحدث، وفيها نزعة تقدمية، وجدة.. وهى صيغة الماركسية، أو الشيوعية، وفيها النقد للمجتمع والاستغلال الرأسمالى الطبقى. كل هذا كان واردًا، وقد مشى عشرات المثقفين العرب فى هذا السبيل.

لماذا اختط البعث طريقًا خاصة به؟ هذا أمر لم نتحدث فيه؛ لأننا لا نريد الدعاية .. ولكن، بعد أكثر من ثلاثين سنة من نشوء الحزب، علينا أن نذكر ذلك، ونقول إن الفضل في ذلك يرجع إلى اكتشافنا الإسلام.

إن المسلم لا يكتشف الإسلام .. وكذلك البعيد عن الإسلام .. الذي يكتشف الإسلام ينبغي أن يجمع بين الاستعداد النفسي والجدة .. أي ذلك الذي لم تضعف العادة والألفة حساسية عينيه وأذنيه .. فالمسلم الذي نشأ في بيت مسلم منذ طفولته، واعتاد سماع الكلام عن الإسلام، يتكون عنده نوع من الضعف في رهافة الحس والذهن، فلا يرى الجديد في هذا الكلام، ولا يدرك المعنى العميق والهزة الروحية .. كما يحصل حين يهزك الكلام الذي تسمعه لأول مرة.

ولكن، هل اكتشاف الإسلام وقراءته قراءة جديدة، هو فقط أن شخصًا وضع جهده وقرأ الإسلام قراءة جديدة؟

لا .. فهناك ظروف موضوعية للأمة العربية .. للثورة العربية، هي مواجهة الاستعمار الغربي والحضارة الغربية، والسؤال عن سبيل الخلاص، عن كيفية الإنقاذ. كيف نتحرك؟ كيف نتقدم؟ هل بالشيوعية؟

قرأنا الإسلام .. بعد قراءة الشيوعية .. بعد مواجهة التحدي الاستعماري الغربي وحضارته .. وبعد الاطلاع على الحل الثوري الشيوعي الآتي من الغرب أيضًا.. فهي إذن قراءة من خلال موقف مصيري من تحديات الاستعمار والحضارة الغربية، ومن تحديات الفكر الشيوعي.

المهم هو هذه الصورة التي انطبعت أثناء القراءة الجديدة للإسلام، والتي أعطت أشياء أساسية، بعضها واضح، وبعضها واقع بين الوضوح والإبهام.

إن الأمة التي يختارها القدر لتكون مسرحًا لمثل هذه التجربة، البشرية السماوية، هي أمة حكم عليها، وإلى الأبد أن تكون متميزة عن باقي البشر؛ لأنها ذاقت طعم شيء لم يشاركها أحد فيه .. إنها لا يمكن أن تستطيب شيئًا أقل من مستوى الوحي الإلهي .. الشيء السماوي، الذي هو، أيضًا، بشري ومتجسد في عقل بشري واضح.

عندما نضع يدنا على هذه الميزة التي للأمة العربية، بهذا الوضوح وبهذه الواقعية، وهذه القوة،فلاشك أنها توحي بطريق خاص للثورة العربية، ليس

المطلوب فيه أن نخالف العقل البشرى، أو نخالف العصر، والقوانين العلمية، فمن ضمن قوانين العقل والعلم يعطى هذا الاكتشاف لحركة الثورة العربية خصوصية.. يعطيها مستوى، وأخلاقية معينة .. كما يعطيها سعة إنسانية، وكونية .. يعطيها اتساعًا وشمولاً .

لا أريد القول إن الأفكار كانت كلها جديدة .. لأنها في الجو العربي .. ولكن الحزب كثفها وأحس بها بقوة أكبر، انبعثت كلها من لحظة اللقاء مع التجربة الخالدة.

الأمة العربية لها رسالة لا تستطيع التنازل عنها وتبنى غيرها .. فالأمة العربية شغلت بحضارتها ثلث التاريخ البشرى، وكانت هذه الحضارة إحدى الحضارات الإنسانية الثلاث المؤثرة.

فالتراث وحده يعطى الأمة شعورًا بالوحدة، كما يعطيها حق الطموح إلى حمل الرسالة . قراءة التراث تعطى للثورة فى العالم، ولثورات العصر، بما فيها الثورة العربية، نسبية معينة؛ لأنها جميعًا ثورات بشرية، بحدود طاقة الإنسان مهما بلغت هذه الطاقة، وتجربة الأمة العربية من خلال الإسلام، فيها شيء مطلق .. في حين أن كل شيء آخر نسبي، قد يعيش عشر سنوات، أو مائة سنة .. ولكن ليس فيه الخلود.

هذا بالذات أعطانا جرأة معينة لنقد الشيوعية، تجاوزنا أوضاعنا القومية إلى الأوضاع الإنسانية عامة أي إن نقدنا للشيوعية لم ينحصر فى أن الشيوعية لا تلائمنا كعرب، بل تعداه إلى الكشف عن النقص الأساسى فى هذه النظرية بالنسبة للعرب ولغيرهم».

هكذا بدأ ميشيل عفلق سنة ١٩٧٦م يفسح المكان للحديث عن دور الإسلام في تحديد الخيارات المتميزة بالنسبة لفكره القومى والاجتماعى .. ولحديثه هذا بقايا تفصح عن التطور الكيفى الذى بلغه فكره عن الإسلام فى هذا الطور الجديد من فكره حيال الإسلام .. وعلاقة العروبة بالإسلام.

١١٢ عن العروبة والإسلام (٧)

في سنة ١٩٧٧م .. عاد ميشيل عفلق فأفسح الحديث عن اكتشافه للإسلام .. وعن دور الإسلام في تحديد توجهاته الفكرية .. وعن حجم الإسلام في مرجعية المشروع الحضاري البعثي، منبهًا على أن هذه القضية الهامة لم تعط في أدبيات البعث وفكره القدر الواجب لإيضاحها وتطويرها .. فكتب عن الموقف من «التراث والإسلام» يقول:

«لقد كانت اللحظة التاريخية في حياة الثورة العربية المعاصرة: سلامة الاختيار .. ولم يكن الاختيار بين روح ومادة، بل بين مادة مستقلة مسيطرة، ومادة تابعة من الروح، وتابعة لها، والروح، في تفكيرنا، ليست شيئًا غيبيًا ولا سحريًا يناقض منهجنا العلمي، وإنما هي الوعي، وهي الإرادة والأخلاق وكل النزعات التي تشدنا إلى الخير والجمال والتضحية والبطولة، وهي الإيمان بالحقيقة والعدالة والحرية.

وقد كان الموقف من التراث القومي، وعلاقته بمرحلة الانبعاث القومي المعاصرة، معبرًا عن أحد الاختيارات الكبرى لفكر البعث، وقد قام من البدء على تصور ثوري للإسلام : لذلك لم يكن غريبًا أن يعود الحزب بين الحين والآخر ليؤكد منطلقاته الأساسية التي لم تعط الاهتمام الذي تستحقه، ولم يستخرج منها كل العبر الكامنة فيها، كالموقف من التراث والإسلام».

وعندما يُسأل ميشيل عفلق في «مدرسة الإعداد الحزبي» عقب إحدى محاضراته عن نطاق حديثه حول صلة العروبة بالإسلام .. هل هو النطاق التراثي التاريخي؟ فهي «صلة ذكريات .. أم أنها – هذه الصلة – لا تزال قائمة وحيّة ومتجددة؟ تأتي إجابته لتؤكد دوام وتجدد الصلات بين العروبة – النسبية – وبين الإسلام – المطلق – على النحو الذي يميز عروبتنا عن غيرها من القوميات .. لقد سئل:

- «تؤكدون باستمرار صلة العروبة الحية بالإسلام فهل هى صلة ذكريات؟ أو امتداد؟ أو تجديد؟

فكان جوابه «الصلة، كما نراها ونؤمن بها، هى صلة عضوية بين العروبة والإسلام، لا يمكن أن تنفصم، صلة تاريخ، وهى مستمرة منذ القدم، حية لا تموت، وهى أيضًا صلة تجديد : أى إننا لنا فهم ثورى للإسلام، ونرى أيضًا ونعتقد بأن نشوء حركات إصلاحية وثورية فى الدين تنفض الغبار عن حقيقة الدين وتعيد إليه إشعاعه وحيويته، أعتقد أن هذا ضرورى فى حركة الثورة العربية، وأعتقد أنه سيحصل بشكل حتمى.

الأمة عندما تنهض وتدخل فى طور الإبداع، إنها تنهض وتبدع فى كل مجالات الحياة ولا تقتصر على ناحية واحدة، والدين من أهم مجالات الحياة .. والحياة الروحية فى الإنسان لها أهميتها الكبيرة.

لذلك، بمقدار ما تتقدم مسيرة الثورة العربية نجد أن الفكر الدينى يصبح أكثر إشراقًا .. أكثر تجددًا .. أكثر تحررًا، يذهب إلى اللب وإلى الحقيقة ويتخلى عن القشور وعن العقلية الحرفية الجامدة. النهضة العربية ستكون نهضة شاملة : نهضة فى الفكر : ونهضة فى الدين : ونهضة فى الفن : ونهضة فى البناء المادى والاقتصادى : ولذلك كانت نظرة الحزب إلى صلة العروبة بالإسلام بأنها هى بصورة خاصة صلة تجديد : أى إننا نستمد من فهمنا الثورى لحركة الإسلام قوة ثورية لتجديد عقليتنا ولتجديد أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والقومية.

وهنا أحب أن أشير إلى فكرة عزيزة علىَّ، وهى أن أمتنا قد عرفت عند ظهور الإسلام ما لم يتسن لأى أمة أخرى أن تعرفه .. عرفت تجربة مطلقة، وبقى شىء من هذه الذكريات فى نفس كل عربى حتى الآن، وسيبقى ذلك طويلا إلى المستقبل البعيد .. نحن كعرب، عندنا هذا الرصيد الروحى .. هذا التراث، إذا حرصنا على أن نبقى صلتنا حية بيننا وبينه، وخاصة نحن كحركة ثورية، أن نستلهم هذا التراث بقيمه الروحية والأخلاقية السامية، فإننا نعطى لثورتنا العربية ضوابط أخلاقية وجوًا فيه هداية، وفيه ورع، وفيه ضوابط كثيرة نحن بحاجة ماسة إليها، لذلك قلت: إن ثورات العصر نسبية، والثورة العربية كذلك ثورة نسبية، ولكنها إذا حرصت على صلتها بالتراث الخالد فإنها تستطيع أن تدخل إلى جوها شيئًا من المطلق : أى من الضوابط الأخلاقية الرفيعة».

وهكذا .. فى هذه المرحلة الأخيرة من تطور فكر ميشيل عفلق حول علاقة العروبة بالإسلام - تعانقت- فى المرجعية التراثية «التجربة . والحركة» أى «الإسلام الحضارى» - مع «المطلق .. والخالد»: أى «الإسلام الدين»، بل تحدث عفلق عن ضرورة أن نستمد من الإسلام الحضارى القوة الثورية لتجديد عقليتنا ولتجديد أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والقومية، وعن ضرورة اتخاذ التراث الروحى - أى الإسلام - ضابطًا ورادعًا للثورة والثوار فى واقعنا العربى المعاصر.. بل دعا إلى استمداد «الهداية» من هذا التراث!!

فالأمة العربية التى شرفت باقتران نهضتها الأولى برسالة الإسلام، لا تستطيع - برأى ميشيل عفلق - فى نهضتها الحديثة والمعاصرة - شيئًا أقل من الوحى الإلهى!

١١٣ عن العروبة والإسلام (٨)

لا نغالى إذا قلنا إن المرحلة الأخيرة من فكر ميشيل عفلق - مرحلة الحقبة العراقية التى تحرر فيها من العمل الحزبى ومشكلاته ومقتضياته - قد شهدت تطورًا قارب الانقلاب فى رؤيته لعلاقة العروبة بالإسلام .. وهذه حقيقة أُهملت، فلم يدرسها القوميون والإسلاميون على حد سواء!

فبعد أن كان الرجل يرى فى «الإسلام الحضارى» مجرد ثمرة ونتيجة أفصحت عن عبقرية الأمة العربية، وعبرت عن رسالتها الخالدة ونزوعها واستعدادها للعطاء المتجدد، وتحقيق الذات - فى مرحلة تاريخية بعينها - ولقد حلت القومية - باعتبارها المفصح عن رسالة الأمة وعبقريتها - محل الإسلام فى العصر الحديث .. فهى - أى القومية - المحرك المعاصر للثورة والنهضة، وليس الإسلام .. بعد أن كان يرى ذلك، قبل سبعينيات القرن العشرين، وصل تطوره الفكرى إلى «قلب» هذه المعادلة، فتحدث عن الإسلام الحضارى باعتباره «المكون للأمة» وقال: «فالشعب العربى .. شعب واسع ، رحب .. لا تكتنفه العقد .. وهو منفتح متسامح، مستقر على أرضه، غير مشرد وغير تائه، مؤمن بالمستقبل، وواثق بهذا المستقبل مهما حدث .. فهو إنسانى بعقيدته وبتكوينه أيضًا، وبامتداد رقعة وطنه».

وكل هذا الذى اكتسبه الشعب العربى، وتميزت به الأمة العربية هو من ثمرات الإسلام وبفضله .. وبعبارات ميشيل عفلق: «إذ بدون الإسلام كان يمكن لهذا الشعب العربى أن يبقى بعقلية قبلية».

ورغم سبق العروبة للإسلام - فى الزمان - فإن النهضة العربية الأولى، التى اقترنت برسالة الإسلام الدينية، هى «التى كونتهم كأمة».

فالأمة العربية قد غدت في التطور الفكرى - لعفلق - ثمرة للإسلام .. بعد أن كان الإسلام - في فكره القديم - مجرد مفصح عن عبقرية هذه الأمة!

وبعد أن كان «الإسلام الحضارى» مجرد مكوِّن من مكونات القومية العربية، وتراث روحى ينهض بتغذية العروبة، وهو مُتضمَّن فيها، وهى التى تعبر عنه، بل لقد غدت مغنية عنه؛ لأنها هى وحدها المحرك للأمة فى مشروع نهضتها المعاصرة، كما كان الدين هو المحرك لها فى نهضتها الأولى، إبان ظهور الإسلام.

بعد أن كان هذا هو فكر ميشيل عفلق، وكانت تلك هى صياغته لعلاقة العروبة بالإسلام - إبان المرحلة الفكرية السابقة على عقد السبعينيات - أصبح يتحدث عن الإسلام باعتباره «أهم وأعمق حقيقة فى تكوين القومية العربية .. فهو جوهر العروبة والمحور والروح للمشروع الحضارى .. ومصدر إلهام النهضة المعاصرة .. «فمن أجل قوميتنا، ولكى يكون مجتمعنا صحيحًا سليمًا، أكدنا ضرورة الدين، وأنه حاجة ملازمة للنفس الإنسانية التى تلبى مطلبًا عميقًا وأساسيًا فيها، وأن الدين خالد .. وهكذا كان الدين الحقيقة الإنسانية الثانية التى أكدها الحزب منذ بدايته، فى وقت كان الفكر المادى الإلحادى يغزو عقول الشبيبة العربية، مستغلاً ظمأ هذه الشبيبة إلى التحرر والانعتاق وإلى الثورة والتجديد.

ومن أجل قوميتنا، ولكي تكون صحيحة وصادقة ومكتملة الجوانب والأبعاد الروحيّة والأخلاقية والحضارية، نظرنا إلى أعماق هذه القومية وإلى جذورها والينابيع التي تنهل منها، فوجدنا الإسلام أهم وأعمق حقيقة في تكوينها، وأنه روحها وأفقها الأخلاقي والإنساني.

لقد طرح فكر البعث ذلك كله في وقت شاعت فيه الدعوات التى تنكر القومية والدين أو تشوههما وتستغلهما، وفى وقت كانت فيه الاشتراكية مطروحة كنقيض للقومية، وتيار الثورة والتجديد نقيضًا للاستقلالية والأصالة والتراث الروحى».

لقد أصبح عفلق يرى أن الإسلام هو الذى يكون أول مقومات الشخصية العربية.. وبالنسبة للثورة العربية فإنه هو الذى يكون روحها، وقيمها الإنسانية، وأفقها الحضارى .. إنه جوهر العروبة، وملهم ثورتها الحديثة. ولذلك. فإن من الطبيعى أن يحتل الإسلام - كثورة عربية فكرية أخلاقية اجتماعية ذات أبعاد

إنسانية – مركز المحور والروح في هذا المشروع الحضارى الجديد لأمة واحدة ذات تاريخ عميق ورسالة حضارية إنسانية

هكذا تطور ميشيل عفلق – كمفكر قومى – من الموقع الذى كان يرى فيه الإسلام الحضارى مجرد مكوّن من مكونات القومية العربية، أفصح عن عبقرية الأمة إبان نهضتها الأولى .. إلى الموقع الذى رأى فيه هذا الإسلام مكون الأمة .. وأول مقومات الشخصية العربية .. وجوهر العروبة .. وروح ثورتها .. وقيمها وأفقها الحضارى.

١١٤ عن العروبة والإسلام (٩)

نحن نقول: إن الثقافة العربية إسلامية المحتوى، عربية اللسان .. وإن إسلامية هذه الثقافة العربية رباط جامع وموحد لكل الأمة، على اختلاف شرائعها الدينية.

تلك حقيقة لا يختلف عليها الإسلاميون .. بل هم دعاتها والمدافعون عنها.

ونحن عندما نتأمل صياغات ميشيل عفلق - حول هذه القضية - نراه واقفًا على ذات الأرض المشتركة .. فالإسلام عنده هو «الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ومبادئه الإنسانية وقيمه الأخلاقية والحضارية هي روح العروبة ومصدر إلهامها المتجدد .. تلك هي النظرة العلمية المضاءة بالحب «حب العروبة وحب الإسلام».

وهذا الارتباط بين العروبة والإسلام - في رأي ميشيل عفلق - ليس فكرا نظريًا، وإنما هو واقع حي تعيشه الأمة، وتتنفسه «كالهواء» ولا يحتاج إثباته إلى براهين وأدلة .. إنه نتاج القرون والأجيال، ولكنه قبل كل شيء (والكلام لميشيل عفلق) هو إرادة إلهية، طبعت الحياة العربية، وهو قد ظل أيضا بالنسبة للشعوب الإسلامية غير العربية بمثابة الحقائق البدهية .. فالقومية العربية قائدة في خدمة الإسلام، وتدميرها ليس إلا ضربًا لمصلحة الإسلام في الصميم.

هنا .. وفي هذه المرحلة الأخيرة من تطور فكر ميشيل عفلق، بدأ يتحدث بإيجابية عن الشعوب الإسلامية غير العربية .. وتحدث عن أن القومية العربية «خادمة للإسلام»!

ويعلل ميشيل عفلق اهتداء صيغة تياره القومي - البعث - إلى «الإسلام الحضاري» كمرجع لقوميتنا ومشروعنا الحضاري، بنشأة هذه الصيغة في ظرف موضوعي سيطرت عليه حدة الصراع الحضاري بين أمتنا وبين الحضارة

الغربية.. فالعرب الذين تبنوا صيغة القومية العربية المجردة من الإسلام قد صنعوا ذلك إبان الصراع مع الدولة العثمانية – ذات المشروعية الإسلامية – والشعارات الإسلامية – أما المرحلة التي أعقبت ذلك والتي نشأ فيها البعث، فلقد تميزت بهيمنة الغرب، وصراعه الحضاري ضد أمتنا، بسبب تدينها وتحصنها بالإسلام .. فالإسلام هو هوية الأمة وسلاحها الحضاري في هذا الصراع .. ومن ثم كانت له هذه المكانة المرجعية في هذا المشروع القومي الجديد .. وفي ذلك يقول ميشيل عفلق: «إن حركة البعث وجدت في فترة تاريخية فاصلة بين مرحلة استنفدت أغراضها، ومرحلة مضطربة قلقة ورؤيتها للمستقبل غير واضحة.

المرحلة التي استنفدت أغراضها كانت مرحلة القومية العربية المجردة، والتي اقتضاها الصراع التحرري ضد الهيمنة العثمانية، فلم تكن تستطيع رفع شعار الإسلام الذي كان هو شعار الدولة المهيمنة، واستمرت الحال حتى بعد أن زالت الظروف التي استوجبت ذلك.

واستجدت ظروف هيمنة الاستعمار الغربي على الأقطار العربية، هذه الظروف التي أعادت الأمور إلى نصابها، حين أعادت الإسلام إلى العروبة.. إلى القومية العربية لضرورة المواجهة الحضارية – مع الاستعمار الغربي .. لقد تم ذلك بنظرة إلى التقدم .. ونظرة إلى الإسلام .. ولدت منهما نظرة جديدة للإسلام، كثورة عربية إنسانية حضارية، قابلة للتجدد والانبعاث في كل مرحلة تاريخية مصيرية من حياة الأمة العربية.

وهكذا بدأ طريق المستقبل العربي يزداد وضوحًا، فهو لا يبنى إلا عن خلال الثورة باتجاه التقدم، ولكن باستلهام الأصالة التي تجسدها ثورة الإسلام، بواقعها العربي وجوهرها الإنساني، وأبعادها الحضارية .. لنهضة تاريخية يكون الإسلام بمفهومه الثوري، مصدر إلهامها.

• هكذا حدد ميشيل عفلق الظرف الموضوعي الذي استدعى مرجعية الإسلام في المشروع الحضاري القومي .. بعد أن حجبته عنه ظروف الصراع «العربي – العثماني» .. وفي هذا الظرف كان الصراع الحضاري بين الغرب الاستعماري، وبين الأمة العربية هو الأساس .. وكان الإسلام في مركز أسباب هذا الصراع!

وإذا كانت هذه الحقيقة التي أشار إليها ميشيل عفلق – حقيقة استدعاء التيار القومي لمرجعية الإسلام في مشروعه، بسبب وجود الهيمنة الاستعمارية الغربية

المعادية للإسلام - وإذا كانت المتغيرات التى حدثت فى العقد الأخير من القرن العشرين قد زادت من درجة الهيمنة الغربية حتى وصلت إلى «اجتياح العولمة» وإلى «إعلان» العداء للإسلام .. أفلا تجعلنا هذه المتغيرات نوجه أنظار التيار القومى إلى أهمية وضرورة استدعاء كامل الإسلام إلى المشروع القومى؟

لقد كانت الهيمنة الاستعمارية فى النصف الأول من القرن العشرين، وكانت يومئذ، فى مرحلة «غواية الترغيب والترهيب»، السبب فى استدعاء الإسلام الحضارى فى مرجعية المشروع القومى .. واليوم وبعد أن وصلت الهيمنة الاستعمارية - بعد إعلانها العداء للإسلام وأمته وحضارته - إلى مرحلة «اجتياح العولمة» - ألا يستدعى ذلك تطوير علاقة القوميين بالإسلام؟ واستدعاء كامل الإسلام إلى مرجعية المشروع القومى؟

(١١٥) عن العروبة والإسلام (١٠)

في المرحلة الأولى من الحياة الفكرية لميشيل عفلق، لم يكن الإسلام غائبًا عن مشروعه القومي، لكنه كان مختزلاً .. فهو التراث الموحد للثقافة القومية للأمة .. والذي سبق ومثل التعبير عن رسالتها الخالدة إبان ظهوره .. لكن القومية قد حلت محله - في عصرنا - باعتبارها المفصحة عن عبقرية الأمة، والممثلة لرسالتها والحركة الوحيدة لنهضتها الجديدة .. ووجود الإسلام في المشروع القومي لا يعدو أن يكون في حيز مكوِّن من مكونات القومية العربية.

أما في المرحلة الأخيرة من التطور الفكري لعفلق - منذ منتصف السبعينيات حتى وفاته - فلقد غدا الإسلام المكوِّن للأمة .. وأبا القومية التي ولدت منه ولادة جديدة .. وهو جوهرها وروحها وقيمها .. لقد أصبح الإسلام هو: الدين .. والقومية .. والوطن .. والوطنية والثقافة القومية .. وأثمن شيء في العروبة .. والحضارة والحرية.

وبعد أن كانت معادلة العلاقة بين العروبة والإسلام - في فكر عفلق - تقول: القومية أولاً .. وصل الرجل - في تطوره الفكري - إلى أن يقول: الإسلام أولاً! وأعلن أنه كان يحب الإسلام كثمرة لحبه للعرب .. أما الآن فلقد أصبح الحب للإسلام .. وما العرب إلا أمة الإسلام .. وما العروبة إلا ضرورة لنصرة الإسلام!

ولأن كثيرين - من القوميين والإسلاميين - يدهشون - بل يتشككون من هذا الذي نقول، فإننا نسوق إليهم نصوص الرجل - دونما تدخل أو تعليق أو حتى استنتاج، وندعوهم - هم - إلى القراءة والتفسير والحكم والاستنتاج .. لقد قال الرجل في سنة ١٩٨٢م وسنة ١٩٨٤م وسنة ١٩٨٦م:

«وعندما أقول: عروبة، تعرفون بأنني أقول: الإسلام أيضًا لا بل أولاً

العروبة وجدت قبل الإسلام، ولكن الإسلام هو الذى أنضج عروبتنا، وهو الذى أوصلها إلى الكمال، وهو الذى أوصلها إلى العظمة، وإلى الخلود.. هو الذى جعل من القبائل العربية أمة عربية عظيمة؛ أمة عربية حضارية. فالإسلام كان، وهو الآن وسيبقى روح العروبة، وسيبقى هو قيمها الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية، هذا هو الإخلاص للشعب، هذا هو حب الشعب، هذه هى الحقيقة.

صحيح أننا نصل إليها فى المطالعة وفى قراءة التاريخ، ولكننا نصل إليها بصورة أعمق وأصدق عندما نقترب من شعبنا، ونصغى إلى دقات قلبه وإلى خلجات ضميره، إلى هذا الترادف، هذا التمازج بين العروبة والإسلام .. فالوطنية هى العروبة بعينها .. والعروبة هى الإسلام فى جوهره.

لقد نمت البذور الأولى للبعث فى عهد الكفاح الوطنى ضد الاستعمار الفرنسى، الممثل فى ذلك الحين للغطرسة الغربية، وللتعصب العنصرى والدينى ضد العروبة والإسلام .. فكان صراع أمتنا مع الاستعمار الغربى صراع حضارة وتاريخ وتراث وعقيدة، فكان رجوع البعث إلى الإسلام فى مواجهة الطغيان الغربى الحضارى رجوعاً طبيعياً وعفوياً لم يحتج إلا إلى الحس الصادق .. وتلك بداية الطريق التى أعطت الحزب أصالته الراسخة .. لقد وجد الحزب فى معين الإسلام الذى لا ينضب، أول ما وجد، عروبة الإسلام، العروبة كهوية، وطبيعة، وأرض، ولغة، وتاريخ، والعروبة كشعب ومجتمع فى حالة مخاض وتحفز، والعروبة كثورة فجرها الإسلام فأصبحت ثورة إنسانية عالمية، وأعظم ثورة فى التاريخ البشرى، والعروبة كرسالة خالدة؛ لأن الإسلام – وهو دين هداية للعالمين – كان العرب أول من حمل مسئولية نشره، وسيظلون مسئولين قبل غيرهم عن حمايته ورفع لوائه وتجسيد قيمه فى نهضتهم الحديثة.

- وعروبة الإسلام لا تتعارض مع إنسانيته وعالميته ومصدره السماوى، بل تسمو بهذه الحقائق وتشرف وتزداد قوة.

ونعتقد أن أية أمة من الأمم معرضة لأن تجنح إلى الإلحاد، ماعدا الأمة العربية التى يدخل الإسلام فى نسيج شخصيتها وتاريخها؛ لأن الإسلام بالنسبة إليها هو دين، وقومية، وحضارة، وهل يستطيع شعب أن يهرب من شخصيته، ويتمرد على قوميته، ويتنكر لحضارته؟!

ولئن وُجدت شعوب تنشد الحرية بالانعتاق من الدين، فالأمة العربية تجد حريتها في الفهم المتجدد للإسلام؛ ولذلك، فإن الدفاع عن الإسلام هو مهمة القوميين الذين يريدون أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء.

إن الإسلام هو وطن الأمة العربية الروحي والمادي بكل ما تحمل كلمة وطن من معاني حب الأرض والأهل وحب اللغة والتاريخ».

هكذا تحدث ميشيل عفلق عن الإسلام، وأبوته للعروبة والأمة والوطن والوطنية والحضارة والهوية والتاريخ ـ وتلك هي نصوص عباراته، تطلب إعادة القراءة والفهم والعدالة في التقويم!

وبدأ ميشيل عفلق يتحدث عن الشعوب الإسلامية غير العربية، كعمق للأمة العربية، يشعر نحوها بعاطفة القربى، بعد أن كان يرى – في المرحلة الأولى من حياته الفكرية – في هذه العلاقة عامل «تفريق»!

لقد أصبح الإسلام – عنده – : الأب الشرعي للأمة .. ورسالتها التي لولاها لما كان لهذه الأمة مبرر للبقاء!

«لقد ولد الإسلام في أرض العروبة، وضمن تاريخها وأهلها، ولكنه أصبح هو أباها؛ لأنها ابتداء من الإسلام ولدت ولادة جديدة. وأصبحت أمة عظيمة تاريخية، لها دور أساسي في تاريخ الإنسانية، وفي صنع مستقبل الإنسانية. الإسلام أعطى للأمة العربية هذه الأبعاد .. أعطاها مسئولية الدور الإنساني العظيم، وأعطى العرب مذاق الخلود وطعم الحياة الحقيقية، التي هي جهاد قبل كل شيء، وفكرة ومبدأ وعقيدة، ولا خوف على العروبة مادامت مقترنة بالإسلام؛ لأنه كفيل بأن يجددها ويوقظ فيها هذه النزعة إلى السماء .. إلى الخلود.. إلى الأفق الكوني.. إلى البطولة وحمل الرسالة .. وعندها تتهاوى الأمراض العالقة والمشاغل المادية والآنية التي لا تليق بأمتنا ولا تعبر عن حقيقتها وحقيقة رسالتها .. وبنهوض الأمة ووحدتها ينتصر الإسلام ويعلن وجهه الحقيقي الإنساني السمح الذي تحتاجه الإنسانية اليوم كما احتاجته في الماضي، وكما ستبقى بحاجة إليه في المستقبل.

إن الإسلام هو الذي حفظ العروبة، وشخصية الأمة في وقت التمزق والضياع وتشتت الدولة العربية إلى طوائف وإلى ممالك ودويلات عدة متناحرة وكان مرادفًا للوطنية وللدفاع عن الأرض والسيادة، والداعي إلى الجهاد أمام العدوان والغزو الأجنبي، وسيبقى دومًا قوة أساسية محركة للنضال الوطني والقومي. وهو الذي خرجت من صلبه ومن حركة التطور التاريخي فكرة القومية العربية، بمفهومها الإنساني السمح، وهو الذي يحيط الأمة العربية بسياج من الشعوب المتعاطفة معها

إن الإسلام هو العامل الصميمي المندمج في نسيج الأمة، وفي تاريخها، وفي حياتها اليومية .. ولا يصح تناول الإسلام من الموقع الحيادي النظري السياسي، والشيء الطبيعي هو أن يكون انفتاح التيار القومي على الإسلام موقفًا فيه الحرارة والحنين والغيرة والحرص، والاعتراف بالفضل، وبما يشكله الإسلام من

ضمانة مصيرية لقوميتنا ولمستقبلنا كأمة .. ومن هذا المنطلق يستطيع التيار القومى أن يحاور التيار الدينى المتجرد الوطنى حوار الحب والعقل»..

هكذا انتهى ميشيل عفلق – أبرز مفكرى ومنظرى التيار القومى العربى – إلى صياغات فكرية حول علاقة العروبة بالإسلام، تستدعى إعادة الدراسة .. والتأمل العميق: لأنها – فى رأيى – تفتح الباب إلى إعادة اللحمة – مرة أخرى – بين العروبيين والإسلاميين فى بلادنا العربية، كما كانت يوم كانت العروبة والإسلام تيارًا واحدًا، وقبل الانقسام الذى حدث بسبب القومية المجردة من الدين التى أتى بها إلى الشام نفر من مثقفى الموارنة المتغربين العلمانيين.

إن هذه الصياغات الفكرية التى مثلت ذروة النضج والتطور فى المشروع الفكرى – القومى – لميشيل عفلق جديرة بأن تكون موضوعًا للدرس والحوار بين القوميين والإسلاميين على حد سواء .. ففيها بدايات وقواعد الكلمة السواء التى تدعو إليها هذين التيارين اللذين يمثلان الأصالة والمستقبل فى وطن العروبة وعالم الإسلام.

١١٧ عن العروبة والإسلام (١٢)

الإسلام دين الفطرة .. والفطرة الإنسانية تشهد على تعدد وتدرج دوائر الانتماء والولاء لدى الإنسان .. فللإنسان ولاء وانتماء إلى أهله وعشيرته، لا يتناقض مع ولائه وانتمائه إلى شعبه، وهاتان الدائرتان لا تناقض بينهما وبين ولاء الإنسان وانتمائه إلى قومه - الذين يتكلم وإياهم لغته القومية، ثم إن كل هذه الدوائر لا تتناقض مع الانتماء إلى الدائرة الأعظم وهى الدائرة العقدية والحضارية - دائرة الجامعة الإسلامية، والانتماء إلى الإسلام - وأخيرًا، فهذا الإنسان الجامع لدوائر الانتماء الأهلى والوطنى والقومى والإسلامى هو فى النهاية جزء من الدائرة الإنسانية، بحكم الخلق الإلهى للناس من نفس واحدة، وبحكم ما بين الأمم والحضارات من مشترك إنسانى فى المنافع والقيم والعلوم والأفكار.

تلك هى الفطرة الإنسانية السوية التى اعتمدها الإسلام فى دوائر الانتماء، فعاشت الأمة الإسلامية محيطًا يحتضن جزر الأقاليم والأوطان والأجناس والقوميات، دونما تناقض بين هذه الانتماءات الفرعية وبين الانتماء الأول إلى جامعة وأمة الإسلام.

لكن غزو المفاهيم الغربية - ذات الطابع العنصرى والعلمانى - لمصطلحات الوطنية والقومية - وخاصة بعد سقوط الخلافة والدولة الإسلامية الجامعة سنة ١٩٢٤م - طرح فى الساحة الفكرية مفاهيم توهم التناقض بين هذه الدوائر فى الانتماء .. فعرفت بلادنا دعوات وطنية تسوى بين العروبة والإسلامية وبين الاستعمار .. ودعوات قومية تدير ظهرها للدائرة الإسلامية، وتغض من شأن الانتماء الوطنى، الأمر الذى أوجد مشكلات فكرية طارئة فى المفاهيم الإسلامية فى ميدان الانتماء.

غير أن الدعوات الإسلامية التي قامت عقب سقوط الخلافة، وزعماء الإصلاح الإسلامي ظلوا على ولائهم لهذا الموقف الإسلامي الجامع بين هذه الدوائر المتوالية والمتدرجة والمتداخلة في سلم الانتماء.

ففي ثلاثينيات القرن العشرين [١٣٥٧ هـ ١٩٣٨م] يكتب الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] فيقول: «كثيرًا ما تتوزع أفكار الناس في هذه النواحي الثلاث: الوحدة القومية (أي الوطنية) .. والوحدة العربية .. والوحدة الإسلامية . ثم تنطلق الألسنة بالموازنة بينها .. والتشيع لبعضها دون البعض الآخر .. فما موقف الإخوان من هذا الخليط من الأفكار والمناحي؟

إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة: باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود، ولا يرون بأسًا بأن يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه في العمل على سواه، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية: باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية: باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام .. ولي أن أقول، بعد هذا، إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله: فهم ينادون بالوحدة العالمية؛ لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله، - تبارك وتعالى - : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء. ١٠٧] .

وبعد أن ساق الأستاذ البنا - عليه رحمة الله - الحجج الإسلامية والتاريخية والمنطقية الداعمة لهذا الموقف، ختم حديثه فقال:« وأنا في غني بعد هذا عن أن أقول: إنه لا تعارض بين هذه الوحدات، بهذا الاعتبار، وبأن كلا منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها. فإذا أراد أقوام أن يتخذوا المناداة بالقومية الخاصة [الوطنية] - سلاحًا يميت الشعور بما عداها، فالإخوان المسلمون ليسوا معهم .. ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس».

وحول نفس التاريخ الذي حدد فيه الشيخ حسن البنا موقف الإخوان من هذه القضية، كان الإمام الشيخ عبدالحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] - رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر - يكتب ليبعث «الوطنية» الجزائرية بـ«العروبة» وبـ«الإسلام» فيتحدث عن اصطفاء الله - سبحانه وتعالى - العرب لرسالة الإسلام العالمية، كما اصطفى رسوله ﷺ نبيًا ورسولاً لهذه الرسالة الإنسانية. يقول: «لقد اختار الله العرب للنهوض بالرسالة العامة .. وكما اختارهم للنهوض بالعالم، كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة،

وترجمان هذه النهضة. ولا عجب في هذا. فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبدًا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها».

فنرى ابن باديس لا يجمع فقط بين الانتماء العربي والانتماء الإسلامي، وإنما يعطي العرب دورًا رياديًا ومسئولية قيادية في المحيط الإسلامي والعالمي، لا لعصبية عرقية - فالرجل من أصول أمازيغية! - وإنما بحكم حمل العرب لرسالة الإسلام إلى العالمين.

وهذا هو نفس موقف الإمام الشهيد حسن البنا الذي تحدث عن هذه القضية - مكانة العرب والعروبة في الإسلام - فقال: «إن هذا الإسلام نشأ عربيًا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين! وقد جاء في الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام. وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم. فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه .. ومن هنا كانت وحدة العرب أمرًا لابد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها».

بل لقد كتب الإمام ابن باديس، في ذكرى المولد النبوي الشريف، مقالاً جعل عنوانه «محمد - صلى الله عليه وسلم - رجل القومية العربية» .. قال فيه: «واختار الله محمدًا ﷺ، رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية، الذي نهتدي بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها .. "وعيد مولده الشريف هو عيد الإسلام والعروبة والإنسانية كلها.."».

هذا هو موقف المشروع الإسلامي من قضية الانتماء .. موقف الجمع والتأليف بين الوطنية والقومية والإسلامية، كدرجات متتالية ومترابطة في سلم الانتماء.

١١٨ فى المشروع الحضارى الإسلامى (١)

على امتداد أوطان الأمة الإسلامية - من «غانة» إلى «فرغانة»، ومن «حوض نهر الفولجا» إلى جنوبى خط الاستواء - وفى مواطن الأقليات الإسلامية خارج دار الإسلام - إذا نظر الباحث المنصف إلى ظواهر وحركات ومشروعات البعث والنهضة والتغيير والإصلاح فسيجد ظاهرة الصحوة الإسلامية ومشروعها الحضارى أقوى وأخطر وأكبر وأعمق ظواهر ومشاريع العصر الذى نعيش فيه .. يستوى فى ذلك التقييم الباحثون المؤيدون أو المناوئون لهذا المشروع.

والحقيقة الثانية التى لن نجد عليها خلافًا بين الباحثين ولا بين حركات وتيارات هذه الصحوة الإسلامية هى الأبوة والإمامة والريادة التى يمثلها الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] بالنسبة لهذه الظاهرة الكبرى التى تمثل أمل النهضة لدى الإسلاميين .. والقلق المخيف لأعداء الإسلاميين.

أما الحقيقة الثالثة - فى هذا المقام - فهى أن أبوة وإمامة وريادة حسن البنا لهذا الإحياء الإسلامى المعاصر، إنما تمثل الحلقة «المعاصرة» فى سلسلة الإحياء الإسلامى «الحديث»، إنها مرحلة متميزة فى «الكم» و«الكيف»، ولكنها امتداد متطور لمرحلة «النشأة» و«التبلور» التى تمثلت فى حركة «الجامعة الإسلامية» التى ارتاد ميدانها ورفع أعلامها إمام الإحياء الإسلامى فى العصر الحديث جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] والتى كان الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] المهندس الأول لتجديدها الفكرى، كما مثل الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥م] الامتداد الذى حمل فكرها عبر مجلة (المنار) إلى العالم على امتداد أربعين عامًا ثم أسلم أمانتها، إلى حسن البنا الذى انتقل بها إلى هذا «الكيف»

المعاصر الذى نعيش فيه.. لقد بدأ المشروع الحضارى الإسلامى على يد الأفغانى حركة تجديد واجتهاد وإحياء تستهدف تحرير العقل المسلم، ليواجه ويتجاوز التخلف الموروث عن حقبة التراجع الحضارى «المملوكية – العثمانية» ويتمكن من مواجهة التحدى الحضارى الاستعمارى الغربى الذى اقتحم حياتنا الفكرية وواقعنا الإسلامى فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة، وبعبارة محمد عبده فلقد «وجه الأفغانى عنايته لحل عقد الأوهام عن قوائم العقول» ؛ أما مقصده السياسى «فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفى مجده».

وفى هذا المشروع الحضارى «رابط» محمد عبده على «ثغرة الفكر» وجاهد فى ميدانها جهاداً عظيماً حتى جعله جهاده هذا المهندس الأعظم لفكر هذا المشروع .. وبعبارته هو التى يتحدث فيها عن «الثغرة الفكرية» التى «رابط» عليها مجدداً ومجتهداً ومجاهداً .. يقول: «لقد ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه .. لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث فى أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل. كل هذا أعده أمراً واحداً .. وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن شاكلهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم.

أما الأمر الثانى: فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير».

• وعلى امتداد ما يقرب من أربعين عاماً [١٣١٥ – ١٣٥٤ هـ = ١٨٩٨ - ١٩٣٥م] كانت مدرسة (المنار) التى قادها الشيخ محمد رشيد رضا – هى ترجمان هذا التيار الإحيائى التجديدى الذى وضع الأسس والمعالم للمشروع الحضارى الإسلامى، والذى كون «العقل» المفكر للصحوة الإسلامية الحديثة . ذلك الذى تمثل فى الصفوة والنخبة من العلماء الذين انخرطوا فى موكبه، وأحياناً فى تنظيماته، بدءاً من «الحزب الوطنى الحر» الذى كونه الأفغانى فى

سبعينيات القرن التاسع عشر بمصر، إلى «العروة الوثقى» التي كونها الأفغاني ومحمد عبده، في ثمانينيات ذلك القرن .. تنظيمًا إسلاميًا أمميًا - من الهند إلى المغرب - وحتى «أم القرى» الذي أقامه عبدالرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٠٢م] لدراسة وإزالة أسباب الفتور في أمة الإسلام.

ففي هذه الحقبة، تكون «العقل» لتيار اليقظة الإسلامية الحديثة .. وتبلورت معالم المشروع الحضاري الإسلامي الذي يقدم البديل الإسلامي للنهوض، بديلاً عن المشروع الغربي الذي كان قد بدأ التبشير به نفر من المثقفين، أغلبهم من غير المسلمين الذين صنعهم الاستعمار على عينه في مدارس إرساليات التبشير .. تبلورت معالم مشروع «الإصلاح بالإسلام» الذي عبرت عن تميزه كلمات محمد عبده التي قال فيها «أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرًا غير صالح للتربة التي أودعه فيها، فلا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه .. فسبيل الإصلاح في المسلمين هو الإسلام».

١١٩ فى المشروع الحضارى الإسلامى (٢)

فى أوائل القرن العشرين، حذر الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] من عواقب صراع «العرب» مع «الأتراك»؛ لأن «هذين الشعبين هما أقوى شعوب الإسلام؛ ولأن دول أوربا واقفة لهما بالمرصاد .. فإذا وهنت قوتهما فى الصراع الداخلى، وثبت دول أوربا، فاستولت على الفريقين، أو على أضعفهما .. فتكون العاقبة إضعاف الإسلام، وقطع الطريق على حياته».

وبعد خمسة عشر عامًا من هذا «التحذير - النبوءة» وقع المحظور .. وبدأ عموم البلوى يخيم على سائر بلاد الإسلام .. فالشريف حسين بن على [١٢٧٢ - ١٣٥٠ هـ = ١٨٥٦ - ١٩٣١م] تمرد على الدولة العثمانية [١٣٣٤ هـ ١٩١٦م] استجابة لعوامل داخلية، مدفوعًا بإغراءات إنجليزية؛ ففتحت فى جدار دولة الإسلام الكبرى الثغرة التى أفضت إلى تنفيذ الغرب لمعاهدة «سيكس - بيكو» السرية التى عقدوها [١٣٣٤ هـ - ١٩١٦م]: لتقسيم تركة الدولة العثمانية بين أقطار الحلف الاستعمارى الغربى، ولوعد بلفور [١٣٣٥هـ - ١٩١٧م] بإقامة الكيان الصهيونى قاعدة غربية على أرض فلسطين .. واحتل الفرنسيون الشام، وقال قائدهم «جورو» أمام قبر صلاح الدين الأيوبى بدمشق: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين!» بعد أن احتل الإنجليز فلسطين، وقال قائدهم «اللنبى» عندما دخل القدس: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»! ونشرت مجلة «بنش» الإنجليزية رسمًا لريتشارد قلب الأسد - الملك الصليبى الذى حارب صلاح الدين الأيوبى - وهو يقول - فى الرسم - : «الآن، تحقق حلمى»!

وبعد أن رفرفت رايات الاستعمار الغربى على أوطان الأمة الإسلامية - من «غانة» إلى «فرغانة» - أسقطت الخلافة الإسلامية [١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م]، وغاب رمزها وانكسر وعاؤها لأول مرة فى تاريخ الإسلام، فعمّت البلوى التى جاهد

ضدها تيار اليقظة الإسلامية، بقيادة جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] وحذر منها محمد عبده، وتيار الإحياء والإصلاح بالإسلام لأكثر من نصف قرن من الزمان.

بل لقد حدث ما هو أخطر من احتلال الأرض، ونهب الثروة، والإلحاق بالمركز الغربى .. حدث الاختراق الفكرى والثقافى والفلسفى والقيمى للعقل العربى والمسلم، وبدأ صوت «التغريب» على لسان نفر من أبناء الأمة يبشر بأن الخلاص لن يتحقق إلا عبر تبنى المشروع الحضارى الغربى، بخيره وشره، بحلوه ومره، بما يحب منه وما يكره، بما يحمد فيه وما يعاب - وفق عبارة الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] وذلك بدعوى أن عقلنا يونانى، مثل العقل الأوربى، كان كذلك قديمًا وهو لايزال يونانيًا، لم يغير الإسلام ولا القرآن من يونانيته، كما أن الإنجيل لم يغير من يونانية العقل الأوربى، إذ القرآن ليس أكثر من مصدق للإنجيل!

وزعم دعاة التغريب - بلسان الشيخ على عبدالرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ = ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] - أن الإسلام دينٌ لا دولة، ورسالة لا حكم، وأن رسول الإسلام ﷺ، لم يقم دولة، ولم يؤسس ملكًا، ولم يسس مجتمعًا، ولم ينجز وحدة سياسية، وما كان إلا كالخالين من الرسل، مجرد مبلغ لدعوة دينية .. فيا بُعْد ما بين السياسة والدين!

وقال دعاة التغريب - بلسان طه حسين - فى كتاب [فى الشعر الجاهلى] إن للمؤمنين أن يؤمنوا ما شاء لهم الإيمان بقصص القرآن الكريم ووقائع التاريخ التى وردت فيه، لكنَّ الباحثين - امتثالاً لمنهاج الشك الديكارتى - لابد لهم من الشك فى هذه القصص والتاريخ القرآنى.

ودعا نفر - بلسان سلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ = ١٨٨٨ - ١٩٥٨م] إلى الخروج من الشرق والالتحاق بالغرب، وتبنى العامية - لغة الهكسوس - بدلاً من الفصحى - لغة القرآن والتقاليد العربية - وإلى التفرنج حتى فى الأزياء: لأن لبس القبعة يساعد على حسن التفكير والإبداع؛ ولأن الرابطة الشرقية إذا كانت سخافة، فإن الرابطة الدينية وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين!

نعم .. حدث هذا الاختراق .. وصدرت الكتب العربية التى كتبها عرب ومسلمون - حاملة لهذه «الأفكار» وأمثالها، لنفر من أعلام الفكر العربى - فى

العقد الثالث والرابع من القرن العشرين - الأمر الذى اهتز له ضمير الأمة كما لم يهتز فى منعطف من منعطفات التحديات التاريخية التى واجهتها . فلقد كانت منعطفات التحديات القديمة - فى أغلبها - عسكرية - صليبية .. ومغولية .. وبيزنطية - أما هذا المنعطف الذى أعقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى، ورافق سقوط الخلافة الإسلامية - فلقد اقترن فيه الفكر بالمدفع واحتلال العقل باحتلال الديار .. وانطلقت أبواق الفكر التغريبى لتكرس الهزيمة النفسية فى وجدان المسلمين.

وأمام هذه «النازلة» حدثت الاستجابة الإيجابية من العقل المسلم والحركة الإسلامية، وذلك تعبيرًا عن نفاسة المعدن وتحقيقًا للسنة الإلهية ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. فكان الحراك الفكرى والاجتماعى الذى انتقل باليقظة الإسلامية والإحياء الإسلامى من مرحلة «الصفوة» إلى مرحلة «الجماهير»!

١٢٠ في المشروع الحضارى الإسلامى (٣)

كان الإسلام، على مر تاريخ الأمة، هو حصنها المنيع عندما تهدد الملمات والتحديات هذه الأمة، ويحدق الخطر بوجودها.. وكانت صيحة «وا إسلاماه» هى «كلمة السر» التى تتنادى بها الأمة، وتتداعى إليها عقولها وقلوبها - خاصتها وجماهيرها.

كان هذا هو قانون «التحدى» و«التصدى» على مر تاريخ الإسلام والمسلمين.. ولقد عاد هذا القانون ليعمل عندما عمّت بلوى الاستعمار والغزو الفكرى بلاد الإسلام عقب الحرب العالمية الأولى .. فلقد احتلت الأرض، ولم يعد التغريب وقفًا على الاستشراق والمستشرقين، وإنما غدا مذاهب ومدارس ودعوات ينطق بها عرب ومسلمون - أفرادًا وأحزابًا؛ ولذلك حدث الاستنفار الإسلامى لغرائز وملكات وقوى المقاومة فى الأمة..

ففى [١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م] اجتمع صفوة علماء الإسلام بالقاهرة وأسسوا «جمعية الشبان المسلمين».. وقريبًا من ذلك التاريخ تأسست «الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة».

وفى العام التالى [١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م]، حدثت «اللحظة التاريخية» التى مثلت «التطور النوعى» لإنجاز الشيخ «حسن البنا» [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ - ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] فى سياق تطور المشروع الإسلامى للنهضة الحضارية.. عندما أدرك الرجل أن تصاعد التحدى.. وثغرات الاختراق.. وعموم البلوى، إنما تتطلب الانتقال بالقضية من إطار الصفوة والنخبة التى كانت عليه منذ «العروة الوثقى» وحتى «الشبان المسلمين» - إلى الدائرة التى تشترك فيها «الأمة» مع «النخبة»، وإلى المستوى الذى تسهم فيه «الجماهير» مع «الصفوة» فى مواجهة التحديات.

لقد كان نصف القرن الذى مضى من عمر الصحوة الإسلامية، وحركة الجامعة الإسلامية تأسيسًا لمشروع النهضة الإسلامية، وتكوينًا لـ«العقل» القائد لهذا المشروع .. وأمام تصاعد التحديات، والاختراق للحصون من الداخل، كان لابد من بلورة وتكوين وتنمية «جسم» لهذا «العقل» .. فكان الإنجاز التاريخى لحسن البنا، فى سياق الإحياء الإسلامى: الانتقال بـ«أسس المشروع الحضارى الإسلامى» إلى «معالم» أكثر وضوحًا، وأكثر تفصيلاً حتى ليقترب بها من «البرنامج» المقدم لـ«الجماهير»، والانتقال بـ«التنظيم» الحامل للرسالة من إطار «الصفوة» - كما كان الحال فى جمعية «العروة الوثقى» إلى إطار «الجماهير» كما تجسد فى «جماعة الإخوان المسلمين».

تلك هى اللحظة التاريخية لحسن البنا .. وذلك هو التطور النوعى، والإضافة الكيفية لإنجازه، فى السياق التاريخى لحركة ومسيرة الإحياء الإسلامى الحديث.. وتلك هى «بصمته» الخالدة فى ظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة.

وإذا كان المقام لا يتسع لحديث مفصل عن معالم المشروع الإسلامى للنهضة الحضارية، كما صاغه الإمام الشهيد حسن البنا لحركة الصحوة الإسلامية المعاصرة، ممثلة فى «جماعة الإخوان المسلمين» .. فإننا نقف هنا عند «عناوين» أمهات المسائل فى هذا المشروع، وهى «عناوين» شاهدة على شمول المشروع للإجابات الإسلامية على أهم التحديات وعلامات الاستفهام التى مثلت، يومئذ، أبرز العلل والمخاطر والتحديات.

ففى مواجهة «التغريب» الذى اخترق عقل الأمة، وغدا له أنصار من بين أبنائها، يقف مشروع الأستاذ البنا ليقول: «إن الحضارة الغربية، بمبادئها المادية، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معًا، فى أرض الإسلام نفسه، وفى حرب ضروس، ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت فى الميدان السياسى والعسكرى.. وكما كان لذلك العدوان السياسى أثره فى تنبيه المشاعر القومية، كان لهذا الطغيان الاجتماعى أثره كذلك فى انتعاش الفكرة الإسلامية .. إن مدنية الغرب التى زهت بجمالها العلمى حينًا من الدهر، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه، تفلس الآن وتندحر؛ فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات،

وأصولها الاجتماعية تقضي عليها المبادئ الشاذة والثورات المندلعة في كل مكان .. وقد حار الناس في علاج شأنها وضلوا السبيل؛ ونحن نريد أن نفكر تفكيرًا استقلاليًا يعتمد على أساس الإسلام الحنيف، لا على أساس الفكرة التقليدية التي جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته في كل شيء، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد».

هكذا واجه الأستاذ البنا خطر «التغريب» للعقل العربي والمسلم في المشروع الحضاري الذي قدمه للصحوة الإسلامية في طورها الجديد.

١٢١ فى المشروع الحضارى الإسلامى (٤)

لقد كان رفض «التغريب» فى المشروع الفكرى للشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] رفضًا لـ«التقليد .. والتبعية» للغرب - الحضارى والاستعمارى - ولم يكن رفضًا لـ«التفاعل الصحى» بين الحضارات ولا دعوة «للعزلة .. والانغلاق .. والاكتفاء الذاتى».. فهو نفسه الذى يقول عن حضارتنا الإسلامية، وأمتنا الإسلامية «لقد اتصلت بغيرها من الأمم، ونقلت كثيرًا من الحضارات، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعًا، فعربتها أو كادت، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعًا، من غير أن يؤثر ذلك فى وحدتها الاجتماعية أو السياسية».

■ ولم تنس المعركة مع «التغريب» حسن البنا التصدى لـ«الجمود والتقليد .. والتخلف الموروث»: لأن هذا التخلف الموروث هو الذى يؤدى إلى «العجز الذاتى» والفراغ الذى يتمدد فيه «التغريب» .. فهما وجهان لعملة واحدة! ولذلك، دعا حسن البنا إلى «التجديد» .. وحدد، فى صراحة ووضوح، أن دعوته هى واحدة من «الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب»، وطالب «فى النظرة النقدية للتراث وللتاريخ بالتمييز بين «الدين الثابت» وبين «الفكر - المتغير» و«الممارسة - البشرية»، ذلك «أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله - تبارك وتعالى - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .. وأن كثيرًا من الآراء والعلوم التى اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التى أوجدتها والشعوب التى عاصرتها، ولهذا يجب أن تستقى النظم الإسلامية، التى تحمل عليها الأمة، من هذا المعين الصافى، معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح، رضوان الله عليهم، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية: حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جمعاء».

كذلك وقف الأستاذ البنا – عليه رحمة الله – موقفًا نقديًا من تاريخ الدولة الإسلامية، عندما حدد العوامل السبعة التى أدت إلى تحلل كيانها .. وهى

١ – الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه.

٢ – والخلافات الدينية والمذهبية.

٣ – والانغماس فى ألوان الترف والنعيم.

٤ – وانتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن، لصعوبة إدراكهم معانيه.

٥ – وإهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهود فى فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة.

٦ – وغرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم، حتى سبقتهم فى الاستعداد والأهبة، وأخذتهم على غرة.

٧ – والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم، والاندفاع فى تقليدهم فيما يضر ولا ينفع.

وفى مواجهة الذين اكتفوا من مقاصد «الاستقلال» بالاستقلال «السياسى» الذى يقف عند «العلم والنشيد» دعا حسن البنا إلى الاستقلال الذى يحقق «سيادة الأمة»: «لأن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال»، فضلاً عن السيادة وإعلان الجهاد، ولو كلفهم ذلك الدم والمال».. وإلى الاستقلال الاقتصادى للأمة .. وليس لقطر واحد من أقطارها .. فالهدف هو تحقيق «نظام اقتصادى استقلالى للثروة والمال والدولة والأفراد والنقد؛ ذلك أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادى، وتنقذنا من هذا التحكم الغربى فى التصدير والاستيراد وما إليهما ..»، كما دعا إلى «الاستقلال الحضارى» الذى يعيد لأمة الإسلام وحضارته مكانة الإمامة للدنيا وموقع الشهود على العالمين .. «فلقد كانت قيادة الدنيا فى وقت ما شرقية بحتة، ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها النبوات إلى الشرق مرة ثانية ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فورث الغرب

القيادة العالمية. وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط، فلم تبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية يظللها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوى المتين، فإذا الدنيا مسلمة هانئة. وإذا بالعوالم كلها هاتفة: «الحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله».

إنه استقلال الحضارة «المتميزة» لا «المنغلقة» ولا «التابعة» - ذلك أن الإسلام - وفق عبارة حسن البنا - «لا يأبى أن نقتبس النافع، وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها. ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه فى كل شىء بمن ليسوا من دين الله على شىء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين».

فمواجهة التبعية التغريبية .. ومواجهة الانغلاق التقليدى .. والدعوة للتفاعل الحضارى، دونما تبعية .. هى بعض من المشروع الحضارى لحسن البنا، عليه رحمة الله.

١٢٢ في المشروع الحضارى الإسلامى (٥)

كانت قضية «الانتماء»، وتعدد وتآزر دوائره واحدة من القضايا التى أولاها الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] عنايته فى المشروع الحضارى الذى قدمه للصحوة الإسلامية.

■ ففى مواجهة المضمون الغربى، الضيق الأفق، الانعزالى، لكل من «الوطنية» و«القومية» .. قدم الأستاذ البنا الصيغة التى تحقق التكامل والانسجام بين درجات ودوائر الانتماء الوطنى - والعربى - والإسلامى - والإنسانى .. «فالإسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة وشعور الوطنية العامة .. ومصر فى قطعة من أرض الإسلام، وزعيمة أممه، وفى المقدمة من دول الإسلام وشعوبه، ونحن نرجو أن تقوم فى مصر دولة مسلمة تحتضن الإسلام، وتجمع كلمة العرب وتعمل لخيرهم، وتحمى المسلمين فى أكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان، وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته .. فالمصرية لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال .. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام، ولخير العالم كله».

■ وفى مواجهة «الغلاة» الذين لا يرون فى المجتمعات الإسلامية، وفى عقائد المسلمين المعاصرين إلا شوائب الكفر والجاهلية فيحكمون بهما على الأمة، أو على النظم والمجتمعات، يقدم مشروع الأستاذ البنا الموقف الموضوعى المتوازن .. فنحن «لا نكفر مسلمًا أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما، وأدى الفرائض - برأى أو معصية - إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر».

«ولقد اندمجت مصر بكليتها في الإسلام بكليته، عقيدته ولغته وحضارته، ودافعت عنه وذادت عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين .. ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب الحياة المصرية، فأسماؤها إسلامية، ولغتها عربية، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالإسلام».

والمعركة قائمة بيننا وبين الشوائب التي وفدت إلينا من الحضارة الغربية: تلك «الحضارة التى غزتنا غزوًا قويًا .. فانحسر ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية فى كثير من شئونها الهامة، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصبغ معظمها بالصبغة الأوربية، وحصرنا سلطان الإسلام فى حياتنا على القلوب والمحاريب، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة: وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة».

لقد كانت معركة حسن البنا هى معركة تنقية المجتمعات الإسلامية من الدخيل الذى أقام فيها الثنائية والتذبذب بين روح الإسلام وبين الروح المادية الإلحادية، روح اللذة والشهوة، الذى تميزت به الحضارة الغربية .. ولم تكن معركته مع مجتمعات ارتدت عن الإسلام ونوره وتصوراته إلى الجاهلية وظلماتها – كما قال «الغلاة»!

■ وفى مواجهة المتعجلين لقطف الثمار .. الذين يريدون القفز سريعًا إلى القبض على صولجان الحكم والدولة .. فى مواجهة هؤلاء، يؤكد مشروع الأستاذ حسن البنا ضرورة اعتماد طريق المراحل .. ومنهج التربية.. وسياسة النفس الطويل .. فينادى الرجل قائلاً:

«أيها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المعجلون منكم: اسمعوها منى كلمة عالية داوية .. إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده .. ولست مخالفًا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول.

أجل! قد تكون طريقًا طويلة، ولكن ليس هناك غيرها. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات .. ومن صبر معى حتى تنمو

البذرة، وتنبت الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين؛ إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة.

ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول .. ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة .. ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هي منكم ببعيد!

أريد أن أكون صريحًا معكم للغاية، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة .. أعدوا أنفسكم .. وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها، روحيًا بالإيمان والعقيدة، وفكريًا بالعلم والثقافة، وجسميًا بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل جبار عنيد، فإني فاعل إن شاء الله».

هكذا فكر .. وكتب .. وعمل حسن البنا .. فكانت حياته ودعوته معالم مشروع إسلامي للنهضة الحضارية .. كما كانت بذرة مباركة، بارك الله في غراسها كما لم يبارك في غراس آخر على امتداد القرن العشرين.

١٢٣ الشيخ البشير الإبراهيمى(١)

لقد احتفلت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة ٢٠٠٥م بمرور أربعين عامًا على وفاة الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمى .. ثانى اثنين - هو والإمام عبدالحميد بن باديس، اللذين قادا النهضة الإسلامية التى أعادت الجزائر إلى العروبة والإسلام .. واستخلصتها من الصليبية الاستعمارية الفرنسية .. فمن هو هذا الإمام: البشير الإبراهيمى؟

■ هو محمد البشير بن محمد السعدى بن عمر بن محمد السعدى بن عبدالله بن عمر الإبراهيمى [١٣٠٦ - ١٣٨٥ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦٥م] .. من قبيلة «أولاد إبراهيم» العربية التى استوطنت مقاطعة قسنطينة - بالجزائر.

■ ولد بريف الجزائر فى يوم الخميس [١٤ شوال سنة ١٣٠٦ هـ = ١٣ يونية سنة ١٨٨٩م]، فى أسرة توارثت علوم الإسلام والعربية على امتداد خمسة قرون.

■ وترّبى وتعلم فى كنف عمه الشيخ محمد المكى الإبراهيمى، ودرس على يديه الكتب التى كانت تدرس بالأزهر الشريف فى ذلك الحين .. وكان لا يفارق عمه ليلاً ولا نهارًا .. يعلمه عمه، ويتعلم من عمه، حتى فى لحظات إسلام عمه الروح إلى بارئها!

■ وكان ذا ذاكرة حافظة خارقة للعادة .. حفظ القرآن الكريم فى تمام الثامنة من عمره، مع فهم مفرداته وغريبه .. ولم يبلغ الرابعة عشرة من عمره إلا وكان قد حفظ العديد من «المتون» - منها «الألفية» لابن مالك [٦٠٠ - ٦٧٢ هـ = ١٢٠٣ - ١٢٧٤م] .. ومعظم «الكافية» - لابن مالك أيضًا .. وألفيتا العراقى [٧٢٥ - ٨٠٦هـ = ١٣٢٥ - ١٤٠٤م] فى الأثر والسِّير .. ومعظم رسائله المجموعة فى كتابه «ريحانة الكتاب» .. و«كفاية المتحفظ» للأجدابى الطرابلسى (المتوفى قبل ٦٠٠هـ - ١٢٠٣م] .. وكتاب «الألفاظ الكتابية» للهمدانى [٣٢٠ هـ - ٩٢٢م] ..

وكتاب «الفصيح» لثعلب [٢٠٠ - ٢٩١ هـ = ٨١٦ - ٩٠٤م] .. وكتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب السكيت [١٨٦-٢٤٤هـ = ٨٠٢ - ٨٥٨م] .. و«جمع الجوامع» في الأصول .. و«تلخيص المفتاح» للقاضى القزوينى «كان حيًا [٣٥٦هـ ٩٦٧م] .. و«رقم الحلل فى نظم الدول» لابن الخطيب [٧١٣ - ٧٧٦ هـ = ١٣١٣ - ١٣٧٤م]. ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس، كابن شهير [٣٨٢ - ٤٢٦ هـ = ٩٩٢ - ١٠٣٥م] .. وابن أبى الخصال [٤٦٥ - ٥٤٠ هـ = ١٠٧٤ - ١١٤٦م] وأبى المطرف بن أبى عميرة [٥٨٢ - ٦٥٨ هـ = ١١٨٦ - ١٢٦١م] .. ومعظم رسائل فحول كتاب المشرق. كالصابى [٤٨٠ هـ - ١٠٨٧م] .. والبديع [٣٥٨- ٣٩٨ هـ = ٩٦٩ - ٩٩٨م] .. مع حفظ المعلقات .. والمفضليات .. وديوان الحماسة.. وشعر المتنبى [٣٠٣ - ٣٥٤ هـ = ٩١٥ - ٩٦٥م] كله .. وشعر الشريف الرضى [٣٥٩ - ٤٠٦ هـ = ٩٧٠ - ١٠١٥م] .. وابن الرومى [٢٢١ - ٢٨٣هـ = ٨٣٦ - ٨٩٦م] .. وأبى تمام [١٩٠ - ٢٣١هـ = ٨٠٦ - ٨٤٦م] والبحترى [٢٠٦ - ٢٨٤ هـ = ٨٢١ - ٨٩٧م] .. وأبى نواس [١٤٥ - ١٩٦ م ٧٦٢ - ٨١٢ م] .. كما استظهر الكثير من شعر جرير [٢٨ - ١١٠ هـ = ٦٤٠ - ٧٢٨م] والأخطل [١٩ - ٩٠هـ = ٦٤٠ -٧٠٨م].. والفرزدق [١١٠هـ - ٧٢٨م] .. كما حفظ كثيرًا من كتب اللغة كاملة .. مثل «الإصلاح» و«الفصيح» .. ومن كتب الأدب مثل «الكامل» و«البيان» و«أدب الكاتب» .. كما حفظ أسماء الرجال الذين ترجم لهم «نفح الطيب»، وأخبارهم، وكثيرًا من أشعارهم.

ولقد بلغت قوة حافظته الحد الذى كان يحفظ فيه عشرات الأبيات من سماع واحد!

■ وفى الحادية عشرة من عمره بدأ عمه يشرح له العديد من المتون التى سبق له حفظها..

■ ولقد مات عمه سنة [١٣٢١ هـ - ١٩٠٣م] - وعمر البشير أربع عشرة سنة - وكان عمه قد أجازه الإجازة العامة .. وعهد إليه أن يخلفه فى التدريس لطلابه، فأصبح شيخًا وهو فى سن الصبا!

١٢٤ الشيخ البشير الإبراهيمى (٢)

فى سنة [١٣٢٩ هـ - أواخر سنة ١٩١١م] رحل الشيخ البشير - متخفيًا - من الجزائر إلى الحجاز - وعمره إحدى وعشرون سنة - فالتحق بوالده الذى كان قد استقر بالمدينة المنورة منذ سنة [١٣٢٦هـ - سنة ١٩٠٨م].. وفى طريقه إلى الحجاز أقام بالقاهرة ثلاثة أشهر طاف فيها بحلقات دروس العلم فى الأزهر الشريف - دروس الشيخ سليم البشرى [١٢٤٨ - ١٣٣٥هـ = ١٨٣ - ١٩١٧م].. والشيخ محمد بخيت المطيعى [١٢٧١ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٣٥م].. والشيخ يوسف الدجوى [١٢٨٣ - ١٣٦٥ هـ = ١٨٧٠ - ١٩٤٦م].. والشيخ عبدالغنى محمود والشيخ السمالوطى والشيخ سعيد الموجى [١٢٦٧-١٣٥٤هـ = ١٨٥١ - ١٩٣٥م] وزار العديد من العلماء والشعراء من مثل الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢-١٣٥٤هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥م]، وأحمد شوقى [١٢٨٥ - ١٣٥١هـ = ١٨٦٨-١٩٣٢م] ، وحافظ إبراهيم [١٢٨٧-١٣٥١هـ = ١٨٧١-١٩٣٢م] وغيرهم من العلماء والشعراء والأدباء.

■ وفى المدينة المنورة - وعلى امتداد خمس سنوات - واصل الشيخ البشير التعلم والتعليم.. فحضر العديد من دروس العلم «وخاصة دروس الشيخ العزيز الوزير التونسى.. والشيخ حسين أحمد الفيض أبادى الهندى.. كما أخذ التفسير عن الشيخ الخليل إبراهيم الأسكوبى.. والجرح والتعديل وأسماء الرجال عن الشيخ أحمد البرزنجى الشهرزورى.. وأنساب العرب وأدبهم الجاهلى، والسيرة النبوية عن الشيخ محمد عبدالله زيدان الشنقيطى.. وعلم المنطق عن الشيخ عبدالباقى الأفغانى.

وفى المدينة - أيضًا - استفاد من المكتبات العلمية الموجودة فيها..

■ وخلال سنوات إقامته بالمدينة المنورة تفتحت الملكات الإصلاحية والسياسية للشيخ الإبراهيمي وتدارس قضايا الخلافة الإسلامية .. وحال الدولة العثمانية.. وأوضاع الأمة العربية ومستقبلها .. والهيمنة الاستعمارية .. وخاصة مع الشيخ عبدالحميد بن باديس الذى التقى به فى المدينة المنورة سنة ١٣٣١هـ ١٩١٣م .. وعلى امتداد ثلاثة أشهر تذاكر الشيخان وتدارسا وخططا معًا للنهوض بوطنهما الجزائر، وانتزاعه من المسخ الاستعمارى الصليبى الفرنسى وإعادته إلى العروبة والإسلام .. وكان التعليم والإصلاح الدينى هما السبيل إلى تحقيق هذه المقاصد التى قامت لإنجازها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة [١٣٤٩هـ - مايو سنة ١٩٣١م].

■ وبعد ثورة الشريف حسين بن على [١٢٧٠ - ١٣٥٠ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٣١م] حاكم المدينة المنورة يومئذ - ضد الخلافة العثمانية - ولحساب الإنجليز - وكان الشيخ البشير ضد هذه الثورة - تم ترحيل الكثيرين من سكان المدينة إلى الشام، ومنهم الشيخ البشير ووالده - فى النصف الأخير من سنة ١٩١٦م سنة ١٣٣٤ هـ فاستقر بدمشق قرابة أربع سنوات.

■ وفى دمشق طلب منه القائد التركى جمال باشا [١٢٨٩ - ١٣٤٠ هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٢م] بواسطة أحد أعوانه - التعاون مع العثمانيين، ولكنه أبى، وفضل الاشتغال بالتدريس، فعمل أستاذًا للعربية فى مدرسة «السلطانى».

■ وعندما حكم الأمير فيصل بن الحسين [١٣٠٠ - ١٣٥٢ هـ = ١٨٨٣ - ١٩٣٣م] دمشق قامت علاقات صداقة بين الشيخ البشير وبين الأمير فيصل.

■ وفى دمشق .. تزوج وفيها توفى والده .. وأحد أولاده.

■ وعندما بلغته أخبار عن الجزائر تبشر بتحسن الجو للعمل الإصلاحى . عاد إلى الجزائر سنة ١٣٣٨ هـ - أوائل سنة ١٩٢٠م - على نية القيام بالعمل العلمى، ثم السياسى .. فتعاون مع النخبة التى كانت قد سارت على المنهاج الذى رسمه هو والشيخ ابن باديس .. وتواصل العمل التمهيدى للحركة الإصلاحية بالجزائر عشر سنوات.

(١٢٥) الشيخ البشير الإبراهيمى (٣)

فى سنة [١٣٤٩هـ - ١٩٣١م].. أقامت فرنسا الاستعمارية - بالجزائر - احتفالات صاخبة بمئوية استعمارها للجزائر .. واستفزت هذه الاحتفالات ضمير الأمة، وفجرت فيها روح الإصلاح وطاقات المقاومة .. ففى تلك الاحتفالات خطب أحد كبار الساسة الاستعماريين الفرنسيين فقال: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم»!!.

وخطب سياسى آخر فقال: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة فى هذا الوطن، فلقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار!!»

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية - بهذه المهرجانات - فقال: «إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد .. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل!!»

■ وفى مواجهة هذا الفجور «الاستعمارى - الصليبى» تأسست «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة [١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م] .. وكان رئيسها الإمام ابن باديس .. ووكيلها ونائب رئيسها الإمام البشير .. وبذلك بدأت الثورة الإصلاحية والإحيائية - فى الجزائر - سالكة طريق المنهاج الإسلامى فى الإصلاح .. وبواسطة المؤسسات الإصلاحية .. والعمل المؤسسى المنظم .. أخذت المدارس والخطب والدروس فى تكوين الجيل «العربى - المسلم» والوطنى، العامل على استعادة الجزائر إلى حصون العروبة والإسلام والاستقلال.

■ وفي ٢ ربيع الأول سنة [١٣٥٩هـ - ١٠ إبريل سنة ١٩٤٠م] اعتقل المستعمرون الفرنسيون الإمام البشير الإبراهيمي ونفوه إلى قرية نائية في الجنوب الوهراني.

■ وفي ربيع الأول سنة [١٣٥٩ هـ - ١٦ إبريل سنة ١٩٤٠م] توفي الإمام عبدالحميد بن باديس - والإمام البشير في المنفى - فانتخبه قادة «جمعية العلماء» رئيسًا لها .. وبعد خروجه من المعتقل والمنفى - الذي دام قرابة ثلاث سنوات - وضع تحت المراقبة الإدارية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية.

■ وما هي إلا أشهر حتى سيق - ثانية - إلى السجن العسكري - بالجزائر العاصمة - في جمادى الآخرة سنة [١٣٦٣ هـ - ٢٧ مايو سنة ١٩٤٥م] عقب مذابح فرنسا في ٨ مايو سنة ١٩٤٥م التي قتل فيها ٦٠,٠٠٠ من الجزائريين! وظل الإمام البشير في زنزانة مظلمة تحت الأرض مدة سبعين يومًا! وبعد مائة يوم في السجن العسكري بالجزائر وبسبب سوء حالته الصحية نقلوه إلى السجن العسكري بقسنطينة .. فلبث فيه أحد عشر شهرًا .. ولقد دخل إلى السجون معه يومئذ ٧٠,٠٠٠ من أعضاء جمعية العلماء!

■ وبعد الإفراج عنه، عاد إلى قيادة العمل الإصلاحي، كأقوى ما يكون عزمًا وأصلب ما يكون عودًا.

■ وفي جمادى الآخرة سنة [١٣٧١ هـ - ٢٧ مارس سنة ١٩٥٢م] بدأ الشيخ البشير رحلته الثانية إلى المشرق - فأقام بالقاهرة أسبوعًا .. وفي باكستان قرابة ثلاثة أشهر، ألقى فيها - بمختلف مدن باكستان - نحوًا من سبعين محاضرة في الدين والاجتماع والتاريخ والإصلاح .. ثم ذهب إلى العراق، فطوف بمدنها نحوًا من ثلاثة أشهر، ألقى فيها عشرات المحاضرات .. ثم رحل إلى الحجاز في موسم حج سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، وألقى في الحرمين الشريفين العديد من الدروس والمحاضرات .. ثم رجع إلى القاهرة في [٢٤ أكتوبر من نفس العام - ربيع أول سنة ١٣٧٢ هـ] ومنها عاود الترحال إلى العراق والحجاز وسوريا والأردن والقدس لعدة مرات .. محاضرًا في الدعوة إلى الإصلاح، ومدرسًا بالمساجد الكبرى، وفي بعض المدارس لعلوم الإسلام والعربية .. ومعرفًا بالقضية الجزائرية، وداعيًا إلى مناصرة شعبها وثورتها التي قامت سنة ١٩٥٤م ومدافعًا عن القضية الفلسطينية، وسائر قضايا الأمة الإسلامية.

■ وفى القاهرة أقام الإمام البشير مكتبًا باسم «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» للإشراف على تعليم طلاب الجمعية ببلاد المشرق العربى.

■ وفى القاهرة - التى اتخذها مركزًا لنشاطه - انتخب عضوًا عاملاً بمجمع اللغة العربية سنة [١٣٨٠هـ - ١٩٦١م].

■ وعندما استقلت الجزائر سنة [١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م] عاد الإمام البشير إلى الجزائر وخطب خطبة الجمعة فى افتتاح مسجد «كتشاوة» بالجزائر العاصمة الذى عاد مسجدًا بعد أن كانت الصليبية الاستعمارية الفرنسية قد حولته إلى كاتدرائية كاثوليكية طوال قرن وثلث القرن!

■ وكان آخر أعمال الإمام البشير - قبيل وفاته .. وإبان مرضه - هو النداء الذى أذاعه فى ٣ من ذى الحجة سنة [١٣٨٣هـ ١٦ من إبريل سنة ١٩٦٤م] إلى قادة الدولة الجزائرية، داعيًا إياهم إلى إنقاذ الجزائر من خلافات الثوار! وإلى إعادة الجزائر المستقلة إلى منهاج الإسلام فى الإصلاح!

■ وعلى الرغم من أن هذا الإمام العظيم لم يتفرغ لتأليف الكتب؛ لأنه، كما قال : «لم يتسع وقتى للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التى تأكل الأعمار أكلاً، ولكننى ألفت للشعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيدًا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلمًا عربيًا، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانًا أبيًا. وحسبى هذا مقربًا من رضى الرب ورضى الشعب».

على الرغم من احترافه هذه الصناعة الثقيلة - تربية الرجال وإيقاظ الأمة - فلقد ترك من الآثار العلمية: «عيون البصائر» و«الاطراد والشذوذ فى اللغة» و«أسرار الضمائر العربية» و«التسمية بالمصدر» و«كاهنة أوراس» و«رسالة الضب» و«فصيح العربية من العامية الجزائرية» و«أرجوزة» - فى ٣٦ ألفًا من أبيات الشعر، ضمنها تقاليد الشعب الجزائرى وعاداته .. أما مقالاته، فإنها قد جمعت فكونت خمسة مجلدات، قاربت صفحاتها ألفين وخمسمائة صفحة.

★ ★ ★

■ هذا هو الإمام محمد البشير الإبراهيمى .. الذى لم يرث مالاً .. ولم يتمول أموالاً.. والذى عاش مع أسرته على مرتب شهرى من صندوق «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» .. والذى كان يسدد ديونه القديمة بديون جديدة! محتفظًا

بالحرية والاستقلال عن أصحاب النفوذ والسلطان .. سالكًا فى ذلك طريق العلماء الأعلام .. الذين لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا - مكتفين بالعلم والجهاد، أسوة بالنبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقًا.

وهو الذى قال فيه صديقه ورفيق دربه الإمام عبدالحميد بن باديس - بعد إقرار لائحة «جمعية العلماء» التى كتبها الشيخ البشير سنة [١٣٤٩هـ-١٩٣١م]:

«عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ البشير أن يضل فى دين أو يخزى فى دنيا، أو يذل لاستعمار!»

عليه رحمة الله.

١٢٦

الشيخ الغزالي
قلبٌ تقيٌّ .. وعقلٌ ذكيٌّ (١)

«هو الفقيه الداعية المجدد» الشيخ محمد الغزالي السقا [١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ = ١٩١٧ - ١٩٩٦م].

مصري المولد والنشأة .. ولد - لأسرة ريفية فقيرة ومتدينة - في قرية «نكلا العنب» مركز «إيتاي البارود» محافظة «البحيرة» - بدلتا مصر - يوم السبت ٥ من ذي الحجة سنة ١٣٣٥ هـ - ٢٢ من سبتمبر ١٩١٧م . ولقد اختار له والده اسم «محمد الغزالي» تيمنًا بحجة الإسلام «أبو حامد الغزالي» لنزعة الصوفية لدى الوالد.

وكان الشيخ الغزالي أكبر إخوته السبعة .. ولقد نشأ وأسرته الفقيرة تعلق عليه الآمال.

ولقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، والتحق - طالبًا للعلم الإسلامي - بالمعهد الديني - التابع للأزهر الشريف - بمدينة الإسكندرية .. فحصل على شهادة «الابتدائية» سنة ١٩٣٢م .. ومن نفس المعهد - القسم الثانوي - حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩٣٧م.

وفي سنة ١٩٣٧ التحق بالتعليم العالي الأزهري - كلية «أصول الدين» بالقاهرة .. وفيها تلقي العلم على كوكبة من كبار العلماء، منهم الشيخ عبدالعظيم الزرقاني .. والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .. وتخرج في «أصول الدين» فنال شهادة «العالمية» سنة ١٩٤١م .. كما حصل - من نفس الكلية - على إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣م.

وفي نفس العام الذي التحق فيه بكلية أصول الدين سنة ١٩٣٧م، التقى بمرشد جماعة الإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] وأصبح عضوًا بالجماعة، فبدأت بذلك أهم تحولات حياته الفكرية والعملية

ولقد تزوج الشيخ الغزالي وهو لا يزال طالباً بكلية أصول الدين، وأنجب من الأولاد تسعة .. يحيا منهم ولدان – ضياء وعلاء – وخمس سيدات.

كما بدأت ممارسته للدعوة الإسلامية أثناء طلبه العلم بكلية أصول الدين، عندما عمل إماماً وخطيباً بأحد مساجد القاهرة .. فلما نال شهادة العالمية سنة ١٩٤١م، عين – في العام التالي – سنة ١٩٤٢ بوزارة الأوقاف إماماً وخطيباً بمسجد «العتبة الخضراء» بوسط القاهرة .. ولقد تدرج في مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف المصرية، فتولى التفتيش بالمساجد .. والوعظ بالأزهر الشريف .. ووكيلاً، فمديراً للمساجد.. فمديراً للتدريب .. فمديراً للدعوة والإرشاد في ٢ يوليو سنة ١٩٧١م .. فوكيلاً لوزارة الأوقاف، لشئون الدعوة الإسلامية، في ٨ مارس سنة ١٩٨١م.

ولقد تفتحت مواهبه الأدبية والفكرية على يد الشيخ حسن البنا، وفي صحافة جماعة الإخوان التي أصبح من كتابها .. حتى أطلق عليه لقب «أديب الدعوة» .. وكتب إليه الأستاذ البنا خطاباً – في سنة ١٩٤٥م – يقول له فيه: «أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد، قرأت مقالك «الإخوان المسلمون والأحزاب» في العدد الأخير من مجلة «الإخوان» فطربت لعبارته الجزلة، ومعانيه الدقيقة، وأدبه العف الرصين.

هكذا يجب أن تكتبوا، أيها الإخوان المسلمون، اكتب دائماً، وروح القدس يؤيدك والله معك.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. حسن البنا».

١٢٧

الشيخ الغزالى
قلبٌ تقىٌّ .. وعقلٌ ذكىٌّ (٢)

ولقد تحمل الشيخ الغزالى نصيبه من المحن والمكاره التى أصابت جماعة «الإخوان المسلمين» .. فقضى فى معتقل «الطور» - بشبه جزيرة سيناء - قرابة العام سنة ١٩٤٩م .. وأقل من عام فى سجن «طرة» إبان التحقيقات مع الشهيد سيد قطب سنة ١٩٦٥م.

ولما شارك فى «المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية» سنة ١٩٦٢م، كانت له مواقف أثارت ضده حملة صحفية قادها عدد من الصحفيين الليبراليين واليساريين، وانتصرت له فيها جماهير المساجد.. وكان يخطب الجمعة بمسجد عمرو بن العاص، فتحتشد لسماعه عشرات الألوف .. وعندما كانت تثير انتقاداته الدولة، فتهم بتقييد حريته، كانت تتحرك لنصرته مظاهرات جماهير المساجد .. وفى سنة ١٩٧٤م كان له - هو والشيخ محمد أبو زهرة - موقف معارض للتعديلات التى أدخلت على قانون الأحوال الشخصية - فكان يرى أن مشكلة مصر هى فى عجز شبابها عن تكاليف الزواج، وليست المشكلة فى تعدد الزوجات.. فضاقت الدولة بمعارضته، ومنعته من الخطابة بجامع عمرو بن العاص، وسحبوا منه اختصاصاته فى وظائف الدعوة حتى لقد ألغوا المنصب الذى كان يشغله - مدير عام الدعوة - ! فوجد نفسه على «حصير» دون مكتب فى «سندرة» ملحقة بمسجد صلاح الدين - بالقاهرة - فجلس على «الحصير» يشتغل بالتأليف!

ولما أحس باقتراب المخاطر منه، إبان التحقيقات مع صالح سرية المتهم الأول فيما عرف بقضية «الفنية العسكرية» الذى ذكر أنه زار الشيخ الغزالى مرة - سعى إلى الخروج من مصر، فسافر إلى المملكة العربية السعودية أستاذًا بجامعة أم القرى - بمكة المكرمة - فأمضى بالجامعات السعودية ما بين سنة ١٩٧٤م وسنة ١٩٨١م .. وفى سنة ١٩٨١م الذى رقى فيه إلى منصب وكيل وزارة

الأوقاف لشئون الدعوة – قدم استقالته من الوزارة عندما اختلف مع سياسة الدولة فى الصلح مع إسرائيل.

وكان تعرّف الشيخ الغزالى على الواقع العربى والإسلامى، خارج مصر، قد بدأ مبكرًا .. ففى سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣م شغل وظيفة رئيس «التكية المصرية» بمكة المكرمة .. وفى الأعوام من سنة ١٩٦٨م إلى ١٩٧٣م أمضى شهر رمضان فى دول الكويت وقطر والسودان والمغرب .. وشارك فى ملتقيات الفكر الإسلامى بالجزائر –بانتظام– سنويًا .. منذ سنة ١٩٨٠م .. وعمل فى قطر – أستاذًا زائرًا – ما بين سنة ١٩٨٢م، وسنة ١٩٨٥م .. وعاش بالجزائر ما بين سنة ١٩٨٥م وسنة ١٩٨٨م منشئًا وراعيًا لجامعتها الإسلامية – جامعة الأمير عبدالقادر ومشرفًا على مجلسها العلمى .. وعلى امتداد هذه الأعوام الخمسة عشر: ١٩٧٤ – ١٩٨٨م .. عاش واقع الأمة، واستوعب مشكلاتها، وأعطى لجماهيرها، وغدا أبرز فقهاء الدعوة والتجديد والأصالة والاستنارة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام.

ولقد امتلك الشيخ الغزالى حرية المفكر واستقلالية المجدد منذ بداية عقد الخمسينيات، عندما استقل عن تنظيم جماعة الإخوان المسلمين؛ لخلافه مع مرشدها العام الأستاذ حسن الهضيبى .. فكان تفرغه للدعوة والتأليف .. وظل محافظًا على استقلالية الفكر حتى بعد أن عادت المودة والتعاون والعلاقات مع جماعة الإخوان فى سنوات عمره الأخيرة.

★ ★ ★

وإذا كان الشيخ الغزالى قد تتلمذ على حسن البنا الذى تتلمذ على رشيد رضا، تلميذ محمد عبده أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغانى. فلقد حدد الشيخ الغزالى منهاج هذه المدرسة، التى ينتمى إليها مشروعه الفكرى التجديدى فى معرض حديثه عن مدارس الفكر الإسلامى: مدرسة الرأى .. والأثر .. والموازنة بينهما – كما هو الحال عند ابن تيمية – مع ميل للأثر .. ومدرسة الاختيار الشخصى والتنسيق بين وجهات النظر المختلفة. وحدد منهاج مدرسته التى وازنت بين «الرأى» و«الأثر» على نحو متميز عن موازنة مدرسة ابن تيمية، وذلك «بترويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلاً للنقل .. وهى تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد .. وهى ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون فى القرآن نص انتهى أمده، وترى المذهبية

فكرًا إسلاميًا قد ينتفع به، ولكنه غير ملزم، ومن ثم فهى تنكر التقليد المذهبي، وتحترم علم الأئمة وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقى بالا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة، «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» ص ٦٩ – ٧٧ طبعة دار الوفاء – القاهرة سنة ١٤١٣ هـ – سنة ١٩٩٣م.

فهو علم متميز، من أعلام هذه المدرسة التى تمايزت اجتهادات وتجديدات أعلامها فى هذا الإطار.

١٢٨

الشيخ الغزالى
قلبٌ تقىٌّ .. وعقلٌ ذكىٌّ (٣)

ولقد كان الشيخ الغزالى يوجز الحديث عن الإسلام عندما يقول إنه «قلب تقىّ، وعقل ذكىّ»! معبرًا بذلك عن منهاج الوسطية الإسلامية الجامع، فى مصادر المعرفة، بين كتابى الله: كتاب الوحى المسطور، وكتاب الكون المنظور .. وفى سبل المعرفة، بين العقل والنقل والتجربة والوجدان؛ ولذلك كان عطاء الشيخ الغزالى فى «القدوة» منافسًا لعطائه فى «الفكر» كما برئ مشروعه الفكرى من القصام بين العقل والقلب، وامتزجت فيه الرؤية لمشكلات الأمة والإنسانية، والماضى والحاضر والمستقبل جميعًا.

- ففى مواجهة الاستبداد المالى والمظالم الاجتماعية، قدم عدالة الإسلام، فى العديد من الآثار الفكرية .. من مثل «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين» و«الإسلام فى وجه الزحف الأحمر»... إلخ.
- وفى مواجهة الاستبداد السياسى، دافع عن الشورى الإسلامية، فى كتبه: «الإسلام والاستبداد السياسى» و«حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة»... إلخ.
- وفى مواجهة الهيمنة الغربية وتيارات العلمانية والمادية والإلحاد والتغريب، قدم: «من هنا نعلم» و«دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» و«الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا» و«مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه» و«صيحة تحذير من دعاة التنصير» ... إلخ.
- وفى مواجهة الجمود والحرفية والتقليد، قدم: «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» و«تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل» و«قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة» و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» ...إلخ.

- ولتجديد الذات الإسلامية، قدم عشرات الكتب، من مثل: «خلق المسلم» و«عقيدة المسلم» و«جدد حياتك» و«فقه السيرة» و«كيف نفهم الإسلام؟» و«الجانب العاطفي من الإسلام» و«سر تأخر العرب والمسلمين»... إلخ.

★ ★ ★

ولقد كانت رسالة الشيخ الغزالي في حياته الفكرية والدعوية والتعليمية والعملية هي إحياء الأمة بالإسلام، وتحريكها بطاقاته الإحيائية .. «فالجهد الأول المطلوب هو تحريك قافلة الإسلام، التي توقفت في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر! وسوف تتلاشى التحديات التي تواجهنا يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجًا، حكامًا وشعوبًا!» «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» ص ١٩ و«هموم داعية» ص ١٧، طبعة سنة ١٩٨٣م.

وكان داعية لتحرير العقل الإسلامي من قيود الجمود والتقليد، وذلك بالتمييز بين مصادر الإسلام المعصومة وبين الفكر الإسلامي غير المعصوم، ورفض الادعاء بأن الأولين لم يدعوا للآخرين مجالاً في الاجتهاد والتجديد «فالإسلام هو صانع الأئمة المجتهدين، وهم لم يصوغوه .. ومصادر الإسلام معصومة؛ لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم؛ لأنه من عند الناس.. والأئمة الأوائل كانوا روادًا في تأسيس الفقه الإسلامي، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة والموازنة والاختيار» (دستور الوحدة الثقافية) ص ٨٥ - ٩٣.

وكان يرى أن صلاح دنيا الناس بالعدالة الاجتماعية شرط لعلاج قلوبهم بدين الإسلام .. فعدالة الإسلام هي الطريق إلى فضائل الإسلام وتقوى القلوب «إذ من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية! أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريًا! فلابد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقًا في محاربة الرذائل باسم الدين، أو راغبين حقًا في هداية الناس لرب العالمين!» (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ص ٦١، ٦٢ طبعة سنة ١٩٨٧م.

وكان يدعو في فهم المصدر الأول للإسلام: القرآن الكريم - إلى تدبر محاوره الجامعة: التوحيد الذي هو قانون الوجود ونظام الحياة، وطريق تحرير الإنسان وملكاته من العبودية للطواغيت .. وآيات الله الكونية، المبثوثة في الأنفس

والآفاق، والتى على تعقلها ترتفع أركان الدين وأعلام الإيمان .. والقصص القرآنى، كأداة للتربية والتزكية، ومعالم على طريق الاعتقاد الدينى .. ونبأ الغيب والبعث والجزاء، ودوره فى بناء الأخلاق .. والتربية والتشريع، لصلاح الدنيا الذى يتأسس عليه صلاح يوم الدين .. (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) طبعة سنة ١٩٩٤م.

وكان مدافعًا عن سنة رسول الله ﷺ، فهى مع القرآن «قوام الإسلام، وهى الامتداد لسنا القرآن، والتفسير لمعناه، والتحقيق لأهدافه ووصاياه.. وكما أنه لا فقه إلا بسنَة، فلا سنَة بغير فقه .. والحكم الدينى لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذى تعمل الأحاديث فى نطاقه لا تعدوه .. والأحكام فى الأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من القرآن، استنبطها النبى ﷺ من القرآن، بتأييد إلهى وبيان ربانى»، فهى بيان نبوى للبلاغ القرآنى وإرادة من الله لنبيه ليفصل ما أجمله القرآن .. «دستور الوحدة الثقافية» ص ٣٣، ٣٤، ٣٦-٣٨ . و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» ص ١١٨، ١١٩ طبعة سنة ١٩٨٩م .. و«هذا ديننا» ص ١٩٧ طبعة سنة ١٩٦٥م.

الشيخ الغزالى
قلبٌ تقىٌ .. وعقلٌ ذكىٌ (٤)

١٢٩

ولقد عاش الشيخ الغزالى حياته وقلبه معلق بالمساجد .. وكان حلم حياته الذى حققه عندما كان مسئولاً عن الدعوة بوزارة الأوقاف - أن تصبح المساجد جامعات إسلامية حرة لشباب الأمة وجماهيرها، تلقى فيها الدروس المنظمة فى علوم الدين والحضارة الإسلامية .. حتى لقد كانت آخر الأوراق التى كتبها إلى الندوة التى عقدت بجامعة الأزهر - يوم ٥ مارس سنة ١٩٩٦م، حول المساجد والدعوة الإسلامية، والتى حال سفره دون حضوره لها - كانت بمثابة «الوصية» كتبها لتحويل المساجد إلى جامعات للثقافة الإسلامية .. ولقد اتخذتها «الندوة» «توصيات» لمداولاتها .. وكان ذلك قبل وفاته بأربعة أيام!

★ ★ ★

ولقد شرفت بعضوية الشيخ الغزالى العديد من المجامع الفكرية والمؤسسات العلمية .. من مثل «مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف» و «المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية» بالأردن، و« المعهد العالمى للفكر الإسلامى» بواشنطن، و«الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» بالكويت ... إلخ ... إلخ.

كما حصل على العديد من الأوسمة والجوائز .. من مثل:

١ - وسام الأسير - وهو أعلى وسام بالجزائر سنة ١٩٨٨م.

٢ - جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة ١٩٨٩م.

٣ - جائزة الامتياز من باكستان سنة ١٩٩١م.

٤ - جائزة الدولة التقديرية من مصر سنة ١٩٩١م.

٥ - جائزة على وعثمان حافظ - لمفكر العام سنة ١٩٩١م.

★ ★ ★

ولقد عاد الشيخ الغزالى للإقامة الدائمة بمصر – فى منزله رقم ١٠ بميدان الدكتور سليمان – بحى الدقى بالقاهرة .. منذ سنة ١٩٨٨م .. وكانت أسفاره إسهامًا فى الملتقيات العلمية والفكرية .. وكان من أواخرها رحلته إلى الأمم المتحدة .. حيث خطب فى عيدها الخمسين، ممثلاً للأزهر الشريف سنة ١٩٩٦م .. وأمضى بين مسلمى أمريكا فى تلك الرحلة ثلاثة أسابيع.

وبعد أسابيع من عودته سافر إلى المملكة العربية السعودية: للمشاركة فى المهرجان الوطنى للثقافة – الجنادرية – حيث لبى نداء ربه، فصعدت روحه إلى بارئها فى قاعة الملك فيصل، والقلم فى يده يدون نقاطًا للدفاع عن الإسلام، مساء يوم الجمعة [١٧ شوال سنة ١٤١٦ هـ = ٩ مارس سنة ١٩٩٦م] .. ليدفن بـ«البقيع» فى المدينة المنورة، عاصمة النبوة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

مؤلفات الشيخ الغزالى:

١ – الإسلام والأوضاع الاقتصادية – طبعة نهضة مصر – القاهرة – سنة ١٩٩٦م.

٢ – الإسلام والمناهج الاشتراكية.

٣ – الإسلام والاستبداد السياسى.

٤ – الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين – طبعة نهضة مصر – سنة ١٩٩٧م.

٥ – من هنا نعلم – طبعة نهضة مصر – سنة ١٩٩٦م.

٦ – تأملات فى الدين والحياة – طبعة دار الدعوة – الإسكندرية – سنة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٧ – خلق المسلم – طبعة دار الدعوة – سنة ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م.

٨ – عقيدة المسلم – طبعة دار الدعوة – سنة ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

٩ – التعصب والتسامح.

١٠– فقه السيرة – طبعة دار الدعوة – سنة ١٩٨٨م.

١١– فى موكب الدعوة.

١٢– ظلام من الغرب.

١٣– جدد حياتك – طبعة نهضة مصر – ١٩٩٦م.

١٤- ليس من الإسلام.
١٥- من معالم الحق.
١٦- كيف نفهم الإسلام؟ - طبعة دار الدعوة - سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م.
١٧- الاستعمار أحقاد وأطماع.
١٨- نظرات فى القرآن - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.
١٩- مع الله - دراسات فى الدعوة والدعاة.
٢٠- معركة المصحف - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.
٢١- كفاح دين - طبعة مكتبة وهبة - القاهرة - سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م.
٢٢- الإسلام والطاقات المعطلة.
٢٣- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة - طبعة دار الدعوة - سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
٢٤-هذا ديننا - طبعة دار الشروق - القاهرة - سنة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
٢٥- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى.
٢٦- الجانب العاطفى من الإسلام.
٢٧- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.
٢٨- ركائز الإيمان بين العقل والقلب - طبعة مكتبة وهبة - سنة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
٢٩- حصاد الغرور - مكتبة وهبة - سنة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
٣٠- الإسلام فى وجه الزحف الأحمر.
٣١- قذائف الحق.
٣٢- الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر - طبعة مكتبة وهبة - سنة ١٤١٠هـ سنة ١٩٩٠م.
٣٣- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء - طبعة دار الاعتصام - القاهرة - سنة ١٩٨٠م.
٣٤- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين - طبعة دار الوفاء - القاهرة - سنة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

٣٥- واقع العالم الإسلامى فى مطالع القرن الخامس عشر.

٣٦- مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.

٣٧- هموم داعية - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.

٣٨- مائة سؤال فى الإسلام - طبعة دار ثابت - القاهرة - سنة ١٩٨١م.

٣٩- علل وأدوية - طبعة دار الدعوة - سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤٠- مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه - طبعة الأردن - عمان - سنة ١٩٨٤م.

٤١- قصة حياة.

٤٢- سر تأخر العرب والمسلمين - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.

٤٣- الطريق من هنا.

٤٤- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.

٤٥- الحق المر - جـ١ : جـ٦ - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.

٤٦- من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث.

٤٧- الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا - طبعة الأردن - عمان - سنة ١٩٨٥.

٤٨- المحاور الخمسة للقرآن الكريم - طبعة دار الصحوة ودار الوفاء - القاهرة - سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٩- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث - طبعة دار الشروق - سنة ١٩٩٦م.

٥٠- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة - طبعة دار الشروق - سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٥١- تراثنا الفكرى في ميزان الشرع والعقل .. طبعة دار الشروق - سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.

٥٢- كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ - طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى - واشنطن - سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٥٣- صيحة تحذير من دعاة التنصير - طبعة دار الصحوة.

٥٤- نحو تفسير موضوعى للقرآن الكريم - طبعة دار الشروق - سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٥٥- كنوز من السنة.

١٣٠ أمانة الشيخ الغزالى

فى آخر لقاء لى بشيخنا الإمام محمد الغزالى [١٣٣٥-١٤١٦هـ ١٩١٧-١٩٩٦م] عليه رحمة الله، كان ذلك بمنزله، لتسجيل حلقات - شاركته فيها - لبرنامج «روضة الإسلام» - الذى يبثه «التلفاز المصرى» .. وبعد أن فرغنا من التسجيل مددت يدى إليه مصافحًا ومودعًا، فطلب منى الانتظار حتى يجمع عمال «التلفاز» وفنيوه أجهزتهم، ويغادروا، وفهمت أنه يريدنى - على انفراد - لأمر خاص، فجلست معه، حتى غادر فريق «التلفاز» المنزل، وعند ذلك نهض الشيخ إلى خزانة كتبه، وأحضر نسخة - مجلدة - من آخر مؤلفاته «نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم»، وكتب عليها آخر إهداء لآخر كتاب فى آخر لقاء، فإذا كلمات هذا الإهداء تحمِّلنى أمانة، شعرت - ولا أزال - بخطرها وثقلها حتى هذه اللحظات .. كتب فى الإهداء:

«إلى أخى الحبيب، داعية الإسلام وحارس تعاليمه الدكتور محمد عمارة. مع الدعوات . محمد الغزالى».

ولقد ظل التواصل بيننا - عبر الهاتف - منتظمًا، يتكرر عدة مرات كل أسبوع.. حتى علمت أنه قد قبل الدعوة لزيارة «الرياض» بالمملكة العربية السعودية - فاندهشت وأشفقت: لأننا كنا نخشى على صحته، بسبب فرط حساسيته، ومن أن يتعرض لاستفزاز الذين أساءوا به الظن - غفر الله لهم - وهاجموه، وأصدروا ضده أربعة عشر كتابًا مليئة بالافتراءات، بعد صدور كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» سنة ١٩٨٩م .. وكنا - معشر المقربين منه من محبيه - قد اتفقنا معه على تجنب مصادر ومواطن الاستفزاز.. بل عدم قراءة ما يكتبه عنه هؤلاء!

ولم أكن أدرى – ولا أحد يدرى – أن لقاءه لربه قد اقترب، وأنه مسافر – فى لهفة غير مسبوقة – إلى الأرض المقدسة التى كتب الله أن يلقاه فيها وعليها .. وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤]

وقد سافرت أنا – حول ذات التاريخ – إلى الكويت للمشاركة فى ندوة علمية، وهناك سمعت وقرأت نبأ انتقال الشيخ الغزالى إلى بارئه، فلقد صعدت روحه إلى خالقها وهو يمسك القلم والورقة مدافعًا عن الإسلام فى قاعة الملك فيصل بالرياض ثم كان دفنه بمدينة حبيبه وحبيبنا رسول الله، ﷺ بـ«البقيع» على مقربة من مثوى إمام دار الهجرة «مالك بن أنس» [٩٣-١٧٩هـ ١٧١٢-١٧٩٥م] رضى الله عن الجميع.

ولقد تذكرت عند سماع نبأ وفاته لحظات استبقائه لى فى منزله فى آخر لقاء بيننا، وحرصه على كتابة الإهداء لى .. وكلمات الإهداء .. والأمانة التى حملنى إياها فى هذا اللقاء الأخير!

وبعد أيام من وقائع العزاء والتأبين، انهالت علىّ – من قراء صحيفة «الشعب» ومن المسئولين عن إصدارها – الطلبات الملحة – على غير اتفاق بين الطالبين – أن أكتب الباب الصغير الذى كان يكتبه شيخنا الغزالى فى عدد الثلاثاء من صحيفة «الشعب» تحت عنوان «هذا ديننا» – وذلك حرصًا على استمرار هذا المقال الذى كان يطل منه شيخنا على القراء كل أسبوع.

وحرصًا منى على تلبية هذا المطلب الذى شعرت أنه أول تطبيق عملى للأمانة التى حمّلنى إياها الشيخ الغزالى، توكلت على الله، وكتبت عددًا من المقالات وأرسلتها إلى «الشعب» لتأخذ مكانها فى هذا الباب – وذلك بعد تغيير العنوان من «هذا ديننا» إلى «هذا إسلامنا» احترامًا لرغبة أبناء الشيخ؛ لأن العنوان الأول هو عنوان لأحد كتبه.

ثم علمت من صحيفة «الشعب» أن الشيخ – رحمه الله – قد ترك عددًا من المقالات التى سيتوالى نشرها، وأن مقالاتى ستأخذ دورها بعد الانتهاء من مقالات الشيخ الجليل .. فسعدت بذلك كل السعادة، ولم أسأل عن عدد هذه المقالات، ولا عن التاريخ الذى سيبدأ فيه نشر مقالاتى، فلقد كنت – مع كل قراء «الشعب» – نعيش نعمة رؤية صورة الشيخ، وقراءة مقاله صباح كل ثلاثاء.

وفى ليلة الجمعة التالية لنشر آخر مقالات الشيخ – ولم أكن أدرى أن ذلك هو آخر مقالاته فى هذا «البرواز» –رأيت فيما يرى النائم شيخنا الغزالى فى أبهى حلله، وأجمل صور تألقه، يزورنى فى منزلى، وأنا أجلس إلى جواره، ومن حولنا الكتب التى تغطى الجدران، واللوحة المعدنية الصغيرة المكتوب فيها سورة الفلق – تلك التى أهداها لى عندما زارنى بمستشفى «النزهة» يوم أجريت لى جراحة الغضروف – وكان معه ابننا الحبيب محمد عبدالقدوس.

رأيت الشيخ الغزالى – فى هذه الرؤيا – وإذا به يناولنى «ملفًا» مليئًا بالأوراق .. وصحوت من نومى متذكرًا الأمانة التى حمّلنى إياها فى إهداء آخر كتبه، بآخر لقاء.

وبعد أيام من هذه الرؤيا .. وعلى غير علم منى بالتوقيت .. بدأ نشر مقالاتى فى الباب الذى كان يحرره الشيخ الجليل! وكأنما بدأ تواصل الأوراق وتواليها مع «ملف» الرؤيا التى رأيت فيها شيخنا الغزالى، عليه رحمة الله.

لقد توفى فى ٩ مارس .. نفس اليوم الذى توفى فيه جمال الدين الأفغانى قبل مائة عام .. ولقد كتبت هذه الكلمات تقديمًا للكتاب الذى جمع فيه الباحث الجاد الشيخ أحمد فضلية ما كتبه العلماء والمفكرون عن الشيخ الغزالى عقب وفاته .. وهو الكتاب الذى أصدرته هذا العام دار الدعوة بعنوان «الإمام محمد الغزالى وشهادة التاريخ» .. رحم الله شيخنا الغزالى الذى عاش ومات نموذجًا عظيمًا من نماذج العلماء المجاهدين المرابطين على ثغور الإسلام.

١٣١ التطور الفكرى للدكتور طه حسين (١)

كان الدكتور طه حسين [١٣٠٦- ١٣٩٣ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] أحد أعظم بلغاء اللغة العربية، على امتداد العصر الذى عاش فيه .. أجمعت على ذلك كل تيارات الفكر والأدب، سواء منها الذين اتفقوا معه أو كانوا معه على خلاف أو اختلاف .. ولقد توجته الأمة - على امتداد أوطانها، واختلاف شعوبها - عميدًا للأدب العربى .. حتى لقد اشتهر بلقب «الأستاذ العميد» كما اشتهر من قبله الشيخ محمد عبده بلقب «الأستاذ الإمام».

لكن الناس قد اختلفوا اختلافًا شديدًا .. وأحيانًا حادًا - حول بعض كتابات طه حسين عن الإسلام ..

ولم يكن الاختلاف مع طه حسين فى بعض كتاباته عن الإسلام بسبب تمرده الشهير والمبكر على العقلية الأزهرية ونمط الدراسة فى الأزهر الذى درس فيه، فكثيرون من شيوخ الأزهر وخريجيه قد انتقدوا مناهج الدراسة الأزهرية وخاضوا المعارك لتطوير هذه المناهج حتى نجحوا فى ذلك إلى حد كبير .. ولقد تبلور فى حياتنا الفكرية تيار عريض لإصلاح الأزهر، بلغ ذروته بجهود الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] .. واستمر عبر تلاميذه العظام الذين شهد الأزهر على أيديهم درجات من الإصلاح والتطوير، من مثل الشيوخ: محمد مصطفى المراغى [١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ ١٨٨١ - ١٩٤٥م] ومصطفى عبدالرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ = ١٨٨٥ - ١٩٤٦م] .. وعبدالمجيد سليم [١٢٩٩-١٣٣٦هـ = ١٨٨٢ - ١٩٥٤م] ومحمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣هـ = ١٨٩٣ - ١٩٦٣م].

فلم يكن نقد الأزهر - من قبل طه حسين - رغم حدته - هو السبب فى اختلاف علمائه مع الدكتور طه حسين .. كما أن هذا الاختلاف لم يقف عند علماء الأزهر، وإنما امتد بامتداد ساحات الإسلام وميادين الفكر الإسلامى..

■ ولعل أولى الأفكار التى اختلف فيها الكثيرون من علماء الإسلام ومفكريه مع طه حسين، فى حقل الإسلاميات، كانت كتاباته التى حاولت علمنة الإسلام، والدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، وذلك إبان المعركة الفكرية الكبرى التى دارت حول كتاب الشيخ على عبدالرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ = ١٨٨٧ - ١٩٦٦م] «الإسلام وأصول الحكم» سنة ١٩٢٥م .. فلقد جاء فى هذا الكتاب - تحت عنوان «رسالة لا حكم، ودين لا دولة» «أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم - ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة .. ولم يقم بتأسيس مملكة، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة، ومرادفاتها، ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكًا ولا مؤسس دولة، ولا داعيًا إلى ملك.. وظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى لم يكن له شأن فى الملك السياسى، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان .. لم يكن إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل .. ولم يكن من عمله شىء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس .. وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه .. كانت ولاية محمد على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشىء من الحكم .. هيهات هيهات، لم يكن ثمة حكومة، ولادولة، ولا شىء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء!!»[١].

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يكتب فيها شيخ أزهرى - وقاض شرعى - مثل هذا الكلام .. بل إن كتابات المستشرقين أنفسهم قد أجمعت على تميز الإسلام على النصرانية بأنه دين ودولة، وعبادات ومعاملات، وأخلاق وشريعة، وقيم وقانون .. وأنه - كما قال الإمام محمد عبده -: «إن للإسلام دولة .. فهو دين وشرع، كمالٌ للشخص، وألفةٌ فى البيت، ونظامٌ للملك .. وضع حدودًا ورسم حقوقًا .. ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام .. والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر .. بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده فى عمله»[٢].

بل إن التحقيق العلمى لتأليف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» قد أثبت أن لطه حسين نصيبًا فى تأليف هذا الكتاب .. فلقد اعترف - بعد وفاة على

(١) على عبدالرازق - الإسلام وأصول الحكم - ص ٦٤ - ٨٠ طبعة القاهرة - سنة ١٩٢٥م.

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - جـ ٣ - ص ٢٨٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ - دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة - طبعة القاهرة - سنة ١٩٩٣م.

عبدالرازق – فقال: «لقد قرأت أصول كتاب الشيخ على عبدالرازق، قبل طبعه ثلاث مرات، وعدلت فيه كثيرًا!!»[1].

وهكذا مثلت هذه المعركة الفكرية الكبرى – حول العلمانية .. وعلمنة الإسلام – أولى محطات الخلاف الحاد مع طه حسين فى كتاباته حول الإسلام.

★ ★ ★

وفى العام التالى لقيام هذه المعركة الفكرية – أى سنة ١٩٢٦م – أصدر الدكتور طه حسين كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى استخدم فيه منهج الشك الديكارتى فى تحقيق نسبة كثير من الشعر الجاهلى إلى الشعراء الذين نسبت إليهم قصائده .. وما كان لهذه القضية أن تثير جدلاً يذكر، ولا أن يمس الجدل حولها الدراسات الإسلامية مسًا مباشرًا .. ولكن الدكتور طه حسين ذهب فشكك فى عقائد ووقائع وردت فى القرآن الكريم، من مثل الرحلة الحجازية لأبى الأنبياء الخليل إبراهيم، وولده إسماعيل – عليهما السلام – وإقامتهما قواعد البيت الحرام.

ولقد اعترف الدكتور طه حسين نفسه بهذا التشكيك فقال: « لقد انتهيت إلى رفض قدر كبير من هذا الشعر الجاهلى .. وفى إطار ذلك المسعى شككت فى بعض المعتقدات التي ذكرت فى القرآن أو فى الأحاديث النبوية، وكانت الصدمة قاسية والاستنكار واسع النطاق»[2].

وبعد معركة فكرية حامية الوطيس – صدر فيها العديد من المؤلفات التى ترد على طه حسين أفكاره، وتشكيكه، والتى شارك فيها أعلام من أمثال الشيخ محمد الخضر حسين [١٢٩٣ – ١٣٧٧ هـ = ١٨٧٦ – ١٩٥٨م] ومحمد فريد وجدى [١٢٩٥ – ١٣٧٣هـ = ١٨٧٨ – ١٩٥٤م] بل أسهم فيها زعيم الأمة – ابن الأزهر الشريف – سعد زغلول باشا [١٢٧٣ – ١٣٤٦ هـ = ١٨٥٧ – ١٩٢٧م] الذى علق على هذا الذى كتبه طه حسين بقوله: «وماذا علينا إذا لم يفهم البقر؟!!»

(١) د. محمد الدسوقى – طه حسين يتحدث عن أعلام عصره – ص ٧٠ ، ٧١ – طبعة دار المعارف – سلسلة اقرأ – القاهرة – ١٩٩٢م

(٢) د. طه حسين – من الشاطئ الآخر – ص ٦٣ – ترجمة عبدالرشيد الصادق محمودى ، طبعة بيروت – سنة ١٩٩٠م.

بعد هذه المعركة الفكرية الحامية والخصبة، حذف طه حسين السطور الثماني والعشرين التى أثارت هذه الصدمة القاسية والاستنكار واسع النطاق .. وغيّر عنوان الكتاب، فصدر معدلاً ومزيداً بعنوان «فى الأدب الجاهلى» ..

وكانت تلك هى المحطة الثانية فى الاختلاف مع طه حسين حول ما كتب عن الإسلام.

★ ★ ★

■ أما المحطة الثالثة فى معارك هذا الخلاف، فكانت سنة ١٩٣٨م .. عندما أصدر طه حسين كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر»، وهو الذى تحدث فيه حديثاً جميلاً وعميقاً عن التعليم فى مصر .. لكنه أثار الجدل والخلاف عندما أسس ونظر وفلسف للتغريب والتبعية الفكرية للغرب والحضارة الأوربية، وذلك بحديثه عن أن العقل الشرقي قد كان ولا يزال وسيظل عقلاً يونانياً .. وإن الإسلام والقرآن لم يغيرا من يونانية عقلنا الشرقي، كما لم تغير النصرانية وإنجيلها من يونانية العقل الأوروبى!! بل ذهب الدكتور طه - فى هذا الكتاب - إلى أننا ملزمون بأن نسير سيرة الغرب فى الحكم والإدارة والتشريع .. وبأننا لا بد أن نأخذ النموذج الحضارى الغربي، بحلوه ومره، بخيره وشره، بما يُحب منه وما يكره، وما يُحمد منه وما يُعاب!! وجاءت عباراته هذه لتقول: «إن العقل الشرقي هو كالعقل الأوربي، مرده إلى عناصر ثلاثة:

١ - حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

٢ - وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه.

٣ - والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.

.. وأن السبيل واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهى واحدة فذة ليس فيها تعدد، وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم .. فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يُحب منها وما يكره، ما يُحمد منها وما يُعاب .. وأن الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلمَ لا يتقبل الحضارة الفرنسية؟ والحضارة الغربية والفرنسية قائمتان على أساس واحد هو الحضارة اليونانية اللاتينية، لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها فى الحكم، ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها فى التشريع .. ولو أننا هممنا أن نعود أدراجنا،

وأن نحيي النظم العتيقة، لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولوجدنا أمامنا عقابًا لا تجاز ولا تذلل، عقابًا نقيمها نحن؛ لأننا حراص على التقدم والرقي، وعقابًا تقيمها أوربا؛ لأننا عاهدناها أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة!!»[1].

وفي نص آخر بالفرنسية – ترجم بعد وفاة الدكتور طه حسين – أخذ يسفه من الجهود التي بذلها الإمام محمد عبده في الإصلاح الديني، والتوفيق بين العلم والدين الإسلامي .. ذاهبًا إلى أننا نتجه نحو الغرب في سرعة وابتهاج، دونما التفات إلى الدين!! فقال: «إن العالم الإسلامي قد أصابه التغيير .. ولم يعد محمد عبده مواكبًا للعصر .. قد صارت كل أفكاره بشأن العلم والدين بالية.. متخلفة، وغير صالحة للبقاء .. وقليلون هم المسلمون الذي يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التي حصلوها، وهم يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية، ويتخذونهامثلاً أعلى!!»[2]

★ ★ ★

كانت تلك هي المحطات الثلاث التي أثمرت أهم المعارك الفكرية الكبرى بين الإسلاميين وبين الدكتور طه حسين حول ما كتبه عن الإسلام – علاقته بالدولة، ومرجعيته لمشاريع النهضة والتقدم والإصلاح – والتي بدأت بعدها – تدريجيًا، وفي صمت استدعاه الكبرياء الذي كان عليه عميد الأدب العربي – بدأت التحولات الفكرية الكبرى في عقل ووجدان طه حسين، والتي أثمرت مواقف فكرية يجهلها – مع الأسف الشديد كثير من الإسلاميين .. ويتجاهلها – مع أسف أشد – كثير من العلمانيين، الأمر الذي يستدعي تتبع التطور الفكري لهذا العلم من أعلام أدبنا وفكرنا الحديث والمعاصر؛ وذلك لإنصاف الحقيقة؛ ولإنصاف الرجل من أنصاره وخصومه على السواء!

(١) د. طه حسين – مستقبل الثقافة في مصر – جـ ١ – ص ٢٩ ، ٤٥، ٣٦، ٣٧ – طبعة القاهرة – سنة ١٩٣٨م.

(٢) من الشاطئ الآخر – ص ٣٦ ، ٣٧ .

١٣٢ التطور الفكرى للدكتور طه حسين(٢)

لقد كان الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣م] ابنًا بارًا من أبناء هذه الأمة .. وكان عقلاً مجتهدًا، يلتمس طريق التجديد لحياة هذه الأمة وفكرها .. وكان واحدًا من جيل الرواد الذين حسبوا أن «التخلف العثمانى» هو «الإسلام» فبحثوا فى النموذج الغربى عن سبيل التقدم والنهوض .. لم يكن الرجل - وكثيرون من الذين انبهروا بالغرب، وكان يومها مزدهرًا .. لم تتكشف بعد أغلب عورات حضارته - عميلاً للغرب، وإنما كان باحثًا عن الحق .. يصيبه حينًا ويخطئه حينًا آخر .. وكان مسلمًا يؤمن بأن من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران.

■ ولأن دعوى طه حسين حول يونانية العقل الشرقى، وعدم تغيير القرآن والإسلام لهذه اليونانية، ومن ثم حتمية أن نكون غربيًا فى حاضرنا ومستقبلنا، فى الإدارة والحكم والتشريع، دونما التفات إلى الدين الإسلامى، ولا إلى التمايز الحضارى: لأن هذه الدعوى كانت أخطر الادعاءات التى خالف فيها الرجل ثوابت الحضارة الإسلامية وقسماتها المتميزة، فلقد بدأ قلق الرجل إزاء صحة هذه الدعوى منذ وقت مبكر فى مسيرة تحولاته الفكرية .. فكتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» - الذى ادعى فيه هذه الدعوى - قد صدر ونفد سنة ١٩٣٨م.. لكن طه حسين لم يُعد طبع هذا الكتاب - طوال حياته - كما كان يعيد طبع جميع كتبه الأخرى فور نفاد طبعاتها! وكان هذا الموقف من إعادة طبع هذا الكتاب وحده، إشارة - غير معلنة - إلى مراجعته - وربما تراجعه عن هذه الدعوى التى جاءت فيه.

حتى إذا كانت سنة ١٩٧١م .. فسئل الدكتور طه حسين - فى حديث معه نشره «الأهرام» - فى أول مارس سنة ١٩٧١م، عن رأيه فى هذا الكتاب .. فإذا به

يقول: « .. ده كُتب سنة ١٩٣٦م .. قُدم قوى، عاوز يتجدد، ويجب أعود إليه، وأصلح فيه بعض حاجات، وأضيف!»

فكانت هذه أولى محطات المراجعات الفكرية فى مسيرة الدكتور طه حسين.

★ ★ ★

■ أما المحطة الثانية فى هذه المراجعات الفكرية فهى ما كتبه عن القرآن فى كتابه «الفتنة الكبرى» – فى النصف الثانى من عقد الأربعينيات – فى القرن العشرين – فبعد الجرأة والجموح الذى حدث منه إزاء القرآن فى كتاب «فى الشعر الجاهلى» سنة ١٩٢٦م .. ها هو طه حسين يقول عن القرآن الكريم: «لقد قلت فى بعض أحاديثى عن نشأة النثر عند العرب: إن القرآن ليس شعرًا، ولا نثرًا، وإنما هو قرآن، له مذاهبه وأساليبه الخاصة فى التعبير والتصوير والأداء.

فيه من قيود الموسيقى ما يخيل إلى أصحاب السذاجة أنه شعر، وفيه من قيود القافية ما يخيل إليهم أنه سجع، وفيه من الحرية والانطلاق والترسل ما يخيل إلى بعض أصحاب السذاجة الآخرين أنه نثر.

ومن أجل هذا خدع المشركون من قريش، وكذبوا فى ذلك تكذيبًا شديدًا .. ومن أجل هذا خدع كذلك بعض المتتبعين لتاريخ النثر، فظنوا أنه أول النثر العربى، وتكذبهم الحقائق الواقعة تكذيبًا شديدًا، فلو قد حاول بعض الكتاب الناثرين – وقد حاول بعضهم ذلك –أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلا أن يأتوا بما يضحك ويثير السخرية!!»(١)

نعم .. كتب طه حسين ذلك – وهو أحد بلغاء العصر – والخبير بأسرار التركيب والإعجاز فى الأساليب العربية .. فكانت محطته الثانية فى مراجعاته الفكرية.

★ ★ ★

■ أما المحطة الثالثة فى المراجعات الفكرية للدكتور طه حسين، فلقد كانت سنة ١٩٥٣م.

فعقب ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م، قامت الثورة بإلغاء دستور سنة ١٩٢٣م. وكونت لجنة من خمسين عضوًا لوضع دستور جديد .. وكان طه حسين واحدًا من هؤلاء الخمسين .. وفى اجتماع من الاجتماعات التى كانت تناقش حقوق المرأة،

(١) د. طه حسين – الفتنة الكبرى – جـ١ – عثمان – ص ٣٢ – طبعة القاهرة – سنة ١٩٨٤م.

دعا الدكتور عبدالرحمن بدوى [١٣٣٥ - ١٤٢٣ هـ = ١٩١٧ - ٢٠٠٢م] إلى النص فى الدستور على المساواة التامة والمطلقة بين النساء والرجال، فإذا بالدكتور طه حسين - الذى سبق له وشكك فى بعض ما جاء بالقرآن الكريم .. وانحاز إلى العلمانية .. ودعا إلى تنحية الإسلام جانبًا من مكونات الدولة ومرجعية المدنية والحضارة والإصلاح - إذا به هو الذى يتصدى لدعوة الدكتور عبدالرحمن بدوى، فيقول: «إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج، عند وضع الدستور على ما أمر به الإسلام، وإنه ليس هناك مقتض يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن .. وإنه إذا وجد نص دينى صريح .. فالحكمة والواجب يقتضياننا ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس فى شعورهم، ولا فى ضمائرهم، ولا فى دينهم، وإذا احترمت الدولة الإسلام فلابد أن تحترمه جملة وتفصيلا .. ولا يكون الإيمان إيمانا ببعض الكتاب وكفرًا ببعضه الآخر»[١].

نعم .. دعا الدكتور طه حسين إلى حاكمية القرآن والإسلام وشريعته على الدستور والقانون .. وذلك بعد أن كان - سابقًا - يقول: «إن السياسة شىء والدين شىء آخر، وإن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أى شىء آخر . وهذا أصل من أصول الحياة الحديثة .. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول .. وإن جوهر الإسلام ومصدره هما جوهر المسيحية ومصدرها .. وإن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيمًا مجملاً أو مفصلاً .. وإن النبى لم يرسم بسنته نظامًا للحكم ولا للسياسة .. فليس بين الإسلام والمسيحية فرق من هذه الناحية .. ولأمر ما قال عيسى - عليه السلام - للذين جادلوه من بنى إسرائيل: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله!»[٢].

هكذا بلغ الدكتور طه حسين قمة المراجعة الفكرية .. والتطور .. إن لم نقل الانقلاب؛ فدعا إلى الالتزام بحاكمية الإسلام والقرآن فى الدولة والدستور والقانون .. بعد أن كان يدعو إلى الانفلات من حاكميتهما.

★ ★ ★

(١) لجنة مشروع الدستور - محضر لجنة الحريات والحقوق والواجبات العامة - الجلسة السابعة - ص ٨١، ١٢١ - طبعة وزارة الإرشاد القومى - القاهرة - بدون تاريخ.

(٢) مستقبل الثقافة فى مصر - جـ١ - ص ١٧، ١٦، ٣٣- و«الفتنة الكبرى» - جـ١ - عثمان - ص ٢٢، ٢٥، ٢٧.

■ أما المحطة التي بلغ فيها وبها الدكتور طه حسين قمة القمم، وذروة الإياب إلى الأحضان الحنون والرءوم والعطوف والدافئة لروحانية الإسلام – وليس فقط عقلانيته المؤمنة – فلقد كانت هي محطة الوصول الكامل – وصول العاشق للمعشوق – بعد طول تطواف .. وذلك عندما قام برحلته الحجازية، حيث اعتمر وعاش لحظات من الروحانية المتصوفة الراقية في منزل الوحي ومنبع نور الإسلام، فعادت به إلى الأصول النقية، وغسلت عنه كل الأدران!

ففي شهر جمادى الأولى سنة ١٣٧٤ هـ – يناير ١٩٥٥م – زار الدكتور طه حسين المملكة العربية السعودية رئيسًا للجنة الثقافية للجامعة العربية التي عقدت دورتها التاسعة في جدة – وذلك على رأس كوكبة من المثقفين والأدباء العرب – وكان يصحبه في هذه الرحلة صديقه العلامة الشيخ أمين الخولي [١٣١٣ – ١٣٨٥ هـ = ١٨٩٥ – ١٩٦٦م]، وفي خطابه بالمؤتمر تحدث عن مهبط الوحي ومشرق الإسلام، فقال: «سادتي .. لقد سبق لي أن عشت بفكري وقلبي في هذه الأماكن المقدسة زهاء عشرين عامًا، منذ بدأت أكتب على هامش السيرة حتى الآن .. ولما زرت مكة والمدينة، أحسست أني أعيش بفكري وقلبي وجسدي جميعًا، عشت بعقلي الباطن وعقلي الواعي، استعدت كل ذكرياتي القديمة، ومنها ما هو من صميم التاريخ، ومنها ما هو من صميم العقيدة . وكانت الذكريات تختلط بواقعي فتبدو حقائق حينًا، ورموزا حينًا، وكان الشعور بها يغمرني، ويملأ جوانح نفسي.

والآن أريد أن أقول لكم الحق كل الحق الذي لا نصيب لسرف فيه من قريب أو بعيد: إن لكل مسلم وطنين، لا يستطيع أن يشك في ذلك شكا قويًا أو ضعيفًا، وطنه الذي نشأ فيه، وهذا الوطن المقدس الذي أنشأ أمته وكوّن عقله وقلبه وذوقه وعواطفه جميعًا .. هذا الوطن المقدس الذي هداه إلى الهدى، والذي يسره للخير، والذي عرّفه نفسه، وجعله عضوا صالحا مصلحًا في هذا العالم الذي نعيش فيه.

أعترف – أيها السادة – بأني حين شرفني مجلس الجامعة العربية لاختياري مشاركًا في اللجنة الثقافية للجامعة، ترددت في قبول هذا الشرف: لأن فيه أعباء لا ينهض بها إلا أولو العزم، ولكني لم أكد أسمع أن الدورة ستنعقد في هذا الوطن الكريم العزيز، حتى أقبلت غير متردد ولا محجم، بل أقبلت يدفعني هذا الشوق الطبيعي الذي تمتلئ به قلوب المسلمين جميعًا، مهما تكن أوطانهم، ومهما تكن

أطوارهم .. فهذا الوطن العزيز الكريم وطن العروبة ووطن الإسلام، لهذا الوطن أقدمت على قبول هذا الشرف وأنا أستعين الله على أن يتيح لى أن أنهض بأعبائه، وهى أعباء ثقال لا شك فى ثقلها».

■ وبعد الفراغ من المؤتمر - فى جدة - ركب طه حسين وبصحبته الشيخ أمين الخولى - السيارة قاصدين البيت الحرام - بمكة المكرمة - لأداء العمرة .. وشهد مرافقوه - طوال الطريق - كيف كان الرجل متنقلاً بين تلاوة آيات من القرآن الكريم، وبين التلبية - لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .. لبيك» .. وكيف كان يقطع هذا الاستغراق الصوفى ليسأل عن المكان الذى تمر به السيارة أو تحاذيه، ليعيش ذكريات تاريخ الإسلام حتى إذا قالوا له إنهم بمحاذاة «الحديبية» - حيث نزل الرسول - ﷺ - وصحابته سنة ٦ هـ معتمرين - طلب طه حسين من السائق أن يتوقف، ثم ترجل وقبض من تراب الحديبية قبضة فشمها، ثم تمتم ودموعه تنساب على التراب، قائلاً: « والله إنى لأشم رائحة محمد - ﷺ - فى هذا التراب الطاهر» .. وعلى مدى نصف ساعة بذل مرافقوه جهدهم كله فى تهدئة روعه!! ثم واصل الركب سيره إلى مكة المكرمة حتى دخلوا الحرم من باب السلام، وطه حسين لا يكاد يخفى زلزلة إيمانه عن رفيقه .. فتوجها إلى الكعبة، فاستلم الحجر وقبله .. ولم يغادر مكانه، بل ظل يتنهد ويبكى ويقبل الحجر حتى وقفت مواكب المعتمرين انتظاراً لأن يغادر هذا الأديب الكبير المكفوف مكانه، ولكنه - كما يقول الشيخ أمين الخولى - أطال البكاء والتنهيد والتقبيل، ونسى نفسه، فتركه المعتمرون فى مكانه، وأجهشوا معه فى البكاء والتنهيد!!»[1]

هكذا كانت رحلة الدكتور طه حسين مع الإسلام والقرآن .. ومع رسول الإسلام - ﷺ - ومع روحانية الإيمان .. وكما يقولون فإن العبرة بالخواتيم .. ولقد صدق رسول الله إذ يقول: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار، فيدخلها .. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع،فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة، فيدخلها..» رواه البخارى ومسلم.

(١) مجلة الحج والعمرة - مكة المكرمة - حسين محمد بافقيه - المقال الافتتاحى - عددا ١ - ٢ - محرم وصفر - سنة ١٤٢٦هـ.

وإذا كان الدكتور طه حسين – فى أخريات حياته – لم يكن يسمع بمنزله إلا المصحف المرتل من إذاعة القرآن الكريم، فإن على دارسيه – من العلمانيين والإسلاميين – أن يكونوا أمناء مع حقائق هذا التطور الفكري، فلا يقفون عند مراحله الأولى، غافلين أو متغافلين عن التطورات التى صعد الرجل درجات سلمها، وصعدت به نحو الاحتضان الحميمي لكامل الإسلام .. فهذا المنهج المعيب فى دراسة العظماء والفلاسفة والمفكرين والعلماء، لو طبق على أغلب صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذين أقاموا الدين .. وبنوا الدولة .. وأسسوا للحضارة .. وأورثونا أعظم نعم الله – نعمة الإسلام – لوقفت الدراسة لهم عند مرحلة العبادة «للات» و«العزى» و«مناة» الثالثة الأخرى!!

وتلك كارثة فى الدراسة للمفكرين والأفكار، حرام أن يقع فيها ويجتمع عليها كثير من غلاة العلمانيين ونفر من الإسلاميين على السواء!

إن من يقول: «إن مهبط الوحى، هو الوطن المقدس، الذى أنشأ الأمة .. وكوّن العقل.. والقلب .. والذوق .. والعواطف جميعًا» لابد أن يُقرأ من جديد!

١٣٣ تهنئة بالعيد الدامى !!

إلى من نتوجه بالتهنئة فى هذا العيد:

■ الذى سبقه صيام لم تتوقف فيه آلة الحرب العالمية – الأمريكية الغربية – عن سفك الدماء الإسلامية، وإشاعة الدمار على أرض فلسطين وأفغانستان والعراق، وكشمير والشيشان!

■ عيد تطل فيه على شاشات «التلفاز» مواكب جنازات الشهداء على أرض عالم الإسلام، دون غيره من بقاع العالم الذى نعيش فيه!

■ عيد يشهد قتل وإحراق الأسرى المكبلين بالأغلال فى قلاع أفغانستان، أمام سمع وبصر وبتدبير وتنفيذ الذين وضعوا مواثيق واتفاقات «جنيف» وحقوق الإنسان!

■ عيد يمنع الحصار الصهيونى فيه المسلمين من الصلاة فى المسجد الأقصى .. ويمنع أبناء الشهداء وأمهاتهم وزوجاتهم من الخروج حتى لزيارة مقابر الشهداء!!

■ عيد يشهد تحالف الغرب «الإمبريالى – الصليبى» والعنصرية الصهيونية مع الروس الأرثوذكس، وبمباركة من الصين الكنفوشيوسية، والهند الهندوسية ضد الإسلام والمسلمين!

إلى من نتوجه بالتهنئة فى مثل هذا العيد؟!

■ إن أحق من نتوجه إليهم بالتهنئة فى هذا «العيد الدامى» هم أرواح الشهداء – الأحياء عند ربهم يرزقون – ومواكب الفداء والاستشهاد الساعين على طريق الجهاد، محققين قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وكذلك إلى قيادات وأعضاء منظمات المقاومة والفداء: حماس .. والجهاد .. وفتح .. وحزب الله .. والمجاهدين فى كشمير والشيشان والعراق .. والصومال.. وإلى روح الصمود والمقاومة فى الشعب الأفغانى الذى سيذيق أمريكا وحلفاءها، بإذن الله من الزقوم الذى أذاقه من قبل للإنجليز .. وللروس.

– كما نهنئ العلماء والمفكرين والدعاة والكتاب الذين يشيعون فى عقول الأمة ووجدانها الوعى بسن قوانين التدافع بين الحق والباطل عبر التاريخ .. والتى تزيح اليأس والقنوط، وأوهام الهزيمة النفسية، وذلك عندما تذكر بالذكرى التى تنفع المؤمنين .. تذكّر بأن القلة المؤمنة قد فتحت – فتح تحرير – فى ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون .. وأن المسلمين قد قهروا التتار الذين لم يغلبوا من قبل .. وطهروا أرض فلسطين من الكيانات الصليبية التى امتد عمرها أربعة أضعاف عمر الكيان الصهيونى .. وأن صلاح الدين الأيوبى قد حرر القدس بعد احتلال دام تسعين عاماً، تحول فيها المسجد الأقصى إلى إصطبل خيل وإلى كنيسة لاتينية .. وأن بونابرت قد فر من مصر بليل، وهو الذى حوّل الأزهر الشريف إلى إصطبل خيل .. فبقى الإسلام، وتحرر المسلمون، وذهب كل الغزاة إلى «مزبلة التاريخ» ! وأن الإمبراطوريات الأوربية الاستعمارية، التى لم تكن تغرب عنها الشمس – والتى تسعى أمريكا إلى وراثتها – قد هزمتها مقاومة الإسلام والمسلمين.

إلى هؤلاء جميعًا نتوجه بالتهنئة فى هذا العيد.

نتوجه بالتهنئة إلى أرواح الشهداء الأبرار .. وإلى منظمات الفداء والاستشهاد.. وإلى الكلمات الإسلامية الواعية المجاهدة بالكشف عن سنن التدافع بين الحق والباطل عبر التاريخ.

مع دعاء إلى الله، سبحانه وتعالى، أن يهيئ لأمتنا من أمرها رشدًا.. وأن يجعل يومها خيرًا من أمسها، وغدها أكثر إشراقًا وأخف قيودًا من يومها .. وأن يرزقنا شرف السعى على درب الشهادة والفداء.

ولنتذكر جيداً ودائمًا: أن اشتداد الضربات الموجهة إلى أمتنا هو الدليل على سريان روح اليقظة والمقاومة فى هذه الأمة .. وإلا فلو كنا جثة هامدة لما شدد أعداؤنا وسددوا إلينا كل هذه الضربات .. «فالضرب فى الميت حرام» كما يقولون!!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهـرس

صفحة

تـقـديـم ٣
١ – الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين ودور الكنائس المحلية فى التنصير ٧
٢ – لماذا دستور الأسرة المسلمة؟ ١٧
٣ – الأيديولوجيات فى خدمة المصالح ٢٦
٤ – علاقة المسلم بالآخر الدينى ٢٨
٥ – المباهلة ٣١
٦ – فى العدل مع الآخر الدينى ٣٤
٧ – وشهد شاهد من أهلها ٣٦
٨ – عقد الذمة ٣٨
٩ – الحكومات غير الشرعية والأقليات ٤١
١٠ – اللعب بورقة الأقليات (١) ٤٤
١١ – اللعب بورقة الأقليات (٢) ٤٧
١٢ – اللعب بورقة الأقليات (٣) ٥٠
١٣ – اللعب بورقة الأقليات (٤) ٥٢
١٤ – اللعب بورقة الأقليات (٥) ٥٥
١٥ – اللعب بورقة الأقليات (٦) ٥٨
١٦ – اللعب بورقة الأقليات (٧) ٦٢
١٧ – اللعب بورقة الأقليات (٨) ٦٥
١٨ – قانون الاحتكاك بين الحضارات ٦٩
١٩ – الوعى بالآخر شرط للوعى بالذات ٧٢
٢٠ – الوعى بالذات والواقع المحيط ٧٥
٢١ – الاهتمام بـ«بضاعة» الآخرين ٧٨
٢٢ – الوسطية الإسلامية (١) ٨١
٢٣ – الوسطية الإسلامية (٢) ٨٤
٢٤ – الوسطية الإسلامية (٣) ٨٦
٢٥ – وسطية التجديد والاجتهاد ٨٩
٢٦ – للإسلام عقلانية مؤمنة ٩٢

٢٧ – تكامل دوائر الانتماء: الوطنى .. والقومى .. والإسلامى ٩٥
٢٨ – فلسفة السياسة بين الغرب والإسلام ٩٧
٢٩ – السياسة والدولة من الفروع ٩٩
٣٠ – الإسلام والسياسة (١) ١٠١
٣١ – الإسلام والسياسة (٢) ١٠٤
٣٢ – الإسلام والسياسة (٣) ١٠٨
٣٣ – الإسلام والسياسة (٤) ١١٢
٣٤ – الإسلام والسياسة (٥) ١١٥
٣٥ – الإسلام والسياسة (٦) ١١٨
٣٦ – كيفما تكونوا يُولَّ عليكم ١٢٠
٣٧ – المساجد والسياسة ١٢٣
٣٨ – قانون التنوع والاختلاف ١٢٦
٣٩ – واحدية الحق .. وتعددية الخَلْق ١٢٩
٤٠ – الإسلام والتعددية (١) ١٣٢
٤١ – الإسلام والتعددية (٢) ١٣٤
٤٢ – عن الشريعة الإسلامية ١٤٠
٤٣ – الشريعة الإسلامية والتحرر من الاستعمار ١٤٣
٤٤ – وحدة الأمة الإسلامية (١) ١٤٦
٤٥ – وحدة الأمة الإسلامية (٢) ١٤٨
٤٦ – وحدة الأمة الإسلامية (٣) ١٥٠
٤٧ – وحدة الأمة الإسلامية (٤) ١٥٣
٤٨ – وحدة الأمة الإسلامية (٥) ١٥٦
٤٩ – إنسانية الحضارة الإسلامية ١٦٠
٥٠ – طبيعة الاجتهاد الإسلامى الحديث ١٦٤
٥١ – فى النموذج الثقافى ١٦٨
٥٢ – النموذج الثقافى .. ماذا يعنى؟ ١٧٠
٥٣ – من أين تأتى معارف الإنسان؟ ١٧٣
٥٤ – علاقة المعارف بالإسلام ١٧٦
٥٥ – الإسلام وفلسفة العلوم ١٧٨
٥٦ – عن إسلامية المعارف والعلوم (١) ١٨١

٥٧ - عن إسلامية المعارف والعلوم (٢) ١٨٤
٥٨ - عن إسلامية المعارف والعلوم (٣) ١٨٧
٥٩ - الاختلاف حول المرجعية الحضارية ١٩٠
٦٠ - المنهاج العلمي فى القرآن الكريم ١٩٣
٦١ - المنهاج النصوصي ١٩٦
٦٢ - التوحيد الإسلامي ١٩٩
٦٣ - الخلافة والاستخلاف ٢٠٢
٦٤ - دعوى تاريخية أحكام القرآن الكريم ٢٠٥
٦٥ - فى التزوير الفكري! ٢٠٨
٦٦ - جدل الإيجابيات والسلبيات فى التاريخ ٢١٠
٦٧ - الرأسمالية ليست نهاية التاريخ ٢١٣
٦٨ - النهوض بالمرأة .. ووسطية الإسلام ٢١٦
٦٩ - شبهات حول مكانة المرأة فى الإسلام ٢١٨
٧٠ - ميراث المرأة وتحريرها ٢٢١
٧١ - عن الجهاد والقتال والإرهاب ٢٢٤
٧٢ - أخلاقيات القتال ٢٢٦
٧٣ - من آداب القتال فى الإسلام ٢٣٠
٧٤ - الجهاد فى سبيل الله (١) ٢٣٢
٧٥ - الجهاد فى سبيل الله (٢) ٢٣٤
٧٦ - الجهاد فى سبيل الله (٣) ٢٣٦
٧٧ - الجهاد فى سبيل الله (٤) ٢٣٩
٧٨ - عن الشهادة والاستشهاد (١) ٢٤١
٧٩ - عن الشهادة والاستشهاد (٢) ٢٤٣
٨٠ - عن الشهادة والاستشهاد (٣) ٢٤٦
٨١ - عن الشهادة والاستشهاد (٤) ٢٤٨
٨٢ - فى التدافع بين الحق والباطل ٢٥٠
٨٣ - صراع له تاريخ (١) ٢٥٣
٨٤ - صراع له تاريخ (٢) ٢٥٦
٨٥ - صراع له تاريخ (٣) ٢٥٩
٨٦ - صراع له تاريخ (٤) ٢٦١

٨٧ – صراع له تاريخ (٥) ٢٦٣
٨٨ – صراع له تاريخ (٦) ٢٦٦
٨٩ – جوهر الصراع العربي – الصهيوني ٢٦٨
٩٠ – البعد الديني في الصراع العربي – الصهيوني ٢٧١
٩١ – من الملاحدة إلى المؤمنين بالأساطير!! ٢٧٤
٩٢ – الحلف الإمبريالي – الصهيوني: تراجع أم صعود؟ ٢٧٧
٩٣ – معاملة الأسرى بين الغرب والإسلام........................ ٢٨٠
٩٤ – من هولاكو القديم إلى هولاكو الجديد ! ٢٨٢
٩٥ – النزعة الصليبية لكولمبس! ٢٨٥
٩٦ – من عبر التاريخ! ٢٨٨
٩٧ – ليسوا سواء ٢٩١
٩٨ – الإيمان العلماني المنقوص ! ٢٩٤
٩٩ – خالق فقط أم خالق ومدبر للوجود؟ ٢٩٧
١٠٠ – تيار التغريب (١) ٣٠٠
١٠١ – تيار التغريب (٢) ٣٠٣
١٠٢ – تيار التقليد للموروث ٣٠٥
١٠٣ – الأزهر في العصر العثماني ٣٠٧
١٠٤ – مصطلح «الشرق الأوسط» ٣١٠
١٠٥ – مصطلحات ومفاهيم ٣١٢
١٠٦ – عن العروبة والإسلام (١) ٣١٥
١٠٧ – عن العروبة والإسلام (٢) ٣١٨
١٠٨ – عن العروبة والإسلام (٣) ٣٢١
١٠٩ – عن العروبة والإسلام (٤) ٣٢٤
١١٠ – عن العروبة والإسلام (٥) ٣٢٧
١١١ – عن العروبة والإسلام (٦) ٣٣٠
١١٢ – عن العروبة والإسلام (٧) ٣٣٣
١١٣ – عن العروبة والإسلام (٨) ٣٣٦
١١٤ – عن العروبة والإسلام (٩) ٣٣٩
١١٥ – عن العروبة والإسلام (١٠) ٣٤٢
١١٦ – عن العروبة والإسلام (١١) ٣٤٥

١١٧ – عن العروبة والإسلام (١٢) ٣٤٨
١١٨ – فى المشروع الحضارى الإسلامى (١) ٣٥١
١١٩ – فى المشروع الحضارى الإسلامى (٢) ٣٥٤
١٢٠ – فى المشروع الحضارى الإسلامى (٣) ٣٥٧
١٢١ – فى المشروع الحضارى الإسلامى (٤) ٣٦٠
١٢٢ – فى المشروع الحضارى الإسلامى (٥) ٣٦٣
١٢٣ – الشيخ البشير الإبراهيمى (١) ٣٦٦
١٢٤ – الشيخ البشير الإبراهيمى (٢) ٣٦٨
١٢٥ – الشيخ البشير الإبراهيمى (٣) ٣٧٠
١٢٦ – الشيخ الغزالى: قلب تقىٌّ .. وعقل ذكىٌّ (١) ٣٧٤
١٢٧ – الشيخ الغزالى: قلب تقىٌّ .. وعقل ذكىٌّ (٢) ٣٧٦
١٢٨ – الشيخ الغزالى: قلب تقىٌّ .. وعقل ذكىٌّ (٣) ٣٧٩
١٢٩ – الشيخ الغزالى: قلب تقىٌّ .. وعقل ذكىٌّ (٤) ٣٨٢
١٣٠ – أمانة الشيخ الغزالى ٣٨٦
١٣١ – التطور الفكرى للدكتور طه حسين (١) ٣٨٩
١٣٢ – التطور الفكرى للدكتور طه حسين (٢) ٣٩٤
١٣٣ – تهنئة بالعيد الدامى !! ٤٠٠

الإسلام في مواجهة التحديات

• فى مواجهة التحديات انتصر الإسلام..

انتصر التوحيد على الشرك والوثنية والعنصرية وعبادة البشر من دون الله..

• وفى مواجهة القوى العظمى - الروم والفرس - الذين احتلوا الشرق وقهروه حضاريًا ودينيًا - عشرة قرون - انتصرت الفتوحات الإسلامية التى حررت الأرض..

وتركت الناس وما يدينون..

• وفى مواجهة التحديات الصليبية والتترية- التى دامت قرنين - قامت الفروسية الإسلامية، التى أعادت تحرير الشرق.. وأنقذت الحضارة من الدمار..

• وفى مواجهة التخلف، والغزوة الغربية الحديثة، قامت نهضتنا العربية الإسلامية، متسلحة بالإحياء الدينى.. والتجديد الفكرى.. وروح الجهاد ضد الغزاة..

• واليوم.. وشراسة التحديات قد كشفت عن الوجه الصليبى الكالح، الذى يريد العبث بمقدساتنا.. واحتلال أرضنا.. ونهب ثرواتنا .. وكسر شوكة عزتنا.. وتفجير التناقضات فى صفوفنا..

فى مواجهة هذه التحديات «الجديدة - القديمة» نحتاج إلى الكلمة الصادقة المجاهدة، التى تواجه هذا الطور الجديد من التحديات..

• وتلك هى الرسالة التى يصدر من أجلها هذا الكتاب.

الناشر

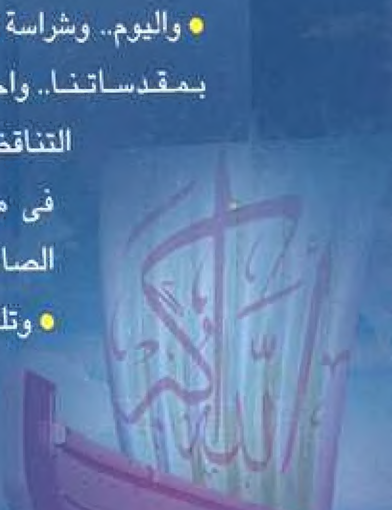

6 221133 330565

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع